Kalamoon
The Syrian Journal for Human sciences
Peer-reviewed periodical Journal

قلمون

المجلة السورية للعلوم الإنسانية

يصدرها مركز حرمون للدراسات المعاصرة بالتعاون مع الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية

العدد الثاني والعشرون- كانون الثاني/ يناير 2023

ملف العدد

السوريون والتحدّيات المعيشية

بعد 11 عامًا من الحرب والتمزق

January 2023

قلمون

المجلة السورية للعلوم الإنسانية

قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية

مجلة علمية محكّمة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر عن مركز حرمون للدراسات المعاصرة بالتعاون مع الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية، ولها رقم دولي معياري (ISSN:25481339). تُعنى المجلة بنشر الأبحاث والدراسات الفكرية والاجتماعية والسياسية ومراجعة الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وتستند "قلمون" إلى أخلاقيات البحث العلمي وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، كما تستند إلى لائحة داخلية تنظم عملية التحكيم.

تطمح "قلمون" إلى طرق أبواب جديدة عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا جديدة اعتمادًا على التجاوز والتخطي الدائمين. وتولي "قلمون" التفكر النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات والمقاربات المنهجية المختلفة لقضايا الفكر والواقع. تهتم المجلة ببناء حوار تجسيري بين المفكرين والباحثين السوريين والعرب، المعاصرين والسابقين.

الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية

Syrian Society for Social Sciences

الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية

هي جمعية علمية مستقلة غير ربحية، تهدف إلى النهوض بالعلوم الاجتماعية، والإسهام في تطوير المعرفة العلمية في سورية والبلدان العربية الأخرى، وتدعيم البحث وإنتاج المعرفة في مجال العلوم الاجتماعية المختلفة من خلال دعم الباحثين والبحث العلمي والأكاديمي، والإسهام في إنتاج الأبحاث في إطار العلوم الاجتماعية ونشرها، وترسيخ مبادئ السجال الفكري الحر حول التحديات المصيرية التي تواجه سورية، وبلدان المنطقة العربية. وتسعى أيضًا إلى تعزيز دور العلوم الاجتماعية المختلفة في الحياة العامة في سورية والمنطقة وفي رسم السياسات العامة فيها. ويركز أبرز أهدافها على "تنشيط العمل البحثي في الميادين الاجتماعية المختلفة، لفهم ما يجري من تغيرات حاصلة في بنية المجتمع السوري خلال الأزمة وديناميّاتها المحتملة"، و"تعزيز القدرة على فهم التحوّلات والقضايا التي تواجه المجتمع السوري".

أُسست الجمعية عام 2016 تحت شعار "الحرية الأكاديمية الكاملة للباحثين الاجتماعيين"، وشُكل مجلس إدارتها من: خضر زكريا، ساري حنفي، يوسف بريك، ريمون معلولي، حسام السعد، كرم النشار.

مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
Harmoon Center
For Contemporary Studies

الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية
Syrian Society for Social Sciences

قلمون
المجلة السورية للعلوم الإنسانية

قلمون
المجلة السورية للعلوم الإنسانية

فصلية محكمة يصدرها مركز حرمون للدراسات المعاصرة بالتعاون مع الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية
العدد الثاني والعشرون- كانون الثاني/ January 2023

لا تعبّر آراء الكتّاب بالضرورة عن اتجاهات يتبناها "مركز حرمون للدراسات المعاصرة"
أو "قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية" أو "الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية"

KALAMOON
THE SYRIAN JOURNAL FOR HUMAN SCIENCES
PEER-REVIEWED PERIODICAL JOURNAL

مدير مركز حرمون للدراسات المعاصرة
سمير سعيفان

رئيس التحرير
يوسف سلامة

سكرتير التحرير
سماح حكواتي

أعضاء هيئة التحرير

أحمد جاسم الحسين
إليزابيث سوزان كساب
رشيد الحاج صالح
رهف الدغلي
ساري حنفي
سلاف علوش
عبد الباسط سيدا
محمد نور النمر

رئيس الهيئة الاستشارية
خضر زكريا

أعضاء الهيئة الاستشارية

أحمد برقاوي
بدر الدين عرودكي
جاد الكريم الجباعي
خطار أبو دياب
ريمون معلولي
عزيز العظمة
غسان مرتضى
هدى الزين
يوسف بريك

الإشراف اللغوي
سلاف علوش وسماح حكواتي

الإخراج وتصميم الغلاف
باسل الحافظ

الناشر

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER FOR CONTEMPORARY STUDIES

هاتف
الدوحة، قطر: +974 44 885 996
إسطنبول، تركيا: +90 212 524 0404

صندوق البريد:
PTT P.K 57 إسطنبول، تركيا

البريد الإلكتروني: info@harmoon.org
الموقع الإلكتروني: www.harmoon.org

جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
على البريد الإلكتروني الآتي:
kalamoon@harmoon.org

Kalamoon dergisi
ISSN: 25481339

ISSN 25481339
9 770254 813398

© جميع الحقوق محفوظة لمركز حرمون للدراسات المعاصرة

كانون الثاني/ يناير 2023

المحتويات

أولًا: كلمة العدد 5

كلمة العدد — يوسف سلامة 7

ثانيًا: ملف العدد 11

السوريون والتحدّيات المعيشية بعد 11 عامًا من الحرب والتمزق 11

على حافة المجاعة: الغذاء زمن الحصار في سورية وتجربة التأقلم — عمار السمر 13

أثر غياب سيادة القانون في انتشار الفقر في سورية — خالد العكيدي 39

أدوات النظام المتنوعة في حروبه على السوريين في مناطق سيطرته — بسام سفر 57

سياسات التقنين وانعكاساتها على السوريين — شوكت غرزالدين 73

الدور الاجتماعي للتحويلات المالية من اللاجئين السوريين إلى النازحين — عبد الناصر الجاسم 91

شح الطاقة وتأثير ذلك في الأحوال المعيشية في سورية بعد ربيع 2011 — آرام الحكيم 103

مزدوجة تدهور الواقع الصحي مع انهيار المستوى المعيشي في سورية — وجيه حداد 123

ثالثًا: الدراسات 139

التحديات الجديدة التي تواجه الأخلاق الإسلامية — إغناتسيو دي فرانشيسكو 141

واقع الصحافة السورية المستقلة في المرحلة 2000 - 2010 — ماريانا الطباع 157

الأرشفة والتّوثيق خلال الثّورة السوريّة بين الجهد الفردي والمؤسسي — لبابة الهواري 173

الكيانات السياسية في سوريا خلال القرن الرابع عشر ق.م — فاروق إسماعيل 195

الاقتصاد السياسي لمشروع التطوير العقاري في حي الحيدرية بحلب — مسلم عبد طالاس 215

رابعًا: مراجعات الكتب 229

أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية — فدوى العبود 231

المجتمع الصحراوي من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة — محمد المخلوفي 239

خامسًا: الأكاديميون السوريون في جامعات العالم 249

سؤال السرد السوري وعلاقته بالحدث السياسي بين عامي 2000 و 2020 ميسون شقير 251

أولًا: كلمة العدد

كلمة العدد

يوسف سلامة[1]

في اللحظات الأخيرة من العمل على إنجاز هذا العدد من (قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية) – الذي يتمحور الملف الرئيس فيه حول (التحديات المعيشية) التي يفرضها النظام السوري على أهلنا في مناطق سيطرته – ملحقًا بهم أشكالًا لا حصر لها من الإذلال والإفقار وانتهاك الحقوق من دون رادع أو وازع، فوجئ الجميع بالزلزال المدمر، ولم نلبث إلا قليلًا حتى استفقنا على كارثة إنسانية أضخم مما يذهب إليه الخيال للوهلة الأولى. فلقد شملت هذه الكارثة مساحات واسعة من الأراضي الواقعة تحت سيطرة النظام، وتلك الخاضعة لسلطات الأمر الواقع في الشمال الغربي من سورية، مثلما شملت الأراضي الواقعة جنوبي تركيا.

وما أن يسترد العقل قدرته على التفكير والتأمل، حتى يكون أول ما يفكر فيه (الوعي السوري) التساؤل المتشكك عن موقف النظام السوري من هذه الأزمة الوطنية. وسرعان ما يكتشف المرء حقائق نمطية قديمة تؤطر سلوك النظام الذي يتجاهل آلام السوريين جميعهم باسم (السيادة الوطنية) التي يدعي تمثيلها، ويبني على هذا الوهم حقه في أن يكون الجهة الوحيدة المخولة بتسلم المساعدات، وأن تمرعبر المنافذ التي يديرها ويريدها حصرًا. وليس من معنى لهذا كله إلا تسليم المساعدات لشبيحته ووكلائه الجدد. وسيسير النظام في هذا الطريق إلى نهايته، حتى لو أدى ذلك به إلى ترك ملايين السوريين يجوبون المناطق المدمرة هائمين على وجوههم بغير دفء ولا غذاء.

ومما يؤسف له حقًا أن تكون (هيئة الأمم المتحدة) منحازة إلى النظام السوري، عندما اعتمدت على موافقة هذا النظام حصرًا لفتح معبرين تركيين أمام قوافل المساعدات المتجهة لإغاثة السوريين في الشمال الغربي، ولمدة محدودة هي ثلاثة أشهر. بهذا تكون الأمم المتحدة قد تجاهلت حق الشعب السوري – وإن بصورة ضمنية – في تقرير مصيره أسوة بشعوب الأرض كافة، وتجاهلت أيضًا رفض النظام الامتثال لسلسة من القرارات التي اتُخذت في رحابها لمصلحة الشعب السوري. ويبدو أن ما جرى في دهاليز السياسة الدولية يدل على تغير في اصطفافات الأصدقاء والأشقاء، فكان من نتيجة ذلك أن رجحت موازين النظام على موازين شعب ثائر في طلب حريته وكرامته. وما جرى، في أي حال، هو ما نعلمه من أمر السياسة واقترانها بالمصالح المباشرة وغير المباشرة، إذ لا يدوم العداء، ولا تدوم الصداقة. ما يدوم المصالح المتغيرة، ولا دوام لأي شيء غيرها.

وفي ظل الأوضاع المستجدة الناجمة عن كارثة الزلزال، والتبدل في المواقف السياسية، ينتقل السوريون اليوم عن غير إرادة منهم من مواجهة ما ألفوه من تحديات عبر نصف قرن من الزمن إلى مواجهة تحديات تتعلق هذه المرة (بالوجود ذاته)، وجود السوريين بأشخاصهم، ووجود سورية ذاتها من حيث هي وطن، لم يزل يتعين عليهم صناعته جديدًا، ولكن ليس على أي منوال سبق.

(1) رئيس تحرير مجلة قلمون.

وإذا ما عدنا إلى الحديث عن (التحديات المعيشية) التي يواجهها السوريون، فمن واجبنا أن نبين أول ما نبين أن المنظمات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة أو المستقلة عنها، لا تكف في تقاريرها حول الفقر والجوع في العالم عن إيراد إحصاءات وتوقعات – يمكن وصفها بأنها دقيقة – تتعلق بأعداد الجوعى والفقراء، وتتنبأ، فوق ذلك، بالأعداد الإضافية من البشر الذين يحتمل انضمامهم في الأعوام المقبلة إلى جحافل الفقراء الذين يتعين على المجتمع الدولي توفير الموازنات اللازمة لسد الحد الأدنى من احتياجاتهم.

وعلى الرغم من أهمية ما تقوم به هذه المنظمات في حالات الطوارئ، فإنها تتجنب طرح الأسئلة الجوهرية والحيوية المتسببة بظاهرة الفقر وما يقترن به من جوع، مكتفية بردها إلى بعض الظواهر المناخية من مثل الجفاف والتصحر وانحباس الأمطار لمواسم متعددة ومتتالية، أو انعدام الاستقرار السياسي، وما يفضي إليه من حروب أهلية، ينجم عنها موت البشر ونفوق الحيوان وإتلاف المحصولات.

وبخلاف ما تذهب إليه هذه المنظمات، تبين الوقائع أن العوامل السياسية والمصالح الاقتصادية هي القوى المتسببة بالتبدلات المناخية والحروب الأهلية. وما يستنتج من ذلك أن المتسبب في المجاعة والفقر كليهما هو من يطلق الانبعاثات الكربونية التي قامت عليها الثورة الصناعية الأولى منذ ثلاث مئة عام. وعليه فليس من الصعب، في ضوء ذلك على الأسباب التي تؤدي إلى تفجر (الحروب الأهلية) التي يصعب على الأطراف القوية في ظل الاستقرار السياسي الحصول على أهم المعادن التي تستند إليها الثورة الصناعية الجديدة، بأرخص الاسعار والأثمان. والحاصل من ذلك كله أن كل مجاعة – حيث ما وقعت – وراءها سياسة أو سياسات ليس من السهل فك الارتباط الوثيق بين عناصرها السياسية والاقتصادية، وترجمة هذه السياسات في آخر الأمر إلى سياسات اقتصادية أو ثقافية أو دبلوماسية، إلى غير ذلك من أدوات الحكم والسيطرة. والاستنتاج النهائي من ذلك كله أنه ثمة إفقار، وليس فقرًا وتجويعًا، وليس جوعًا.

ولم نسق الاعتبارات السابقة إلا لنبين أن (التحديات المعيشية التي يفرضها النظام على السوريين) – وهو موضوع الملف في هذا العدد – ما هي إلا ثمرة لسياسات التجويع الممنهج التي بدأ النظام تطبيقها منذ وقت باكر عبر سلسلة من الإجراءات الاقتصادية المتتالية والسياسية التي استهدفت، بمجموعها تحقيق غاية سياسية هي (إفقار) أغلبية السوريين بطريقة ممنهجة، وتركيز (الثروة الوطنية) في أيدي عصابة النظام، ولا أقول طائفته. فمن شأن الإخلال بتوزيع الثروة في المجتمع الإخلال أيضًا بتوزيع (القوة بين شرائحه)، أي (السلطة)، والسلطة السياسية أولًا وقبل كل شيء.

وقد كان لتأسيس (صندوق الثروة العائلي) بقيادة (آل مخلوف)، واحتجاز الجانب الأكبر من الثروة الوطنية فيه، مضافًا إلى ذلك احتجاز الجزء الأعظم من عائدات (النفط الوطني) في هذه المحفظة المالية؛ أكبر الأثر في إفقار السوريين، الأمر الذي جعل من الممكن ظهور الشعار البغيض الذي رفعته حواجز النظام منذ الأيام الأولى للثورة السورية، وهو (الركوع أو الجوع). وقد مارس النظام هذه السياسة بصورة عنيفة جدًا على كثير من المناطق التي خرجت عن سيطرته، بالتنسيق الوثيق والمحكم مع (حزب الله) الذي لا يتحرك إلا بموجب (القرار السياسي الإيراني) بين عامي 2015 و2018. ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون النظام قد أعلن انتصاره في عام 2018، وكُرر هذا الإعلان مرارًا، فإن النظام اليوم، في ما يبدو، لا يستشعر الثقة بالأمن واستقرار أركانه. ولعل هذا ما يدفع به إلى سياسة (البطون الخاوية)، استكمالًا لسياسة الأرض المحروقة.

و(سياسة البطون الخاوية) هذه مزيج من سياسات الندرة: ندرة الطاقة، الكهرباء، الغذاء، الماء، الدواء، مصحوبة بسياسات (مالية مدمرة) للعملة السورية، ومدخرات المواطنين، ومرتباتهم التي لم تعد تسد احتياجات الأسرة السورية إلا لمدة يمكن حسابها بالساعات لا بالأيام.

ومهما تعلل النظام ومن يواليه، بأن سوء الحال راجع إلى العقوبات، فالجواب هو أن نظام العقوبات يستثني الدواء والغذاء. وقد يتعلل آخرون بأن الحكومة مفلسة، والإجابة هي أن النظام يتربح مليارات الدولارات من صناعة المخدرات والإتجار بها. ويبدو أن القرار (السياسي الإيراني) له الكلمة الأولى والأخيرة في دول (الهلال الشيعي) أو في ما يسمى (محور المقاومة والممانعة). وتكفي نظرة عجلى على الأوضاع المعيشية للشعوب الخاضعة للقرار السياسي الإيراني، لنتبين أنها تحيا دومًا على حافة المجاعة. والظاهرة المحيرة، في هذا المضمار حالة (العراق)، أحد كبار المنتجين للنفط، ومع ذلك لا تكف عملته عن الانهيار المستمر، وما يقترن بذلك من تهاوي أعداد متزايدة من العراقيين إلى مستويات من الفقر غير مسبوقة، ما يدفع أفواجًا من المواطنين إلى الالتحاق بالميلشيات الطائفية، ليجدوا أنفسهم في أماكن لم يعرفوها، ولم يألفوها، يقاتلون إخوتهم وأبناء عمومتهم الأقربين.

والخلاصة الجوهرية التي نود إبرازها هي أن (الفكرة الموجهة) التي أُعِدَّ ملف هذا العدد في ضوئها هي أن (المجاعة تجويع)، وأن (التجويع) ذاته هو معلول لقرار سياسي مباشر أو غير مباشر، تتخذه جهة ذات مصلحة في إخضاع مساحة من الكوكب لهيمنتها. وفي الحالة السورية قرار يلجأ إليه النظام خشية أن تكون (سياسة الأرض المحروقة)، المستخدمة سابقًا، لم تعد كافية لردع صور المقاومة الجديدة التي بدأت بوادرها بالظهور في الساحل السوري عبر الاجتماعات والاعتصامات الأسبوعية، وفي السويداء عبر حركة (بدنا نعيش).

وكنا نأمل أن يغطي الملف مساحات أوسع من معاناة السوريين في الداخل. غير أن الصعوبات التي واجهتنا وواجهت الباحثين كانت ضخمة إلى حد جعل طموحنا لا يتجاوز المدى الذي أمكن الوصول إليه.

وفي مقدمة الصعوبات والعقبات التي واجهت العمل في هذا الملف ما يعانيه أهلنا في الداخل من تحديات أمنية. غير أن التحديات المنهجية أيضًا لم تكن مما يمكن مواجهته بسهولة أبدًا. فقد اضطررنا بسبب غياب البيانات والإحصاءات إلى اختيار المنهج الكيفي أو النوعي أداة منهجية لجمع المعلومات والبيانات وإعداد البحوث بصفة عامة. ومع ذلك اصطدمنا بصعوبات كثيرة جعلت هذا الأمر خارج المنال في بعض الأوقات. لذا جاءت بعض البحوث مستندة إلى المنهج الكيفي تمامًا، بينما استندت بحوث أخرى، في تصميمها وتنفيذها إلى (مركب منهجي) جمع بين المنهج الكيفي ومناهج أخرى. وبذلك فقط أمكن للبحوث أن تكون وفية لأهدافها وأغراضها، وأن تكون النتائج في هذا الملف متسمة بالدقة والانضباط.

وإذا كان ثمة من ينبغي توجيه الشكر إليهم، فهم الباحثون، الذين بذلوا أعظم الجهد في سبيل الحصول على البيانات والمعلومات الضرورية لإعداد بحوثهم أولًا، وثانيًا لأنهم أظهروا قدرًا من الصبر والتعاون، غير مسبوق، مع هيئة تحرير المجلة حتى بلغت البحوث نقطة النهاية المطلوبة.

ومن الإنصاف أيضًا توجيه الشكر للسيدة (سماح حكواتي) سكرتيرة تحرير المجلة على ما بذلته من جهد متميز في إعداد النصوص للنشر في أفضل حلة ممكنة. وما كان لهذه الحلة أن تكتمل إلا بما أضفاه عليها مدير القسم الفني في مركز حرمون الزميل (باسل الحافظ) من لمساته الجمالية في إخراج هذا العدد من قلمون.

ثانيًا: ملف العدد

السوريون والتحدّيات المعيشية بعد 11 عامًا من الحرب والتمزق

على حافة المجاعة: الغذاء زمن الحصار في سورية وتجربة التأقلم

حالة حصار الغوطة الشرقية 2013-2018

عمار السمر[1]

أولًا: المقدمة

عاش سكان غوطة دمشق الشرقية مثل كثير من المناطق السورية (حمص، مخيم اليرموك وغيرها) تجربة حصار مريرة في سياق حرب نظام الأسد على الشعب السوري بعد اندلاع الثورة السورية 2011، حين استخدم النظام الحصار والتجويع سلاحين لتركيع السوريين، فكانت أيامًا عصيبةً حفرت عميقًا في أجساد أهالي تلك المناطق، ونفوسهم، وتركت أثرًا لا يمحى.

من المعروف أنه في أوقات الحروب تتأثر مناحي الحياة جميعها، وأولها الغذاء وعاداته، فكيف إذا ما أُستخدم الغذاء سلاحًا. ففي حين كانت الأمم المتحدة والمنظمات الإنسانية تؤكدان وجود أزمة غذائية في عموم سورية، وعجز ملايين السوريين عن تأمين غذائهم، فرض نظام الأسد حصارًا خانقًا على عدد من المناطق السورية، ومنها الغوطة الشرقية التي استمر حصارها خمس سنوات، ما جعله من أطول الحصارات في العصر الحديث متجاوزًا حصار مدينة لينغراد السوفياتية في الحرب العالمية الثانية، وحصار مدينة سراييغو من قِبل الصرب. وتفاقمت آثار الحصار وتبعاته مع استمرار القصف والهجمات العسكرية.[2]

ومما زاد من تبعات الحصار أنه شمل مستلزمات الحياة جميعها بما فيها شبكات المياه والكهرباء والاتصالات والصحة ...إلخ. وعلى الرغم من ذلك ظهرت في الغوطة تجربة فريدة للتأقلم مع الحصار، والتقليل من آثاره، تجربة أسهم فيها الأهالي والمنظمات الإنسانية والخيرية، إضافة إلى الإدارة المدنية والقوى العسكرية المعارضة. ولكن على الرغم من ذلك استمرت المعاناة لأن النظام وحلفاءه استخدما الحصار والتجويع والهجمات العسكرية سياسة ممنهجة لإعادة سيطرتهم على المناطق الثائرة، ودفعها للاستسلام، فاستهدفا المدنيين والبنى التحتية استهدافًا مباشرًا، ما صعب عمليات التأقلم وإيجاد الحلول. وبينما كان سكان المناطق المحاصرة يعيشون في مجاعة غير معلنة تحت القصف بما فيه الأسلحة الكيماوية، اكتفى العالم بمشاهدة المأساة، والإدانة اللفظية، واكتفت الأمم المتحدة بإصدار التقارير والتحذير، بينما وقع الحمل الأكبر في الاستجابة على المنظمات الأهلية.

(1) عمار السمر: دكتوراه في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، أكاديمي وباحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، وخاصةً سورية والعراق، عمل سابقًا في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وأستاذًا في جامعتي الفرات ودمشق، وفي المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (IFPO) في دمشق وبيروت. عضو هيئة تدريسية في (جامعة باموكالي) في تركيا حتى عام 2022. مشارك في برنامج كارا سوريا للأكاديميين، وشارك في عدد من المؤتمرات والمشروعات العلمية. له كتاب، وعدد من الأبحاث والدراسات المنشورة، آخرها (حالة العقارات وحقوق الملكية في الرقة).

(2) تعرف ويكيبيديا حصار الغوطة الشرقية بأنه واحد من أطول عمليات الحصار الحديثة في التاريخ. ويكيبيديا، https://2u.pw/mYOA4W .

لقد أثرت الأزمة الغذائية في الأهالي وفي أطفالهم بدنيًا ونفسيًا، وغيرت من عاداتهم الغذائية والاجتماعية، وأظهرت كثير من الشهادات والفيديوهات قصصًا تكسر القلب لأطفال جائعين يأكلون من القمامة، وآباء وأمهات يبكون لعجزهم عن إسكات جوع أطفالهم، بينما مواطنوهم في العاصمة القريبة يعيشون حياتهم الطبيعية.

والغوطة الشرقية الملاصقة لدمشق مساحتها حوالى 110كم²، وتضم عشرات البلدات والقرى، أهمها: دوما وحرستا وعربين وسقبا وحمورية وزملكا والمليحة وعقربا وحزّة وكفر بطنا، وبعضها مدن كبيرة من مثل دوما. وقد قُدِر عدد سكان الغوطة مع بداية الثورة بـ2,200,000، وانخفض العدد إلى حوالى 400,000 نسمة خلال زمن الحصار (2013 - 2018).[3]

ستحاول هذه الدراسة معالجة مشكلة الأحوال المعيشية المتعلقة بالغذاء في الغوطة الشرقية خلال زمن الحصار، والآثار البدنية والنفسية والاجتماعية التي خلفها نقص الغذاء في المحاصَرين، وستستعرض رد الفعل، وتجربة التأقلم، وكيفية تدبير المحاصرين أمورهم. وكيفية تأثير نقص الغذاء في عاداتهم الغذائية وتقاليدهم الاجتماعية، مبينة الجهات المسؤولة عن الحصار والتجويع.

منهجيًا؛ للوصول إلى معالجة عميقة للمشكلة، تمَّ اتباع مناهج مختلطة، تتضمن الوصفي والمقارن والتحليلي، وذلك عن طريق الاستقصاء عن المعلومات من مصادرها الأصلية، أي ممن عايشوا الحصار، ومقارنة شهاداتهم بعضها ببعض، ومقاطعتها مع الدراسات السابقة والتقارير الدولية، مع عدّ الغوطة الشرقية دراسة حالة تمثل باقي المناطق السورية التي تعرضت للحصار وللتجويع. ومن أجل إنجاز الدراسة، تمَّ الاعتماد على عدد من الدراسات والتقارير السابقة، فقد حظي استخدام الحصار والتجويع سلاحين في سورية باهتمام المؤسسات الدولية والإنسانية والبحثية، فصارت تراقب ما يجري، وتصدر تقارير تبين تداعيات الحصار على السكان المدنيين. وتعد التقارير الدورية[4] التي أصدرها مشروع Siege Watch[5] (مراقبة الحصار) بين (2015-2018) من أهم ما تمَّ أعداده، فقد زودت المجتمع الدولي بمعلومات موثقة عن المناطق المحاصرة في سورية، وكان تقريرهم الأخير صادمًا بعنوانه (بعيدًا عن الأنظار، بعيدًا عن الأذهان[6]، تداعيات حصار سوريا) الذي يشرح ما خلفته خمس سنوات من حصار قوات الأسد للغوطة والنهاية المفجعة بالاستيلاء عليها بعد أن أنهكها الحصار والتجويع.

وإضافة إلى الدراسات السابقة شكلت المقابلات الشخصية مادةً أساسًا للدراسة، لأنها قدمت صورة أكثر دقةً وعمقًا عما كان يجري، وتعرفنا من خلالها إلى تفاصيل لم تذكرها الدراسات السابقة، وشملت عددًا ممن عاشوا الحصار في الغوطة، وكانوا على اطلاع على ما يجري، وفي مواقع صنع القرار، إضافة إلى كونهم أصحاب عائلات، منهم عاملون في إدارة المعارضة (التعليم، الصحة، المجالس المحلية)، وعاملون في جمعيات خيرية ومنظمات إنسانية، إضافة إلى أطباء عاديين ونفسيين. وقد وُضعت أسماء رمزية لمعظمهم بناءً على رغبتهم، حمايةً لأنفسهم

(3) د.م، "الغوطة الشرقية.. منطقة سورية تتعرض للإبادة"، الجزيرة نت، https://2u.pw/Q0r04z كذلك؛

w.r, "Syria: UN urges an end to hostilities, warns of grave and deepening humanitarian crisis", UN News,6-2-2018 , https://2u.pw/kY45Lh

(4) يمكن الوصول إلى تقارير المشروع جميعها عبر الرابط: https://2u.pw/bYw2Re .

(5) المشروع مبادرة من (منظمة السلام PAX) الهولندية بالشراكة مع معهد سوريا في واشنطن.

(6) "Siege Watch: Final Report Out of Sight, Out of Mind: The Aftermath of Syria's Sieges", PAX and The Syria Institute, ,)2018(https://2u.pw/hKrdiB

وأقربائهم.

ثانيًا: الحصار؛ الجوع أو الركوع

(الجوع أو الركوع) شعار رفعته قوات الأسد وخطته على الحواجز العسكرية[7] المنتشرة على الطرقات المؤدية إلى المناطق التي خرجت من تحت سيطرتها قبل إطباق الحصار عليها، ليتبين أنه لم يكن محض شعار بل سياسة ممنهجة طبقت بوحشية في السنوات اللاحقات. والحقيقة أنه لم يكن جوعًا بل تجويعًا، أُستخدم سلاحًا، عرفه بعضهم بأنه (أرخص سلاح للدمار الشامل متاح للجيوش) لأنه رخيص وسهل.[8]

حصار الغوطة الشرقية الذي بدأ بدايات عام 2013 مر بمراحل عدة، تتوافق مع سير المعارك في الغوطة[9]، وعلى مجمل الجغرافية السورية، وقد تأثر بالتدخل الخارجي الذي كان له دور أساس في مجمل التطورات في سورية. ولتسهيل الدراسة يمكننا تقسيمة نظريًا إلى خمس مراحل كبرى:

1. المرحلة الأولى: بدأت عام 2012 بعد سيطرة فصائل المعارضة السورية على الغوطة، فبدأ النظام بالتضييق شيئًا فشيئًا على المنطقة، والحد من حركة أهلها الذين أساسًا كانوا يخشون الخروج منها خشية الاعتقال. وفي أواخر 2012 أغلق النظام معابر الغوطة الشرقية كلها إلا من طرف بلدة المليحة ومخيم الوافدين القريب من مدينة دوما. وفي بداية 2013 بدأ بالتضييق على معبر المخيم والمليحة، لكنه استمر حتى صيف 2013 بالسماح بدخول الأشخاص إليهما، وخروجهم منهما، وخاصةً الموظفين الرسميين لقبض رواتبهم مع السماح لهم بإدخال بعض المواد الغذائية للاستعمال الشخصي فقط، وتلا ذلك منع دخول السيارات، وخروجها. ثم أغلق النظام معبر المليحة، ومنع دخول أي مواد إلى الغوطة مع السماح بإخراج المواد منها فقط، فكان يُخرَج الحليب والأبقار الحية بصورة خاصة[10]، وحينئذ أخرج كثير من رؤوس الأبقار.[11] فعلى ما يبدو كانت خطة مدروسة لإفراغ الغوطة من مقومات الحياة والثروة الحيوانية قبل إطباق الحصار.

2. المرحلة الثانية: استمرت من منتصف 2013 وحتى 2015، وتزامنت مع تنامي الدعم الإيراني لنظام الأسد.[12] وعمد فيها النظام إلى الإغلاق الكامل للغوطة حتى جاع أهلها. فقد أغلق النظام معبر المليحة بعد استيلاء قواته مع حزب الله على البلدة في آب/ أغسطس 2014. وسُمح للنساء والأطفال فرادى بالخروج تحت الخطر

(7) منها (حاجز الملاهي) عند مدخل بلدة المليحة، الذي كان أحد معبرين سمحت قوات النظام لأهالي الغوطة بالانتقال عبرهما إلى العاصمة قبل إطباق الحصار عليها عام 2013. وفي أحد الأيام ومن دون سابق إنذار، بدأ الحاجز بمصادرة ربطات الخبز من العائدين من دمشق حتى صارت تلة من الخبز قرب الحاجز، وكانت الأفران متوقفة. مشاهدة شخصية بدايات 2013. (الباحث)

(8) ماثيو هولينجورث وآخرون، النزاعات والجوع: نظرة على الماضي وأخرى على المستقبل، موقع برنامج الغذاء العالمي، (2020)، https://2u.pw/2WNTWI

(9) "خريطة تفاعلية توضح التغيرات العسكرية والسيطرة في الغوطة ما بين (2013-2018)"، صحيفة عنب بلدي، (17-4-2018)، على الرابط التالي: https://2u.pw/4q7KzJ

(10) بعد إغلاق النظام الغوطة المورد الرئيس للحليب في دمشق، ارتفعت أسعاره كثيرًا، فكان هذا غالبًا سببًا إضافيًا للسماح بإخراج الحليب لتخفيف الأسعار. حتى إن بعض الناس في دمشق اتهموا ثوار الغوطة بمنع وصول الحليب وارتفاع أسعاره. (الباحث)

(11) عمار السمر، "مقابلة مع أبو آدم"، (عبر واتساب)، (16-12-2022). وأبو آدم عامل سابق في منظمة إغاثية عاملة في الغوطة الشرقية خلال فترة الحصار، حتى خروجه عائلته مع قوافل المهجرين قسريًا إلى الشمال السوري عام 2018.

(12) -Siege Watch Final Report, p19.

عبر معبر المخيم لشراء بعض المواد الغذائية من المخيم حصرًا. وظهرت في هذه المدة بسطات المواد الغذائية في الشوارع، وكانت أسعارها مرتفعة.[13]

3. المرحلة الثالثة: (2015-2016)، وفيها خبت حدة المعارك، وكان النظام مشغولًا بجبهات أخرى. عدّ سكان الغوطة هذه المرحلة انفراجة نظرًا لتوافر المواد الغذائية بعد سماح النظام بإدخالها عن طريق معبر المخيم عبر بعض التجار، ولكنه لم يفوت فرصة استغلال حاجة الناس، ففرض أتاوات مرتفعة على كل كيلو يدخل إلى الغوطة، ما أدى إلى غلاء الأسعار. وهذه المرحلة لم تكن على سوية واحدة، فقد كان النظام يغلق المعبر ويفتحه فجأة كي يبقى الناس في حال قلق دائم.[14]

4. المرحلة الرابعة: استمرت من 2016 وحتى أواخر 2017، وبدأ فيها النظام باستنزاف الغوطة وتدمير الموارد الغذائية المحلية التي تساعد على التأقلم مع الحصار، على الرغم من ترافق هذه المرحلة مع التوقيع على (اتفاق خفض التصعيد)[15] الذي كانت الغوطة الشرقية جزءًا منه. فاستغل اقتتال فصائل المعارضة داخل الغوطة، وشن هجومًا كبيرًا في أيار/ مايو 2016، سيطر فيه على البلدات والقرى في القطاع الجنوبي والمرج، [16] من مثل (دير العصافير، وزبدين وغيرهما) اللتين كانتا تعدان (السلة الغذائية) أو (سلة الخبز) في الغوطة التي خففت آثار الحصار.[17] فهناك كانت الأراضي تزرع الغلال وخاصةً القمح، وخسارة المنطقة قبل موسم الحصاد خاصة شكلت تهديدًا للأمن الغذائي في الغوطة، إضافة إلى نزوح أهاليها إلى داخل البلدات المحاصرة، ليصبحوا عبئًا إضافيًا بعد أن كانوا منتجين.[18] واستمر النظام باستنزاف المحاصرين بدنيًا ونفسيًا، فأحيانًا يسمح بدخول المواد، وأحيانًا يمنعها، مع حرصه ألا يكون هناك مخزون احتياطي.

5. المرحلة الخامسة: بدأت قبل الحملة العسكرية الأخيرة للنظام على الغوطة في شباط/ فبراير 2018، وانتهت بسيطرته عليها، وتهجير من بقي من أهلها إلى الشمال السوري، فقبل الحملة بأشهر عدة سيطر النظام على حي برزة والقابون، فتوقفت الأنفاق التي كانت إحدى طرق إدخال المواد إلى الغوطة. وأغلق النظام معبر المخيم أيضًا، وبذلك منع دخول أي شيء إلى الغوطة تمهيدًا للانقضاض عليها، فنفدت خلال 4 أشهر المواد الموجودة، فارتفعت الأسعار ارتفاعًا جنونيًا، فبلغ ثمن كيلو السكر على سبيل المثال 8000 ليرة.[19] ولم تنفع مناشدات الأطراف الدولية، ومنها الأمم المتحدة، في تخفيف الحصار أو إيقاف الهجوم،[20] فقد كان النظام يطبق سياسته الممنهجة بالتجويع بموازاة عملياته العسكرية.

---

(13) عمار السمر، "مقابلة مع أبو آدم".

(14) عمار السمر، "مقابلة مع أبو آدم".

(15) اتفاق توصلت إليه الدول الراعية لمفاوضات "آستانة 4" (تركيا وروسيا وإيران) في 4-5-2017. ونص على إقامة أربع مناطق آمنة في سورية، منها الغوطة الشرقية، لمدة ستة أشهر قابلة للتمديد. للمزيد، انظر: النص الكامل لاتفاق "وقف التصعيد" بسوريا، الجزيرة نت، (7-5-2017)، https://2u.pw/n05s63

(16) انظر الشكل رقم (1) قطاعات الغوطة الشرقية. كذلك الشكل (2) خارطة الغوطة المحاصرة 2016.

(17) Siege Watch Final Report, p19.

كذلك؛ عدنان علي، "القطاع الجنوبي بيد النظام"، صحيفة العربي الجديد، (20-5-2016). https://2u.pw/3YJubu.

(18) -Siege Watch Third Quarterly Report on Besieged Areas in Syria, PAX and The Syria Institute, May - July 2016, https://2u.pw/fXa2nN

(19) عمار السمر، "مقابلة مع أبو آدم".

(20) "Syria: UN urges an end to hostilities, warns of grave and deepening humanitarian crisis", UN News,6(February 2018), https://news.un.org/en/story/2018/02/1002071

ثالثًا: الغذاء على وقع الحصار؛ تأمين الغذاء والاتجار بالجوع

تذبذبت شدة الحصار صعودًا وهبوطًا خلال مراحله، ما أثر في الغذاء ونوعيته وكميته، إضافة إلى تأثره بالمناخ وفصول السنة، فقد كان الحصار في الشتاء أشد وطأة من الصيف، لأن زراعات الغوطة الشرقية تتكون بالدرجة الأولى من الخضار والفواكه صيفية.[21] وقد كانت المدة الأولى من الحصار هي الأقسى، لأنه بدأ في شتاء 2013، عندما كانت المحاصيل قليلة، إضافة إلى أنه لم تكن هناك مخزونات كافية من الغذاء، فعاش المحاصرون على المحاصيل الشتوية التي تُزرع في الغوطة من مثل (القرنبيط/الزهرة، والسلق، والملفوف، والسبانخ). وكانت المشكلة الكبرى في الخبز الذي حُرمت منه الغوطة في البداية لمدة 6-7 أشهر، فاستبدل الناس ورق الملفوف به.[22] ومع اشتداد الحصار أواخر 2013 وبدايات 2014، حاول الأهالي إيجاد بدائل لطحين القمح المفقود[23]، ولكن النقص كان في المواد الغذائية المزروعة والمُصنعة جميعها من مثل (الحبوب والطحين والزيوت والخضار والفواكه والأدوية)، عدا ما كان يُزرع في الغوطة عادةً، وبعضه لم يكن كافيًا. وصار هم المحاصرين تأمين هذه المواد، فوجد النظام في ذلك فرصة لاستغلالهم والإتجار بجوعهم.

كان التهريب والرشوة ودفع الأتاوات والإنتاج المحلي الطرق الأساس للوصول إلى المواد الأساسية في الغوطة، وهذه الطرق جميعها كانت عرضة للتغيير وفقًا للأوضاع. وقد اعتمد التهريب إلى حد كبير على الأنفاق التي كانت تصل الغوطة من جهة بلدة حرستا مع حي برزة والقابون الدمشقيين اللذين كانا تحت سيطرة المعارضة التي وقعت على اتفاق وقف إطلاق نار هش مع النظام. وقد حُفرت أول الأنفاق لغايات عسكرية من قبل أحد الفصائل، قبل أن تحفر الفصائل أغلبها أنفاقًا خاصة بها حتى صار هناك خمسة أنفاق رئيسة، بعضها كانت صالحة لعبور الشاحنات الصغيرة.[24] وعلى الرغم من ذلك، لم تنخفض الأسعار كثيرًا، لأن الجميع أراد الربح من إدخال المواد إلى الغوطة، فقد كان ضباط النظام يتلقون رشاوى باهظة لإدخال المواد من دمشق إلى حي برزة، وكانت الفصائل العسكرية المشرفة على الأنفاق تتقاضى أجورًا على العبور من التجار الذين كانوا بدورهم يربحون، وبعضهم كان واجهة للفصائل، لتصل السلعة بأضعاف ثمنها إلى المستهلك. واستمر هذا الحال حتى استيلاء النظام على حي برزة والقابون في منتصف أيار/ مايو 2017.[25] وهو ما فاقم الأوضاع أكثر، وساعد النظام على إحكام حصاره على الغوطة تمهيدًا لاقتحامها.

خلال مدة الحصار كانت كميات المواد الغذائية ونوعياتها وأسعارها متقلبة، والأسعار دومًا تفوق بأضعاف ما هي عليه في دمشق حيث يسيطر النظام، وقد أسهمت عوامل عدة في هذا التقلب، وهي: الحصار (أهم هذه العوامل)، وانخفاض قيمة الليرة السورية، والهجمات العسكرية، والاستيلاء على الأراضي الزراعية في القطاع

(21) عمار السمر، مقابلة شخصية مع وائل دغمش، رئيس المكتب الطبي الموحد في الغوطة الشرقية، ومدير مجمع اليمان الطبي، خلال فترة الحصار حتى 2016، (عبر واتساب)، (19-12-2022).

(22) المصدر السابق نفسه.

(23) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم....، ومقابلة مع وائل دغمش...

(24) "خريطة تظهر تطور حفر الأنفاق في الغوطة"، جريدة عنب بلدي، (9-7-2023)، https://2u.pw/u2QEWT

(25) للمزيد حول الأنفاق وتجارتها. انظر: فريق التحقيقات، "خريطة الغوطة الاقتصادية.. أنفاق وجيوب"، جريدة عنب بلدي، ع: 281، (9-7-2017)، https://2u.pw/oO2Gte

الجنوبي والمرج[26]، وإغلاق الأنفاق، إضافة إلى نشاط المنظمات الإنسانية، ومنها تلك التابعة للأمم المتحدة على الرغم من محدودية هذا النشاط. وقد تراوحت أسعار المواد الغذائية ما بين بداية الحصار ونهايته بين 2000 - 4000 ليرة، ويمكن القول إنها بلغت وسطيًا 2500 ليرة، نستثني منها مدة (6-7 أشهر) خلال عام 2016، وهي ذروة إدخال محي الدين المنفوش المواد، حين صار المعدل الوسطي للأسعار قريبًا مما هو عليه في العاصمة (400 - 450 ليرة) للكيلو من المواد الغذائية الأساسية (القمح، الشعير، السكر، البرغل، الملح، الرز، الشعيرية، الزيت).[27]

سمح النظام لأشخاص مرتبطين به إدخال المواد الغذائية مع فرض أتاوات عليها، فرض مثلًا على كل كيلو يدخل الغوطة أتاوة 1500 ليرة، فتوحدت أسعار المواد الغذائية الأساسية بـ2000 ليرة للكيلو، وكان هذا السعر آنذاك يمثل 4-5 أضعاف سعرها الحقيقي في العاصمة.[28] وبهذه الطريقة صار النظام يسحب الدولار من الغوطة (أواخر 2017 سعر الدولار حوالى 500 ليرة سوري).[29] وأصبح النظام المتحكم بعملية إدخال المواد الغذائية عبر معبر مخيم الوافدين فقط، وبطريق أشخاص مرتبطين به حصرًا، وفي الوقت الذي يحدده، كما كان يحدد أنواع المواد التي تدخل، فمثلًا منع دخول حليب الأطفال، على الرغم من الحاجة الماسة إليه. ولم يكتف النظام بذلك، بل كانت المواد التي يسمح بدخولها من أسوأ الأنواع.[30]

وقد اشتهر في البداية تجار من دوما بإدخال المواد وفق تفاهمات غير معلنة مع ضباط النظام الذين تقاسموا معهم الأرباح، وكان أهل الغوطة يأتون إلى دوما لأخذ احتياجاتهم بين عام 2014 وبداية 2015[31]، وذلك قبل أن يشتهر المنفوش، ويرتبط اسمه بتجارة الغذاء في الغوطة المحاصرة، حتى أصبح بعد إغلاق الأنفاق منتصف 2017 وحده من يحتكر تجارة الغذاء بموافقة النظام عبر مخيم الوافدين، فما قصته؟

محي الدين المنفوش، من بلدة مسرابا بالغوطة، صاحب شركة (المراعي الدمشقية) لإنتاج الألبان والأجبان، وقد أصبح مصنعه في مناطق سيطرة المعارضة. في البداية سمح له النظام بإدخال مستلزمات الإنتاج إلى مصنعه، وبالمقابل كان عليه إخراج منتجات معمله إلى سوق دمشق، وقد استفاد سكان الغوطة جزئيًا من إنتاجه.[32] ثم بدأ بإدخال المواد الغذائية من مثل الرز والبرغل والشعير وفق تفاهمات غير معلنة مع النظام. وقد وفر ما بين 2016 ومنتصف2017 المواد الغذائية، وانخفضت أسعارها، ولكنها عادتإلى الارتفاع أضعاف مضاعفة.[33] ولم يقتصر نشاط المنفوش على الإتجار بالمواد الغذائية بل كان له أيضًا نصيب من صرافة العملات الأجنبية،[34] وربما كانت هذه إحدى طرق النظام للحصول على تلك الأموال.

---

(26) -Siege Watch Third Quarterly Report.

(27) عمار السمر، مقابلة شخصية مع أبو كمال، رئيس إحدى الجمعيات الخيرية العاملة في الغوطة خلال الحصار، (عبر واتساب)، (13-12-2022).

(28) مناقشات مع عاملين بالشأن الإغاثي في الغوطة خلال زمن الحصار، (بيروت، 2016). للمزيد حول الأسعار وفروقاتها خلال حصار الغوطة.

(29) غض النظام النظر عن وصول التحويلات المالية بالعملة الصعبة للغوطة، لأن هذه الأموال كانت تصل إليه عبر تحكمه بالصرافة وبيع المواد الغذائية وفرض الأتاوات عليها. وفي ذلك الوقت قمنا بعملية حسابية مع زملاء في إحدى المنظمات الناشطة في الغوطة، فوجدنا أن النظام يستحوذ على أكثر من 75 بالمئة مما ترسله عن طريق فروق أسعار المواد الغذائية. (الباحث)

(30) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم

(31) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال وأبي آدم.

(32) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(33) المصدر السابق نفسه.

(34) أويس عقاد، "محيي الدين المنفوش: من عراب حصار الغوطة إلى "مستثمر نظيف" في أوروبا"، جريدة عنب بلدي، (12-1-2020)، https://2u.pw/t9UaJ0

وتختلف آراء أهل الغوطة في المنفوش، فمنهم من يراه تاجر حرب تابعًا للنظام، استغل جوعهم. ومنهم من يقول بغض النظر عمن هو، فقد تنفست الغوطة بتجارته، حتى إنه أدخل المواشي في عيد الأضحى، ما مكن بعض المنظمات والجمعيات الخيرية تنفيذ مشروعات أضاحي وتوزيع اللحوم على العائلات، [35] وأيًا كان، فمن خلال معرفتنا بطبيعة نظام الأسد، وضباطه، وفسادهم، وجشعهم، فلا يمكن إلا أن يكونوا شركاء للمنفوش في تجارته.

رابعًا: عادات الغذاء والطعام تحت الحصار

تغير كثير من العادات الغذائية التي تعود عليها السوريين بسبب الحرب، إضافة إلى الفقر الذي أصاب معظمهم، وجعلهم عاجزين عن تأمين أبسط احتياجاتهم. فكيف إذا ما أُضيف إلى الفقر الحصار، وهو ما أصاب أهالي الغوطة الشرقية، وغير بعمق عاداتهم في الغذاء وما يرافقه، فتغيرت كمية الطعام، وأوقاته، وأنواعه، ومواده، وتحضيره. تغيرت أبسط عاداتهم في الطعام والشراب، فصار كوب الشاب المعروف في عادات السوريين بعد الغداء حلمًا بالنسبة إلى كثيرين، وهذه الأشياء على الرغم من بساطتها أثرت عميقًا في الحالة النفسية للأهالي.[36] وسماع شهادات من قوبلوا في هذه الدراسة تفطر القلب من شدة المعاناة والعجز اللذين عاشوه.

يقول أبو آدم: ((عشنا على البركة، كان التقنيين لا يوصف، من واقع حالي وجيراني وأقربائي، أصبح نظام وجبات الطعام الثلاث يوميًا غير موجود في الغوطة، ومن يأكلون ثلاث وجبات نادرون))[37]. أما أبو كمال فيقول: ((انتقلنا أولًا إلى نظام الوجبتين، ومع اشتداد الحصار صرنا نأكل وجبة واحدة، وأحيانا كنا نطعم الأطفال وجبة أخرى)). أما بالنسبة إلى هالة التي تعد أحوال عائلتها أفضل؛ فتقول: ((استطعنا توفير وجبة يومية، كنا نقسمها أحيانًا إلى قسمين))[38]. وهكذا صارت الغالبية العظمى من العائلات تتناول وجبة واحدة في اليوم، وقد تكون مكونةً من نوعٍ واحد فقط. وتعمد كثيرٌ من الناس تناولها مساءً قبل النوم حتى لا يشعروا بالجوع.[39]

كانت وجبة الفطور تتكون من نوع واحد أو اثنين، من مثل علبة لبن من عند المنفوش مع زيتون فقط. ومن أجل تحضير طبق (الزيت والزعتر) المشهور في فطور السوريين، لجأ الناس إلى صنع الزعتر من الشعير بعد طحنه وإضافة مواد أخرى إليه، ولعدم توافر الزيت كانوا يأكلونه أحيانا بالماء. أما البيض واللحمة فكاد الناس ينسوهما.[40] أما وجبة الغداء، إن وُجِدت، فكانت تعتمد في كثير من الأحيان على الخضروات التي تزرع في الغوطة من مثل السلق والملفوف والزهرة والسبانخ والجزر والخبيزة، والبرغل إن توافر، أو يُسلَق القمح، أما الرز فكان للميسورين فقط.[41] أصبح الناس محكومين بأنواع محددة من الأطباق مكونة مما يُزرع في الغوطة أو يدخلها

(35) مناقشات مع عاملين بالشأن الإغاثي. و: عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(36) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(37) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(38) عمار السمر، مقابلة مع هالة، مديرة إحدى مدارس الغوطة، وربة أسرة عاشت الحصار حتى تهجيرها مع عائلتها عام 2018، (عبر واتساب)، (19-12-2022).

(39) المصدر السابق نفسه.

(40) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(41) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

من المواد الأساسية فقط. ولم تتوافر الخضار والفواكه دائمًا، لأن النظام منع دخولها، والغوطة لا تزرع أنواع الخضار كلها، وهي صيفية فقط، وفي الصيف كانت غير كافية، لأنها أحيانًا الغذاء الوحيد الموجود.[42]

حرم الحصار الأطفال من عاداتهم الغذائية، ومن المأكولات التي يحبونها (الأكلات الطيبة)[43]، إحدى مُتع الطفولة، وحُرم الآباء متعة الدخول إلى بيوتهم حاملين هذه (الأكلات) لأطفالهم الذين ينتظرونهم خلف الباب. فهذه المأكولات فُقدت تقريبًا، وكانت غالية جدًا، إن وُجِدت، لأنها لم تُعد من المواد الأساسية، وكانت تُهرب فرديًا من معبر المخيم. فكيف لرب الأسرة الذي بالكاد يؤمن وجبة واحدة لعائلته، أن يفكر بغيرها. بعض الأطفال الذين ولدوا في بداية الحصار، كانوا لا يعرفون أغلبية هذه الأكلات، وربما هذا ما دفع أحد أطفال دوما عند وصول عائلته المهجرة إلى إدلب، ورؤيته (الأكلات الطيبة)، أن يسأل أمه ببراءة: ((ماما نحنا بالجنة؟ مو أنت قلتي أنو الجنة مليانة بالأكلات الطيبة والألعاب))[44]. وهذا أيضًا ما دفع ناشطي إحدى الجمعيات إلى توزيع (الأكلات الطيبة) في أحد الأعياد بدلًا من المواد الأساسية.[45] وقد حاول بعض حرفيي الغوطة إنتاج منتجات بديلة للأطفال من المواد المتوافرة، من مثل صنع بسكويت من طحين الشعير أو الذرة، وكذلك قلي الشيبس النيء،[46] وفي أوقات تخفيف الحصار، وتوافر الوقود لمولدات الكهرباء تمكنت بعض المحلات صناعة المثلجات (البوظة) التي أفرحت الأطفال، ولكنها لم تكن بمتناول الجميع بسبب الفقر والغلاء.[47]

الغذاء، إضافة إلى كونه حاجةٌ لبدن الإنسان، جزء أساس من العادات الاجتماعية، فهو يصاحب الأفراح والأتراح والزيارات، وهو دليل على الاهتمام والكرم، وفي ظل الحصار لم يبقَ من هذا إلا القليل. يقول أبو آدم: ((لقد أثر الحصار ونقص الغذاء في العادات الاجتماعية بقوة، وأنا شخصيًا لم أكن أزور أقاربي في وقت تناول الطعام، وصارت زيارتي قصيرة لا تتعدى نصف ساعة مساءً، وأعتقد أغلب الناس هكذا. لقد تغيرت العادات، فأهل الغوطة أهل كرم، عندما يحضر الضيف، يقومون بواجبه، مع ذلك وصلوا إلى مرحلة صار فيها الشخص الكريم لا يستطيع أن يقدم لضيفه أكثر من كوب شاي، وإن كان شديد الكرم، يضع له السكر في الشاي، لأن السكر كان نادرًا)).[48] أما العزائم والولائم، فقدت غابت، إلا ما ندر، لمناسبة ما تكون عند أحد الميسورين في حال لم يكن إدخال المواد متوقفًا.[49]

(42) المصدر السابق نفسه، و: عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(43) تسمية متعارف عليها في سوريا للمأكولات الجاهزة الخاصة بالأطفال، من مثل أنواع البسكويت، الشوكولا، الشيبسي/البطاطا، المثلجات/البوظة، السكاكر، علب العصائر وغيرها. (الباحث)

(44) محمد كساح، "آخر ساعات دوما عشيّة الخروج الكبير"، مجلة عين المدينة، (14-5-2018)، https://2u.pw/DRhbha

(45) مناقشات مع عاملين بالشأن الإغاثي.

(46) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(47) د.م، "أهالي الغوطة الشرقية المحاصرة يحافظون على تقليد صناعة البوظة"، الجزيرة مباشر، (21-5-2016)، https://2u.pw/RSuGw2

(48) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(49) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

خامسًا: التأقلم والتكيف؛ تدبير الغذاء و إيجاد البدائل

لجأ السوريون عامةً في أوضاع الحرب والفقر إلى تدبير شؤون حياتهم بطرق إبداعية، من مثل تغيير عاداتهم الاستهلاكية، وإيجاد بدائل من مثل استخدام مكعبات (دجاج ماجي) في الطعام بديلًا من اللحم والدجاج، وأقبل بعضهم على شراء الفيتامينات من الصيدليات لتعويض نقص التغذية.[50] أما في المناطق المحاصرة مثل الغوطة، فكان الأمر أكثر قسوة، فلا صيدليات، ولا أدوية، وأحيانًا لا بدائل سوى الأعشاب وأوراق الأشجار وعلف الحيوانات أحيانًا. يقول أبو كمال: ((مر علينا وقت في عائلتي لم يكن لدينا ما نأكله، وأطفالي جائعون، فطلبت أمي من ابني الصغير أن يصعد على شجرة التوت، ويقطف أوراقها، وطبختها لنا مع الماء وأكلناه. كما طبخت بنفسي "الشوندر العلفي" لعائلتي على الرغم من أنه مخصص للحيوانات، واعتبرناه بديلًا من البطاطا، وأكلنا الخبز المصنوع من علف الحيوانات)).[51]

وعن سبب بقاء الناس في الغوطة وصبرهم على الحصار، قال أبو كمال: ((أجبر الناس على التأقلم مع القلة والجوع، بسبب الخوف على أرواحهم ففضلوا الجوع على الموت، كانوا مقتنعين أن العيش في الغوطة تحت القصف والقلة أكثر أمانًا لهم من البقاء تحت سيطرة الأسد)).[52]

حاول السكان التأقلم بطرق عدة، منها: التوجه لإنتاج الغذاء ذاتيًا داخل الغوطة بأساليب مبتكرة في الزراعة والري والتسميد والتخزين، وكذلك عبر إيجاد بدائل من المواد المفقودة. وأسهم في عملية التأقلم الأهالي والتجار والمنظمات الإنسانية والإدارة المدنية والعسكرية. فقد نشطت المنظمات في توزيع المعونات وطورت بعضها أساليب عملها، فأسهمت في دعم مشروعات صغيرة لمساعدة الأهالي على إنتاج الغذاء وتخزينه، وبعضها كان خاصًا بالنساء. وحاول التجار والفصائل العسكرية التأقلم، فكان التهريب وحفر الأنفاق ودفع الرشى لضباط النظام لإدخال المواد الغذائية.

كانت السنة الأولى من الحصار هي الأصعب لعدم وجود تجربة سابقة. ومن أجل تأمين الخبز، المادة الرئيسة في طعام السوريين، كان اللجوء إلى طحن أي حبوب توافرت (القمح، الشعير، الذرة، البريق،[53] الصويا)، وطحن أيضًا علف الحيوانات والخبز اليابس لصُنع الخبز. ويستذكر أبو كمال؛ قائلًا: ((ثمة منظر لا يغيب عن ذهني، في بدايات الحصار كان النظام يسمح بخروج الحليب من الغوطة وإدخال الخبز اليابس علفًا للأبقار، وفي أحد الأيام وصلت سيارة محملة منه إلى بلدة المليحة، فتجمع الناس حولها في منظر يفتت القلب، ليأخذوا منها، على الرغم من أن الجميع يعلم أنه من بقايا المطاعم وحاويات القمامة بدمشق)).[54] وقد أُستعمل ورق الملفوف بدلًا من الخبز أيضًا.[55]

(50) حمود المحمود، "اقتصاد الحرب في الصراع السوري: تكتيك "دَبّر راسك""، مركز كارنيغي للسلام، (23 تموز/ يوليو 2015)، https://2u.pw/qvBvZ

(51) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(52) المصدر السابق نفسه، وقد وافقه الرأي كل من قابلناهم في هذه الدراسة.

(53) حبوب صغيرة تستعمل طعامًا للعصافير.

(54) المصدر السابق نفسه.

(55) المصدر السابق نفسه.

ولم يكن القمح وحده المشكلة، فحتى الملح بات نادرًا، فأُستخدم الكلس لاحتوائه على نسبة من الملح، أو طُبِخ الطعام من دونه. ولتعويض فقدان السكر الذي صار يباع بالملعقة التي وصل سعرها إلى حوالى 500 ليرة، لجأ الناس إلى (السكرين) المخصص لمرضى السكري، أو (أصنص) السكر الذي يُستخدم في صناعة المقبلات الغذائية الخاصة بالأطفال، استخدم المحاصرون وأطفالهم هذه المواد على الرغم من ضررها.[56]

لم تقتصر المعاناة على توفير المواد الغذائية وبدائل منها، فقد كان تحضيرها معاناة من نوع آخر بسبب شح الوقود. فقد دفع توقف الأفران عن العمل لعدم توفر الكهرباء والوقود بالعائلات لخبز خبزها بنفسها، إضافة إلى انتشار بعض دكاكين التنور. تقول هالة: ((صرنا نطبخ ونخبز باستخدام الحطب، كان ذلك صعبًا واحتاج وقتًا طويلًا لأنه لا خبرة لنا في استخدامه لطهي الطعام، وغالبًا لم يكن الخبز ناجحًا، وطعمه غير مستساغ، ويسبب آلامًا في البطن))[57]. وصار تحضير الطعام معاناة للمرأة، ويستغرق وقتًا طويلًا، فلم يتوافر سوى الحطب والكرتون اللذان لا يمكن استخدامهما ضمن أغلب البيوت والشقق، لذا اضطرت المرأة للطبخ أمام بيتها أو على الشرفة، وفي الشتاء يكون البرد قارسًا. وصار تنظيف الخضار والأواني أكثر صعوبة لعدم توافر الماء في الشبكات.[58]

كانت السنة الثانية من الحصار أقل صعوبة بعد أن تأقلم السكان نسبيًا، فتوجه قسم منهم إلى الزراعة. ولتأمين مياه الشرب صارت كل عائلة أو أكثر تحفر بئرًا في فسحة البيت أو أمامه، حُفرت الآبار باليد بعمق حوالى 8 أمتار أو أقل، وركبت عليها (المكابس).[59] أما المزروعات، فكان يتم سقيها من ماء بردى على الرغم من تلوثه، وانقطاعه أحيانًا لأسباب مجهولة.[60] فمن أجل سد النقص في القمح، عاد مزارعو الغوطة للاهتمام بزراعته بعد أن كان تركيزهم على الخضار والفواكه،[61] وخاصةً من يملكون الأراضي في القطاع الجنوبي من الغوطة ومنطقة المرج. وزرعت المجالس المحلية مساحات كبيرة من الأراضي لتأمين الغذاء للأهالي، كما في بلدة جسرين.[62] وطورت بعض الجمعيات الخيرية عملها، فعملت على إنتاج الغذاء بعد أن كانت تكتفي بتوزيعه، فاستأجرت بعضها -"جمعية المليحة" على سبيل المثال- الأراضي بعد الحصول على التمويل، وزرعتها، وجففت إضافة إلى ذلك بعض المنتجات الزراعية، وخزنتها، من مثل (البندورة، والباذنجان وغيرهما) ومن ثم وزعتها على المحتاجين.[63]

أدى التركيز على الزراعة إلى زيادة الطلب على الأسمدة التي كان النظام يمنع دخولها، فاستخرج عوضًا عنها السماد العضوي من النفايات التي تكدست أكوامها بعد أن منع النظام نقلها إلى محطات المعالجة، فصارت سببًا في الأمراض والحرائق. فبعد مرور فترة زمنية، تخمرت النفايات، فنخلت، وبيعها للمزارعين بسعر الكلفة، كما فعل المجلس المحلي في مدينة دوما.[64] وهكذا تحولت النفايات من نقمة إلى نعمة، إضافة إلى توفيرها 50 فرصة

(56) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(57) المصدر السابق نفسه.

(58) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم، وأبي كمال.

(59) مضخات ماء يدوية تُركب على الآبار.

(60) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(61) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(62) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(63) عمار السمر، مقابلة شخصية مع صاحب فكرة مشروع زراعة وتجفيف وتخزين المواد الغذائية، (تركيا: 22-12-2022).

(64) عمار السمر، مقابلة سابقة مع المهندس أكرم طعمة، أحد الأعضاء المؤسسين للمجلس المحلي بدوما ورئيس سابق له. كما تولى عدة مناصب في المعارضة

عمل للسكان هم بأشد الحاجة إليها.[65]

ومن جهة أخرى استطاع المتخصصون الطبيون في الغوطة إنتاج (السيرومات الملحية) الضرورية لتغذية المرضى والنساء التي يلدن حديثًا. وعلى الرغم من خطر الإنتاج الجديد، فإنه استطاع تلبية جزء من الاحتياجات. وقد أعيد تشغيل أحد معامل الأدوية جزئيًا باستخدام المواد الأولية الباقية فيه، على الرغم من انتهاء صلاحية بعضها، فأنتجت بعض الأدوية والمراهم لمدة من الحصار الخانق.[66]

لم تقتصر محاولات التأقلم على القوى المدنية العاملة في الغوطة، بل حاولت الفصائل العسكرية كسر الحصار، ففي السنة الأولى الصعبة، شنت فصائل الجيش الحر ما عُرف باسم (معركة المطاحن) عام 2013[67] التي اختلط فيها الدم بالطحين حين تعمدت قوات النظام قصف الجائعين الذين اندفعوا إلى مطاحن الغزلانية للحصول على الطحين. لكن إعلام النظام قال إن مسلحي الغوطة كان هدفهم تخريب المطاحن، ومنع الطحين عن سكان دمشق، وسرقوا ما بين 800-900 طن[68]، من دون ذكر كلمة واحدة عن الطحين المفقود في الغوطة لعدة شهور. كانت الكمية التي تمَّ الحصول عليها قليلة، وُزعت على الفصائل العسكرية لإطعام مقاتليها، وعلى المجالس المحلية لبلدات الغوطة بحسب عدد السكان في كل منها، حتى إن حصة بلدة المليحة لم تشغل فرنها لأكثر من أسبوع.[69]

على الرغم من الجهد الكبير الذي بذل لسد نقص غذاء، فلم تُسَدّ الحاجة بسبب عدد المحاصرين الكبير، إضافة إلى استهداف قوات النظام الممنهج محاولات التأقلم، فاحتلت المناطق الزراعية، وأحرقت المحاصيل، واستهدفت أماكن تخزين المواد الغذائية والمشروعات الصغيرة ومصادر المياه.[70] يقول أبو كمال: ((في عام 2016 زرعت جمعيتنا الخيرية 20 دونم قمح في القطاع الجنوبي، كان ينمو جيدًا، كنا فرحين به، وبقي للحصاد شهر، ولكن النظام هاجم المنطقة، واستولى عليها، وفقدنا القمح. وبعد سقوط القطاع الجنوبي، ومنطقة المرج، لم تبق أي أراض زراعية ذات بال في الغوطة، وصعُبت الأحوال بعدها)).[71] وقبل الهجوم الأخير على الغوطة 2018، استهدفت قوات النظام وحلفاؤه مشروعات إنتاج المنظمات الإغاثية ومستودعاتها، من مثل منظمة عدالة للإغاثة والتنمية التي استهدف مشروعها للثروة الحيوانية والمطبخ والصيدلية الخيرية التابعة لها. وطال القصف الجمعية الخيرية في دوما، ومؤسسة زيد بن ثابت في بلدة حمورية، إضافة إلى استهداف سيارات توزيع الطعام على الأهالي بصورة متكررة. واستُهدِفت أيضًا أسواق الغوطة كلها، فاشتعلت بها الحرائق، ودُمر كثير من المحلات بما فيها من مواد غذائية، من مثل أسواق حمورية وحزة وعين ترما وسقبا ودوما. ولن يكون قصف الأسواق مستغربًا، إذا ما علمنا أنه خلال الهجوم نفسه استُهدف أكثر من 22 مركزًا ونقطة طبية.[72]

السورية المدنية منها محافظ ريف دمشق ونائب رئيس الحكومة المؤقتة حتى 2018. (عبر زووم في 2021/5/5).

(65) "فيديو لعمليات استخراج السماد العضوي من النفايات في دوما"، موقع جريدة زمان الوصل، https://2u.pw/206Amm

(66) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(67) مطاحن وصوامع الحبوب في بلدة الغزلانية.

(68) "برنامج حكاية وطن، مطاحن الغزلانية"، تلفزيون الإخبارية السورية، (4-11-2016)، https://2u.pw/8z1DGG

(69) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال. و: "مقابلة مع أبو آدم".

(70) "Siege Watch Final Report", p31.

(71) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(72) محمد حمص، "حصار داخل حصار- حرب اقتصادية تسابق هجوم الغوطة الشرقية"، جريدة عنب بلدي، ع:314، (25-2-2018)، https://2u.pw/WZbhUq

ولم يكتف النظام بتدمير الموارد المحلية في الغوطة، بل منع المنظمات الدولية ومنها الأمم المتحدة من الوصول إلى المحاصرين بحجج لا نهاية لها، وفي الحالات القليلة التي تمكنت من الوصول، استهدفها، وعرضتها للخطر، ما دفعها لإيقاف عملياتها.[73]

سادسًا: آثار الحصار والتجويع في السكان ونتائجهما

قدر الباحثون في مشروع Siege Watch (مراقبة الحصار) أنه ما لا يقل عن 1.45 مليونًا من المدنيين عاشوا تحت حصار طويل الأمد، بينما عاش مليون آخر على الأقل في ظروف شبه محاصرة، أي ما مجموعه 2.5 ملايين شخص، أي أكثر من 10 بالمئة من مجموع الشعب السوري[74]، وكان نصيب الغوطة الشرقية وحدها 400,000 محاصرًا.

كان للحصار والتجويع آثارٌ ونتائجٌ عميقة في المنطقة المُحاصرة سياسيًا وعسكريًا واجتماعيًا، وفي الصحة البدنية والنفسية للمحاصرين، ومن الصعب تقييم آثار الحصار والتجويع تحت القصف المستمر، فسماع شهاداتهم ومشاهدة الفيديوهات تترك أثرًا لا يمّحي في من يشاهدها ويسمعها، فكيف حال من عاشها؟ وما آثار ما مروا به مستقبلًا، بعد أن أخذ مكانه في ذاكرتهم؟.

1. الآثار والنتائج السياسية للحصار والتجويع

يجادل بعضهم في أن الموقع الجيوستراتيجي الحساس للغوطة الشرقية القريب من العاصمة هو سبب معاملة النظام إياها تلك المعاملة القاسية. واستيلاؤه عليها عام 2018 يسلط الضوء على قضية أوسع، حيث تعد تتويجًا لسنوات من الحصار (الركوع أو التجويع)، والقصف الجوي العشوائي، والتلاعب بالهدنة، واستخدام الأسلحة الكيماوية. والأسوأ من ذلك أن النظام على الرغم من استخدامه تلك الأساليب، وقد مر الأمر حتى الآن من دون عقاب، كوفئ في النهاية بسقوط الغوطة، حتى إنه خلال حصار الغوطة لم يكن هناك أي جهد دولي مؤثر لعرقلة الفظائع التي يرتكبها الأسد أو لمعاقبته عليها.[75]

ما فعله نظام الأسد في الغوطة يعد صورة مصغرة للتكتيكات والاستراتيجيات التي طبقها في أماكن أخرى من سورية، فإسقاط الغوطة يمثل جزءًا من سياسية أوسع ارتكب فيها جرائم جماعية من دون عقاب.[76] لقد كان الحصار استراتيجية ناجحة للنظام، سمحت له باحتواء المناطق الثائرة، واستنزاف مواردها، وفي نهاية المطاف تهجير سكانها غير المرغوب فيهم. فبحلول عام 2018 تمكن جيش الأسد من الاستيلاء على المناطق المحاصرة جميعها بمساعدة روسيا،[77] وكان للحصار والتجويع دور حاسم في ذلك.

(73) د.م، "متحدث أممي: النظام استهدف قافلة مساعداتنا الإنسانية في الغوطة"، وكالة الأناضول، (2018/3/6)، https://2u.pw/LBmuCe

(74) "Siege Watch Final Report", p62.

(75) لوكاس أندروكاديس وآخرون، "إسقاط الغوطة، المجلس الأطلنطي"، الولايات المتحدة الأمبركية، (2018)، https://2u.pw/QhmqPx

(76) لوكاس أندروكاديس وآخرون، "إسقاط الغوطة، المجلس الأطلنطي".

(77) "Siege Watch Final Report", p54-55.

ما حدث كشف أوجه القصور في منظومة الأمم المتحدة وقدرتها على الرد على الفظائع، وتأكل القوانين الدولية للحرب. ولا يمكن تجاهل أن مئات آلاف المدنيين جوعوا وعانوا على يد النظام لأكثر من خمس سنوات، كانوا على بعد كيلومترات فقط من مكاتب الأمم المتحدة في دمشق، بينما تتعاون تلك المكاتب مع النظام في مشروعات إعادة التأهيل وتقدم مساعدات للمناطق التي يسيطر عليها.[78]

2. آثار الحصار والتجويع في الصحة البدنية

تؤكد التقارير الدولية أن مئات المدنيين السوريين لقوا حتفهم بسبب سوء التغذية، وآلاف غيرهم أصيبوا بأمراض في المناطق المحاصرة من قبل النظام وحلفائه.[79] وقد أثر نقص التغذية بصورة خاصة في المرضى والنساء الحوامل والمرضعات والأطفال،[80] فصارت أوزان المواليد الجدد أقل من العادة. وتسبب عدم تغذية الأمهات المرضعات جيدًا في قلة إدرار الحليب لديهن، وبالنتيجة جوع أطفالهم الرُضع مع منع دخول حليب الأطفال.

وذكرت بعض التقارير أن أكثر من 25 بالمئة من أطفال الغوطة الشرقية كانوا يعانون سوء تغذية شديد.[81] ووقع بعضهم ضحية له ولنقص الدواء، تقول هالة: ((أعرف عائلتين توفى أولادهم من نقص الغذاء، أحدهم كان عنده مشكلات صحية فاقمتها قلة الغذاء)).[82] لقد كان كثيرٌ من الأطفال يذهبون إلى مدارسهم، وهم جائعون، فكثرت حالات إغماء الطلاب والطالبات (الدوخة) بسبب الجوع، وعدم تناولهم أي وجبة قبل المدرسة، واحتمال عدم تناولها بعدها.[83] ومن جهة أخرى سببت كثرة أكل الحشائش المطبوخة أمراضًا هضمية لبعضهم. وأدى انقطاع الكهرباء عن الغوطة إلى صعوبة تخزين الطعام في الصيف خاصة، ما أدى إلى فساد المواد، وتسبب ذلك في تسمم من يأكلها، مثل ما حدث في رمضان 2016 عندما أدى فساد الأطعمة التي تقدمها إحدى الجهات الإغاثية إلى موجة تسمم كبيرة، فعُولج أكثر من 700 شخص في مركزين طبيين فقط.[84] وتسببت المياه الملوثة في بعض الآبار التي حفرها الأهالي بالأمراض، وخاصةً الإنتانات المعوية، لأنها لم تكن تُعقم بسبب منع النظام مواد التعقيم.[85]

افتقار الغذاء للتنوع، وقيمته الغذائية المنخفضة، وخاصةً البروتين والمواد الدسمة، تسبب بحالات نقص تغذية حادة أحيانًا، ما جعل أجسام المحاصرين أقل مقاومة للأمراض، وخاصةً المرضى منهم، ما تسبب في تعرضهم للإنتانات والالتهابات المتكررة.[86] وكان من يمرض، لا يجد الأدوية، وخاصةً الإسعافية منها، بعد أن منع النظام دخولها إلى الغوطة، وكان يصادرها من قوافل المساعدات القليلة التي قدمتها الأمم المتحدة للغوطة.[87] وقد تسبب

(78) "Siege Watch Final Report", p 55.

(79) "Siege Watch Final Report", p 31.

(80) Kareem Shaheen, "Syria: shocking images of starving baby reveal impact of food crisis", The Guardian, 23(Oct 2017), https://2u.pw/9tFaXb

(81) محمد مستو ورنا جاموس، "الجوع يلتهم أطفال غوطة دمشق الشرقية (تقرير)"، وكالة الأناضول، (23-10-2017)، https://2u.pw/QmHhiC

(82) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(83) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(84) "Siege Watch Third Quarterly Report".

(85) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(86) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(87) "Siege Watch Third Quarterly Repor"t.

نقص الأدوية، ولا سيما أدوية العمليات الجراحية، بحالات وفيات، وأحيانًا بتر أطراف، وكانت حالات مرضى العناية المشددة والإصابات العصبية أغلبها تنتهي بالوفاة لعدم توافر الأدوية المناسبة والأوكسجين المناسب.[88]

من السخرية أن نتحدث عن أي شيء إيجابي في الحصار، ولكن من التقيناهم يقولون انخفضت أوزان أكثرية الناس بسبب الحصار انخفاضًا كبيرًا، فتراجعت الأمراض المرتبطة بالسمنة كالسكري والضغط والبدانة كثيرًا، وتراجع استهلاك أدوية السكري تراجعًا كبيرًا أيضًا، كما تراجعت الجلطات.[89]

3. الآثار النفسية للحصار والتجويع

تسبب الحصار والقصف بفَقْد الأمان، والقلق من المستقبل، وحالات اكتئاب، يقول المتخصص النفسي مأمون: ((تعاملت مع عدد من حالات الاكتئاب الذين قالوا قلوبنا تتقطع وأبناؤنا يقولون لنا إنهم جائعون ولا نستطيع فعل شيء)).[90] كان الشعور بالعجز متفاقمًا بسبب الفقر، وخاصةً لدى من عنده أولاد، ومن كان يملك المال أحيانًا ولا يجد ما يشتريه به.[91]

يقول أبو آدم: عشنا على وقع (فتح المعبر وأُغلق المعبر)، كانت حال الناس النفسية سيئة بسبب الترقب الدائم والقلق من القصف وفقدان المواد الغذائية.[92] لقد لعب النظام بمشاعر الناس واستقرارهم النفسي، واستخدم الحصار سلاحًا لتحقيق أهدافه، فتارة يسمح بدخول المواد الغذائية حتى يعتاد الناس وجودها، وفجأة يمنع دخولها، ليبقى الناس في حال قلق، وتضعف قدرتهم على المقاومة، ويصبحون عامل ضغط على فصائل المعارضة.[93] يقول أبو آدم: ((حتى إذا ما توافرت المواد، صرنا نخاف الذهاب إلى السوق -إذا ما توافر المال- بعد أن عمد النظام إلى قصف الأسواق، ما خلف عشرات القتلى، مثل قصف سوق بلدة كفربطنا الذي خلف حوالى 50 ضحيةً، ولكن على الرغم من ذلك كان الناس يعودون إلى السوق بدافع الحاجة بعد ساعة، والأشلاء ما زالت في المكان)).[94]

أثر الجوع في التماسك الأسري والاجتماعي، فأصبح كثيرون يعملون على تدبر أمرهم من دون الاهتمام بغيرهم. فصار بعض الأخوة والأقارب المتجاورين لا يهتمون بعضهم ببعض، ما تسبب بالضغينة والتفكك الأسري وبالنتيجة التفكك الاجتماعي. فإضافة إلى المضاعفات الصحية للجوع/ تختل مُحاكمة رب الأسرة، فيحاول أن يقوم بأعمال غير قانونية أو طبيعية لسد رمق عائلته، وقد يكسر القواعد الاجتماعية والدينية المعروفة، وقد يتخلى عن قيمه.[95] ولا بد من الإشارة إلى أن نقص التغذية يؤدي إلى تضعضع الصحة العامة، ما

(88) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(89) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش، و: مقابلة مع هالة، وكذلك: مقابلة مع أبي كمال.

(90) عمار السمر، مقابلة شخصية مع مأمون، اختصاصي نفسي كان عاملًا في الغوطة الشرقية حتى التهجير عام2018، (عبر واتساب)، (26-12- 2022).

(91) عمار السمر، مقابلة مع وائل دغمش.

(92) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(93) عمار السمر، مقابلة شخصية مع مأمون.

(94) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(95) -مقابلة شخصية مع عمار بيطار، طبيب نفسي مدرب ومشرف في الصحة النفسية يعمل في السياق الإنساني في سورية ودول اللجوء، (عبر واتساب)، (20-12-2022).

قد يؤدي إلى تضعضع الصحة النفسية، ونقص فيتامينات (ب، د) يجعل الإنسان أكثر عرضة للقلق.[96]

تسبب الفقر والبطالة وقلة الغذاء بتزايد المشكلات الأسرية وحالات الطلاق، وانعكست هذه الأوضاع بدورها في الأطفال بصورة اضطرابات نفسية وسلوكية، فازدادت الحالات التي تراجع مراكز الدعم النفسي القليلة لأطفال يعانون (الخوف، والتبول اللإرادي، والخجل)، وظهرت حالات من عدم الانتباه أو التركيز عند الأطفال في المدارس نتيجة الخوف والقلق والمشكلات الأسرية والتفكير الدائم بالطعام، فكان بعض الأطفال لا يعلم أنه سيتناول الطعام أم لا، إن عاد إلى البيت، ما أثر سلبًا في تعلمهم.[97] وكان الحصار والتجويع سببًا في استغلال الأطفال من عمر(9-18) الذين كان أهلهم يرسلونهم إلى مخيم الوافدين لجلب المواد الغذائية لعائلة أو لبيعها، فإضافة إلى خطر القنص، استغل جنود النظام وشبيحته هؤلاء الأطفال بإجبارهم على إدخال بعض المواد وبيعها لحسابهم مقابل السماح لهم بالخروج إلى المخيم، وأرسلوا معهم المخدرات للبيع داخل الغوطة حتى أدمن بعض الأطفال. وكان ثمة حالات تحرش بالفتيات، وإن لم تكن ظاهرة عامة، فإنها حدثت.[98] وعلى الرغم من هذه السلبيات كلها، يرى المتخصص النفسي جانبًا إيجابيًا، فقد لاحظ أن شريحة لا بأس منها من الكبار والصغار ظهرت لديهم مرونة نفسية عالية، وقدرة على تحمل الأوضاع الصعبة، والصبر، وتدبر الأمور، وتقدير قيمة النعمة.[99]

ورأي الطب النفسي في هذا الحال أنه في سياق الأزمات تختل البنية النفسية والاجتماعية بصورة عامة، وقد يصبح الإنسان بحاجة إلى كل شيء، لأنه فقد كل شيء فجأةً -بما في ذلك سكينته أو أحد أفراد أسرته أو بيته أو ماله أو غذاؤه أو كل ما سبق- وهو ما حدث لكثيرين من أهالي الغوطة.[100] ففي هذه الحالة يصبح الإنسان بحاجة إلى خدمات الدعم النفسي الاجتماعي، وأولها الأمان والمأوى والمرافق والطعام، وتوفير هذه الاحتياجات الأساسية للناس يسهم في زوال 50 بالمئة من مصادر القلق والضغط النفسي والخوف.[101] وهو ما لم يتوافر لأهل الغوطة خلال الحصار وبعده، سواءً المُهجرين منهم إلى الشمال أو الباقين في الغوطة.

4. الآثار العاطفية للحصار والتجويع

القصد هنا مشاعر المحاصرين وعواطفهم تجاه مسببي الحصار ومن هم خارج الحصار. ففي حين كانت الغوطة محاصرة، كانت تنتشر في وسائل التواصل الاجتماعي صور لموائد عامرة على بعد خمس دقائق منها في مطاعم وبارات حي باب شرقي، أقرب أحياء دمشق من الغوطة، وكان نشر بعض مؤيدي النظام فيديوهات وهم يأكلون أنواع الطعام ويوجهون كلامهم إلى أهالي الغوطة الجائعين الأكثر إيلامًا.[102]

(96) مقابلة شخصية مع عمار بيطار.

(97) عمار السمر، مقابلة شخصية مع مأمون.

(98) عمار السمر، مقابلة شخصية مع مأمون.

(99) عمار السمر، مقابلة شخصية مع مأمون.

(100) مقابلة شخصية مع عمار بيطار.

(101) مقابلة شخصية مع عمار بيطار.

(102) مشاهدات خاصة في وقتها. (الباحث)

لقد حمل المحاصرون نظام الأسد وأتباعه المسؤولية عن معاناتهم، وكانت نقمتهم كبيرة. ولكن قسمًا صغيرًا حمل المعارضة والجيش الحر المسؤولية لأنهما ثاروا ضد النظام، أو قبل الثورة (كنا عايشين)، و(الثوار خربوا الدنيا)، وهذا لم يكن حبًا بالنظام بل بسبب الحال التي وصولوا إليها مقارنة بالماضي.[103]

تسببت المعاناة في انقسامٍ وردّ فعل عاطفي ربما يكون مبررًا لأهالي المناطق المحاصرة نحو من هم خارج الحصار، وتحديدًا أهل العاصمة، فبعضهم حملهم جزءًا من المسؤولية لصمتهم عن معاناتهم، ورأى هؤلاء أن الخوف من النظام ليس مبررًا. يقول أبو آدم: ((يوم تهجيرينا من الغوطة، عندما اقتربت حافلتنا من أطراف دمشق، شاهدت الكهرباء والناس يعيشون حياتهم العادية، بينما كنا نعيش في الجحيم لخمس سنوات في الظلام بلا كهرباء ولا غذاء وتحت القصف، عندها أحسست أن أهل الشام ليس في قلبهم رحمة، لا أظن أن الإنسان يمكن أن يكون عديم حيلة، ولو بموقف أو كلمة، وأظن أن هذا شعور كثير من أهل الغوطة)).[104] أما أبو كمال فيخالفه الرأي، فيقول: ((هم أهلنا، ونحن بشر. أنا لا أُحملهم أية مسؤولية، وهم أن كان عندهم طعام لكنهم تحت حكم الأسد لا يشعرون بالأمان، بينما كنا نعيش نوع من الأمان. يعني شيء مقابل شيء)).[105] بينما ترى هالة أن أهل الغوطة أغلبهم لم يكونوا ناقمين على أهل الشام، حتى إن بعض الموظفين الذين كان يُسمح لهم بالذهاب إلى دمشق، كانوا ينقلون حزن أهل الشام على حالهم، ولكنهم لا يستطيعون فعل شيء مع النظام المجرم.[106] بينما يرى المتخصص النفسي المأمون أن أكثر أهل الغوطة كان يشعر بالنقمة على سكان العاصمة.[107] وأيًا يكن، فإن كثيرين من أهل الشام لم يكن يهنأ لهم مأكل وحياة خلال حصار الغوطة، وكان الشعور بالعجز والخوف يجعلهم صامتين، وبعضهم غادر الشام هربًا من عجزه وخوفًا من النظام.

5. الآثار الاجتماعية للحصار والتجويع

رأى بعضهم أن السوريين لجؤوا خلال الصراع إلى المبدأ المعروف سوريًا بـ(دَبّر راسك).[108] ولدى سؤال من قابلناهم عن انتشار هذا المبدأ خلال الحصار، وافق بعضهم على هذا الرأي، وخالفهم الرأي بعضهم الآخر. فقال أبو آدم: ((إن الأحوال الصعبة جعلت الشخص يرى صديقه أو قريبه بحاجة شديدة، لكنه لا يستطيع مساعدته لأنه يفكر بنفسه فقط)).[109] أما أبو كمال فيخالفه الرأي، ويقول إن هذه الفكرة لم تكن منتشرة في الغوطة، بل كان هناك تعاون، ولكن الإيثار أصبح نادرًا، ورأى أن العائلات تعاونت وتضامنت، وإن وُجِدت الأنانية، فلم تكن تتعدى الحدود الطبيعية.[110] وتوافقه هالة الرأي، فقد لاحظت ازدياد التعاون بين الأهالي، وعزت ذلك إلى شعورهم جميعًا بالخوف من الموت الذي كانت احتمالاته مرتفعة، ما جعلهم أكثر قربًا بعضهم من بعض. وتقول: ((ازداد التدين عند الناس والخوف من الله، وصاروا أكثر حرصًا على الصلاة ومجالس الذكر عسى أن يفرج الله

(103) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(104) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(105) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(106) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(107) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(108) حمود المحمود، "اقتصاد الحرب في الصراع السوري...".

(109) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(110) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

عنهم)). ولكن بالمقابل لا تنفي هالة وجود بعض الأنانية والحسد، خاصةً عندما تُوزع المواد الغذائية، فكانت ترى نقمة الناس بعضهم على بعض، بينما تكون علاقاتهم أفضل عندما يكونون جائعين.[111]

ظهر كثير من المشكلات التي لم يكن يعرفها أهالي الغوطة، ترتبط بغياب الخدمات وصعوبة تأمين الغذاء، حدثت بين بعضهم، وبينهم وبين والإدارة الجديدة في الغوطة (المجالس المحلية)، حتى كادت تقع الفوضى أحيانًا. ففي بلدة جسرين على سبيل المثال اقتحم الأهالي الجائعون مخزن المجلس المحلي في البلدة، واستولوا على المواد الغذائية، وأفسدوا بعضها، وسرقوا محتوياته، على الرغم من أن المجلس كان يوزع هذا المخزون على الأهالي بالتقنيين حتى يكفي أطول مدة من الحصار، وفي الوقت نفسه كان كثير من الأهالي يقدرون تصدي الإدارة الجديدة للعمل في الظروف القاهرة.[112]

من الآثار الاجتماعية السلبية تعود بعض الناس على طلب المساعدة من الجمعيات الخيرية والإغاثية، وترك العمل،[113] والأنانية من خلال السعي للتسجيل في أكثر من جمعية خيرية في أكثر من بلدة، ما حدا بالقائمين على الشأن الإغاثي في الغوطة إلى إنشاء إدارة موحدة لتنسيق العمل الإنساني، لتوزيع المساعدات بالتساوي.[114] ولوحظ انتشار السرقات بسبب الفقر.[115] إضافة إلى ظهور الغش في المواد الغذائية، فمثلًا عندما فُقدت القهوة، ولم يبق منها سوى كميات قليلة عند بعض المحلات، طحن أصحابها نوى التمر وخلطوها بالبن وباعوه.[116]

أما التعليم فقد تأثر تأثرًا كبيرًا على الرغم من محاولات العاملين في المجال التربوي الاستمرار بالعملية التعليمية، ولكن كان ثمة تحديات كثيرة، فإضافة إلى قصف المدارس، وتوقف كثير منها، ونزوح المعلمين؛ ترك كثير من الطلاب المدارس لمساعدة عائلاتهم على تأمين الغذاء بعد أن اضطر أفراد العائلة جميعهم إلى العمل، فتوجه بعضهم لمساعدة أسرهم في الزراعة، وآخرون لحفر الآبار بعد انقطاع شبكات المياه، وبعضهم كان عليه إعانة الأسرة بعد مقتل الأبوين.[117] وانتشرت ظاهرة ترك المدرسة بسبب الزواج المبكر للشباب بسن (18-20) والبنات (13-14)، وعزت هالة هذه الظاهرة إلى أن كثيرًا من الناس كان يعتقد بضرورة تعويض أعداد القتلى الذين قضوا في قصف النظام، إضافة إلى أن بعض الأمهات كن يخفن من الموت بالقصف اليومي، وأردن تزويج أبنائهم وبناتهم قبل ذلك. وبعضهم الآخر رأى أن الحياة في الغوطة شبه متوقفة، ولا يمكن الخروج منها، فقالوا: نتزوج ونرى حياتنا.[118] ولكن في الوقت نفسه توجه كثير من كبار السن من النساء والرجال نحو التعليم، فاستقبلت النساء المتزوجات وخصصت صفوف لهن في بعض المدارس.[119]

(111) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(112) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(113) طرحت إحدى الجمعيات الخيرية مشروع تقديم المساعدة مقابل العمل، ولكن عند عرض المشروع على المستفدين من الجمعية، لم يتقدم سوى عدد قليل للعمل. مناقشات مع عاملين بالشأن الإغاثي.

(114) تشكلت إدارة لتنسيق العمل الإنساني في الغوطة من 25 جمعية ومؤسسة عاملة في المجال الإغاثي، إضافة إلى تشكيل المكتب الإغاثي الموحد في الغوطة الشرقية، بهدف تنسيق العمل، وعدم تسجيل العائلات المستفيدة عند أكثر من جهة. عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

(115) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(116) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(117) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(118) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

(119) عمار السمر، مقابلة مع هالة.

الحصار مستمر ما بعد الاستسلام والتهجير

لم تنته معاناة أهالي بلدات الغوطة بعد سيطرة النظام عليها، وتهجير قسم كبير منها إلى الشمال السوري، وبقاء العدد الأكبر فيها. فما زال النظام وحلفاؤه يقيدون وصول المساعدات الإنسانية إلى الغوطة وأهلها المهجرين في شمال سورية.[120] وسكان الغوطة ما زالوا يعيشون في خوف مع استمرار النظام بالقمع والاعتقال والتسلط على حياتهم وأرزاقهم. وآثار الأزمة المعيشية التي تعصف بسورية أشد في الغوطة، حيث الخدمات الأساس شبه معدومة، وأنقاض المباني المدمرة ما زالت في كل مكان. أما أهالي الغوطة المهجرون قسرًا إلى الشمال السوري فما زالوا يعيشون تداعيات الحصار الاقتصادية والنفسية والبدنية، يعيشون في فقر وخوف، وخياراتهم ما تزال قليلة، ولا يصلهم سوى القليل من الدعم.

سابعًا: الاستجابة للحصار والتجويع

يمكن القول إن الاستجابة ورد الفعل على حصار وتجويع الغوطة وباقي المناطق السورية كان محدودًا جدًا، وفشل المجتمع الدولي في تخفيف معاناة المدنيين أو وقفها، ولم تجدي بيانات شجب الحصار أو قرارات مجلس الأمن أية فائدة لأنه لم تكن هناك إرادة لتنفيذها، مما شجع النظام وحلفائه على الاستمرار بسياساتهم.

1. استجابة الأمم المتحدة: دور مغيب ومحاباة للنظام

عجزت الأمم المتحدة والمنظمات التابعة عن القيام بدورها، واعترى عملها كثير من القصور والتواطئ. فقد فشل (مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية في سوريا OCHA)[121] في إيصال الحجم الحقيقي للحصار وآثاره إلى المجتمع الدولي، حتى إنهم فشلوا في تطبيق معايير التصنيف الخاصة بهم، فأسهموا في تقديم رؤية مشوهة عن الوضع على الأرض، ما أثر تأثيرًا كبيرًا في استجابة الدول والمنظمات للحصار.[122] فـ(OCHA) لم يبلغ عن عدد المدنيين الذين يعيشون تحت الحصار، وفشل في الإبلاغ على عشرات البلدات المحاصرة التي تتوافق مع تعريفه الرسمي للحصار، ففي عام 2016 كان داخل الحصار ما لا يقل عن 23 بلدة وقرية، لكن (OCHA) رأى رسميًا أن تسعة منها فقط محاصرة.[123] فمثلًا لمدة عام كامل لم تعترف الأمم المتحدة بحصار بلدة حزة، على الرغم من أنها تعترف بحصار كل البلدات المحيطة بها.[124]

تصرفات (OCHA) في دمشق كانت عامة، ومعلوماته غير دقيقة، وأحجم مرارًا وتكرارًا عن تصحيح معلوماته بشأن المناطق المحاصرة بعد أن ثبت أنها غير دقيقة، ويعد عمله هذا تحيزًا سياسيًا، نتيجة النفوذ الذي كانت تمارسه حكومة النظام على مكاتب الأمم المتحدة في دمشق، لأنها هي من تمنحهم الإذن للعمل في سورية، إضافة

(120) "Siege Watch Final Report", p11-12

(121) United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs.

(122) "Siege Watch Final Report", p22.

(123) "Siege Watch Third Quarterly Report".

(124) انظر الشكل (3).

إلى إصدارها تأشيرات الدخول للموظفين الرئيسيين، والموافقة على كل عملية يريدون تنفيذها. وهذا النفوذ الكبير للنظام على مكاتب وكالات الأمم المتحدة في دمشق أضر بقدرتها على اتخاذ قرارات متسقة.[125] وهذا ليس بمستغرب، إذا ما علمنا أن كبار مسؤولي النظام استطاعوا توظيف أقاربهم في مكاتب الأمم المتحدة بدمشق.[126]

على الرغم مما تقدم، فقد كافحت وكالات لأمم المتحدة للوصول إلى المناطق المحاصرة، ولكن حكومة النظام رفضت طلباتها أو تجاهلتها، وعندما وافقت عليها، مُنعت قوافل المساعدات غالبًا من الوصول بسبب العوائق البيروقراطية أو المادية من قبل النظام، وفي المرات النادرة التي سُمح لها بالوصول إلى المناطق المحاصرة،[127] غالبًا ما تم العبث بها أو سرقتها خلال (عمليات التفتيش) في حواجز النظام، ومصادرة الإمدادات الطبية دومًا، وساعدت سيطرة النظام على (منظمة الهلال الأحمر العربي السوري) في سرقته للمساعدات.

وتعود أسباب فشل الأمم المتحدة إلى عدة أسباب، أهمها: نظام الموافقة على المساعدات الذي أعطى نظام الأسد نفوذًا كبيرًا للتلاعب بالمساعدات لدعم أهدافه العسكرية. ولعبت علاقات الأمم المتحدة مع حكومة النظام دورًا في تعزيز عمليات الحصار، وكان لهذا أثر مدمر في المحاصرين الذين فقدوا ثقتهم بها، خاصةً بعد مشاهدتهم المعاملة الانتقائية، حين قام برنامج الغذاء العالمي (WFP) بعمليات إنزال جوي للأغذية على مدينة دير الزور التي كانت تحت سيطرة النظام، ويحاصرها تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، بينما حُرمت المناطق التي يحاصرها النظام من معاملة مماثلة.[128]

ما جاء في الدراسات والتقارير عن مساعدات الأمم المتحدة لا يختلف عما قاله المحاصرون، فيقول أبو آدم: ((أذكر أنها دخلت مرتين أو ثلاثة فقط، مرة عن طريق عين ترما ومرتين عن طريق مخيم الوافدين، وربما بلغت خمس قوافل خلال سبع سنوات، وكان تأثيرها محدودًا لقلتها)).[129] أما أبو كمال الذي كان عاملًا في الشأن الإغاثي، فيقول : ((كانت مساعدات الأمم المتحدة قليلة وفي فترات متباعدة، ولا أذكر مرة أدخلت ما يكفي من السلل الغذائية، لذلك كان يتمَّ تجزئة السلة الواحدة (وزنها 30-40 كغ)، والمخصصة لعائلة واحدة، وتوزيعها على 5-6 عائلات حتى تحصل كل العائلات على حصص، ما أوقع القائمين على التوزيع في مشكلات مع الأهالي)).[130] ويتابع أبو كمال: ((أتذكر آخر مرة أدخلت فيها الأمم المتحدة مساعدات، تم توزيع بعض المواد بالغرامات، فكانت حصة العائلة 600 أو 400 غرام من السكر و الملح وغيرهما)).[131]

وثمة من يرى أن (الأزمة السورية) تشكل نقطة فاصلة في المجال الإنساني، فقد أظهرت التناقضات العميقة داخل المنظمات التابعة للأمم المتحدة والمؤسسات الدولية، ليظهر أن هذه المؤسسات الإنسانية تنتهج سياسات مصممة أولًا وقبل كل شيء لخدمة مصالحها الخاصة، وتلبية لشروط المانحين من دون أخذ أولويات المحتاجين

(125) "Siege Watch Final Report", p25.

(126) عمار السمر، مقابلة مع موظف سابق في أحد مكاتب الأمم المتحدة بدمشق، (عبر واتساب)، (1-1-2022).

(127) على سبيل المثال، في حزيران 2016 تلقت بلدتا زملكا وعربين مساعدة من الأمم المتحدة للمرة الأولى منذ ما قبل بدء الحصار، وكانت تهدف إلى دعم 20,000 محاصر، وكان هؤلاء أقل من نصف سكان هاتين المنطقتين. وكانت فيها بعض المواد الغذائية غير صالحة للاستهلاك. Siege Watch Third Quarterly Report

(128) -Siege Watch Final Report, p26 27-.

(129) عمار السمر، مقابلة مع أبي آدم.

(130) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال. وتورد تقارير دولية المعلومات نفسها. مثال: Siege Watch Third Quarterly Report.

(131) عمار السمر، مقابلة مع أبي كمال.

بالحسبان، وأن هذه المؤسسات أصبحت محض بيروقراطيات تتمحور حول ذاتها، فيهتم موظفوها بالتقدم الوظيفي ورواتبهم، وما المستفيدون بالنسبة إليهم إلا مجرد أرقام.[132]

2. استجابة المانحين: بدايات طيبة ونهايات مخيبة

على النقيض من الأمم المتحدة، تحدت بعض المنظمات الإنسانية العربية والدولية حظر النظام، وقدمت مساعدات للمدنيين المحاصرين في الغوطة. دخلت المساعدات بصورة بضائع مهربة أو تحويلات مالية غير نظامية أو ينقلها الناشطون. وكان ثمة مراعاة من قبل المانحين لخصوصية الحالة السورية، وعدم إمكان العمل التقليدي والورقي، فعمليات إيصال المساعدات والأموال كانت تتمَّ بسرية، ومن دون معرفة سلسلة إيصال المساعدة أحيانًا. فكثيرًا ما خاطر بعض الناشطين والعاملين السريين في الإغاثة بنقل الأموال بجيوبهم وحقائبهم من لبنان إلى دمشق، ليسلموها إلى ناشطين آخرين يتولون إيصالها بطرقهم إلى الغوطة المحاصرة.[133]

قدمت جهات مختلفة المساعدات للغوطة منها ما هي معروفة، مثل عدد من المنظمات والجمعيات الخيرية التي وثقت نشاطها عبر تقارير وفيديوهات منشورة. وهذه لن أتناولها بالبحث، بل سأتطرق إلى الجهد الإغاثية غير المعروف، مثل ما قام به سوريون في الخارج بصورة فردية أو جماعية، فعلى سبيل المثال، في حالات مختلفة أسس عدد من الأكاديميين السوريين مع زملاء لهم من الأجانب فرق مساعدة، وجمعوا التبرعات وأرسلوها إلى داخل الغوطة عن طريق معارفهم. وأقنع بعضهم أصدقاءهم ممن يودون التضحية في عيد الأضحى بالتضحية في الغوطة بدلًا من البلدان التي يعيشون فيها. وفي حالات أخرى شكل أكاديميون أجانب وسوريون جمعيات، وسجلوها رسميًا في بلدانهم، استطاعوا من خلالها جمع التبرعات، والحصول على مساعدات حكومية، وإيصالها إلى الغوطة بالتعاون مع جمعيات عاملة داخل الغوطة.

ولكن الدعم المقدم من المانحين الحكوميين، والأجانب، انخفض بمرور الوقت، وذلك لأسباب محلية وخارجية إضافة إلى العوامل الجيوسياسية. فمحليًا، كانت ثمة حالات أنهى المانحون فيها دعمهم بسبب سوء استخدام الأموال. أما خارجيًا، فطول الأزمة السورية وكثرة المناطق المحاصرة، أصابا المانحين بالإجهاد، فأعادت بعض الجهات المانحة تنظيم أولوياتها.[134] من جهة أخرى، فإن إعادة النظام سيطرته على كثير من المناطق، دفعت بعض المانحين إلى الاستنتاج أن النظام سيعيد سيطرته حتمًا على المناطق المحاصرة، من ثم، فإن دعمهم المناطق المحاصرة غير مجدٍ.[135] ويحدثنا أحد الناشطين الإغاثيين عن خيبته الكبيرة عندما تراجعت المساعدات المرسلة من إحدى المنظمات الأجنبية التي كان يعمل معها خلال الشهور الأخيرة من حصار الغوطة. فبينما كان زملاؤه على الأرض في الغوطة يصفون حالة العوز والجوع، كان القائمون على المنظمة شديدي التأثر، لأنهم لا يستطيعون فعل شيء، لأن كل الجهات المانحة، ومنها وزارة خارجية بلدهم، لا تتجاوب مع طلباتهم، ومنهم

(132) Nadine Meouch, "Syrian Uprising 10-Year Anniversary: A Historical Perspective, interviewed by Jihad Yazigi", The Syrian Observer, (10-3-2021), https://2u.pw/DOg6Ey

(133) عمار السمر، مقابلة شخصية مع أكاديمي سوري، عمل ناشطًا إغاثيًا مع بعض زملائه على إيصال الدعم إلى الغوطة خلال الحصار، كما عملوا كصلة وصل بين منظمات إغاثية أجنبية ومحلية في الغوطة، (تركيا: 25-12-2022).

(134) "Siege Watch Final Report", p29.

(135) "Siege Watch Final Report", p29.

من قال لهم صراحة: نفكر بالعمل في مناطق سيطرة الأسد.[136] وقد أدى تراجع الدعم إلى زيادة معاناة المدنيين وإضعاف قدرتهم على الصمود، وشكل عامل ضغط على المجالس المحلية والفصائل العسكرية المدافعة عن الغوطة، وأسهم في سقوط الغوطة عام 2018.

ثامنًا: المسؤولية عن الحصار والتجويع

يقول الخبراء أن الحصار في حد ذاته من منظور القانون الدولي الإنساني ليس محرَّمًا صراحةً في الحرب، ويكتفي القانون بذكر الخطوات التي يجب اتخاذها للتخفيف من آثاره السلبية في المدنيين. ولكن القانون نفسه يمنع استخدام تجويع المدنيين سلاحًا، ويحظر مهاجمة المواد الضرورية لبقاء السكان المدنيين، أو تدميرها أو نقلها أو تعطيل الأماكن (مثل المواد الغذائية، والمناطق الزراعية وشبكات مياه الشرب وغيرها).[137]

وفي سورية، أُستخدم الحصار والتجويع سلاحًا، كما مر آنفًا. وعلى الرغم من أن نظام الأسد يعد المسؤول الأول عن الأغلبية العظمى من عمليات الحصار بما فيها الغوطة الشرقية، فإن حليفَيه (إيران وروسيا) يتحملان مسؤولية لا تقل عن مسؤوليته، فقد وجد باحثون متابعون أن الحصارات الطويلة في سورية تزامنت مع تنامي الدعم الإيراني للنظام، وأن مستشارين إيرانيين ساعدوا في وضع استراتيجيات الحصار، وأسهمت إيران في الحصار منذ البداية عبر الميليشيات التابعة لها. أما روسيا، فأسهمت في القصف الجوي الوحشي للمناطق المحاصرة، وحمت النظام من الإدانة في الأمم المتحدة والساحات الدولية الأخرى، فاستخدمت حق النقض (الفيتو) 12 مرة في مجلس الأمن لحمايته، ولعبت دورًا رئيسًا في نشر الدعاية والمعلومات المضللة عن الحصار وجرائم الحرب في سورية.[138]

وتتحمل الأطراف الموقعة على اتفاق (مناطق خفض التصعيد) المسؤولية في استمرار الحصار وما وصل إليه، لأن هذا الاتفاق الذي كان مبادرة روسية، هو في الواقع استراتيجية عسكرية تتنكر في شكل خطة سلام، فالتهدئة سمحت للنظام وحلفائه بالهجوم على كل منطقة من تلك المناطق على حدة. وبذلك خدمت مبادرة (مناطق خفض التصعيد) استراتيجية الحصار، وسهلت حملات الأرض المحروقة والتهجير القسري وصفقات الاستسلام[139]، لأن النظام لم تكن لديه القدرة على اقتحام هذه المناطق في الوقت نفسه.

فشل مجلس الأمن والأمم المتحدة المتكرر في تحمل مسؤولياتهما، شجع النظام على تكرار الحصارات، حتى أصبحت استراتيجية عنده وعند حلفائه استطاعوا من خلالها السيطرة على المناطق المحاصرة جميعها.[140] وعلى الرغم من هذا الفشل، أصدر مجلس الأمن بعد سقوط الغوطة القرار 2417 في أيار/ مايو 2018 الذي أدان استخدام تجويع المدنيين سلاحًا في الحرب، وأدان منع إيصال المساعدات الإنسانية إلى المدنيين، وضرورة

(136) عمار السمر، مقابلة مع أكاديمي سوري.

(137) جلوريا جاجيولي، "هل يحظر القانون الدولي الإنساني المعاصر استخدام أسلوب الحصار العسكري؟"، مجلة الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، (شباط/ فبراير، 2019)، https://2u.pw/XRCl4Y

(138) "Siege Watch Final Report", pp19-22.

(139) "Siege Watch Final Report", p29.

(140) "Siege Watch Final Report", p11.

مساءلة المسؤولين عن هذه الانتهاكات، ومحاسبتهم.[141] صدور هذا القرار الذي يُجرم استخدام التجويع سلاحًا خطوة مهمة، ولكنها تبقى دون قيمة عملية، إذا لم تعمل الدول الأعضاء على تفعيلها.

تاسعًا: استنتاجات وتوصيات

1. الحصار والتجويع من قِبل نظام الأسد وحلفائه جريمتا حرب ممنهجتان، ترقيان إلى مستوى الجرائم ضد الإنسانية. لذا يجب تكوين لجان تحقيق دولية للتحقيق فيهما، وتقديم شكوى للمحكمة الجنائية الدولية التي أصبح قانونها الأساسي يسمح لها النظر في قضايا التجويع.

2. كان الحصار جزءًا من استراتيجية أوسع من هندسة ديموغرافية، انتهت في كل مرة بالانهيار الكامل للمجتمعات المحاصرة، وتهجير سكانها قسرًا.

3. ريثما ينتهي الصراع في سورية يجب على الجهات الدولية والإنسانية تقديم المساعدة لضحايا الحصار والتجويع، سواءً المُهجرين في شمال سورية أو في دول اللجوء، وخاصةً الأطفال، وعلاجهم بدنيًا ونفسيًا من الحرمان وسوء التغذية.

4. يجب على الجهات العاملة في مشروعات التعافي المبكر التركيز على دعم المناطق التي كانت محاصرة من مثل الغوطة بدلًا من التركيز على المناطق التي لم تشهد أي معارك. فهذه المناطق حاليًا مدمرة عمرانيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، ومحرومة من الخدمات، ومستنزفة ماديًا ومعنويًا، بعد أن فقدت رأسمالها البشري والمادي.

5. عند تقديم المساعدات لضحايا الحصار والتجويع، على الجهات الداعمة عدم الثقة بنظام الأسد لأنه هو من حاصرهم وجوعهم.

(141) نص القرار في موقع الأمم المتحدة: مجلس الأمن، على الرابط: https://2u.pw/8ku5sM

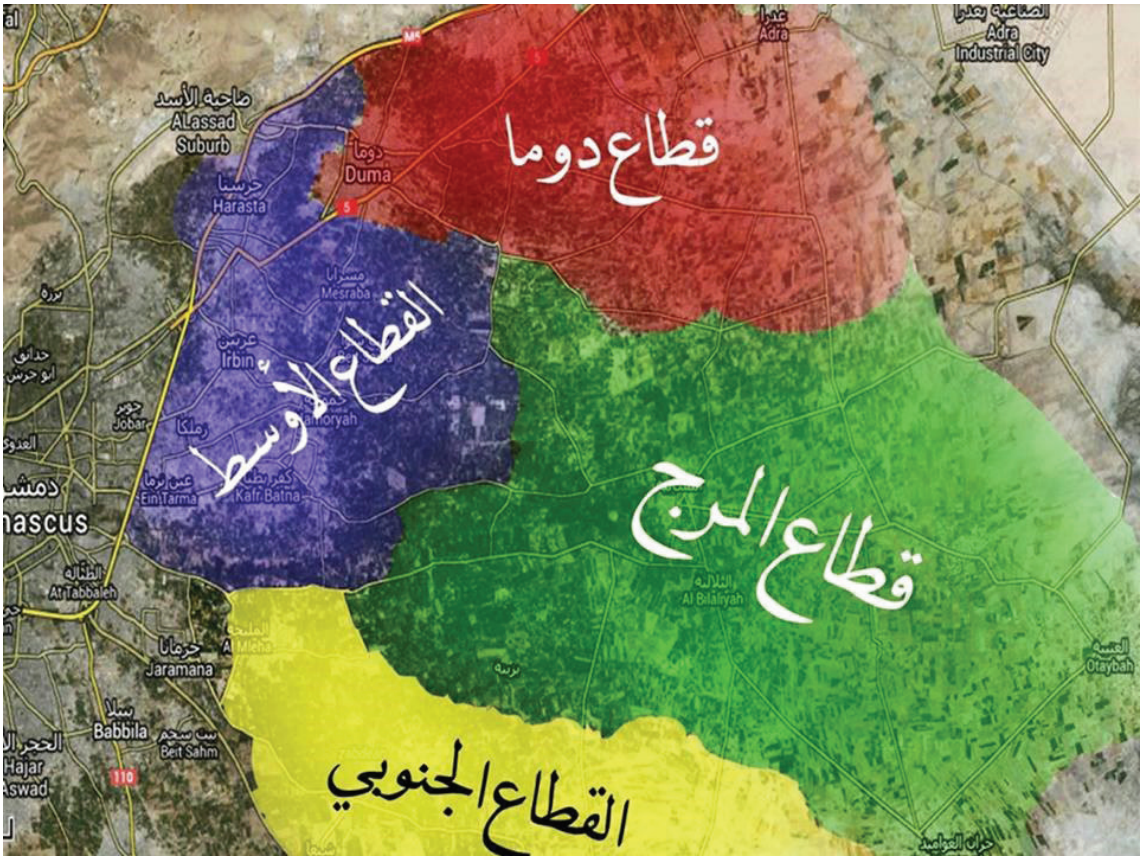

الشكل (1) قطاعات الغوطة الشرقية المحاصرة حتى أيار 2016. المصدر: خروقات النظام الممنهجة خلال الهدنة، عمران للدراسات الاستراتيجية، (26-4-2016)، https://2u.pw/Z6fqm6

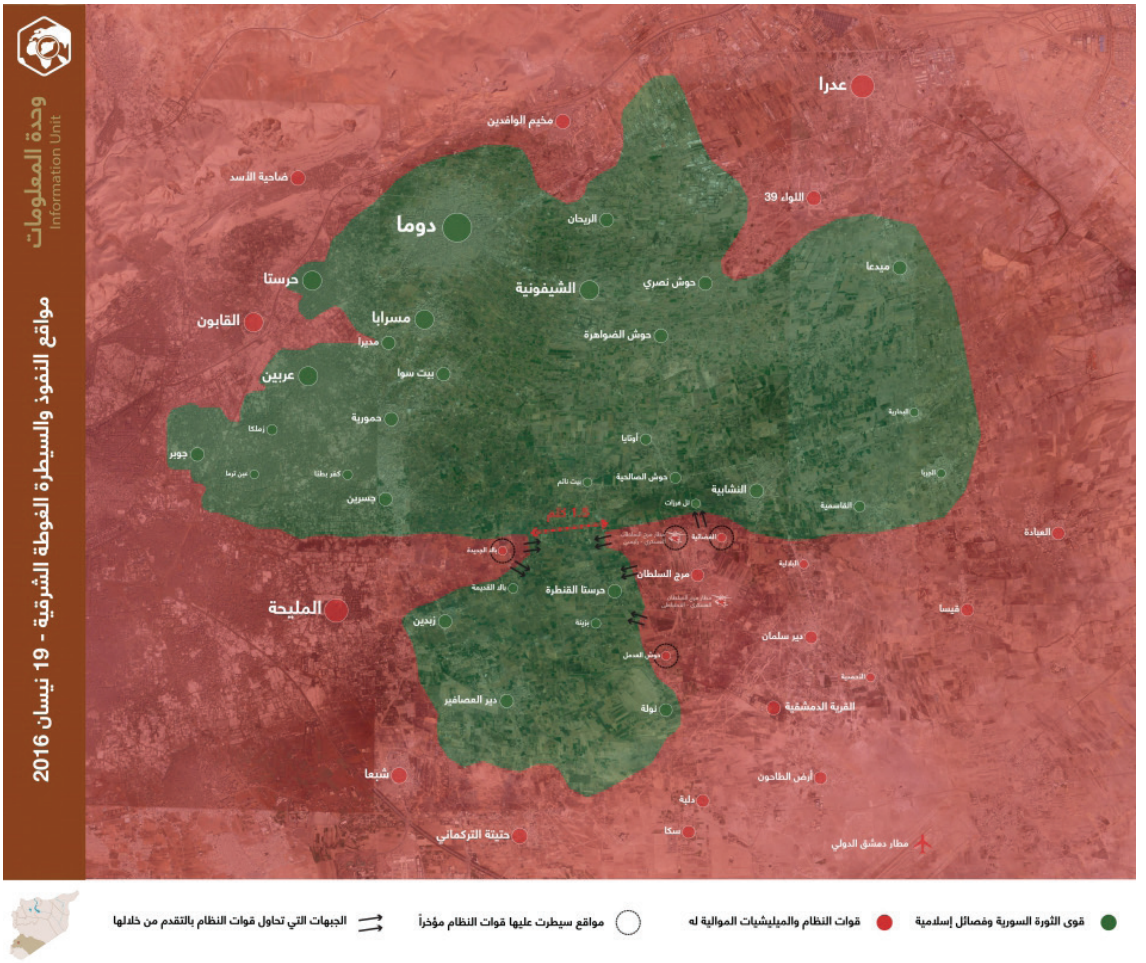

الشكل (2) الغوطة الشرقية المحاصرة حتى نيسان 2016. المصدر: خروقات النظام الممنهجة خلال الهدنة، عمران للدراسات الاستراتيجية، (26-4-2016)، https://2u.pw/Z6fqm6

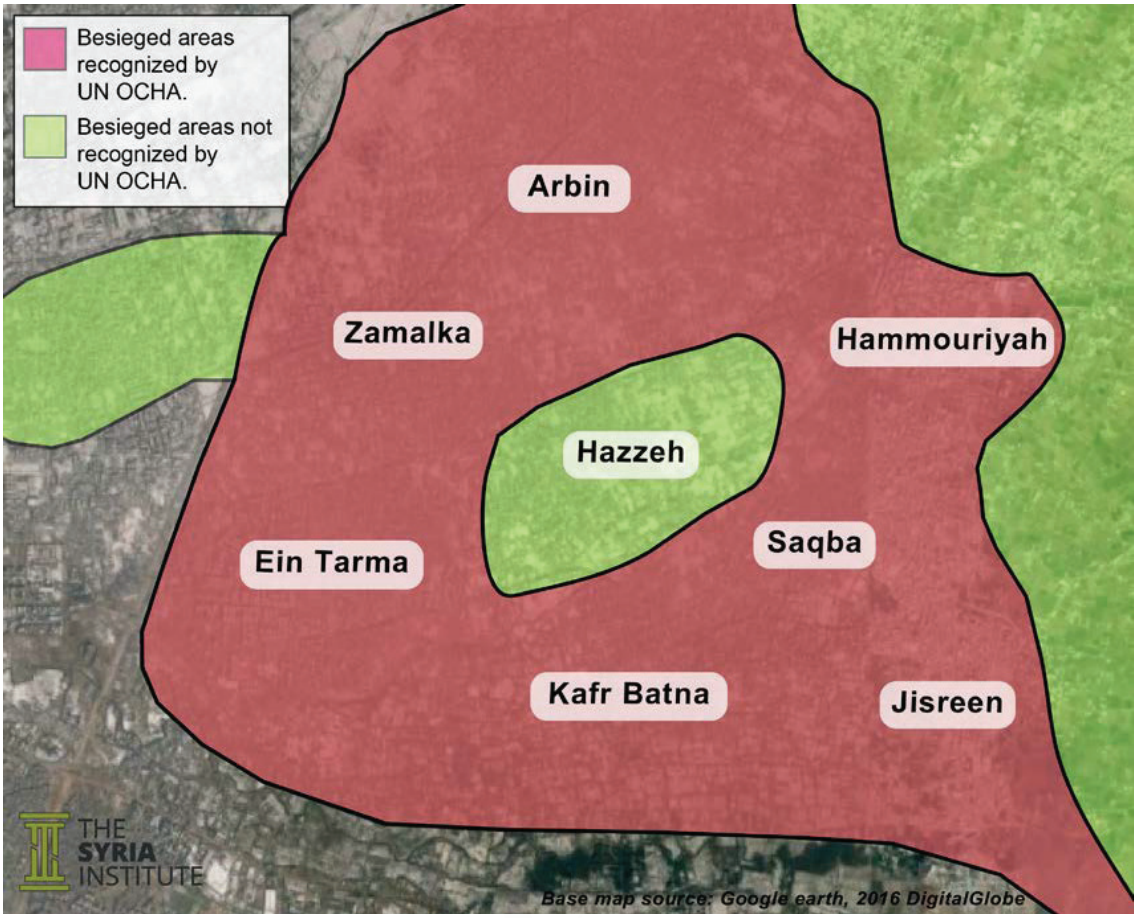

الشكل (3) تظهر حزة بصفتها منطقة غير محاصرة رغم عدّ كل ما حولها محاصرًا. المصدر: Siege Watch Final Report, p24.

أثر غياب سيادة القانون في انتشار الفقر في سورية

خالد العكيدي[1]

أولًا: الملخص

السوريون يبحثون عن رغيف الخبز على الأرض، وبقية الشعوب تبحث عن الكنوز على سطح القمر، فجنة الأرض أصبحت جحيمًا يكتوي به أبناؤها على يد ثلة من أبناء جلدتهم ممن حكموهم باسم السياسة والقانون، لكن القانون والسياسة لا يلتقيان إلا تحت مظلة سيادة القانون عندما تكون مصالح الشعوب الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية هي الغاية من دون تمييز بين غني وفقير وقوي وضعيف، وإلا فلا مكان للالتقاء. فسيادة القانون تأبى أن تنتهك الحقوق بأوامر مُشرعنة، وترفض التمييز بين أبناء البلد بحجج مصطنعة، وتقف في وجه عدم المساءلة والإفلات من الجزاء، وتدين إغلاق طرق العدالة في وجه الضعفاء. فسيادة القانون سبيل التنمية والنماء، وتغييبه العوز وانتظار الشفقة والصدقة، والضحية الكبرى الوطن والمواطن. فأين سورية في سياقات سيادة القانون؟.

ثانيًا: مقدمة

سورية البلد الذي يضم بين جنباته كثيرًا من الثروات الباطنية من النفط والغاز والفوسفات وغيرها، وتزرع فيه أجود أنواع الحبوب والبقوليات والسكريات والحمضيات، ويقصده كثير من السياح بسبب طبيعته الخلابة وتراثه الدال على حضارة أبنائه وعزتهم، إضافة إلى الثروات البشرية من أصحاب المهن العلمية والفكرية والمهنية التي تشكل أعمالهم وإبداعاتهم فخرًا للعالم بأسره. لكن على الرغم من تلك الإمكانيات كلها، فإن السواد الأعظم من أبناء هذا الشعب يعاني قسوة الحياة المادية والمعنوية، فراتب الموظف لا يكفي لسد الرمق، والمزارع ليس بحال أفضل، في حين تتنعم فئات قليلة بهذه الثروات، وكأنها ورثت ذلك من الآباء والأجداد. لم تكن تلك الحال لولا سوء التوزيع الاقتصادي وغياب المساواة في إتاحة الفرص وإفلات كثير من المفسدين من العقاب، ثم جاءت الحرب التي لم تبق وتذر في ظل انعدام المساءلة ونشوء طبقة تجار الحروب التي قضت على القلة المتبقية في يدي الناس.

تدني المستوى المعيشي للمجتمعات واحد من أعقد المشكلات التي تعانيها المجتمعات عمومًا، وبلاد العالم الثالث خصوصًا، والسقوط الأخلاقي للإنسانية يتمثل بتفرد الدول باستغلال خيرات وثروات الدول الأخرى، والأخطر من ذلك قيام فئة قليلة من المجتمع نفسه بالاستئثار بثروات الدولة، وحرمان غالبية الشعب منها،

(1) دكتور في القانون الخاص، باحث وقاض سابق.

مستغلين عدم مشروعية القوانين تارة، ومحاباة السلطة تارة أخرى، بينما يزداد حال أقرانهم سوءًا.

1. أهمية البحث

تسعى الدول جاهدة لوضع سياسات اقتصادية واقعية تراعي متطلبات الشعوب للمحافظة على الاستقرار الاجتماعي والسياسي، لأن حياة الإنسان وكرامته هما المحور الذي تدور حوله القوانين العالمية والمحلية كلها. ويشكل تحسين المستوى المعيشي أهم الوسائل التي تحافظ على كرامة الإنسان، وإلا سقطت الإنسانية على أعتاب الفقر المُشرعن بالقانون، وسقط الفقراء ضحية العدالة المفقودة.

2. إشكالية البحث

سيادة القانون هي البوتقة التي ينصهر فيها القانون والسياسة، فيجب على الساسة، وهم صناع التشريعات على مر العصور، استعمال سلطتهم لتلبية رغبات الشعب الحقيقة وفقًا للواقع بعيدًا عن فهمهم الذي قد يكون بعيدًا افتراضيًا. وقواعد القانون هي التي تحكم السياسة وسلوك السياسيين الذين يجب عليهم احترام هذه القوانين من دون الالتفات إلى الأهواء والمعتقدات الشخصية، فتُنظم الحريات والحقوق، ويسود الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي. فالفقر مع الثروة وسوء التخطيط الاقتصادي إفقار، وغياب الحقوق والحريات مع الطاقات العلمية والفكرية والبشرية افتقار إلى سيادة القانون. من خلال ذلك يتناول البحث إشكالية سيادة القانون والمرحلة التي وصلت إليها في سورية، وتبعاتها وآثارها في الحالة الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع السوري.

3. أهداف البحث

تحديد المستوى المعيشي للمجتمع السوري في ظل الحرب، ودور غياب سيادة القانون في انهيار الحالة الاقتصادية للمواطنين، والحلول المناسبة تشكل أهم أهداف البحث.

4. خطة البحث

عرض البحث عرضًا مبسطًا متناسبًا مع الغايات المرجوة، يتطلب اعتماد التقسيم الآتي: القسم الأول يتضمن التعريف بسيادة القانون ومرتكزاته، والقسم الثاني يتناول المستوى المعيشي في سورية، والقسم الثالث يناقش العلاقة بين غياب سيادة القانون وحالة الفقر، وأخيرًا الخاتمة والتوصيات الضرورية لحل مشكلة الفقر.

5. منهجية البحث

يعتمد البحث على الاستقراء والتوصيف والتحليل والمقارنة قدر الإمكان، مع أن البحث في كثير من المواضع

يرتبط بفلسفة القانون.

ثالثًا: سيادة القانون ومرتكزاته

كفلت المبادئ الأساسية لحقوق الإنسان حق العيش بكرامة، وأكدت قرارات الأمم المتحدة حق الرجال والنساء بالعيش مع أولادهم وبناتهم بكرامة في مأمن من الجوع والخوف والظلم[2].

في السنوات الأخيرات أضحى تقييم حقوق الانسان في الدول من خلال التقارير السنوية التي تصدر عن مؤسسات متخصصة عالمية تراقب حالة سيادة القانون، وهو في الوقت نفسه مؤشر على التنمية الاقتصادية ومستوى المعيشة[3].

سيادة القانون مصطلح قديم حديث في العلوم القانونية، وأدرج بوصفه مبدأ صريحًا من المبادئ الدستورية في الدساتير الحديثة أغلبها[4]، حتى إن الأمم المتحدة اعتمدته في وثائقها، ونظمت الندوات والمؤتمرات لإظهار قيمته الحقوقية على أساس أنه ركن من أركان الحكم.

لفهم مبدأ سيادة القانون فهمًا واضحًا يقتضي بيان مساره التاريخي، ومفهومه، ومن ثم تحديد مرتكزاته.

1. المسار التاريخي لمبدأ سيادة القانون

بدأ استخدام مصطلح سيادة القانون بهذا الوضوح لأول مرة في المؤتمر العالمي لحقوق الانسان في فيينا عام 1993[5]، وبعد ذلك تابعت لجان الأمم المتحدة المتخصصة إصدار التقارير السنوية من أجل تعزيز سيادة القانون، وصدر عدد من التوصيات لتعزيز مبدأ سيادة القانون، لكن جذور هذا المبدأ قديمة في التاريخ، وبعضهم ينسب ظهوره إلى غابر التاريخ في العصور القديمة، فهو من مبادئ العدالة الطبيعية التي عرفت في مصر القديمة وبابل وغيرهما، في حين إن بعضهم الآخر يعد أفلاطون وأرسطو أول من تحدث عن سيادة القانون بوضوح[6].

---

(2) د.م، حقوق الإنسان والسجون: مجموعة صكوك دولية في حقوق الإنسان في مجال إقامة العدل، (جنيف: الأمم المتحدة، 2004)، إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية، قرار الجمعية العامة 2000 A/55/L.2، ف 11 https://cdn.penalreform.org/ .

(3) خليفة ابراهيم عودة، "سيادة القانون ودورها في الحد من الجريمة"، ص 4، https://law.uodiyala.edu.iq؛ محمد سليمان الرفاعي، "الحكم الرشيد في الاردن- الواقع والمأمول"، المجلة العربية للإدارة، مج: 39، ع 3، (أيلول، 2019)، ص 38؛ برهان زريق، السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح الرشيد، (دمشق: مطبوعات وزارة الاعلام السورية، 2016)، ص 359.

(4) فايز محمد حسين محمد، "فلسفة القانون وسيادة القانون في الدولة الحديثة"، المحور، (د.ت)، ص 167. https://tafahom.mara.gov.om/storage/2013/ar/tafahom-al/039/pdf/09.pdf

(5) د.م، تعزيز سيادة القانون عن طريق التعليم- دليل لواضعي السياسات، مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، https://www.gcedclear-inghouse.org/resources/

(6) فايز محمد حسين محمد، "فلسفة القانون وسيادة القانون في الدولة الحديثة"، ص 176.، عاطف عبدالله عبد ربه،"دور الأمم المتحدة في تعزيز مبدأ سيادة القانون على الصعيدين الوطني والدولي"، مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية بكلية الحقوق جامعة الاسكندرية، ع 2، مج 4، (2017)، ص 752.

2. تعريف سيادة القانون

سيادة القانون من المصطلحات القانونية الفلسفية التي يصعب الوقوف على تعريف جامع لها[7]. يعده بعضهم النظامَ الذي يحاول حماية المواطنين من الاستخدام العشوائي والسيئ للسلطة الحكومية[8]، بينما يرى آخرون أنه الأداة المثلى في تحقيق العدالة المجتمعية بصورة يمكن الاعتماد عليها في الانتقال نحو مستقبل أفضل عبر إخضاع الأفراد لحكم القانون بصورة شفافة من دون التمييز بينهم[9]. في حين ورد في تقرير الأمين العام للأمم المتحدة أن سيادة القانون تعني خضوع جميع الأفراد والمؤسسات والقطاعات العامة والخاصة بما فيها مؤسسات الدولة لحكم القوانين الصادرة بصورة علنية، وتطبق على الجميع بالتساوي، ويحتكم في إطارها لقضاء مستقل، وتتفق مع المعايير الدولية لحقوق الإنسان[10].

يمكن القول باختصار إن سيادة القانون تعني خضوع الجميع في الدولة أفرادًا ومؤسسات، حاكمين ومحكومين، بالتساوي لقانون عادل مشروع يتماشى مع حقوق الإنسان في العيش بكرامة وحرية. والقول بسيادة القانون يعني سيادة العدالة التي تهدف إلى حماية الدولة من دون الاهتمام بالفئة الحاكمة، لأن زوال الحكام طبيعي لكن الكارثة في انهيار الدولة، وهذا ما يتوجب على القضاة السعي للمحافظة عليه من خلال قواعد العدالة.

ويخلط بعضهم بين سيادة القانون والقانون، حيث إن الأخير يمثل مجموعة القواعد السلوكية التي تحدد العلاقة بين البشر، وتوضح الحقوق والحريات[11]. وبعضهم الآخر يستخدم مصطلح الدولة القانونية محل سيادة القانون، حيث إن الدولة القانونية تلك التي تخضع نفسها للقانون، وليست التي تضع نفسها فوق القانون[12]، ولكن وجود القانون في دولة ما لا يعني أنها دولة قانونية، لأن القانون قد يكون غير مشروع لمخالفته القواعد الأساس لحقوق الإنسان[13]. وأخيرًا يستخدم بعضهم حكم القانون وإنفاذ القانون وسيادة القانون بالمعنى نفسه، في حين يقترح بعضهم استخدام الشرعية بدلًا من سيادة القانون[14].

---

(7) ميشيل تروبير، فلسفة القانون، جورج سعد (مترجمًا)، (بيروت: دار الأنوار، 2004)، ص 32 وما بعدها.

(8) عاطف عبدالله عبد ربه،"دور الأمم المتحدة في تعزيز مبدأ سيادة القانون على الصعيدين الوطني والدوليّ"، ص 758.

(9) خليفة ابراهيم عودة، "سيادة القانون ودورها في الحد من الجريمة"، ص 4.

(10) انظر التقرير بعنوان: سيادة القانون والعدالة الانتقالية في مجتمعات الصراع ومجتمعات ما بعد الصراع، https://www.ictj.org/ar/publication/ .

(11) هشام القاسم، المدخل الى علم القانون، (دمشق: مطبوعات جامعة دمشق، 2003)، ص 6، محمد سامح عاشور، مدخل الى علم القانون، (د.م: منشورات الجامعة الافتراضية السورية، 2020)، ص 3.

(12) سعيد السيد علي، المبادئ الأساسية للنظم السياسية وأنظمة الحكم المعاصرة، (القاهرة: دار الكتاب الحديث، 2005)، ص 16، عاطف عبدالله عبد ربه، "دور الأمم المتحدة في تعزيز مبدأ سيادة القانون على الصعيدين الوطني والدوليّ"، ص 768؛ دلال القحطاني، الدولة القانونية: التعريف الفقهي والتطور التاريخي، https://eipss-eg.org/.

(13) ليان مكاي، سيادة القانون، (معهد الولايات المتحدة الأمريكية للسلام، 2015) ص 5؛ ظافرمدحي فيصل وظريفة نادية، "ضمانات مبدأ سيادة القانون- العراق والجزائر أنموذجا"، مجلة العلوم القانونية/ كلية القانون، جامعة بغداد، عدد خاص (2018)، ص 287

(14) عصمت سيف الدولة، الطريق الى الديمقراطية أو سيادة القانون في الوطن العربي، ص 16؛ عاطف عبدالله عبد ربه،" دور الأمم المتحدة في تعزيز مبدأ سيادة القانون على الصعيدين الوطني والدوليّ"، ص 759؛ عبده محمد الصيادي، "مبدأ المشروعية وسيادة القانون في اللوائح التنظيمية لهيئة الشرطة في اليمن"، مجلة العلوم القانونية، (2020)، ص7.

3. مرتكزات سيادة القانون

المشروعية، والمساواة بين المواطنين، والمساءلة القانونية، وسهولة الوصول للعدالة تشكل أبرز المرتكزات المتفق عليها[15].

أ. المشروعية

مفهوم المشروعية

يشير بعضهم إلى المشروعية بوصفها تعبيرًا مرادفًا لسيادة القانون، في حين يرى بعضهم الآخر أن سيادة القانون تدخل ضمن المشروعية. ونرى أنه لا معنى لسيادة القانون في ظل غياب شرعية القانون، لأن الهدف من سيادة القانون احترام الحقوق وضمان الحريات، ولا قيمة للقانون غير المشروع[16]. وإذا كان قياس مشروعية القانون يرتبط بمطابقته الدستور، فهل يعد الدستور السوري متوافقًا مع قواعد حقوق الإنسان المتفق عليها عالميًا؟.

مقياس المشروعية

الأصل أن الدستور يمثل رغبات الشعب، ويحافظ على حقوقهم، ويصون حرياتهم، ويمنح الصلاحيات للدولة لإدارة الدولة والمحافظة على أداء المؤسسات مهماتها، وفي ضوء ذلك تشكل المشروعية حالة التوازن بين سلطة الدولة وحرية الأفراد[17]. والدستور ليس عبارات ومصطلحات رنانة تُجلب من تجارب دول أخرى، وليس ترجمة لقوانين بلاد متقدمة، ولكنه المُعبر عن تطلعات الشعب ورغبته في العيش بكرامة. فما قيمة وجود الحقوق بين دفتي الدستور، إذا كانت تلك الحقوق والحريات تنتهك على قارعة الطريق باسم سيادة القانون؟، وماذا يستفيد المواطن الجائع من وجود قانون يضاهي القانونين الأوروبي أو الأميركي، إذا كان يدفع الضريبة، ولا يحصل على فوائدها، بينما يستفيد المستثمر من تسهيلات قانون الاستثمار، ويتهرب من الضريبة؟.

من المفترض أن تلعب المحكمة الدستورية الدور الأبرز في تقييم مشروعية القوانين وإبطال المخالف منها، لكن اختيار أعضائها من طرف رئيس الجمهورية أفقدها قيمتها، وجعلها أداة بيد السلطة الحاكمة تقرر ما تراه الحكومة مناسبًا، فأضحت قراراتها مسيسة، وفقدت حيادها المفترضة[18]. فكثير من القوانين والمراسيم تشكل انتهاكًا صارخًا للدستور والاتفاقات الدولية المصادق عليها رسميًا، ومع ذلك لم يصدر عن المحكمة ما يشعر بوجودها.

(15) تقرير لجنة البندقية، "معايير سيادة القانون"، (2016)، https://www.venice.coe.int/.

(16) ليان مكاي، سيادة القانون، ص 4.

(17) برهان زريق، السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح الرشيد، ص 350، ليان مكاي، سيادة القانون، ص 4.

(18) إبراهيم الدرّاجي، المحكمة الدستورية في الدساتير السورية قراءة قانونية تاريخية، (د.م: منشورات LSE، 2020)، ص 101، حسن مصطفى البحري، القانون الدستوري والنظم السياسية، (د.م: منشورات جامعة الشام الخاصة، 2020)، ص 162.

ب. المساءلة القانونية

ترتبط المساءلة ارتباطًا وثيقًا بسيادة القانون[19]، وتتضمن تطبيق الجزاء المقابل للإخلال بالقواعد القانونية، بحيث يشعر المواطن بالثقة في قدرة السلطة على تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

ج. المساواة

سيادة القانون تتطلب إخضاع الجميع للقانون من حيث الحقوق والواجبات على قدم المساواة من دون التمييز بين الأفراد على أساس الطائفة أو الدين[20]. والمساواة مبدأ عالمي يدخل في صميم كل المواثيق الدولية[21]، ويشمل المساواة في دفع الضرائب والحصول على الدخل والامتيازات.

د. الوصول للعدالة

استقلال القضاء ونزاهته وتأمين وصول المواطنين إلى المحاكم من دون عناء مع حفظ حقهم بالطعن في الأحكام الصادرة تطبيقًا لمبدأ التقاضي على درجات تشكل القواعد الضرورية للعدالة، وهي أحد المرتكزات الأساس المؤثرة في تقييم حالة سيادة القانون في البلد[22].

4. تقييم حالة سيادة القانون في سورية

حداثة التشريعات لا تعكس على الرغم من أهميتها تطور المجتمع، فالعبرة في التطبيق الذي يتوافق مع العدالة الاجتماعية، وحقوق وحريات المواطن هي الأساس في تقييم احترام سيادة القانون، لكن الواقع يشير إلى أن سورية رُفعت في السنوات الأخيرات من قوائم المؤسسات الدولية التي تحدد حالة احترام وتطبيق سيادة القانون في الدول بسبب تغييب سيادة القانون[23].

---

(19) Sarker, Abu Elias & Rahman, Mohammad Habibur, The Role of Social Accountability in Poverty Alleviation Programs in Developing Countries: An Analysis with Reference to Bangladesh, Public Organiz Rev, A Global journal, volume 14, ıssue 1, (2014), p. 5.

(20) محسن عوض وعلاء شبلي ومعتز بالله عثمان، دليل التمكين القانوني للفقراء: معارف وخبرات، (د.م: المنظمة العربية لحقوق الانسان، 2013)، ص 112، سام دلة، القانون الدستوري والنظم السياسية، (حلب: منشورات جامعة حلب، د.ت)، ص 232، عبد الله المغازي، "المساواة وكفالة حق التقاضي"، مجلة الشرق الأوسط، ع: 47، (د.م: د.ت)، ص 288.

(21) Weiwei, Li, equality and non discrimination under international human right law, (Norwegian center for human right university of olso, 2004), p. 6.

(22) أحمد إبراهيم حسن، غاية القانون، دراسة في فلسفة القانون، (مصر: الدار الجامعية، 2000)، ص 137، ليان مكاي، سيادة القانون، ص 248. وانظر أيضًا: تقرير لجنة البندقية، قائمة معايير سيادة القانون، الفقرات من 86- 110.

https://www.venice.coe.int/images/SITE%20IMAGES/Publications/Rule_of_Law_Check_List_ARA.pdf.

(23) رسلان عامر، "مؤشر سورية في المؤشرات والتقارير الدولية والأرقام تتحدث عن نفسها"، (الدوحة/ إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 2022)، https://www.harmoon.org/reports/

رابعًا: الحالة الاقتصادية المعيشية للمجتمع السوري في ظل الحرب

تقييم المستوى المعيشي للمواطن في سورية يتطلب أولًا دراسة مفهوم الفقر ومقاييسه وفق الفقه الاقتصادي العالمي.

1. مفهوم الفقر ومحددات قياسه

الفقر مصطلح نسبي يختلف بين دولة وأخرى ومن زمان إلى آخر، ولا يوجد تعريف ثابت له[24]، فقد عرفه بعضهم بأنه عدم القدرة على تحقيق مستوى معين من المعيشة المادية يمثل الحد الأدنى المعقول والمقبول في مجتمع ما من المجتمعات في مدة زمنية محددة[25]، في حين إن البنك الدولي يرى أن الفقر يتمثل في عدم القدرة على تحقيق الحد الأدنى من مستويات المعيشة وغياب ملكية الأصول أو حيازة الموارد أو الثروة المتاحة المادي منها وغير المادي[26].

للفقر تصنيفات كثيرة أشهرها القائم على التمييز بين الفقر المطلق والنسبي، ويقسم الفقر المطلق أيضًا إلى الفقر المدقع والفقر غير المدقع. ويعرف الفقر المدقع بأنه عدم المقدرة على الحصول على دخل يكفي لإشباع الحاجات الأساس الضرورية من المأكل والملبس والمسكن[27]. في حين إن الفقر غير المدقع يمثل نقص قدرات الفرد في الوصول إلى الحد الأدنى من الدخل الذي سيكفي للاستمتاع بمستوى لائق للمعيشة، فتتمثل الحاجات الأساس المادية في الغذاء والملبس والمسكن والتعليم والصحة، أما الحاجات غير المادية، فتمثل المشاركة في الأمن والعدالة والديمقراطية[28].

وثمة عدد من المقاييس العالمية لتحديد حالة الفقر ومستوى المعيشة، ولكن أبسط هذه المؤشرات يعتمد على تحديد نصيب الفرد من الاستهلاك، أو نصيب الفرد من الدخل القومي[29].

ويحدد البنك الدولي حد الفقر في أوقات أو سنوات مختلفة بحسب الأوضاع العالمية، ففي عام 1985 حُدد بدولار واحد للفرد يوميًا، وفي عام 1990 حُدد بـ 1.25 دولار للفرد، وفي عام 2011 حُدد بـ 1.90 دولار للفرد

(24) JASMINE ZAMPROGNO, "Poverty, Promises, and Political Accountability: How a Lack of Accountability Caused New Zealand's Child Poverty Reduction Act to Fail", OREGON REVIEW OF INTERNATIONAL LAW, Vol. 22, 85, (2021), p. 88.

عبدالرزاق الفارس، الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، مكتبة مؤمن قريش، 2001)، ص 18، فايز سارة، الفقر في سورية نحو تحول جذري في سياسة معالجة الفقر، (د.م: مركز التواصل والابحاث الاستراتيجية،2011)، ص 5؛ مروة منصورقموح، "الفقر في العالم مع التركيز على مصر"، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع: 40 (2016)، ص 494.

(25) عبدالرزاق الفارس، الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربي، ص21، قموح، ص 495، فضيلة تواتي، "المقاربات النظرية لظاهرة الفقر- أسبابه ومشاكله وقياسه"، مجلة أبحاث ودراسات التنمية، مج: 8، ع: 2، (2021)، ص 336، سمير التنير، الفقر والفساد في العالم العربي، (بيروت: دار الساقي، 2001)، ص 57.

(26) فايز سارة، الفقر في سورية نحو تحول جذري في سياسة معالجة الفقر، ص 6.

(27) مروة منصورقموح، "الفقر في العالم مع التركيز على مصر، ص 497، عدنان حمدان، "الإطار المنهجي لمحددات الفقر والقرائن الاقتصادية لقياسه: حالة تطبيقية مقارنة على الدول العربية – سورية واليمن ومصر واليمن"، مجلة النهضة، مج: 12، ع: 4، (2011)، ص 4.

(28) مروة منصور قموح، "الفقر في العالم مع التركيز على مصر، ص 498، محسن عوض وعلاء شبلي ومعتز بالله عثمان، دليل التمكين القانوني للفقراء: معارف وخبرات، ص 37.

(29) عبدالرزاق الفارس، الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربي، ص 21، سمير التنير، الفقر والفساد في العالم العربي، ص 58.

الواحد[30]، أما التصنيف الأخير في عام 2017، فقد عد الحد الأدنى 2.15 دولارًا للفرد الواحد، وسيطبق بدءًا من خريف 2022، أي بدءًا من شهر أيلول الفائت، وهو المقياس في التطبيق الحالي[31].

2. المستوى المعيشي في سورية

الفقر حالة ليست استثنائية، فالله خلق البشر متفاوتين في العقول والأموال لحكمة يبتغيها، لكن المشكلة تكمن في إفقار الشعوب، والاستيلاء على أموالهم باسم القانون.

القلب ينفطر عند الكلام عن حال الشعب السوري وما وصل اليه من الفقر والتخلف غير الخافيين على أحد، وتصريحات خبراء الاقتصاد من داخل مناطق النظام للصحف اليومية توضح ذلك، فقد أشار رئيس مركز حماية المستهلك إلى أن دخل المواطن أصبح لا يتناسب لا من قريب ولا من بعيد مع أبسط احتياجاته الأساسية، وهو ما يشكل خطرًا حقيقًا يهدد تماسك المجتمع[32].

أظهر التقرير الصادر عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة بعد دراسة أجريت بالتعاون مع الحكومة السورية عن الواقع المعيشي في سورية بين عامي 1996-2004 وجود نسبة من الفقر تراوحت بين 10 بالمئة الى 30 بالمئة[33]، ويشير تقرير الأونروا إلى أرقام قريبة[34] مع أنه من المفترض أن تكون هذه المدة زمن ازدهار اقتصادي.

وتشير التقارير الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة إلى حالة مأسوية تستلزم المساعدة العاجلة، فنسبة الفقر في سورية تجاوزت 90 بالمئة، حيث يحتاج 13.4 ملايين شخص إلى المساعدة الإنسانية، بينما يعاني 12.4 مليون شخص حالة الانعدام الغذائي[35]. ووفقًا لتقرير آخر فإن أكثر من نصف مليون طفل دون الخامسة يعانون التقزم نتيجة لسوء التغذية المزمن[36]. في لغة الأرقام نحاول دراسة إمكان تأمين الاحتياجات الغذائية الأساسية – من دون الملبس والمسكن والتدفئة- لعائلة مكونة من أربعة أفراد، وفق الجدول الآتي:

(30) ياسمين شكيمة ومحمد بشير الأعور، "الفقر في المنطقة العربية وآليات مكافحة سياسات النمو الاقتصادي وسياسات توزيع الدخل"، مجلة البحوث الاقتصادية المتقدمة، ع: 5، (2018) ص 165.

(31) https://blogs.worldbank.org/ar/voices/tdyl-khtwt-alfqr-alalmyt .

(32) مجموعة العمل من أجل فلسطيني سورية، "الفقر في سوريا تجاوز كل المقاييس"، https://www.actionpal.org.uk/ar/post/ .

(33) فايز سارة، الفقر في سورية نحو تحول جذري في سياسة معالجة الفقر، ص 10، سمير التنير، الفقر والفساد في العالم العربي، ص 59.

(34) Syrian center for policy research, Unrwa, Syria War on development: socioeconomic monitoring report of Syria Second quarterly report (April – June 2013), p. 27.

(35) د.م، "سوريا: الأمم المتحدة تدعو الى دعم الغذاء الانساني وتمديد تفويض العمليات الانسانية عبر الحدود"، https://news.un.org/ar/story/2021/06/1078512.

(36) Syria conflict 10 years on: 90 per cent of children need support as violence, economic crisis and COVID-19 pandemic push families to the brink https://www.unicef.org/ .

المادة	احتياج شخص ليوم واحد		احتياج عائلة من أربعة أشخاص ليوم واحد		تكلفة إنتاج السلعة ليوم واحد بالدولار
	الكمية	السعرات الحرارية	الكمية	السعرات الحرارية	
بيض	بيضة واحدة	77.5	أربع بيضات	310	0.405
بطاطا	500غ	344	1600	1376	0.684
طماطم	250	45	1000	180	0.789
لبن	150	106.5	600	426	0.473
جبن	40	181.4	160	725.6	0.631
خبز	200	532	800	2128	0.421
زيتون	35	299	140	1199	0.110
زيت دوار شمس	65	577	260	2311	0.421
سُكر	40	155	160	620	0.263
تفاح	150	78	600	312	0.315
بعض المنكهات		0.0			0.001
لحم مرتين في الشهر	500/30	7.5	2000/30	30	0.526
طاقة لإنتاج الطعام فقط		0.0			0.157
		2402.9		9587.6	5.196

بمقتضى الجدول أعلاه، فإن العائلة المؤلفة من أربعة أشخاص تحتاج إلى 155 دولار شهريًا لتأمين أبسط الاحتياجات من السلع الغذائية الضرورية لاستمرار الحياة فقط، من دون حساب الملبس والمسكن والتدفئة[37]، فإذا علمنا أن 90 بالمئة من العائلات السورية لا يتجاوز دخلها الشهري 120 دولار على أحسن تقدير، فإن 90 بالمئة من السوريين دون خط الفقر[38].

3. علاقة الفقر بسيادة القانون

في نتيجة طبيعة للتلازم بين سيادة القانون وحقوق الانسان، والترابط بين سيادة القانون والتنمية، فإن غياب الأول يؤدي بصورة طبيعية إلى إهدار حقوق الانسان ومن بينها حق العيش بكرامة بمنأى عن الجوع

(37) تتشابه أسعار المواد باستثناء مادة الخبز التي توزع بسعر أرخص في مناطق الإدارة الذاتية بسبب توافر الوقود بسعر رخيص، لكن في الوقت نفسه دخل الفرد أقل بقليل من المناطق الأخرى.

(38) الأرقام تتحدث عن الفقر المدقع فقط، من دون الإشارة إلى التعليم والصحة اللذين يدخلان في الفقر غير المدقع.

والخوف والظلم. والربط بين الفقر وغياب سيادة القانون يتطلب دراسة العلاقة بين انتهاك مرتكزات سيادة القانون ونشوء الفقر في المجتمع[39].

أ. الفقر المتولد عن الإخلال بالمشروعية

الجميع متفق على أن المشروعية تعني تطابق القوانين الصادرة من السلطة التشريعية والأنظمة والتعليمات مع أحكام الدستور على بوصفه القانون الأعلى في الدولة[40]، وأن السلطة إذا لم تلتزم بالمشروعية، فإنها تصبح قادرة على ابتلاع حقوق الأفراد بالقوة. تعد المصادرة والحرمان من الحقوق المالية وسوء التخطيط الاقتصادي أبرز أسباب الفقر الناتجة عن الإخلال بمشروعية القوانين التي تشكل أحد مرتكزات سيادة القانون.

- **المصادرة وتهجير الطاقات البشرية**

في الوقت الذي كان ينتظر الشعب السوري من خلال المطالبات الشعبية عبر القامات العلمية والفكرية تعزيز سيادة القانون بغية إعادة سورية إلى سابق عهدها، تمد يد المساعدة إلى الدول الأخرى، لكن ما حدث كان على النقيض، فصدر قانون الإرهاب مصنفًا أولئك بالإرهاب، بينما عاث اللصوص فسادًا في البلد مستغلين النفوذ والمحاباة. هذه الوقائع أدت إلى نتائج معروفة مسبقًا، فقد أشعلت حربًا كان وقودها البشر والحجر، وتعمقت جراح السوريين، وإن شئت القول سقطت سورية الجريحة المكلومة وشعبها العظيم في يد ثلة من أبنائها الذين افترسوها، فزاد الفقر فقرًا والذل إذلالًا.

وصدرت الأحكام من محكمة الإرهاب بمصادرة كثير من أموال المعارضين وممتلكاتهم، وحتى حرمان كثير من الموظفين مصدر رزقهم الوحيد، بناءً على ضبوط الأمن التي يعرف القضاة قبل غيرهم كيف تُنسج، وكأنها دستور منزل، مع علمهم المسبق بأن المصادرة العامة ممنوعة حتى لو صدرت بقانون لمخالفتها نص المادة 1/15 من الدستور ونصوص حقوق الانسان[41]. ليس هذا فحسب فقد هُجرت الطاقات الفكرية والبشرية التي وجدت من يُنصفها خارج بلادها، ما أسهم في إفقار الشعب السوري الذي أضاع تلك الخبرات التي كانت تطمح لبناء وطنها. واستمرارًا للمعاناة فقد هجر كثير من العقول والطاقات البشرية مجددًا مناطق المعارضة إلى أوروبا وأميركا، وتجددت أيضًا مصادرة الأملاك في عموم سورية باختلاف الهيئات المسيطرة على تلك المناطق. هذه المصادرات تسببت بافقار عدد من الأشخاص الذين كانت أجرة البيت الذي يملكونه مصدر رزقهم الوحيد.

- **الحرمان من الحقوق المالية**

كثيرة تلك التشريعات التي تقيد حق المواطن بالتمتع بحقوقه المالية، وتسلبه مصدر رزقه:

- تقييد يد المالكين من التصرف بالممتلكات من خلال عدد من التعليمات والبلاغات الصادرة عن وزارة العدل

(39) المعايير والقواعد والعناصر والمرتكزات تعابير مستخدمة في تقييم أسس سيادة القانون.

(40) خليفة إبراهيم عودة، "سيادة القانون ودورها في الحد من الجريمة"، ص 5.

(41) المادة 12 من القانون 19 لعام 2012؛ تشير التقارير إلى أن عدد المصادرات وصل الى 30 ألفًا في عام 2016، وأربعين ألفًا عام 2017، انظر: د.م، الاقتصاد السياسي في سورية ترسيخ توجهات ما قبل الحرب، مركز مبادرة الإصلاح العربي، https://www.arab-reform.net/ar/publication/

المتضمنة عدم قبول أي وكالة خارجية قبل الحصول على موافقة أمنية[42]، وكذلك اشتراط الموافقة الأمنية قبل منح الوكالات عن المفقودين والغائبين[43]. هذا التعميم مخالف للدستور ومبادئ حقوق الانسان، لأن إطلاق (رفض إرهابي) من دون حكم قطعي صادر وفقًا لإجراءات عادلة يخالف المبدأ العالمي المقرر لحقوق المتهم، وأنه بريء حتى يدان بحكم قطعي. ومع أن البلاغات الوزارية غير ملزمة للقضاة قانونًا، إلا أن عددًا من القضاة عُزلوا بسبب مخالفتها. من جهة أخرى يشير الواقع في سورية إلى أن مراجعة الفروع الأمنية تشكل حالة من الرعب للسوريين، فكثير من المواطنين قضوا فيها شهورًا طويلة بسبب تشابه الأسماء فقط قبل أن تُعلن براءتهم لاحقًا، حتى إن كثيرًا منهم خرج مختل الشعور أو في الحد الأدنى معوقًا لا يقوى على كسب قوت نفسه، عالة على غيره، إضافة إلى الذين فقدوا حياتهم.

-التصرف بالأملاك الخاصة العائدة للفارين من الحرب من خلال استغلالها وإيجارها لمصلحة السلطة الحاكمة، فقد عمدت السلطات المحلية في إدلب وحلب إلى تأجير الاراضي الزراعية لبعض الشخصيات المتنفذة التابعة للحكومة عبر المزادات، مخالفة الدستور والقوانين التي تمنح المالك حق الاستغلال والاستعمال والتصرف[44].

- صدرت القوانين التي تنظم عمليات التجميل العمراني محددة مددًا زمنية لإثبات الملكية لا تتناسب مع حال السوريين الذين فقدوا كثيرًا من وثائق الملكية نتيجة هدم بيوتهم بسبب الحرب، ودُمر عدد من السجلات العقارية المثبتة لحقوق المالكين، وأتلف، الأمر الذي يؤدي إلى سلب الحقوق والممتلكات[45]. حتى إن النص الذي يمنح الأقارب الحق بالمراجعة وإثبات الحقوق أضحى من دون معنى في ظل اشتراط المراجعة الأمنية التي تخلق حالًا من الذعر للمواطنين[46].

- **سوء التخطيط الاقتصادي**

عدم ملائمة القوانين للواقع يشكل إخلالًا بالدستور الذي من المفترض أن يضمن كرامة الانسان وحقوقه في العيش السليم[47].

- الاستثمار من أهم العوامل التي تساعد في تخفيض نسبة البطالة وزيادة الدخل[48]، إلا أن التخبط في قوانين الاستثمار التي لم ترسم على أسس صحيحة، وتغيرت مرات عدة، فابتداءً بسيارات الاستثمار التي طال الانتظار حتى تم حلها، وشراء الطائرات المستعملة بأسعار الجديدة منها لسرقة أموال الشعب بغطاء المنصب، وصولًا إلى القانون الأخير الذي لم يفلح في خلق الفرص الاستثمارية وتشجيع الاستثمار، فالصناعيون الذين غادروا لم تعد بهم الرغبة في العودة. ويقول أحد خبراء الاقتصاد إن القرارات الحكومية لتشجيع الزراعة والصناعة خجولة

(42) التعميم رقم 19 لعام 2019 https://www.syrian-lawyer.club .

(43) التعميم رقم 30 لعام 2021 https://stj-sy.org/ar .

(44) الجمعية العامة للأمم المتحدة، مجلس حقوق الانسان، تقرير اللجنة الدولية المستقلة بسورية، الدورة 49 (2022)، الفقرة 45.

(45) القانون 10 لعام 2018 المعدل بالقانون 42 لعام 2018.

(46) المادة 1/ب من القانون 42 لعام 2018 المُعدل للقانون 10 لعام 2018.

(47) برهان زريق، السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح الرشيد، ص 355.

(48) ماهر ملندي، القانون الدولي الاقتصادي، (منشورات الجامعة الافتراضية السورية، 2018)، ص 70.

مقارنة بقطاع السياحة، وإن الصناعيين معظمهم محرومون من السوق الصناعي والزراعي نتيجة القرارات غير المدروسة، ما أدى إلى تدهور الوضعين الاقتصادي والمعيشي[49].

- الرواتب والأجور تشكل مصدر الدخل الأساس للشريحة الكبرى من المواطنين في سورية، ويجب أن تكون حافظة لكرامة الموظف، ولائقة بمنزلة الوظيفة الحكومية، لكن القيمة الحقيقة للأجور بدأت تتناقص منذ تسعينيات القرن الماضي، حتى أصبحت حالة الموظف، وبالتبعية الوظيفة العامة، يرثى لها. فعندما تشاهد المعلم يعمل سائق تكسي أو في ورشة خارج أوقات عمله لتغطية نفقاته، مع أن الإنتاج المحلي من النفط والغاز كافٍ لجعل دخول المواطنين ضمن سوية الدول الأوروبية. وعلى الغم من ذلك كله، جاءت الزيادة الأخيرة على الرواتب والأجور غير متناسبة مع الحد الأدنى للعيش أو بالأحرى مع خط الفقر، متجاهلة الانخفاض الحاصل في قيمة الليرة السورية[50]، وهي لا تكفي لسد حاجات أيام معدودة من الشهر بأبسط مستلزمات الحياة[51].

- الجميع يعلم أن قانون الضريبة في سورية غير عادل، فيعد خبراء الاقتصاد نظام الضريبة على الرواتب والأجور غير مراعٍ أوضاع ذوي الدخل المحدود، ويزيد من تدني مستوى المعيشة بصورة كبيرة، لأن من شروط النظام الضريبي أن يكون ملائمًا للأوضاع المادية والمعيشية لدافعي الضرائب[52]. ولم يتغير شيء في التعديلات الأخيرة على قانون الضريبة، فشملت نسبًا من الضريبة على الرواتب والأجور التي لا تكفي للمعيشة أصلًا[53].

وتشير التقارير أيضًا إلى أن الإدارة الذاتية أصدرت التشريعات التي تتضمن فرض ضرائب غير متناسبة مع الرواتب والأجور[54].

ب. الفقر المتولد عن غياب المساءلة القانونية

الوضع القائم على سيادة الفلتان الأمني وغياب المساءلة القانونية أديا إلى غياب الاستثمار وإغلاق المشروعات المنتجة[55]. ومظاهر غياب المساءلة كثيرة، منها القديم المستمر، والآخر ظهر بعد عام 2011.

- الفساد الإداري المستمر المتمثل بعدم التزام المؤسسات بالقوانين، واستغلال السلطة[56]، وتعد الرشوة

(49) د.م، "تسارع اغلاق الشركات الاقتصادية في مناطق سيطرة النظام السوري"، الشرق الأوسط، ع: 16036، (24 تشرين الأول/ أكتوبر، 2022). https:// aawsat.com/home/article/3947571 .

(50) هاني كيكي وإلياس نحمة، "الضرائب المباشرة في سورية من منظور العدالة الضريبية"، ص 25، https://www.researchgate.net/publication.

(51) المرسوم التشريعي رقم 29 لعام 2021 الذي يقضي بزيادة رواتب العاملين بنسبة 30 بالمئة فقط، والقانونان 34 و35 لعام 2022 اللذان يقضيان بزيادة رواتب القضاة بمقدار 200 بالمئة، ورفع تعويض المكتبة ليصبح خمسين ألف ليرة سورية.

(52) محمد الجليلاتي، "النظام الضريبي السوري واتجاهات اصلاحه"، جمعية العلوم الاقتصادية السورية، (2019)، ص 13، هاني كيكي، وإلياس نحمة، الضرائب المباشرة في سورية من منظور العدالة الضريبية، ص 28.

(53) محمد حلاق، التشريع الضريبي، (د.م: منشورات الجامعة الافتراضية، 2018)، ص 146- 147.

(54) آزاد حمكاري، RÜDAW، 9/26/2509201611https://www.rudawarabia.net/arabic/kurdistan.2016.

(55) ماهر ملندي، النظام الاقتصادي الدولي، (د.م: منشورات الجامعة الافتراضية، 2018)، ص 67 وما بعدها.

(56) مهند نوح، "الفساد الإداري"، الموسوعة العربية، http://arab-ency.com.sy/law/category/4؛ شريف أحمد الطباخ، أثر الفساد الحكومي في انتشار الجريمة، (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، 2012)، ص 69.

والفساد الاجتماعي وعزوف المستثمرين عن القيام بالاستثمار بسبب كثرة الرشاوى التي يتلقاها الموظفون أبرز نتائجه[57]. وتشير التقارير إلى أن سورية تقبع في المراتب العشر الأكثر فسادًا في العالم وفقًا لمنظمة الشفافية العالمية لعام 2017.

- انتشار اقتصاد الظل الذي تسبب في انخفاض الأجور بسبب عدم وجود فرص للعمل، واضطرار المواطن للعمل عند تجار الأزمات الذين سيطروا على مقدرات البلد بعد عجز السلطة الحاكمة عن ضبطهم نتيجة شرعنة أعمالهم بذريعة الحرب[58]. ويشير تقرير لجنة العمل الدولية إلى أن تراجع النمو الاقتصادي، وانتشار الفقر أساسه عدم وجود أطر قانونية ومؤسساتية ملائمة وفعالة[59].

- التهرب الضريبي الخطر الأكبر المؤدي إلى إفقار غالبية المواطنين مقابل زيادة الرفاه للقلة المستثمرة بأموال الشعب، فشركة الاتصالات (سيريا تيل) العائدة لرامي مخلوف التي عملت لسنوات طويلة باستثمار مقدرات الشعب السوري من دون أن تسدد للدولة الاستحقاقات الضريبية المتوجبة، ما حدا بالحكومة بعد سنوات من التهرب الضريبي إلى الحجز على أموالها من دون جدوى، لأنها هُربت أصلًا عبر لبنان إلى دول أخرى.

- غياب المساءلة لعناصر الحواجز والفصائل المنتشرة على امتداد سورية التي استمدت قوتها من السلطة الحاكمة، فأضحت أكبر منها، ففرضت الأتاوات على السلع ووسائل الإنتاج المنقولة عبر المدن، لإرغام التجار وغيرهم على دفع الأموال، ما تتسبب في عزوف المستثمرين عن فتح مشروعات مساعدة في تحسين الحالة الاقتصادية. وكانت تمارس هذه الحواجز عمليات سلب الموظفين الذين كانوا يقبضون رواتبهم في طريق عودتهم إلى بيوتهم، حيث كانوا يقاسمونهم مصدر دخلهم باسم حمايتهم من الإرهاب.

يضاف إلى ما تقدم سرقة المولدات والأسلاك الكهربائية، والكابلات الهاتفية، والسكك الحديدية، والمشروعات الإنتاجية، ما أسهم في القضاء على البنية التحتية التي هي ملك الشعب لا الحكومة.

ج. الفقر المتولد عن عدم المساواة

المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين أحد مرتكزات سيادة القانون، وأشارت إلى ذلك المادة 2//33 من الدستور، وقد أدى انتهاك هذا المرتكز إلى تأثر المركز الاقتصادي للمواطنين، ونشير إلى بعض الأمثلة للتدليل على ذلك.

- فقانون التشاركية بين القطاع العام والخاص الذي أقر في عام 2016 في خطة لتحسين الاقتصاد، جاء بنتائج معاكسة، حيث أدى إلى سيطرة شبكات المحسوبية الرأسمالية على الأصول العامة، فقد مُنحت شركة القاطرجي الامتيازات في القطاع النفطي، في ما حازت شركة وسيم قطان على امتيازات الفنادق والمجمعات التجارية[60].

(57) ERIC M. USLANER, Corruption, Inequality, and the Rule of Law, Published in USA, Cambridge University Press, New York, 2008, p. 7.

(58) رشا سيروب ورامي زيدان، "تقرير عن اقتصاد الظل في سورية نقلًا عن الخبراء في الاقتصاد"، جريدة البعث السورية، 22 تموز/ يوليو 2022، http://22/06/newspaper.albaathmedia.sy/2022.

(59) د.م، الخلاص من الفقر: تقرير مؤتمر العمل الدولي الحادي والتسعون، (جنيف: مكتب العدل الدولي، 2003)، ص 80، https://www.ilo.org/public/arabic/standards/relm/ilc/ilc91/pdf/rep-i-a.pdf.

(60) د.م، الاقتصاد السياسي في سورية ترسيخ توجهات ما قبل الحرب، مركز مبادرة الإصلاح العربي، https://www.arab-reform.net/ar/publication/.

وأكدت التقارير بأن هذه الاستثمارات منحت لشخصيات متنفذة في السلطة، وأدت إلى نشوء طبقة مترفة على حساب مصالح الطبقة الفقيرة التي لم تستفد من هذه الخطة[61].

- التمييز بين المواطنين في المناقصات لإنجاز المشروعات العامة، فمشروعات إنشاء وتعبيد الطرق والجسور كانت تمنح لشخصيات متنفذة مقربة، مثل شركات تنفيذ الإنشاءات العسكرية، ومؤسسة الإسكان العسكرية التي كانت تتمتع بصلاحيات استثنائية[62]، ومصانع الألبان والأجبان والمعلبات أيضًا لم تسلم من ذلك.

- إن رفع الدعم عن بعض السلع الاساسية لبعض المواطنين من مثل الكهرباء والوقود والخبز بهدف توفير موارد للخزينة، كون ظاهرة إفقار الفقراء كما يسميها بعض الاقتصاديين[63]، وترتب على ذلك نتائج أخطر، حيث أغلقت كثير من المشروعات الزراعية الصغيرة التي كانت توفر العمل والسلع[64]. ويوضح الجدول الآتي قيمة الدعم السنوي وفقًا للموازنة العامة[65].

السنة	الموازنة بالليرة السورية	الموازنة بالدولار	الدعم المقدر بالليرة السورية	الدعم المقوم بالدولار	سعر الصرف
2012	1326.55 مليار	18.950 مليار	386 مليار ليرة سورية	5.514 مليار دولار	70
2013	1383 مليار	14.712 مليار	512 مليار ليرة سورية	5.446 مليار دولار	94
2014	1390 مليار	8.967 مليار	615 مليار ليرة سورية	3.967 مليار دولار	155
2015	1554 مليار	6.906 مليار	983 مليار ليرة سورية	4.368 مليار دولار	225
2016	1980 مليار	4.95 مليار	973 مليار ليرة سورية	2.432 مليار دولار	400
2017	2660 مليار	5.037 مليار	423 مليار ليرة سورية	0.801 مليار دولار	528
2018	3187 مليار	6.793 مليار	750 مليار ليرة سورية	1.599 مليار دولار	469
2019	3882 مليار	7.256 مليار	811 مليار ليرة سورية	1.515 مليار دولار	535
2020	4000 مليار	4.371 مليار	373 مليار ليرة سورية	0.407 مليار دولار	915
2021	8500 مليار	4.086 مليار	3 تريليون و500 مليار ليرة سورية	1.682 مليار دولار	2080
2022	13 تريليون وثلاثمئة وخمسة وعشرون مليون	3.692 مليار	5 تريليون و529 مليار ليرة سورية	1.533 مليار دولار	3605
2023	16 تريليون خمسمئة وخمسة خمسون مليون	3.009 مليار	4 تريليون و927 مليار ليرة سورية	0.895 مليار دولار	5500

(61) مرجع سابق.

(62) سمير سعيفان، "عن تجربته في مؤسسة الإسكان العسكري"، https://syriatrends.com/.

(63) الخطة تشير إلى بقاء العاطلين عن العمل وذوي الدخل دون الحد الأدنى للأجور، مع أن الحد الأدنى للأجور دون خط الفقر، سيريا نيوز، https://syria.news/90a98972-27112112.html؛ رشا سيروب، "إفقار الفقراء بقرار حكومي"، https://awanmedia.net/opinion-analysis/.

(64) جوزيف ضاهر، "خفض الدعم عن المشتقات النفطية تبعاته في سورية"، مايا صوان (مترجمة)، MEUI (2021).

(65) الأرقم مأخوذة من نشرات وزارة المالية للنظام السوري، ومن: "ثلاثة أرباع الدعم الحكومي تم شفطه في عشر سنوات"، مركز قاسيون للدراسات، (2018/2/14)، و: "الموازنة العامة في سورية لعام 2019 أداة لتمويه الواقع الاقتصادي"، مركز عمران للدراسات الإستراتيجية، (2018/12/24).

وبقراءة بسيطة لمحتويات الجدول يتضح انخفاض نسبة الدعم الحكومي للطبقة الفقيرة التي من المفترض أن تزداد حصتها في هذه الأوضاع، ما يؤكد السير باتجاه إفقار الفقراء.

ولا بد من القول بأن ظاهرة دعم بعض السلع معتمدة في بعض المناطق في الشمال السوري والشمال الشرقي، لكنها غير كافية لتحسين المستوى المعيشي[66].

د. الفقر المتولد عن غياب العدالة

إذا كانت استقلالية القضاء وحياده طريق الوصول إلى العدالة، فإن صعوبة الوصول إليه أو تأخير البت في الطلبات، أو عدم تنفيذ القرارات القضائية طريق لنشوء حالة الفقر والظلم في المجتمع.

حق التقاضي مصون بالدستور ومتاح للجميع، لكن شكوى الضعفاء تصطدم بمصالح أمراء الحرب، فتعود عليهم بالوبال. فالواقع العملي يشير إلى خشية بعضهم من الشكوى عند نزع ممتلكاتهم وسرقة أموالهم خوفًا من مواجهة المتنفذين، حتى لو صدرت أحكام لصالحهم[67]. وهذا ليس حال المواطن فقط، فحال كثير من القضاة يشابه ذلك بسبب تسلط السلطة التنفيذية على رقاب القضاة الذين ينفذون خشية النقل أو العزل، فأضحى مبدأ استقلال القضاء مبدأ من دون مضمون[68].

إذا كان القانون يرسم حدود الحقوق والحريات، فالقضاة أمناء على صيانتها وحماية المواطنين من بطش السلطات، لكن الكارثة عندما يدخل بعض القضاة أنفسهم معترك السياسة، ويبتعدون عن الحياد المفروض كواجب قانوني وأخلاقي. فعندما يعلل أحد القضاة في دمشق قراراه برد دعوى المدعي بطلب طرد الغاصب بأن المدعي مقيم في تركيا، ومن ثم، فهو من الإرهابين، ولا يحق له إخلاء بيته من الشخص الذي يقيم فيه، ضاربًا بعرض الحائط قانون الملكية وحقوق استعمال واستغلال والتصرف في العقار المصانة بالدستور. وهذا ليس القرار الوحيد، فهذه الواقعة تكررت في عدلية حلب، وردت الدعوى بحجة أن صاحب البيت خارج سورية.

وليس بعيدًا عن ذلك، فعدم تنفيذ القرارات القضائية كان بسبب فساد الأجهزة المساعدة للقضاء، فأجهزة الشرطة من المفترض أنها الجهة المخولة بتنفيذ القرارات القضائية، إلى جانب أن بعض المحكومين أقوى من أجهزة الدولة أصلًا، ولا يمكن الوصول اليهم أو محاسبتهم. فكثير من المذكرات القضائية تبقى حبيسة الدروج في المكاتب حتى يسقط الحكم من دون تنفيذ، وهذه حالة ليست بالجديدة، فدوائر تنفيذ الأحكام الجزائية في قصور العدل متخمة بهذه المذكرات، في حين إن المطلوبين لمذكرات أمنية غير قانونية أصلًا يُجلبون على بساط الريح.

(66) هذا الدعم يشمل الخبز في مناطق جرابلس واعزاز عبر المجالس المحلية بدعم من بعض المنظمات، بينما يشمل الخبز والمازوت في مناطق الإدارة الذاتية بوصفها المسيطرة على منابع النفط.

(67) برهان زريق، السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح الرشيد، ص 364.

(68) ما يزال عدد من القضاة الشرفاء في كل مكان من سورية ثابتين على مبادئهم التي أقسموا عليها، ولا يخشون أحدًا.

خامسًا: الخاتمة

سقوط العدالة آذن بخراب البلاد وسوء حال العباد، وهذا حال المجتمع السوري بعد سنوات الحرب، حيث وصل الفقر في المجتمع السوري إلى درجة مخيفة سواء في درجته أم في عدد الفقراء، فقد انقرضت الطبقة المتوسطة التي شكلت العمود الفقري للمجتمع السوري، وأضحت من ضمن الطبقة الفقيرة التي زادت بؤسًا وفاقة، بينما زاد ثراء الطبقة الغنية. ولم تكن الحرب والعقوبات الاقتصادية السببين الوحيدين في هذه الصورة القاتمة -كما يُظن-، لكن القوانين البعيدة عن الواقع والشرعية، وسيطرة تجار الحرب على أقوات الناس برضا السلطات ومساعدتها، وفقدان الشعور بالعدالة وإمكان استعادة الحقوق المسلوبة، إلى جانب تهجير الخبرات العلمية والمهنية المُطالبة بالمساواة والحقوق ورفع الظلم، كلها شكلت عوامل أساسًا في وصول الحالة الاقتصادية بل الحالة الاجتماعية الفكرية إلى حد الموت، وليس خط الفقر فحسب. لم يبق معنى لسيادة القانون، وبات الناس يكرهون سماع هذه الكلمة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فالقانون الذي يطبق على الفقراء، ويدوسه المتنفذون والسارقون جسد بلا روح، عدالة بالاسم، ظلم في الواقع والحقيقة.

الحلول كلها التي يمكن أن تقترح لانتشال هذا الشعب الجريح من خطر الموت تبدو مستحيلة التطبيق إلا العدالة الانتقالية التي أثبتت جدواها في عدد من الدول التي عانت حروبًا وظلمًا لسنوات طويلات، هذه العدالة التي تشكل سيادة القانون قاعدتها ومرشدها على أسس الحقوق والحريات المحددة بالتشريعات العالمية التي تتبنى كرامة الانسان فوق كل اعتبار وسلطة. ولكن لا بد لهذه العدالة من هيئات قضائية مستقلة عن أي تأثير سياسي بإشراف دولي حقيقي بعيدًا عن المصالح الدولية حتى تكون قادرة على محاسبة أي شخص كائنًا من كان إنصافًا للمظلومين، وتعويضًا لهم عن حقوقهم التي سُلبت باسم القانون.

المصادروالمراجع

بالعربية

1. البحري. حسن مصطفى، القانون الدستوري والنظم السياسية، (د.م: منشورات جامعة الشام الخاصة، 2020).

2. التنير. سمير، الفقر والفساد في العالم العربي، (بيروت: دار الساقي، 2001).

3. الدراجي. ابراهيم، المحكمة الدستورية في الدساتير السورية قراءة قانونية تاريخية، (د.م، منشورات LSE، 2020).

4. السيد علي. سعيد، المبادئ الأساسية للنظم السياسية وانظمة الحكم المعاصرة، (القاهرة: دار الكتاب الحديث، 2005).

5. الطباخ. شريف احمد، أثر الفساد الحكومي في انتشار الجريمة، (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، 2012).

6. الفارس. عبدالرزاق، الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001).

7. القاسم. هشام، المدخل الى علم القانون، (دمشق: مطبوعات جامعة دمشق، 2003).

8. تروبير. ميشيل، فلسفة القانون، جورج سعد (مترجمًا)، (بيروت: دار الأنوار، 2004).

9. حسن. أحمد ابراهيم، غاية القانون: دراسة في فلسفة القانون، (مصر: الدار الجامعية، 2000).

10. دلة. سام، القانون الدستوري والنظم السياسية، (حلب: منشورات جامعة حلب، د.ت).

11. زريق. برهان، السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح الرشيد، (دمشق: مطبوعات وزارة الاعلام السورية، 2016).

12. سارة. فايز، الفقر في سورية نحو تحول جذري في سياسة معالجة الفقر، (د.م: مركز التواصل والأبحاث الاستراتيجية،2011).

13. عاشور. محمد سامح، مدخل الى علم القانون، (د.م: منشورات الجامعة الافتراضية السورية، 2020).

14. محسن. عوض وعلاء شبلي، علاء، ومعتز بالله عثمان، دليل التمكين القانوني للفقراء: معارف وخبرات، (د.م: المنظمة العربية لحقوق الانسان، 2013).

15. مكاي. ليان، سيادة القانون، (د.م: معهد الولايات المتحدة الأمريكية للسلام، 2015).

16. ملندي. ماهر، النظام الاقتصادي الدولي، (د.م: منشورات الجامعة الافتراضية، 2018).

بلغة أجنبية

1. Jasmine Zamprogno, "Poverty, Promises, and Political Accountability: How a Lack of Accountability Caused New Zealand's Child Poverty Reduction Act to Fail", Oregon Review Of International Law, Vol. 22, 85, 2021.

2. Sarker, Abu Elias & Rahman, Mohammad Habibur, The Role of Social Accountability in Poverty Alleviation Programs in Developing Countries: An Analysis with Reference to Bangladesh, Public Organiz Rev, A Global journal, volume 14, ıssue 1, 2014.

3. Syrian center for policy reseach, Unrwa, Syria War on development: socioeconomic monitoring report of Syria Second quarterly report (April – June 2013).

4. Uslaner, Eric M., Corruption, Inequality, And The Rule Of Law, (Published in USA, Cambridge University Press, New York, 2008).

5. Weiwei, Li, equality and non discrimination under international human right law, Norwegian center for human right university of olso, 2004.

أدوات النظام المتنوعة في حروبه على السوريين في مناطق سيطرته

بسام سفر[1]

أولًا: ملخص البحث

يستمر النظام في حربه الاقتصادية والمعيشية بعد حربه العسكرية على الإنسان السوري، من خلال عملية نهب ممتلكاته عبر سياسية الاستيلاء غير القانوني (التعفيش)، مستخدمًا في ذلك فرقًا منظمة وغير منظمة منفلتة من عقالها.

واستخدم في حربه الاقتصادية والمعيشية سياسة رفع أسعار السلع المستمرة في الأسواق السورية في حين لا يزيد دخل موظف الدولة على بضع الدولارات في الشهر، علاوة على أن التلاعب بأسعار الصرف وخفض قيمة الليرة السورية أمام العملات الأخرى يسهمان فعليًا في إفقاد ملايين السوريين أي قوة لمدخراتهم، ما يشكل في المحصلة تراكمًا معيشيًا ضاغطًا، سيؤدي في المحصلة، مع تداعي القدرة على الصمود في مواجهته إلى جعل الإنسان ممتثلًا لآليات السيطرة، وعازفًا عن المقاومة، ما يؤدي إلى جعل سياق تصرفاته اليومية، كأنه صادر عن حرية واختيار.

وبناء على ما سبق، يمكن القول إن حياة الإنسان السوري باتت في مواجهة طور جديد مفتاحه الإفقار الممنهج عبر التحكم بقدرة الحصول على المواد الأساسية الضرورية لاستمرار الحياة من مثل الخبز والكهرباء والمياه والمحروقات.

غير أن آليات المواجهة في ظل شراسة هذه الحرب، ما زالت متوافرة لدى شرائح واسعة من السوريين، تتجلى بصور جديدة من الاستغناء (تقليل الاحتياجات)، والبحث عن البدائل، إضافة إلى الهبَّات المفاجئة، كما حدث في بعض مناطق الساحل السوري وغيرها، والاعتصامات والاحتجاجات الأسبوعية أيضًا، وتعد فعاليات مدينة السويداء مثالها الراهن.

1. مشكلة البحث

يحاول البحث رصد ومتابعة حرب الاستيلاء غير القانوني (التعفيش) والتغيرات الاجتماعية الحاصلة في المجتمع السوري، وربط هذه التفاصيل مع الواقع السياسي، لجهة إظهار أن ما يحصل هو سياسة ممنهجة، تعمل

(1) كاتب ومسرحي سوري.

عليها أدوات النظام، وذلك من أجل مواجهة الادعاء الذي يروج له، بأن ما يجري إنما هو انعكاس للأزمة، وأنه غير قابل للسيطرة، بسبب حالة الفوضى، وبسبب أفعال بعض المستغلين الذين يريدون أن يستمر الأمر على ما هو عليه، بغية استمرارهم في التربح.

كما أنه قد صار من الواضح أن ما تروج له بعض الجهات والقوى الدولية عن خطوات التعافي المبكر، لا يعدو عن كونه ذرًا للرماد في العيون، طالما أن آليات السيطرة، لا تزال كما هي، لا بل إنها زادت سوءًا، وطالما أن حجر رحى النظام تطحن الشرائح الأكثر فقرًا بشكل رهيب، ما يهدد سلامة المجتمع ووحدته، وقد يفضي إلى انفجار كبير.

2. أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في إطلاع الرأي العام العربي والدولي ومنظمات حقوق الإنسان على ما يعانيه الإنسان السوري، الأمر الذي يجعل القضية السورية حاضرة على طاولة المجتمع الدولي بعد أحداث مثل الحرب الروسية الأوكرانية التي جعلتها محض ملف هامشي.

وإضافة إلى ما سبق، فإنه من الضروري أن يستمر الدأب على بث الوعي في صفوف السوريين، لتوضيح الجهة التي تتحمل مسؤولية الواقع الحالي، بعيدًا عما يدعيه النظام بأن العقوبات المفروضة على سورية مثل قانون قيصر وغيره السبب في ما يجري من معاناة، بينما تذهب التفاصيل إلى حقيقة مغايرة تفيد بأن العقوبات مفروضة عليه، لا على المواطن السوري، نتيجة عدم انخراطه في العملية السياسية في شقيها التفاوضي والدستوري.

ويقدم البحث أيضًا بعض التوثيق لمعاناة النساء، وأفراد الأسرة، وبعض القطاعات المهنية، معتمدًا على ما قدمته الصحافة الورقية والألكترونية، وبعض الباحثين والباحثات من مقاربة هذه التغيرات في شرائح المجتمع السوري، وعرض بعض صور الذل وفقدان الكرامة التي يعيشها الإنسان السوري في مناطق سيطرة النظام.

3. منهج البحث

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي مع استخدام الأدوات التوثيقية المتاحة لبعض ظواهر استمرارية الحرب في صورة جديدة سنعرضها ونسجلها هنا عبر الإحصاءات الرسمية وشبه الرسمية الموجودة في عدد من الصحف الورقية والمواقع الألكترونية، وبعض الكتب التي تعرضت لحالة الإنسان السوري في أثناء الثورة، والحرب السورية المستمرة، إضافة إلى المقابلات واللقاءات والشهادات، ممن يعيشون في مناطق سيطرة النظام، وحكومة النظام السوري، والصور الفوتوغرافية التي توضح معاناة السوريين في هذه المناطق. ولا يمكن عدّ هذا كله إحاطة كاملة بمفاعيل الحرب كافة، والتغيرات التي جرت في المجتمع السوري خلال عشر السنوات الأخيرة.

4. أهداف البحث

يهدف البحث إلى كشف بعض أوجه الحرب المستمرة من النظام السوري على شعبه، تحت مئة عنوان وعنوان، من اجل استمرار الإفقار الممنهج، واستجلاب المساعدات الأممية من بوابته، ودعوة الوسائل الإعلامية العربية والعالمية إلى تغطية صور المعاناة والمأساة السورية، وتوضيح قدرة شرائح من السوريين على مقاومة الحرب المستمرة بأدوات مدنية قابلة للحياة، بعيدًا عن تهم الإرهاب المعلبة سلفًا.

ثانيًا: المقدمة

أدى إصرار النظام على رفض الحلول المتاحة كافة لإنهاء الأزمة القائمة في سورية منذ 2011 إلى نتائج كارثية يعرفها القاصي والداني في الصعد والمسارات الحياتية اليومية جميعها للسوريين.

وعلى الرغم من أن الواقع الحالي يحتاج بصورة عاجلة إلى جرعات عالية الفعالية من الحلول التي تبدأ بالحل السياسي وما يعقبه من خطط إصلاح شاملة، فإن النظام ما زال يخوض حربًا سياسية مع الأمم المتحدة وقراراتها، ويمارس الالتفاف على الحوار الجدي مع المعارضة السياسية السورية من خلال تعطيل جولات المفاوضات السياسية التي تتجلى خلال السنوات الأخيرات في جولات اللجنة الدستورية التي بلغت ثماني جولات، وتوقف وفد النظام السوري عن متابعة الجولة التاسعة بسبب موقف الراعي الروسي من مكان هذه الجولات (جنيف). الأمر الذي يُفقد المواطن السوري الأمل في الوصول إلى حل سياسي، ينهي مآسيه اليومية، ويكرس استمرار الحرب بصور مختلفة، فبعد أن صمتت قعقعة السلاح، بات صوت قرقرة البطون بسبب الجوع مسموعًا، وتدهور الأوضاع المعيشية ووصولها إلى قعر محدود يتهاوى بسرعة كبيرة نحو قعر جديد بات أوضح من أن تخفيه آليات التضليل.

يضاف إلى ذلك تفاقم ظواهر مفتوحة نحو مشكلات اجتماعية غير قائمة سابقًا، ولا بد من الالتفات إلى مؤديات خروج جزء من المناطق السورية خارج الإطار الرسمي لما يعرف من الأراضي السورية، فحال الانقسام المناطقي، وتعدد قوى السيطرة على الأرض، انعكستا على حياة الإنسان السوري الذي بات مقيدًا ومحاصرًا في أرضه، لا يستطيع متابعة حياته اليومية من دون المرور على الحواجز الأمنية التي صارت تشكل نقاط سيطرة أمنية اقتصادية من خلال ما تفرضه من أتاوات على مستخدمي الطرق العامة، ولا سيما الفعاليات الاقتصادية التي باتت تضيف ما تدفعه على الحواجز إلى آليات تسعير المواد التي تنتجها.

ما سبق كله جعل حياة السوري كئيبة، تسير نحو الإحباط الكامل والقلق والتوتر والاكتئاب والشعور الدائم بالضياع، وبات من الواضح فقده ثقته بنفسه مع شعور عام بالاغتراب في ظل غياب أي أمل بحل سياسي في المدى المنظور.

ثالثًا: بعض أدوات الحرب بعد توقف القتال

يمكن النظر إلى مجموعة من الفعاليات المتكررة وفق نمط سلوكي محدد تحت سلطة النظام، وأمام مرأى مؤسساته، ومن المفروض أنها وُجدت للمحافظة على أمن المواطن والمجتمع والدولة، على أنها سياسة مقررة، أو ممنهجة، ما دامت طريقة التعاطي معها لا تتضمن السعي لإيقافها، لا بل تسمح بتوسعها بعد تكرارها.

1. الاستيلاء غير القانوني على الممتلكات (التعفيش)

ومن أبرز الأفعال الظاهرة في الحياة اليومية السورية، بعد ظواهر الاعتقال والخطف للمطالبة بالفدية المالية، تقف ظاهرة التعفيش في المقدمة.

وتوثق أفلامٌ صورها مواطنون صحافيون في أمكنة متعددة في مناطق سيطرة النظام هذه الظاهرة بصورة مستمرة، فتظهر فيها عمليات سرقة ممتلكات المواطنين الذين اضطروا إلى مغادرة بيوتهم في مناطق القتال، وتعرض صورها العاملين والعاملات في ورشات التعفيش الجماعية التي تعمل على هدم الأبنية لبيع الحديد المنزوع منها، وتأخذ أجرًا يوميًا مقابل ذلك، وهذا ما يمكن رصده بسهولة في المناطق التي تسيطر عليها ميليشيات مسلحة تدعم النظام في مناطق جنوبي غرب العاصمة مثل (المعضمية وداريا)، وشرقيها مثل (جوبر وحرستا).

ومن أبرز الأمثلة على الظاهرة في العاصمة دمشق عمليات التعفيش المهولة التي حصلت في مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين، وما زالت محاولات الأهالي العودة إليه تقابل بالرفض من قبل أجهزة الأمن السورية. خُرِّب عدد كبير من الأبنية التي كانت قائمة في لحظة توقف القتال وانسحاب المجموعات المسلحة المعارضة من المكان، لكن لم يمض وقت طويل حتى هدمت على يد ورشات سرقة الحديد، وتلك المتخصصة بنهب المواد الأخرى، فالحديد يعاد تدويره، وكذلك البلاستيك والنايلون، إضافة إلى فك البلاط والسيراميك، وسحب خطوط الكهرباء الداخلية للاستفادة من نحاسها ومن المعادن الأخرى.

وتخرج يوميًا عبر حواجز قوات النظام المسيطرة على هذه الجهة من العاصمة عشرات السيارات الكبيرة القاطرة والمقطورة، ما يشير إشارة واضحة إلى أن الفئات الفاعلة على الأرض لا تقوم بأفعالها من دون الحصول على موافقة من المراكز الأمنية ورؤوسها، وبالنظر إلى الحجم المهول للدمار ولعمليات النهب، فإنه ليس من المستبعد أن تكون عملية (التعفيش) قائمة على شراكات بين جهات عدة.

فإذا ما وضعت هذه السلسلة من الأفعال في الموازين القانونية، فإن النظام الذي يغض النظر عما يجري، سيكون شريكًا فيها، وإذا تفاقمت الشكاوى منها، ولم تُمنع وتوقف ويحاسب من يقوم بها، فإنه ليس من الصعب الاستنتاج بأن ما يجري سياسة مقررة وممنهجة.

وقد يؤكد ذلك أن عمليات تعفيش جرت قديمًا وحديثًا، واستهدفت مؤسسات الدولة، لم يتم التعاطي معها بوصفها جرائم، مثل ((سرقة أجزاء من محولة كهربائية، تعود ملكيتها إلى مديرية كهرباء ريف دمشق في منطقة أصلًا لم تطالها الحرب، ولم تفقد عوامل الأمان طيلة فترة الحرب في ضاحية قدسيا الجزيرةD2، وبيعها كأجزاء

مفكوكة))[2]، فبيع القطع والأدوات المعفشة لا يتم في المناطق ذاتها، وإنما في أسواق أخرى من مدينة دمشق كما حصل في حالة بيع أجزاء المحولة.

وفي سياق التوثيق والرصد، توجهنا إلى شخصيات تعيش في المنطقة لنسألها عما يجري، فأجابنا الناشط أبو زيد (اسم مستعار) وقال: ((يمكن قراءة ظاهرة الحرب ولصوصها عبر السلب والنهب عامة من جوانب مختلفة. فهم من حيث البنية والأساليب والأداء يختلفون عن لصوص فترات التهدئة، في هذه الحرب ثمة نموذجان، الأول: نموذج ذكي ينهب عبر تجارة أو استيلاء منظّمين، يحمل سمة تجارية، ويتماهى مع سلطة ناعمة من حيث الشكل، والثاني: نموذج سطحي وعلني ومباشر شبه معلن، يشبه تدمير عسكر المغول والتتار. إلا أنه هنا لا يدمر، بل ينهب، وهذا ما عرف حديثًا بالتعفيش، وهو لا يطال فقط أملاك المواطنين وبيوتهم، بل ممتلكات المؤسسات العامة أيضًا، مع تبرير نفسي يستند إلى فكرة القطيع نحو الآخر المعادي، ويشفع لذاته عبر تبرير ذي علاقة بتفاصيل الحالة الصراعية التي لا تخلو من حقدية موجهة لتبرير ممارساتها)). وأكد أن ((مسألة التعفيش خلال الحرب السورية أكثر تعقيدًا، فهنا فئات منظمة ترتدي الزي العسكري، وتمر بمسروقاتها على الحواجز. وهذه مشاهدات عينية، لا نقلًا عن روايات، وقد بثت وسائل إعلام عدة، وصفحات شخصية، ما يخزي من فيديوهات لسيارات شحن كبيرة، تسير في قوافل، لا سيما تلك المشاهد المشينة التي التقطت في المناطق التي هزمت فيها جماعات مسلحة)).

وأضاف أن ((بعضها استمرت فيه ظاهرة التعفيش منذ خمس سنوات حتى اليوم كما في مخيم اليرموك مثلًا، فبدأت بنهب الأثاث من منازل المواطنين، وسحب نحاس الخطوط الكهربائية وخطوط الهاتف التي هي ملك للدولة. وتطورت إلى هدم أسقف المنازل بطريقة وحشية لسحب قضبان الحديد منها)). وأشار إلى أنه ((في قضية حرب التعفيش تختلط حالة التخلف بحالة العوز والطمع والكراهية وانعدام القيم الإنسانية)).

أشار الاقتصادي شفيق عربش في حديث لجريدة الأيام الدمشقية إلى أن الظاهرة في جوهرها ((جزء من سلسلة أفعال يتكرر حضورها في حياة السوريين))[3]، ويصنف عربش هذه السلوكيات بـ ((أنها غير شرعية، مبينًا أن أمراء الحرب أصبحوا ظاهرة واضحة في المجتمع رغم أن نسبتهم لا تزال محدودة مقدرًا إياها بـ(10%)، وبروزًا على حساب الشريحة الواسعة الفقيرة في المجتمع السوري))[4].

2. صعوبة الحصول على الخدمات الأساسية

يلاحظ المراقبون أن أشكال الحرب والضغوط المعيشية على الإنسان السوري تتصاعد في الشتاء الذي يأتي قاسيًا في هذه المنطقة من العالم، ويحتاج من أجل تجاوزه إلى موارد مادية تتكفل بالحصول على مواد التدفئة، وهنا لا يحتاج المرء إلى جهد ليكتشف بأن المواطن السوري الذي استنزف خلال سنوات إمكاناته المادية جميعها، بات الآن في مواجهة فقر شديد يفقده القدرة على الاستمرارية.

(2) عادل إبراهيم، "التعفيش..ظاهرة لم تأفل بعد"، جريدة قاسيون، ع: 899، (2019/2/4)، ص9.
https://kassioun.org/syria/item/60570-ا

(3) للمزيد راجع: د.م، صفحة التحقيقات، جريدة الأيام، ع: 5، (2017/1/29)، ص12.

(4) للمزيد راجع: د.م، صفحة التحقيقات، جريدة الأيام، ع: 5، (2017/1/29)، ص12.

وهنا يمكن النظر إلى فقدان المواطن حقه في الحصول على الكهرباء وكذلك الماء في جزء من السياق العام الذي يهدف إلى إخضاعه أكثر فأكثر لآليات السيطرة.

أ. الكهرباء

تتبدى حرب الكهرباء في الواقع السوري اليومي بحسب ساعات التقنين التي تظهر في مناطق النظام، ولا يمكن إحصاء أثر التقنين في قطاعي الصحة والتعليم، وأثره في التخريب الذي يظهر موسميًا ويوميًا في حفظ الأغذية والمونة. وفي سنوات الحرب خرج كثير من المناطق في ريف دمشق من خدمة الكهرباء، وحتى الآن لم تعد هذه الخدمة إلى تلك المناطق مثل (داريا والمخيم)، وظهر في الريف ما يعرف بخدمة (الأمبير)، وكشفت وزارة الكهرباء السورية أن خسائر قطاع الكهرباء في البلاد تقدر بما لا يقل عن 4 مليارات دولار منذ عام 2011 وحتى نهاية العام 2019 فقط، وقالت الوزارة في تقرير مصور نشرته في صفحتها في (فيس بوك) أن 70 بالمئة من محطات التحويل وخطوط نقل الفيول، متوقفة نتيجة الأعمال الإرهابية[5].

ومع تخلي النظام عن مسؤولياته الاجتماعية المعيشية التاريخية التي كان يعدها من المحرمات، سمح بإدخال البرجوازية السورية وغيرها من المستثمرين على القطاعات الاستراتيجية الخدمية مثل الكهرباء، ففي العام الفائت ((صدر القانون رقم 41 للعام 2022، أدخل بموجبه تعديلات على قانون الكهرباء رقم 32 لعام2010، بهدف تشجيع ودعم إنتاج الكهرباء، ووفقًا للتعديلات الجديدة يجيز القانون للمستثمرين إنشاء محطات توليد الكهرباء اعتمادًا على الطاقات المتجددة، وبيعها للمشتركين، أو تصديرها عبر شبكة النقل، ويسمح للمؤسسة العامة لنقل وتوزيع الكهرباء وشركات الكهرباء في المحافظات شراء الكهرباء المنتجة من هذه المحطات بأسعار يتم الاتفاق عليها مع المستثمر، كما يسمح القانون الجديد أيضًا لوزارة الكهرباء بالترخيص للمستثمرين في مشاريع التوليد التقليدية، وتقوم المؤسسة العامة لنقل وتوزيع الكهرباء أو شركات كهرباء المحافظات بنقل الكهرباء إلى المشتركين أو تصديرها، وذلك بناء على طلب المستثمرين، وضمن الإمكانات المتاحة لشبكة النقل أو التوزيع مقابل بدلات استخدام شبكة النقل أو شبكات التوزيع)).

وبهذا يأخذ نظام الاستبداد سورية وشعبها واقتصادها ومجتمعها ويسلمهم إلى المستثمرين وقوانين النهب الجديدة التي يتحكم بها مع شبيحته ومستثمريه وأمراء الحرب، ومن انهيار إلى انهيار جديد أشد وأدهى بغية وضع سورية على سكة الإفلاس التام وربطها بالسوق العالمية.

ب. المياه

أما حرب المياه التي وصفتها الأمم المتحدة بأنها جريمة حرب، ورأى يان إنغلان رئيس مجموعة العمل في الأمم المتحدة أن ((انقطاع المياه عن 5،5 مليون نسمة في دمشق أو تلقوا كميات أقل لأن موارد وادي بردى غير قابلة للاستخدام بسبب المعارك أو أعمال التخريب أو الاثنين معًا، أن أعمال التخريب والحرمان من المياه جرائم حرب لأن المدنيين يشربونها ولأنهم هم الذين سيصابون بالأمراض في حال لم يتم توفيرها مجددًا))[6].

(5) مازن سليم خضور، متلازمات الحرب السورية: صراع الأولويات.. حروب دون نار، (دمشق: دار دلمون الجديدة للنشر والتوزيع، 2021)، ص 35.

(6) مازن سليم خضور، متلازمات الحرب السورية، صراع الأولويات..حروب دون نار، ص38، 37.

ولم تكن بقية المحافظات السورية أفضل حالًا، فقد تعرضت محافظة الحسكة لأزمة مائية نتيجة ما تعرضت له محطة علوك التي تقع في شمال الحسكة على الحدود السورية التركية من تخريب أدى إلى توقفها عن العمل، وعانت دير الزور وحلب في أوقات سابقة من أزمة مياه حادة، ولم تستطيع الجهات الخاصة سواء التي تعمل لدى النظام أم الجهات الأخرى تأمين ما هو مطلوب لاستمرار الحياة بصورة طبيعية في هذه المناطق.

رابعًا: ضحايا استمرار الحرب بعد توقف القتال

أدى الإفقار الممنهج والمنظم في إطار الحرب التي يشنها النظام على شعبه إلى ظهور أبشع تعبيرات هذه الحرب من القهر الإنساني، بعد أن أرغم النظام فقراء السوريين على القيام بها، نتيجة رفع الأسعار الممنهج والمنظم من قبل حكوماته المتعاقبة، وهذا سبب ظهور النباشين والنباشات بكثرة في شوارع العاصمة وغيرها.

1. النباشون والنباشات

قد يكون السبب الوحيد لوجود هذه الظاهرة رغبة النظام في قهر فقراء السوريين، وإذلالهم، عقابًا لهم على صور التمرد والعصيان التي مارسوها خلال الفصول المتعاقبة من ثورة الحرية والكرامة.

اتسعت حرب النباشين والنباشات في سنوات الثورة، وما بعدها بسبب سوء الأوضاع المعيشية، وتأثيره في الأسر السورية، فلا نجد شارعًا من شوارع العاصمة إلا فيه من يدفع عربة بدولابين صغيرين أمامه، ويحمل كيس قمامة كبير أبيض. وتظهر هذه الحرب، والصراعات بين العاملين فيها من أفراد المجتمع السوري في مرحلة ما بعد الحرب (مرحلة ما يطلق عليها علميًا وسياسيًا التعافي من الحرب)، فالعشرات، بل المئات من النساء السوريات، يعملن في شوارع العاصمة نباشات، حيث تجر بعضهن عربات تحمل على جانبيها كيسين كبيرين لتصنيف المواد المهملة (بلاستيك، ألمنيوم، تنك، ونحاس، إن وجد)، وكيس (الخبز اليابس)، إضافة إلى(الكرتون والأوراق)، وبعضهن ليس لديهن عربة جر، فنجدهن يحملن على أكتافهن الأكياس، ويسرن بها.

هنا لا بد من البحث عمن يستطيع إيقاف الظاهرة، أو الجهة المسؤولة عن مكافحتها، وهي وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل التي بررت تقاعسها في معالجتها بعدم وضوح (من هم النباشون) كما تدعي، حيث أشارت مديرة تنظيم العمل في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل رشا نبهان إلى أن عملها يقوم على رصد عمالة الأطفال، ولا سيما منهم أولئك الذين يعملون في هذا القطاع، فهؤلاء يعلمون لدى شخص كبير ينظمهم، ومن ثم، فإن المادة 38 من قانون العمل ((أوجبت على صاحب العمل في حال تشغيله طفلًا أو أكثر أن يعلن في مكان العمل عن القواعد والتعليمات الخاصة بتشغيل الأطفال، وخاصةً ساعات العمل وفترات الراحة، وأن يقوم بالاشتراك عن الطفل لدى المؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية في المحافظة)).

ونصت المادة 39 أن القانون حمى الطفل لجهة شموله بأحكام قانون التأمينات الاجتماعية سواء لجهة الاشتراك عنه بالتأمينات الاجتماعية أو شموله بأحكام إصابات العمل، وكذلك لحصوله على معاش إصابة أو تعويض في حال تعرضه للأذى، وقد نص قانون العمل رقم (17) لعام 2010 على أن الأطفال المنتشرين في

الطرقات الذين يمارسون الأعمال السيئة المذكورة أعلاه، والذين يعملون لحسابهم الخاص، لا يخضعون لأحكام قانون العمل رقم (17) لعام 2010.

وفقًا للمادة (1) التي عرفت العامل بأنه: ((كل شخص طبيعي يعمل لدى صاحب عمل لقاء أجر مهما كان نوعه وتحت سلطته وإشرافه)). أما إذا كان الأطفال المنتشرون بالطرقات الذين يجمعون مخلفات القمامة (بلاستيك-كرتون-خبز يابس) يعملون لدى صاحب عمل، وتحت سلطته، وإشرافه، فإن علاقتهم العمالية بصاحب العمل تخضع لأحكام قانون العمل رقم (17)[7].

2. البالة

يضطر فقراء سورية في العادة إلى البحث عما يستر أبدانهم في أسواق المستعمل التي تسمى شعبيًا بالبالة، نظرًا لارتفاع ثمن الملابس المصنعة محليًا، وكذلك المستوردة، وقد تفاقم هذا الحال طيلة السنوات الماضيات مع انحدار فئات واسعة من المواطنين إلى تحت خط مستوى الفقر انحدارًا مريعًا.

وقد توسعت تجارة البالة في البلاد نتيجة الوضع العام، غير أن توسع حال الفقر جعل الحصول على ثياب مستعملة بأسعار متهاودة أمرًا صعبًا أيضًا، حيث نشرت تقارير عدة عن معاناة كثيرين في الحصول على مبالغ مالية تكفيهم للحصول على بالة مقبولة، وعلى الرغم من أن بعض الجهات الرسمية تغاضى عن هذا الواقع بسبب عدم وجود حلول لهذا الواقع، فإن هذا القطاع شهد أيضًا أحداثًا تؤكد أنه يخضع أيضًا لمساومات النظام ومحاولته ابتلاع كل ما يمكن ابتلاعه أيضًا، ومن هذه الأحداث مداهمة دوريات مديرية الجمارك في دمشق سوق الألبسة المستعملة في منطقة باب السريجة/ الاطفائية وسط دمشق، وعمليات مصادرة شملت أكثر من خمسين محلًا في ذروة زمن الأعياد نهاية عام 2021، على الزعم أن التجّار يتاجرون بمواد مهربة ومخالفة لقوانين الاستيراد.

وقد لقيت هذه العملية استهجان عموم السوريين، فسموها بالغزوة بكل ما تحمله الكلمة من معاني الحرب، وقد صرح رئيس غرفة تجارة دمشق أبو الهدى اللحام الذي عدّ سلوك مديرية الجمارك (أمرًا غير مفهوم)، مشيرًا إلى عدم جواز مداهمة الجمارك سوق (البالة) ومصادرة بضاعة (مخصصة للفقراء)[8].

ويدرك متابعو الشأن الاقتصادي السوري أن مديرية الجمارك العامة، لا تتصرف في ملفات كهذه من تلقاء ذاتها، وأنها تتبع في ذلك قرارات مركزية تصدر من جهات عليا.

3. بيع الأعضاء

فرزت الحرب ظاهرة جديدة هي بيع الأعضاء البشرية، نتيجة حاجة الإنسان السوري إلى استمراره في

(7) د.م، "حاويات القمامة مناجم ذهب الفقراء.. الشؤون الاجتماعية لسورية الحدث الأطفال النباشون ليسوا بمتسولين..!"، شبكة سورية الحدث، https://event-sy.net/news-54128.html

(8) د.م، "استنكار في دمشق لـ"غزوة سوق البالة"، ع: 15731، جريدة الشرق الأوسط، (23 كانون الأول/ ديسمبر 2021)، https://2u.pw/qE43jK

الحياة، إذ إن الإعلانات عن الاستعداد لبيع الكلى أو قرنيات العيون تنشر على جدران المستشفيات، وأمام أبوابها، وفي الأسواق الرئيسة مثل منطقة المرجة ومواقفها الأساسية، وتظهر هذه الإعلانات للشخصيات التي حددت الدراسات الطبية مدة زمنية لبقائها على قيد الحياة.

4. القبور

لم يكتف النظام السوري بإعلان الحرب على السوريين الأحياء بل وسع مساحتها لتشمل أمواتهم أيضًا، وهو ما يتجلى في ارتفاع أسعار القبور في مقابر ومدافن دمشق كافة، وهذه الظاهرة يزداد تأثيرها في الأوضاع المعيشية للإنسان السوري، خصوصًا لدى النازحين من أراضيهم، المقيمين في دمشق حيث غلاء أسعار القبور نتيجة التضخم وهبوط القيمة الشرائية لليرة السورية.

وتختلف أسعار القبور بحسب القرب من العاصمة، ومكان القبر، وقيوده، إذ ((يبلغ متوسط سعر القبر في مقبرة الدحداح بمنطقة شارع بغداد، في حال كان له سجل قيد عقاري قرابة 3،5 ملايين ليرة، في حين يصل سعره بمنطقة كفرسوسة إلى قرابة2،2 مليون ليرة، وفي الشيخ سعد بالمزة قرابة 1،8 مليون ليرة، أما في مقبرة الباب الصغير فيبلغ قرابة مليوني ليرة، أما في باب شرقي، فيبلغ سعر القبر حوالي2،8 مليون ليرة، وفي منطقة المهاجرين 4 ملايين ليرة، وفي القابون1،5مليون ليرة، مع الإشارة إلى أن هذه الأسعار قابلة للزيادة من دون قيود أو مبررات منطقية، حتى أنها قد تتضاعف في حال توافرت الظروف المواتية، علمًا بأن محافظة دمشق أعلنت قبل سنوات عن اعتماد أرض مساحتها 80 دونمًا في منطقة عدرا لتصبح مدفنًا للموتى))[9].

هذه أسعار القبور قبل خمس سنوات أو أكثر، أما الآن مع التضخم، أصبحت القبور بأسعار مضاعفة مرات عدة، ولمعرفة أسعارها الجديدة سألت (أبو وليد) حارس مقبرة الباب الصغير في باب مصلى، فقال: ((سعر القبر بالحد الأدنى (60) مليون ليرة سورية، وهناك قبور تصل إلى مئة مليون ليرة سورية)).

خامسًا: الانعكاسات السلبية لسياسات الحرب في بعض جوانب الحياة الأسرة السورية

1. الطلاق والزواج

لعبت الحرب المستمرة والمتجددة دورًا كبيرًا في تفكيك الأسر السورية وبقية أفراد المجتمع، حيث تعاني التهميش، فالحرب الحقيقية على الأسرة تبدأ من تشتتها وفقد تماسكها المادي والمعنوي أحيانًا، وشعورها بالحرمان والدونية، وعدم وجود معيل لها، وافتقادها الثقة بذاتها وقدرتها على متابعة حياتها كما كانت، وشعورها أن حقوقها مسلوبة من الإهمال الذي تتعرض له، ويحاصرها، فيسلب منها أدوارها الريادية. يعيش المجتمع السوري وأسره بمختلف شرائحه الصراعات والتناقضات الاجتماعية من خلال علاقة الرجل والمرأة،

(9) د.م، "النازحون إلى دمشق.. أموات بلا نعوات..والملايين ثمنًا للقبور"، جريدة الأيام، ع: 5، (2017/01/29).

والمواطنة، ما يسهم في التفكك الأسري، وسوء العلاقات الاجتماعية.

وأول مفاعيل هذه الحالة ارتفاع معدلات الطلاق، فقد حولت الحرب نصف الشعب السوري إلى لاجئين ونازحين، وهذا يعني خسارة العائلة السورية استقرارها بعد أن تفرقت، وتشتت، إذ بلغت نسبة الطلاق (40 بالمئة) في العام 2013، بالنسبة إلى عدد حالات الزواج وفقًا لمصادر وزارة العدل في سورية[10].

ففي عام2017، بلغ مجموع عقود الزواج المسجلة في مناطق سيطرة النظام، باستثناء محافظات (حلب، دير الزور، الرقة، والحسكة) 100195 عقدًا، وعدد شهادات الطلاق 19764، وقد حصدت مدينة دمشق النسبة الأعلى من هذه الأرقام، فكان عدد العقود فيها 25016، وعدد شهادات الطلاق 6414، بنسبة (30.4 بالمئة)[11].

وعن زيادة معدلات الطلاق في سورية قال المحامي محمد السعدي: ((إن حالات الطلاق في العام2021، بلغت 11000 حالة أي ما نسبته (38 بالمئة)، و 29000 حالة زواج، بينما ارتفعت حالات الطلاق مؤخرًا إلى(50 بالمئة) أي 14500 حالة طلاق. وهذا ما أدخل المجتمع السوري في قضية تعدد الزوجات، وفقد الأزواج، وصلت نسبة الرجال المتزوجين من امرأة ثانية في سورية إلى (40 بالمئة)، بحسب إحصاءات غير رسمية، بالتوازي مع ارتفاع نسبة النساء العازبات إلى (65 بالمئة)، خلال أوضاع الحرب، وتلك من الآثار السلبية التي تخلفها الحروب))[12].

2. تزويج القاصرات

تزويج القاصرات أحد أمراض الحرب المستمرة، بسبب اللجوء والتشرد والفقر والبؤس والظلم والاضطهاد والقهر والخوف الذي يتعرض له الشعب السوري، وذلك كله يدفع الأب أو الأخ أو حتى في غيابهما إلى تزويج الابنة أو الأخت القاصر تحت الضغط والإكراه بسبب الحاجة إلى المال، والرغبة في التخلص من عبء الأنثى المالي بالدرجة الأولى، وبدافع السترة بالدرجة الثانية.

وتنتشر ظاهرة الزواج العرفي غير المسجل انتشارًا كبيرًا، فجزء من هذه الزيجات تعقد على قاصرات، ووفق إحصاءات صادرة عن وزارة العدل في سورية، فإن نسبة (10 بالمئة) من الزيجات في العام 2013 عقدت على قاصرات أمام المحاكم الشرعية في دمشق، وإن هذه النسبة تزيد كثيرًا في مناطق الأرياف البعيدة عن العاصمة، فنسبة (60 بالمئة) من الزيجات غير المسجلة في المحاكم عقدت على قاصرات[13].

وفي تحليل هذه الظاهرة، لن يكون صعبًا على الباحثين الاستنتاج بأن إيقافها يقع على عاتق مؤسسات الدولة التي لا تفعل شيئًا، سوى مراقبة سجلات المحاكم، وتدوين الأرقام من دون الانتباه إلى نتائجها الخطرة في واقع الأسر السورية في الوقت الحالي وفي المستقبل.

---

(10) سحر حويجة، المرأة السورية في ظل النزاع: دراسة، ط1، (دمشق: دار الرحبة للنشر والتوزيع، 2016)، ص 72-73.

(11) أنطوان بصمة جي، "تعدد الزوجات كذريعة لحل مشكلة العنوسة في الحرب"، جريدة الأيام، (2010/2/3)، ص16.

(12) عادل إبراهيم، "أسرة سلمية.. وطن سليم"، جريدة قاسيون، ع: 913، (2019/5/3)، ص 10.

https://kassioun.org/advanc syria/item

(13) سحر حويجة، المرأة السورية في ظل النزاع، ص80،81.

3. الصحة والدواء

علاقة الحرب بفقدان الدواء فرضت ذاتها على السوريين، من تلوث وفقر وقلة وعي ودمار، وأخرجت أمراضًا كانت مندثرة من سنين طويلة، ورفعت نسبة أمراض أخرى في ظل عدم وجود وعي صحي، وعدم توافر الرعاية الصحية، إذ ترى منظمة الصحة العالمية في تقريرها حول الواقع الصحي في سورية أن معدلات التغطية التطعيمية تتأثر بالحرب، وأن (35 بالمئة) من السوريين لا يستطيعون الحصول على مياه شرب آمنة، ما يعرضهم لخطر الإصابة بأمراض منقولة بالماء مثل الأمراض الإسهالية والحمى التيفية[14].

وأكدت المنظمة أن الأوضاع المعيشية غير الصحية في مراكز الإيواء في الداخل السوري، وزيادة معدلات سوء التغذية يتصاعدان، ما يقلل من مناعة الأطفال ضد المرض المعدي المهدد للحياة.

ويكشف التقرير أن سوريًا واحدًا بين 30 سوريًا يعاني حالة نفسية وخيمة، ويعاني شخص واحد من بين 10أشخاص حالة صحية نفسية تتراوح بين الخفيفة والمعتدلة، نتيجة التعرض طويل الأمد للعنف.

ويشير التقرير إلى أن العدد الإجمالي للأشخاص ذوي إعاقات الحرب بأنواعها المختلفة (2.9 مليون شخص)، منهم (1.5) مليون شخص مصاب بإصابات نتيجة الحروب، وهم يعانون أوضاعًا أكثر ضررًا في الحصول على خدمات للرعاية الصحية مطلوبة بشدة.

وعن حرب الدواء وعدم قدرة المصابين والمرضى الحصول على الدواء والرعاية الصحية تحدث الصيدلاني رامي غرز الدين، (اسم مستعار)، فقال: ((إن السبب الحقيقي وراء عدم قدرة المريض والمصاب الحصول على العلاج عدم قدرته على الحصول على المعاينة والدواء اللازمين، في العام 2016 زادت أسعار الدواء (40 بالمئة)، وفي العام 2020، زادت أسعار الدواء (70 بالمئة)، بينما فعليًا كانت الزيادة أكثر (100 بالمئة)، وفي الشهر الأخير من العام 2022، جاءت زيادة جديدة على الأدوية بنسبة 35 بالمئة)). وأكد غرز الدين أن الاستهلاك العام للدواء العلاجي انخفض انخفاضًا كبيرًا، لكن الاستهلاك زاد على المسكنات والمهدئات وأدوية الالتهاب من دون الذهاب إلى الطبيب من أجل العلاج، إذ ارتفعت تعرفة معاينة الأطباء، وهذا ما فرض على الصيادلة العمل أطباء وصيادلة في آن معًا.

وظهرت آثار زيادة الأسعار بصورة واضحة في الأسر التي لديها أطفال، حيث ارتفعت أسعار علب الحليب في العام 2017، من 1750 ليرة سورية إلى12.500 ليرة في العام 2020، وفي العام 2022 أصبحت 17500 ليرة، وهي غير متوافرة في الصيدليات، وتباع في السوق السوداء بسعر يتراوح بين 25 ألف ليرة و30 ألف ليرة.

ومن الأنواع التي زادت أسعارها حليب نان، والكيكوز، أما فوط الأطفال التي كان سعرها في العام 2018 (1700) ليرة، أصبحت في العام 2020 تباع بسعر 6000 ليرة، وفي العام 2021 أصبح سعرها 12 ألف ليرة، وفي نهاية العام 2022 ، باتت تباع بـ17 ألف ليرة.

ويؤكد الطبيب سمير مرعي أنه في حال الحرب تكون نسب سوء التغذية مرتفعة عادة، ويمكن معرفة عدد

(14) لودي علي، "أمراض الحرب تهدد حياة السوريين ومستقبلهم"، جريدة الأيام، ع: 102، (2019/1/20)، ص6-7.

المرضى الذين يراجعون العيادات الطبية الجماعية والمستوصفات من المهجرين من مناطق الحرب، والفقر الذي فرضته حال الناس المادية السيئة.

وتفيد الطبيبة هبة عيد، أخصائية في أمراض الجهاز الحركي، بأن الحرب زادت من أمراض عدة، أبرزها اللشمانيا أو حبة حلب، حيث كان هناك زيادة واضحة في عدد الإصابات في محافظات عدة، وأن شلل الأطفال ظهر مجددًا خلال الحرب، بعد أن كانت سورية قد تخلصت منه، وانتشر شلل غيلان باربه، والتهاب الكبد الوبائي A، وهو ينتقل عن طريق الأغذية والمياه الملوثة[15].

سادسًا: بعض صور مقاومة الشعب السوري

1. مواقف بعض الفنانين

يلعب الفن دورًا كبيرًا لإعطاء الإنسان توازنًا في العالم المحيط به عبر دمج الفرد بالمجموع وإعطائه الحرية السعيدة التي تحرمه منها أعباء الحياة اليومية، ويقول المسرحي الشهير برتولد برخت: ((إن الفن يدرب الناس على متعة تغيير الواقع، فلا يكفي جمهورنا أن يعرف كيف تحرر بروميثيوس فقط، بل عليه أن يتدرب على اللذة في تحريره)).

بينما يشرح إرنست فيشر وظيفة الفن بأنه ((يوضح العلاقات الاجتماعية، وتنوير الناس في المجتمعات التي أخذ يسيطر عليها الظلام، ومساعدة الناس على إدراك الواقع الاجتماعي وتغييره))[16].

وفي الواقع الجديد الذي وصلت إليه الحالة السورية يردد بعض الفنانين السورين عبر صفحاتهم الشخصية والوسائل الإعلامية ضرورة مواجهة الحكومة السورية مواجهة صريحة ومن خلال الأدوات الإعلامية المباشرة، مثلما فعل الفنان بشار إسماعيل برده على تصريحات المستشارة الإعلامية لرئيس النظام بشار الأسد، فقال: ((امرأة كانت تتحدث عن الصمود وترتدي ملابس يبلغ سعرها نحو 10 آلاف دولار، ومجوهرات تقدر قيمتها بنحو 15 ألف دولار)). وتساءل: ((شو هاد الصمود ما فهمت))، أما عن الكهرباء، فقال: ((إنها تأتي 10دقائق، وتنقطع خمس ساعات))، وخاطب شركة الكهرباء قائلًا: ((أعطونا فرصة لشحن الهواتف فقط))، ويتابع قائلًا: إن ((أديسون يلعن الساعة التي اخترع فيها الكهرباء)). ويضيف معلنًا أنه ((دفع 80 ألف ليرة سورية ثمنًا لعشرين ليتر مازوت مع بوسة يد البائع))[17].

وتخوض الممثلة كندا حنا حربها الشخصية، وتبين أن ((قصص السوريين باتت مرتبطة بتأمين البنزين والمازوت والخبز، في وقت تنقل فيه بعض البلدان جبالًا جليدية لتغير مناخها))، وتضيف إنها ((حاولت تأمين

(15) لودي علي، "أمراض الحرب تهدد حياة السوريين ومستقبلهم".

(16) إرنست فيشر، ضرورة الفن، المكتبة الاشتراكية، ميشال سليمان (مترجمًا)، (بيروت: دار الحقيقة، 1965)، ص 16-17.

(17) محمد أمين ميرة، موقع راديو روزنة، (2022/5/9).

المازوت لأمها لإسعادها في عيد الأم إلا أنها لم تستطيع))[18].

أما الفنان عباس النوري، فيعلن حربًا على القمع الذي يقوم به النظام، وذلك في لقاء بثته إذاعة (المدينة إف إم)، إذ يقول: ((بسبب سياسات النظام الحالي فإن سوريا باتت متأخرة بفوارق شاسعة عن بقية الدول العربية، منتقدًا تدني مستوى الحريات في البلاد))، ويضيف إن ((الدولة نجحت في زرع الرعب لدى المواطنين، لأنها لا تجابه الفكر بالفكر، بل بالهجوم والإقصاء)). وانتقد النوري المستوى المعيشي في سورية، قائلًا: ((إن الفلسطينيين في مناطق السلطة الفلسطينية يتقاضون رواتب تفوق رواتب السوريين بنحو عشرة أضعاف))[19].

وتنتقل ردود فعل الفنانين السوريين من القضايا المعيشية إلى قضايا عامة متقدمة مثل غياب الديمقراطية والحريات في سورية بصورة عامة، في ربط واضح بين الأزمات التي يعيشونها، وإهمال النظام في البحث عن علاج لها، فهم يدركون أن منبع الأمر ومنتهاه عند رأس النظام، فهو وحده يقرر متى يجب أن يتوقف ذلك، ومتى يجب أن يستمر، وقد ظهر هذا جليًا في الرسالة المصورة التي وجهها الممثل وضاح حلوم لبشار الأسد متوسلًا إياه التدخل من أجل إنقاذ الناس.

2. (بدنا نعيش)

ومن مظاهر المقاومة البارزة أيضًا رد فعل أهالي محافظة السويداء على حرب النظام تجاههم، وعلى أفعاله في المحافظات السورية جميعها، بسبب الغلاء والتقنين وعدم وجود المواد الأساسية، فانتعشت منذ سنوات عدة حركة (بدنا نعيش) الشبابية التي استمرت حوالى سنة على مراحل زمنية غير منتظمة على الرغم من التهديدات الأمنية كلها، والاشتباكات مع الشبيحة والمواليين في المحافظة، واعتقال القياديين في الحركة لمدة زمنية واضحة في السويداء وفي دمشق، إضافة إلى الحراك العام في المدينة ذاتها بعيدًا عن الحراك الشبابي المطلبي، حيث تتم الدعوات للاعتصامات والوقفات الاحتجاجية في ساحات المدينة ذاتها، وفي الاحتجاج الأكبر هذا العام (2022/12/4) خرجت التظاهرات الاحتجاجية عن سلميتها نتيجة السخرية واللامبالاة من القوى الأمنية في المحافظة، وتحولت إلى حالة عنيفة كان نتيجتها قتلى وإصابات في صفوف المتظاهرين.

ولعل أهم أسباب ما يحدث في السويداء عدم قدرة النظام وأدواته الأمنية على إحكام السيطرة على المحافظة مثل بقية المحافظات السورية الواقعة تحت سيطرته، لذلك نجد أن هذا الهامش المتاح لأهالي السويداء وريفها يفتح أفقًا لاستمرار الحركة الاحتجاجية السلمية المباشرة من دون ردود فعل أمنية قوية تتجه إلى فعل عنيف تدميري من قبل النظام، كما حدث مع بقية المحافظات التي شاركت في السنوات الأولى من عمر الثورة السورية.

(18) محمد أمين ميرة، موقع راديو روزنة، (2022/3/22).

(19) د.م، "عباس النوري ينتقد نظام الأسد ويثير جدلًا واسعًا"، عربي21، (لندن: 2022/01/30). https://arabi21.com/story/1414454

سابعًا: استشراف

على الرغم من عنف الحرب التي يشنها النظام على السوريين، نرى ردود الفعل الواضحة التي لا تنفي حالات التذمر والتبرم والتأفف والأحاديث الثنائية المباشرة في الغرف المغلقة لدى المواطن في مناطق سيطرة النظام، لكن ذلك لم يرتق إلى فعل احتجاجي واحد مثلما يحدث في محافظة السويداء.

فالإنسان السوري ما زال قادرًا على مواجهة النظام بالاحتجاجات السلمية والمدنية، كما كان الحال عليه في العام الأول من ثورة الحرية والكرامة قبل أن يجبر عنف النظام الثورة على العسكرة والتسلح.

إن حروب الإنسان السوري ضد قرارات النظام وحكومته في مناطق سيطرته مستمرة، على الرغم من كل ما تعيشه السوق السورية من التضخم وارتفاع الأسعار، مترافقة مع الفساد التقليدي التاريخي والمتجدد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية السورية. لكن إلى متى يستطيع المواطن السوري الصبر على كل عمليات الإذلال والاهانة في أكله اليومي، من قبل النظام الذي اغتصب الحياة في مناطق سيطرته، وجعل من المواطن السوري محض أداة للاسترزاق والتسول في المحافل الدولية كلها، بما فيها حصر المساعدات الإنسانية ببوابته ومناطق سيطرته؟.

أخيرًا، هل ستنبثق من معاناة مناطق سيطرة النظام حرب احتجاجية تدعو إلى التعبير عن مناهضة الجوع الذي يجتاحها؟ يأمل السوريون أن تنتهي معاناتهم في أسرع وقت بعد أن دمر النظام حيواتهم، وما يجري في هذه الآونة من التماعات هنا وهناك، لا بد سيفضي إلى المأمول بعد هذه التضحيات كلها.

المصادروالمراجع

1. حويجة. سحر، المرأة السورية في ظل النزاع: دراسة، ط1، (دمشق: دار الرحبة للنشر والتوزيع، 2016).

2. خضور. مازن سليم، متلازمات الحرب السورية: صراع الأولويات.. حروب دون نار، ط1، (دمشق: دار دلمون الجديدة للنشر والتوزيع، 2020).

3. فيشر. إرنست، ضرورة الفن: المكتبة الاشتراكية، ميشال سليمان (مترجمًا)، (بيروت: دار الحقيقة، 1965).

سياسات التقنين و انعكاساتها على السوريين

شوكت غرزالدين[1]

أولًا: ملخص

تقود الملاحظة والمقارنة إلى التفريق بين نوعين من التقنين في مناطق سيطرة النظام السوري مع نهاية 2022؛ الأول: تقنين تمارسه السلطة الاستبدادية بسبب حال الطوارئ من مثل الحرب والحصار والعقوبات، وغالبًا ما يكون تقنينًا موقتًا يزول بزوال أسبابه، والثاني: سياسات التقنين، وتمارسها (السلطة التقنينية) من دون أن يكون استجابة للحالة الطارئة، وغالبًا ما تكون سياسات شبه دائمة لا تزول بزوال أسبابها. ومن هذا التفريق توصلنا إلى أهداف مضمرة لدى السلطة التقنينية تختلف عن الأهداف المعلنة، فسياسات التقنين لا تخضع للحرب أو للحصار أو للعقوبات بقدر خضوعها لهدف إعادة تطبيع السكان مع واقع السلطة كما هو. ولا يرى السكان من السلطة سوى السلطة التقنينية بكامل تجسيداتها. ومع أن 11 عامًا مرت، وتخللها أوضاع مختلفة من الحرب والحصار والعقوبات، إلّا أن سياسات التقنين لم تكن استجابة لتلك الأوضاع المختلفة عمومًا، وإنما كانت سياسة ممنهجة لإعادة تطبيع السكان وفق عنف النظام وغياب البديل. ومع هذا كله، ما زالت سياسات التقنين من المسائل المسكوت عنها. وبدراسة مثل هذه السياسات، والتحذير منها، لن نكون على دراية أفضل فحسب، بل قد تؤدي إلى ديمقراطية أفضل، ولا سيما بعد أن تحولت سياسات التقنين إلى أزمة تهدد بتقويض أسس الثقافة.

ثانيًا: مدخل

يخضع سكان مناطق سيطرة النظام السوري منذ أحد عشر عامًا إلى سياسات تقنينية قوامها استغلال الحاجات الضرورية عند السكان. فهي تطال الطاقة والغذاء والماء والصحة والتعليم. وباستمرار تطبيقها باتت حياة السكان في عام 2022 تتمحور حول موضوعات سياسات التقنين: آلياتها، وتطبيقاتها، وأسبابها، وأهدافها، ونتائجها.

وتتجسد سياسات التقنين في إنقاص الكمية إلى حدود دنيا لا تسدّ الرمق من جهة، وفي رداءة النوعية على الرغم من غلاء السعر بالنسبة إلى القدرة الشرائية من جهة ثانية، وفي الأساليب المتبعة؛ خصوصًا تلك الأساليب المعتمدة على المعلوماتية (البطاقة الذكية على سبيل المثال) من جهة ثالثة. وبواسطة هذه السياسات باتت الحياة شبه مستحيلة؛ فالأعمال التي تحتاج إلى كهرباء شبه متوقفة، والتنقل مكلف جدًا، والحصول على الطاقة والغذاء والصحة والتعليم شبه معدوم.

(1) كاتب وباحث سوري، حاصل على ماجستير في الفلسفة.

وعلى الرغم من كارثية الحال، إلّا أنه ما زالت المبررات لانتهاج مثل هذه السياسات كثيرة. منها: الحرب السورية، والحصار الاقتصادي، والعقوبات الدولية (قانون قيصر)، وجائحة كورونا، والحرب الأوكرانية.

تهدف الدراسة إلى البحث في انعكاسات تلك السياسات وآثارها الجانبية، ولا سيّما أنها قد أحدثت تحولات ديمغرافية ونفسية واجتماعية وسياسية وأخلاقية في السكان.

ستوظف الدراسة بعض المفهومات مثل:

1. (إعادة التطبيع) الذي يقصد به إزاحة السكان عن طباعهم المكتسبة في الأزمان العادية، بإكسابهم طباعًا جديدة، والتعود عليها، من مثل تحمل الطوابير والقلّة والفساد والرشوة وغلاء الأسعار.

2. (التقنين المُقنَّع) الذي سيعني توافر المواد والسلع لمن يدفع ثمنها فحسب، وانعدامها على من لا يستطيع أن يدفع، فهو (تقنين ضمني).

3. (التكيّيف) الذي يعني تكيّف السكان الإجباري مع بؤسهم، واعتياده، وتحملهم الإجراءات الجائرة.

4. (السلطة التقنينية)، وهو مفهوم جديد يؤكد انحطاط السلطة من قضايا الأمن والسلام إلى مجرد سلطة تقنينية، كلّ همها تقنين ضروريات السكان، وتحجيمهما إلى ما دون الحد الأدنى بكثير.

تتمركز إشكالية الدراسة في ابتعاد سياسات التقنين عن أسبابها التقليدية الموقتة والمحددة في الحرب والحصار والعقوبات، ثم تحوّلها إلى سياسات تقنينية شبه دائمة، تمارسها سلطة تقنينية على السكان. وعلى الرغم من غياب الأسباب الموجبة لها، إلّا أن ما يحدث هو العكس؛ أي ازدياد مُطرِّد في سياسات التقنين من دون أسباب.

واستنادًا إلى هذه الإشكالية ستتحدّد فرضية البحث الموقتة في وجود أهداف مُضمرة عند النظام السوري، تختلف عن تلك المعلنة من جانبه. ونرى أنها تتمثل في إعادة تطبيع السكان للتكيّف مع واقع السلطة الاستبدادية، العاجز عن توفير المواد والسلع والخدمات، واللامبالي بضروريات الحياة، والمضاد لأهداف الناس بالكفاية والاستقرار، ومن ثم القبول به كما هو. وهذا معناه تقويض الحقوق في الطاقة والغذاء والصحة والتعليم، وعدم القدرة على دفع ثمنها في السوق السوداء في آن معًا. وبكلام آخر: قد تكون الأهداف المُضمرة هي ضبط السكان وعقابهم في آن معًا، فالتقنين هو السكة الثالثة للسياسة السورية بعد الاعتقال والحرب.

وتستمد الدراسة أهميتها من قراءتها سياسات التقنين الراهنة بوصفها أهمَ ظاهرة في مناطق سيطرة النظام السوري، ومن شأنها من ثم تحديد المهمات التي ينبغي على المتخصصين متابعتها تفصيليًّا لإنتاج استراتيجية لمقاومتها.

ثالثًا: تحديد التقنين

1. التقنين

((هو التحكم المصطنع في توزيع الموارد أو المنتجات أو الخدمات النادرة. وعادة ما يتم استخدام هذه العملية لضمان التوزيع الصحيح للموارد أو المواد من دون هدر.))[2]

يعد التقنين إجراءً موقتًا تلجأ إليه السلطات المختصة استجابة للحالات الطارئة، وذلك للحدِّ من استهلاك المواد والسلع والخدمات الضرورية لندرتها وتكلفتها. ويتم من خلال تحديد المستفيدين، ومراقبة توزيع الحصص، وضبط كمياتها، والتحكم بسعرها، أو وضع قيود مصطنعة على العرض والطلب. وغالبًا ما يرافقه ازدياد في نشاط عمليات التهريب، وتضخم السوق السوداء، والغلاء في الأسعار.

ويختلف التقنين عن الترشيد؛ لأن الترشيد يشير إلى الاستخدام الأفضل والأمثل للموارد المتاحة، بينما يشير التقنين إلى الاستخدام الأدنى لها. ولذلك يؤدي التقنين إلى تفاقم العجز الاقتصادي في أغلب الأحيان، على الرغم من أنه نتيجة لعجز السلطات المختصة عن تأمين ضروريات الحياة وتوفيرها.

ويمكن لإجراءات التقنين أن تستهدف الاستهلاك، أو الإنتاج والاستيراد والتصدير، أو جودة النوعية، أو القدرة الشرائية، أو الأسعار. كما يمكن لها أن تكون ظاهرة مباشرة، أو مُقنّعة وغير مباشرة (التقنين المُقنَّع). ومع أنها أحيانًا تتناسب مع ندرة الموارد أو ضرورات الحرب والحصار والعقوبات، إلّا أنها تظل مكروهة ومنتقدة، لا لغياب عدالة التوزيع في الكميات، وليس لفقدان حرية الاستهلاك أو الإنتاج فحسب، بل لفقدان الحقوق المعيشية المكفولة من أي دولة، وانهيار القدرة على شرائها في الوقت نفسه.

يهدف التقنين إلى أمرين هما تحقيق العدالة في توزيع الحصص، وضبط النفس على استهلاك أقل من المعتاد. وبهذا يحافظ على الحقوق المعيشية بحدودها الدنيا، ولكنه يقلص الحرية الشخصية في الاستهلاك إلى الدرجة صفر.

2. التقنين الضروري

وهو ((تقييد تفرضه الحكومة على توزيع الموارد أو المنتجات أو الخدمات؛ نظرًا إلى ندرتها، وترجع أسبابه إلى العقوبات أو القيود الاقتصادية المفروضة على الدولة فيما يتعلق بالتجارة أو الاستيراد والتصدير، أو الركود الاقتصادي، وغير ذلك.))[3]

وهذا النوع اعتدناه في مناطق سيطرة النظام طوال 11 عامًا. وطال تقنين الطاقة الكهربائية والمشتقات النفطية والمواد التموينية. وكانت أسبابه الحرب والحصار والعقوبات الاقتصادية.

(2) د.م، "مصطلحات: تقنين"، ميم للأعمال، https://2u.pw/QwfCfL.

(3) د.م، "المفاهيم الإدارية: التقنين"، مجرّة (دليل مصطلحات هارفارد العربية)، https://2u.pw/ymgud4.

يشير مثلًا التقرير الصادر عن لجنة الأمم المتحدة للتحقيق في سورية إلى الأسباب والنسب المفزعة للغلاء، وأعداد المحتاجين إلى المساعدة الإنسانية إذ يقول: ((وبالإضافة إلى استمرار الحرب يعاني السوريون من تدهور اقتصادي بلغ أقصاه وامتد لأكثر من عقد من الزمن، وتفاقم بسبب الفساد وجائحة مرض فيروس كورونا (كوفيد19-) والعقوبات أحادية الجانب والأزمات الاقتصادية في لبنان وتركيا. والوضع الاقتصادي والإنساني في أسوأ حالاته منذ بداية النزاع، حيث يحتاج 14.6 مليون شخص إلى المساعدة الإنسانية. وارتفاع أسعار المواد الغذائية بنسبة 800 في المئة منذ 2020.))[4]

في هذا النوع تكون المشكلة محددة بالطلب والاستهلاك. فعندما يقل العرض، سيرتفع الطلب وترتفع أسعار المواد إلى مستويات عالية ليست في متناول السكان. وعليه، سيفتعل التقنين تخفيض الأسعار بوضع قيود على الطلب والاستهلاك، ويستدعي تحديد سقف الأسعار، وهو بذلك سيحافظ على درجة معينة من العرض.

ولكن العرض يتعلق بأوضاع خارجية، وقد تصل الأسعار إلى حدٍ لا يستطيع إلّا الأغنياء دفعه. وهذه هي النقطة التي تستوجب التقنين والدعمين الحكومي والدولي. وفي حال عدم التدخل سيلجأ المنتجون والمستهلكون إلى الالتفاف على غلاء الأسعار وندرة السلع والمواد وتردي الخدمات، وذلك بتقليل الجودة. فمثلًا، بعدما ارتفعت أسعار الألبان والأجبان والحليب إلى أسعار غير مقبولة، أنتِجت أشباه الألبان والأجبان (أغذية مصنعة)، إنها أرخص ثمنًا، ولكنها أسوأ تغذية[5].

3. التقنين السياسيّ

هو تقنين مستمر، ولكن مع غياب للأسباب الموجبة. فقد استخدمت الدراسة مصطلح (سياسات التقنين) عوضًا عن (التقنين) للتفريق بينهما استنادًا إلى حضور الأسباب الموجبة فعلًا أو غيابها. فسياسات التقنين هي سياسات شبه دائمة، ولا تفرضها الحالة الطارئة، وأحيانًا تكون استباقية، وليست استجابة لواقع الندرة أو الحصار، كما حدث في الأعوام الأولى من الاحتجاجات الشعبية بتقنين الكهرباء (قطع ساعتين ووصل 4 ساعات)، على الرغم من وجود القدرة على توليدها بصورة كافية. ففي سورية باتت مثل هذه الأسباب غير حقيقية، ولا تفسر بتاتًا سياسات التقنين المتبعة والمبتكرة.

يمتاز التقنين السياسي في تطبيقه بأنه غير عقلاني لغياب أسبابه، وغير أخلاقي لغياب عدالة التوزيع اولًا، وانعدام الحرية الشخصية في الاستهلاك والإنتاج ثانيًا، وهدر الحقوق المعيشية مع انهيار القدرة على شرائها ثالثًا. كما أنه قد يكون استباقيًا في بعض الأحيان.

4. في بطلان الأسباب المعلنة للتقنين السياسيّ

لطالما كانت الأسباب المعلنة لانتهاج سياسات التقنين هي الحرب والحصار والعقوبات، ولكنها أسباب دعائية

(4) الجمعية العامة، "تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة المعنية بالجمهورية العربية السورية"، الأمم المتحدة، 17 آب/ أغسطس 2022، ص3، https://2u.pw/ITy0JY.

(5) شيرزاد اليزيدي، "أشباه الألبان والأجبان في سورية ما القصة"، سكاي نيوز العربية، (2021)، https://2u.pw/wLWoP8..

زائفة. فقد أصبحت سياسات التقنين منهجية حياة، فعلى الرغم من انتهاء الحرب إلّا أن التقنين قد ازداد. وعلى الرغم من استمرار الحصار والعقوبات إلّا أن هذا الاستمرار لم يسهم في فَقْد المواد من السوق السوداء.

أ. الحرب

أعلن النظام السوري انتهاء الحرب أكثر من مرة، بل أعلن الانتصار، ولكنه ما زال يُبرّر سياسات التقنين بالحرب. فعلى الرغم من أن الحرب متوقفة منذ 2018، إلّا أن الخطاب السائد ما زال يُبرِر سياسات التقنين بالحرب. ومنذ بدء الحرب الأوكرانية والنظام يتخذ منها مبررًا لغلاء المواد الغذائية. يقول عضو مجلس الشعب عمّار بكداش مؤكدًا:

((نأخذ مثلاً زيت دوار الشمس، فعندما سألنا رئيس الحكومة عن سبب فتح باب استيراده الحر، أجاب أنه فُتح لتشجيع الصناعات الموجودة في بلادنا.. خمس أو ست منشآت لا تُنتج، بل تُعلّب تلك المادة المستوردة، وبسبب الوضع الاحتكاري، نجد أنه عندما كان سعر (المفرق) لليتر الواحد في ألمانيا 1 يورو، كان يباع في سورية بسعر 8 آلاف ليرة سورية، أي بـ 2 يورو، وحاليًا بسبب الحرب في بعض أجزاء أوروبا، ارتفع سعر الزيت عالميًا، وبات يباع في ألمانيا (بالمفرق) بـ 2 يورو، كما نجده يُباع في لبنان بـ 9 آلاف ليرة سورية، أما في سورية يُباع بـ 17 ألف ليرة سورية وما فوق، فما هو ربح هؤلاء المحتكرين؟! ألا يحق لمواطننا أن يدفع سعر التكلفة الرأسمالية مع الربح الرأسمالي؟))[6].

ب. العقوبات

عندما تبرر سياسات التقنين بالعقوبات، يُفترض أن تطال العقوبات الطاقة والغذاء والماء والصحة والتعليم. ولكن العقوبات لا تطال هذه المسائل. فأين العقوبات عن سلعة الزيت مثلًا؟ إنها تملأ الأسواق السورية بأسعار غير محتملة قياسًا بالدخل، ولكن المؤسسات العامة المملوكة للدولة تخلو منها. فلمدة طويلة قبل الحرب الأوكرانية كان ليتر الزيت (عباد الشمس النباتي) يصل إلى سورية بعد الاستيراد والشحن بسعر 900 ل.س، ولكنه يباع للمستهلك بسعر 8000-9000 ل.س. وهذا فق حساب أجراه أحد الاقتصاديين السوريين، واسمه عمّار اليوسف. ((إذا كان سعر 1 طن زيت قلي عباد الشمس ماركة سافيا نخب أول اوكراني 250 $ حسب أسعار موقع علي بابا بتاريخ اليوم. ويكلف الطن شحن $200، يعني الطن واصل 450 $ إذن:

450×2500 (سعر الدولار بالمصرف المركزي السوري آنذاك) = 112500 ل.س.

112500÷1000=1125 سعر كيلو غرام من الزيت (مع العلم أن الكيلو غرام يساوي ليتر وربع، وهامش الربح 10%)

فلماذا سعره 9000 ل.س في الأسواق مع أن المواد الغذائية لا تشملها العقوبات؟!))[7].

فكيف يتماشى توافر المواد والسلع في السوق السوداء مع تبريرات تقنينها؟ من الواضح أنه لا يتماشى. فإذا

(6) "النائب عمار بكداش"، مجلة مسارات، (2022)، https://2u.pw/GTNU7l.

(7) "كتب الباحث الاقتصادي عمار يوسف متسائلاً"، مجلة مسارات، (2021)، https://2u.pw/UZ5l5v.

استثنينا عام 2020 بسبب جائحة كورونا والحجر الصحي وإقفال الحدود والمطارات، فإن الأعوام الأربعة الماضية كانت فيها سياسات التقنين على أشدها. والأسوأ من بين هذه الأعوام طبعًا هو العام الحالي 2022.

ج. الحصار

اتبع النظام السوري سياسات التقنين للتصدي للحصار، بينما كان باستطاعته انتهاج طريقة الاعتماد على الذات. لأن أسلوب التعامل مع الحصار قد يلغي مفاعيله. ولو بادر النظام لحل المشكلات ذاتيًا وسريعًا، ولم يهملها، لساعده هذا الأسلوب على التحصن ضد الحصار. وبالعكس، فإن الحصار على سورية عمّق سياسات التقنين. وانتقلت سورية من دولة مكتفية بالقمح واللحوم والبيض إلى دولة غير مكتفية بسبب سياسات التقنين لا بسبب الحصار المفروض.

إن إهمال معالجة مشكلة توليد الكهرباء مثلًا، سيؤثر تأثيرًا سلبيًا في مواقف الناس وتصرفاتهم تجاه محيطهم، ما يؤدي إلى مشكلات أكثر وأكبر، والعكس صحيح أيضًا، فمعالجة المشكلات الصغيرة في وقت سريع، ستؤدي إلى محيط أفضل وسلوك أحسن.

لا ننكر أنه ثمة أسباب تتعلق بالإرهاب. وأن خروج مناطق النفط من سيطرة النظام أسهمت في تقنين الكهرباء والمازوت والبنزين والغاز، ولكننا لا نكتفي بها، ولا نجعلها شماعة نعلق عليها عجزنا. وهكذا يتبين أن الأسباب التي تعلنها السلطة التقنينية لتبرير سياسات التقنين، لا ترتبط ارتباط علة بمعلول. ويقف وراءها تجار الحروب المدعومين من النظام السوري.

5. علاقة السلطة التقنينية بالسلطة الاستبدادية

إن انبثاق السلطة التقنينية يتعلق بوجود المُقنن عليهم، وبمصدر الأوامر التقنينية، وبالأرضية السابقة. فالتقنين يطال الجميع ولا يميز بين المُقنِنين والمُقنَن عليهم، أو بين القائمين عليه وبين من يقع عليهم. فوزارات الدولة والمسؤولين والأغنياء يخضعون إلى التقنين كباقي السكان. وقد وصل تقنين الوقود على وزارات الدولة إلى 40 بالمئة بقرار من رئيس الوزراء بحسب مدير إحدى الشركات مفضلًا عدم ذكر اسمه. هذا علاوة على تقنين الكهرباء. وبهذا تكون القرارات المتعلقة بكيفية التقنين غير حيادية لأنه يجب أن يتخذها أشخاص غير متأثرين ولا يتوقعون تأثرهم بأنفسهم بموجب تلك القرارات نفسها. ولكن التأثير قائم، ما يجعل الجميع خاضعًا إلى سياسات التقنين خضوعًا غير محايد.

وقد يصدر أمر التقنين من فوق بمرسوم من الرئيس أو بقرار من رئيس الوزراء أو أحد الوزراء، ويلاقي استحسانًا شعبيًا بحجة (غلّوها بس وفروها)، و(خلصتنا البطاقة الذكيّة من الطوابير)، أو يلاقي استنكارًا واحتجاجًا شعبيًا واسعًا كما حصل وقت تقنين الخبز، وتحديد مخصصاته اليومية على البطاقة الذكية.

وقد يُطلب من (أسفل) على شكل رجاء أو تمنٍ من قبل السكان وممثليهم (من المستهلكين، وأولياء الأمور، والآباء، ورجال الدين، والنقابات والاتحادات الفلاحية والعمالية والجمعيات وحزب البعث)، ثم يستجيب

رأس النظام أو رئيس الوزراء أو أحد الوزراء، ويصدرون المراسيم والقرارات. بعض المستهلكين يطالبون بإلغاء الكهرباء نهائيًا، لأنهم لا يحصلون على ساعة كاملة من وصل الكهرباء. فليس بالضرورة إذًا أن يتوجه التقنين من أعلى إلى أسفل كالعادة بل كان أحيانًا استجابة لطلب يصعد من أسفل إلى أعلى.

وعلى الرغم من الاندماج بين السلطة التقنينية والسلطة الاستبدادية للنظام، إلّا أنها غير مستفيدة، لأنها تعمل عنده وبإشرافه، وهو المستفيد الأول سياسيًا (عن طريق الضبط والعقاب وإعادة التطبيع)، واقتصاديًا (عن طريق النهب والتقنين والفساد). مع العلم أن السلطة التقنينية تخفي عجز السلطة الاستبدادية عن توفير المواد والخدمات الضرورية، وتقدم أكاذيبَ تضلل الناس عن واقع النظام.

كما أن النظام هو المستفيد من المنظمات الدولية لا السلطة التقنينية. فقد خلقت المنظمات الدولية من مثل منظمة الإغاثة ومنظمة التغذية والصليب الأحمر والهلال الأحمر بابًا واسعًا لتمويل النظام السوري من المساعدات الأممية[8]. وثمة تمويل غير مباشر[9] من دول اللجوء للنظام عن طريق فرض تجديد جوازات السفر السورية، وتمويل بالفساد أيضًا، والتحقيقات جارية مع أحد كبار المسؤولين الدوليين.

ما يؤكد الاندماج بين السلطتين هو أن السلطة التقنينية تفترض آليات السلطة الاستبدادية مسبقا، إذ لم يكن من السهولة تنظيم وفرز المستحقين من غير المستحقين وضبط هذه العملية والرفع من مردوديتها لولا توافر تقنيات التقنين وإجراءات الانضباط ووسائل المراقبة والمعاقبة والحرمان.

رابعًا: تطبيقات سياسات التقنين

1. المخصصات التقنينيّة المدعومة

إن سياسات التقنين تُفرِّق بين المدعومين (الأكثر فقرًا) وغير المدعومين[10] (الفئات الوسطى والغنية مثل الأطباء والمهندسين والمحامين والصيادلة ومن يملك سجل تجاري أو سيارتين ومن يملك سيارة استطاعتها أكبر من 2600cc ... إلخ.). وعلى غير المدعومين شراء ضروريّاتهم من السوق السوداء. وقد يصل فرق مدفوعاتهم السنوية على مازوت التدفئة والبنزين والغاز والخبز إلى 4 آلاف $ سنويًا قياسًا بالمدعومين. مثلًا سعر ربطة الخبز 200 ل.س للمدعومين بينما 1300 ل.س لغير المدعومين. سعر ليتر البنزين 2500 ل.س وقد يصل إلى 15000 ل.س، وقِس على ذلك. وهذا يزيد في انحدار الطبقة الوسطى، وازدياد نسبة الفقر. مع العلم أن مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية التابع للأمم المتحدة قد أعلن في تقرير له أن 14.6 مليون شخص في سورية يحتاجون مساعدات إنسانية خلال العام الحالي، والرقم الحالي قد ارتفع من 13.4 مليون خلال العام الماضي.

(8) وجيه حداد، "مصادر تمويل النظام السوري قبل الحرب وبعدها"، (الدوحة/ إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 2019)، ص3.، https://2u.pw/lSemqa.

(9) د.م، "وقف تدفق الأموال إلى دولة التعذيب السورية"، ديفوند أسد، (2022)، https://2u.pw/WlvSJY.

(10) د.م، "التطورات المعيشية والاقتصادية في سورية (لشهر آب/أغسطس 2022)، (إسطنبول/ الدوحة: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 2022)، ص4، https://2u.pw/Li8Cqt.

وتطال سياسات التقنين الخبز والماء والكهرباء والمحروقات (مازوت بنزين غاز) والشاي والسكر والزيت. وباستثناء تقنين الكهرباء، فإن باقي المواد المقننة محكومة بالبطاقة الذكية[11]. ويمكن تقسيم المخصصات إلى ثلاثة أقسام بحسب المستفيدين: الأول مخصص لوقود النقل (مازوت، بنزين) للآليات الثقيلة والخفيفة العامة والخاصة، والثاني مخصص للأُسر، ويستند إلى دفتر العائلة (مازوت تدفئة، خبز، ماء، سكر، رز، وشاي)، والثالث مخصص للصناعيين والمزارعين والحرفيين استنادًا إلى تراخيص عملهم وشهاداتهم الحرفية بصفتهم أصحاب المطاعم والحقول والمصانع والحرف المتعددة. وتحدد البطاقة الذكية كمية المادة، وسعرها[12]، وزمن الحصول عليها، والمستفيد منها، ومكان الاستلام. وتقتصر حصص الوقود (مازوت بنزين) على أصحاب الآليات الخاصة والعامة، وأصحاب المولدات (بنزين-مازوت). أمّا الأسرة، فلها مخصصات مثل أسطوانة الغاز ومازوت تدفئة وسكر ورز وشاي و"زيت"، وأسطوانة الغاز والمازوت للأغراض الصناعية والتجارية والحرفية والزراعية.

وعلى الرغم من ذلك تبقى أسعار المواد المقننة لا تقاس بأسعار السوق السوداء، مثلًا كيلو السكر المقنن على البطاقة الذكية 1000 ل.س، وفي كل شهرين كيلو غرام واحد للفرد، في السوق الخاضعة للرقابة سعره 4600 ل.س، ويتجاوز 6000 ل.س في السوق السوداء التي لا تخضع للمراقبة، ولكن لا يستطيع صاحب البطاقة الذكية شراء مخصصاته كافة، فيلجأ إلى بيعها.

2. أمثلة على تطبيقات سياسات التقنين

أ. تقنين الكهرباء

((غالباً ما استُخدِم كلٌّ من قطاع الطاقة وخدمة الكهرباء أداةً للعقاب الجماعي خلال الصراع. فإما قُطِعَت التغذية عن المناطق الخاضعة لسيطرة الخصوم، وإما استُهدِفَت البنية التحتية، ما جعلها غير ذي فائدة أو تسبّب على الأقلّ بخفض قدرة الإنتاج والنقل))[13].

ولنأخذ محافظة السويداء مثالًا، مع العلم أن ساعات التقنين فيها أقل من باقي المحافظات. برنامج التقنين نظريًا ساعة وصل وخمس ساعات فصل، ولكن في ساعة الوصل تقطع الكهرباء أكثر من مرة بسبب القاطع الترددي.

تولد سورية الآن 3000 ميغا واط، مع العلم أن حاجة المناطق الخاضعة لسيطرة النظام تصل إلى 9000 ميغا واط. وهذا معناه رداءة توليدها وتوزيعها واستجرارها لضعف التوتر، وعدم استفادة المستهلكين من أوقات الوصل بالغسل أو التبريد أو التسخين أو التدفئة. وقد بدأ تقنين الكهرباء استباقيًا منذ عام 2011 بالتزامن مع انطلاق ثورة الحرية والكرامة، ومع أن السلطة لم تكن محاصرة أو في حالة حرب إلّا أن تقنين الكهرباء راح يزداد بالتدريج حتى وصلنا إلى أدنى مستويات الحصول على الطاقة الكهربائية، لا لنقص في الوقود (فيول، غاز)،

(11) البطاقة الذكية هي بطاقة إلكترونية تحدد الكميات المقننة وتاريخ استلامها والمتبقي منها وتعمل على أجهزة خاصة بها وتشبه تلك البطاقات المستعملة في البنوك والصرافات الآلية.

(12) انظر الملحق رقم (1).

(13) سنان حتاحت وكرم شعار، "قطاع الكهرباء في سورية بعد عقد من الحرب: تقييم شامل"، مايا صوان (مترجمة)، (مركز روبرت شومان، 2021)، https://2u.pw/AL41G5.

والدليل توافر الكهرباء على مدار 24 ساعة في المربعات الأمنية وبعض المناسبات مثل مبايعة الرئيس على ولاية جديدة، بل لضبط السكان، ومن ثم التحكم بهم بعد فقدانهم السيطرة على واقعهم.

ب. تقنين مازوت التدفئة

مع دخولنا في فصل الشتاء قال المتحدث الرسمي للأمم المتحدة، ستيفان دوجاريك، خلال مؤتمر صحافي: ((إن احتياجات الشتاء الإنسانية ارتفعت هذا العام بنسبة 33% عن العام الماضي، موضحًا أن حوالي 6 ملايين شخص سيحتاجون إلى مساعدة إنسانية للتصدي لظروف الشتاء القاسية))[14].

ولكن السلطة التقنينية حددت حصة العائلة استنادًا إلى دفتر العائلة -لا الفرد- من مازوت التدفئة على البطاقة الذكية بـ 50 ليترًا بسعر نظامي يبلغ 25000 ل.س. أي 500 ل.س لليتر الواحد، و50 ليترًا بالسعر الحر، ويبلغ 125000 ل.س، أي 2500 ل.س لليتر الواحد. ويمكنك شراء الكمية التي تريدها من السوق السوداء بسعر 7500-10000 ل.س لليتر الواحد. فإذا احتجت إلى ألف ليتر لتدفئة عائلتك، فستدفع 7.5 مليون ل.س فقط، مع العلم أن دخل رب الأسرة لا يتجاوز 150 ألف ل.س. مع العلم أن كثيرًا من الأسر لم تستلم هذه الكمية الهزيلة حتى الآن. وهذه ثلاث لقطات شاشة لتطبيق (وين) الذي تعمل عليه البطاقة الذكية بخصوص مازوت التدفئة؛ تبين الأولى الكمية بسعر المباشر، وتبين الثانية الكمية بسعر نظامي، وتبين الثالثة الحد الأعلى والمنفذ.

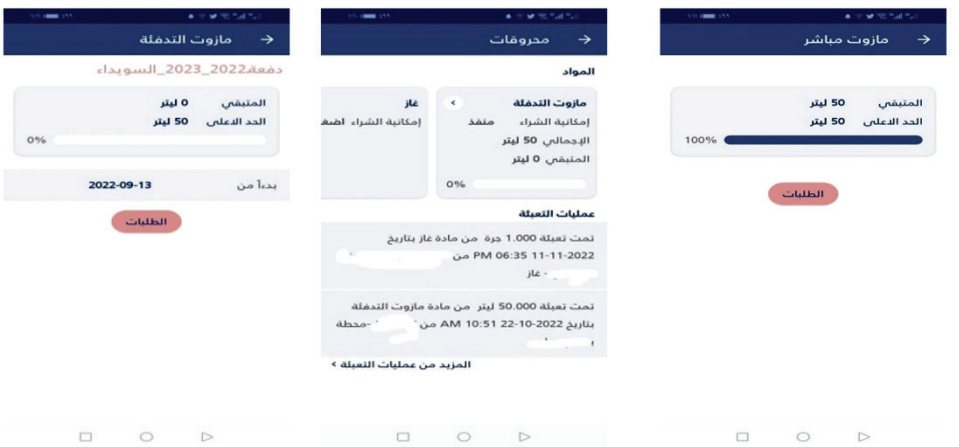

ج. تقنين بنزين السيارات الخاصة

تخصص للسيارة كمية إجمالية 200 ليتر في الشهر، تستلم على دفعات بمقدار 25 ليترًا في كل دفعة. ولكن بحسب رسائل البطاقة الذكية لا تستطيع أن تستلم إلّا مرة أو على الأكثر مرتين في الشهر أي 25-50 ليترًا فقط، وتنتفي الاستفادة من 150 ليترًا باقية. وندخل في شهر جديد، وهكذا. انظر لقطتي الشاشة؛ تبين الأولى تباعد تواريخ عمليات التعبئة، مع العلم أن إحدى العمليات هي بنزين مباشر، وكميتها 20 ليترًا بسعر 4000 ل.س لليتر

(14) أنباء سورية، "الأمم المتحدة: 200 مليون دولارًا عجز الاستجابة الشتوية في سورية"، سورية برس، (2022)، https://2u.pw/r3Ruji. شوهد 2023/1/6.

الواحد. وقد مسح اسم المحافظة واسم محطة الوقود ورقم عملية التعبئة، أما الثانية فتبين الفرق بين إمكان شراء 200 ليتر في الشهر، وواقعه الفعلي أي 25 ليترًا. وقد مسح اسم المحطة ورقم الموبايل.

د. تقنين أسطوانة الغاز المنزلي

حصة العائلة أسطوانة غاز واحدة كل ثلاثة أشهر، مع العلم أنها لا تكفي إلّا لشهر واحد في أحسن حالات الاستهلاك لأنها تتسع إلى سبعة كيلو غرامات من الغاز فقط، وسعرها النظامي على البطاقة الذكية 12000 ل.س، ولكن باستطاعتك شراؤها من السوق السوداء بسعر 130 ألف ليرة سورية، يعني براتب شهر كامل بالنسبة إلى الموظف. انظر لقطة الشاشة.

من كل هذا وغيره، ينتج ما يلي: تكيّف السكان مع هذه السياسات، وإعادة تطبيع السكان على مقاس السلطة الاستبدادية.

ولكن هل يأتي الوقت الذي يستنفد فيه السكان قدرتهم على التكيف؟ وهل تقوى السلطة على الاستمرار في تطبيع السكان على أوضاع غير إنسانية، وتفتقر إلى أدنى درجات الحقوق؟ والجواب الأولي هو من الممكن ألا يطيق السكان المزيد من التكيّف، فيحتجوا كما حصل مؤخرًا في السويداء 4 كانون أول/ديسمبر 2022[15]. وربما لا تقوى السلطة أيضًا على الاستمرار بالوتيرة نفسها، فتعدل عنها مكرهة تحت وطأة الضغط والتشهير.

خامسًا: الآثار الجانبية

يُفترض في سياسات التقنين أن تحقق العدالة وضبط النفس، ولكنها تحقق شيئًا آخر غير مخطط له.

1. تعميق التفاوت

ثمة تفاوت بين المدعومين من الحكومة وغير المدعومين من جهة، والمدعومين ذاتهم من جهة أخرى. فعلى الرغم من أن الكمية المخصصة واحدة للمدعومين، الشيء الذي يوحي بتحقيق العدالة بين أنواع المستفيدين جميعهم، إلّا أن غياب العدالة كامن في الجودة الرديئة للمخصصات، وفي الزمن المتفاوت لاستلام الرسالة التي تفيد باستلام المخصصات، وفي التحديد الاعتباطي للمستحقين وغير المستحقين، وفي السعر المختلف للمخصصات (ففي كثير من الأحيان ترتفع أسعار المواد فجأة، فمن استلم نجا، ومن لم يستلم سيدفع أكثر). فإذا

(15) د.م، "مظاهرات في السويداء جنوب سورية المحتجون يقتحمون مبنى المحافظة وقوات النظام تطلق النار"، الجزيرة نت، (2022/12/4)، https://2u.pw/FqMYWy.

تحققت العدالة في الكمية، غابت في المسائل الأخرى المتعلقة بالحصول على الكمية، ومن يستحق أن يستلمها. فلا يمكن تطبيق سياسات التقنين والمحافظة على العدالة في الوقت نفسه. حتى إن المساواة في الظلم لا تعمق الشعور بغياب العدالة بقدر التفاوت في الظلم. فإذا كانت سياسات التقنين تهدف إلى الحدّ من استهلاك السكان وطلباتهم، فإن توخي العدالة في توزيع الحصص معدوم، ومع أولئك الذين يستطيعون أن يدفعوا أكثر من غيرهم، يمكن أن تكون النتائج غير متكافئة وسيئة تمامًا.

ولو كان ثمة عدالة في سياسات التقنين، فمن كان سيشكو منها؟ لا أحد. بل على العكس كان الناس سيمتدحونها. فإذا كان ثلث الراتب مخصصًا لشراء الخبز، فعن أي عدالة نتحدث؟! ولكن على الرغم من تكيّف السكان مع سياسات التقنين، إلّا أن غياب العدالة عنها يقض مضجعهم. لقد أظهرت التجربة، خاصة في زمن الحرب، أن الناس سوف يتسامحون مع سياسات التقنين وضوابط الاستهلاك، إذا كان من الواضح أن الجميع يلتزم بالقواعد نفسها، ويحصل على نصيب عادل. علمًا أن العدل لا يعني دائمًا المساواة؛ ففي زمن الحرب مثلًا تلقى الأشخاص الذين يقومون بأعمال حربية دعمًا أكبر من غيرهم، وهو أمر منطقي بالنسبة إلى غالبية السكان.

2. فرض الممرات الإجبارية

مع هذه الكميات الضئيلة والنوعيات الرديئة والأسعار المرتفعة تُفقد الحرية الشخصية في الاستهلاك أو في التنقل أو في اختيار نوع التعليم والرعاية الصحية، وتصبح الممرات جميعها إلى هذه الضروريات إجبارية لا اختيار فيها. مع العلم أنه ثمة خيارات في هذه المسائل، ولكنها غالية الثمن لا يتحملها غالبية الناس.

3. تعدد في سعر المادة الواحدة وعدم التناسب مع متوسط الدخل في الأسعار جميعها

خلقت سياسات التقنين من خلال الدعم الحكومي ثلاثة أسعار للمواد المقننة على الأقل؛ سعر نظامي وآخر حرّ، وتحددهما السلطة التقنينية على البطاقة الذكية، وسعر ثالث تحدده السوق السوداء. مثلًا: كيلو السكر نظامي على البطاقة الذكية ألف ل.س، والحرّ على البطاقة الذكية أيضًا بسعر 3800 ل.س، ولكن في السوق السوداء قد يصل إلى 6000 ل.س. ليتر البنزين النظامي بـ 2500 ل.س، والحرّ بـ 4000 ل.س، وفي السوق السوداء قد يصل إلى 13000-20000 ل.س. أما مازوت التدفئة النظامي 500 ل.س، والحرّ 2500 ل.س، وسعره في السوق السوداء قد يصل إلى 7500-10000 ل.س. وقس على ذلك زيت عباد الشمس ومازوت النقل وأسطوانة الغاز...إلخ هذه الأسعار جميعها لا تتناسب مع متوسط الدخل الشهري الذي يتراوح بين 100-150 ألف ل.س؛ أي ما يعادل 20-25 $. فالراتب الشهري لا يشتري سوى 25 كغ من السكر أو 50 ليترًا من البنزين بأدنى الأسعار.

وهذا يؤسس لتقنين مُقنَّع في استهلاك الغذاء والطاقة والتنقل والتعليم والصحة، لأن عددًا قليلًا جدًا سيستطيع شراءها، أمّا الأغلبية العظمى فلا تستطيع شراء مخصصاتها، وتلجأ إلى بيعها. ففي حال الحصول على كمية المخصصات من البنزين كاملة (وهذا لم يحصل أبدًا حتى الآن)، فمن سيستطيع شراء 200 ليتر من البنزين شهريًا بسعر 500000 ل.س؟ قلة قليلة فحسب.

4. تبديد فكرة الحقوق

بات الحق في الغذاء والطاقة والصحة والتعليم والخدمات شبه معدوم. وصارت القدرة الشرائية هي العنصر الأساس، فحلت محل الحق أي، الاستعداد للدفع مقابل ما كان في السابق حقوقًا تكفلها الدساتير. إن الاختلال الهائل في القدرة الشرائية يؤدي إلى توزيع غير عادل بالضرورة. فضلًا على أن اتباع فكرة الدفع والمقابل النقدي للحصول على الحقوق الأولية يمكن أن يُعد انسحابًا تدريجيًا من فكرة الحقوق، وربطها بالقدرة الشرائية. فليس من حقك شيء، ادفع، تأخذ، لا تدفع، لن تأخذ.

5. خطر بيئي

يتجسد هذا الخطر في تحطيب الأشجار للتدفئة نتيجة لتقنين مصادر التدفئة الأخرى (مازوت، غاز، وكهرباء). وقد وصل سعر الطن الواحد من الحطب إلى مليون ليرة سورية. وقد أكدت الأمم المتحدة بأن هناك (حاجة ماسة) إلى حوالى 200 مليون دولار لسد فجوة التمويل، وتلبية الاستجابة الشتوية في سورية، مع اقتراب دخول فصل الشتاء هذا العام. ولحجم الكارثة لا أحد يفكر بالخطر البيئي، ولا يمكن لوم الناس، والحكم عليهم بأحكام أخلاقية، فالملوم السلطة التقنينية.

6. بيع المخصصات

اللجوء إلى بيع المخصصات في نوع من التكيّف مع الأزمة صار ظاهرة منتشرة. وسواء كانت قادمة من قبل الدولة أم قادمة من منظمات الإغاثة الدولية، فإنها تباع لترفد السوق السوداء بالمواد النفطية والتموينية. وذلك لأن بيع المخصصات صار أربح من العمل بها، إذا كانت مشتقات نفطية، وأربح من تناولها، إذا كانت مواد إعاشية.

شرح أحد المواطنين، مفضلًا عدم ذكر اسمه ما حدث في اجتماع لجنة السير في مدينة صلخد من بيع مخصصات مازوت النقل، وقال:

((على خط السويداء-صلخد يخدم 73 سرفيسًا. مخصصات السرفيس الواحد في الشهر من مادة المازوت 723 ليترًا. يفترض أن يقوم السرفيس الواحد بتحميل الركاب مرتين يوميًا ذهابًا إلى السويداء وإيابًا منها. وتكلف النقلة الواحدة ذهابًا وإيابًا عشرة ليترات من المازوت بالحد الأقصى. على الأغلب تكلف ثمانية ليترات. فإذا عمل السرفيس نقلتين في اليوم على مدار 30 يومًا سيصرف بالحد الأعلى 600 ليترًا ويبقى فائض من مخصصاته حوالي 125 ليترًا فإذا باعهم في السوق السوداء سيحصل قرابة المليون ليرة سورية من هذا الفائض. ومع العلم أن السرفيس لا يقوم برحلتين يوميًا ولا يعمل طوال الشهر إذا ما حسبنا له أيام العطلة)). وقال آخر إن ((إحدى شركات النقل (البولمان) لها مخصصات من المازوت 13 ألف ليترًا. وهذا يعادل في السوق السوداء حوالي 15 ألف دولار في الشهر بينما دخل الموظف والعامل والميوام لا يتجاوز 25 دولارًا في الشهر)). وقال صديق لمالك بولمان على خط دمشق السويداء إنه ((يبيع مخصصاته من المازوت بِـ 12 مليون ل.س شهريًا من دون أن يعمل على الخط)).

سادسًا: الانعكاسات

بما أن لسياسات التقنين علاقة مع مختلف نواحي الحياة، فإنها تنعكس في قطاعات مختلفة انعكاسًا مباشرًا.

1. انعكاسات اجتماعية وديمغرافية

بحسب المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين ازداد النزوح الداخلي 300 ألف مع نهاية عام 2020 ليصل إلى 6.7 مليون شخص. ووصل اللجوء الخارجي إلى 6.8 مليون شخصًا. وهذا الازدياد يتعلق بسياسات التقنين الاقتصادية والخدمية هذه الأيام. فهي إذًا تُكمل ما بدأته الحرب وانعدام الأمن من قبل. وتؤثر في نوعية الحياة وإيقاعها اليومي، وفي قيم الضيافة والتواصل والعادات والتقاليد وضبط أعمال السكان المنزلية على مجيء الكهرباء. وما تجلبه من رشاوى وأتاوة وفدية.

مثلًا ينعكس تقنين الكهرباء والمازوت مباشرة في ضخ الماء من الآبار والسدود. ما يضطر السكان إلى شراء الماء بسعر 50 ألف ليرة سورية مقابل 30 برميلًا. وكذلك في الاتصالات (هاتف أرضي، موبايل، نت). وتمضي خمس ساعات على الأقل من دون اتصالات أو تواصل مقابل ساعة أو نصف الساعة من توافرها. فإذا استثنينا من محافظة السويداء مدينة السويداء نفسها ومدينتي صلخد وشهبا، فإن باقي النواحي تكون بلا اتصالات مثل عريقة[16] الكفر والغارية والهويا...[17]

وينعكس تقنين المازوت والبنزين[18] على التنقل والحركة الضرورية بقصد التعلم والتطبب حتى بات الأهالي في حالة شبه ساكنة أو في سبات شتوي-صيفي عن الحركة، ولكن في غليان من التقنين[19].

((وقد استنفدت الأُسر السورية قدرتها على التكيف))[20]. وفي إجراء أخير يتجه الناس إلى تدابير متطرفة مثل عمالة الأطفال وعمالة المسنين، والزواج المبكر والقسري، وإبعاد الأطفال من المدرسة والطلاب من الجامعات، وطلب الهجرة[21]. ومثل هذا المنحى لا يمكن عكس اتجاهه، إلا من خلال إعطاء دفعة جديدة ومنسقة للحل السياسي، وإلغاء سياسات التقنين.

(16) د.م، "عريقة: محتجون يغلقون مركزًا لتغذية الاتصالات"، السويداء 24، (2022)، https://2u.pw/Un2gOa.

(17) د.م، "خروج عدد من المراكز الهاتفية عن الخدمة"، السويداء 24، (2022)، https://2u.pw/OBYQGe.

(18) د.م، "أزمة المواصلات الخانقة في السويداء"، السويداء 24، (2022)، https://2u.pw/nPcuoN

(19) د.م، "الشارع يغلي"، السويداء 24، (2022)، https://2u.pw/8G9pUm.

(20) برنامج الأغذية العالمي، "الجوع في سوريا يبلغ مستويات تاريخية والملايين على شفير الهلاك"، الأمم المتحدة، (2022)، https://2u.pw/HUgLcF.

(21) SAVING LIVES CHANING LIVES, "Syria Emergency", WFP, (2022), https://2u.pw/nKLL16.

2. انعكاسات اقتصادية

تتمثل الانعكاسات الاقتصادية في ظاهرتين:

الأولى؛ ظاهرة السوق السوداء التي ترفدها عمليات التهريب، وبيع المخصصات، وفساد السلطة التقنينية، والمنظمات الدولية، وتديرها السلطة الاستبدادية، إضافة إلى ضعف الإنتاج، وغلاء الأسعار الذي لا يحتمله السكان معظمهم. فكثيرًا ما تلجأ السلطة التقنينية بأوامر من السلطة الاستبدادية إلى إمداد السوق السوداء بالمواد الضرورية كالمازوت والبنزين والغاز لتحقيق أرباح خيالية. وأخرها صدور القرار رقم 3624 عن وزارة التجارة الداخلية وحماية المستهلك الذي يسمح لشركة **B.S** ببيع 15 بالمئة من كميات المحروقات التي تستوردها إلى الفعاليات الاقتصادية[22]. وقال ديفيد بيزلي، المدير التنفيذي لبرنامج الغذاء العالمي، مؤكدًا هول الكارثة: ((إن الحقيقة المفجعة لملايين العائلات السورية هي أنهم لا يعرفون من أين ستأتي وجبتهم التالية. يجب على المجتمع الدولي أن يدرك أن عدم اتخاذ إجراءات الآن سيؤدي حتما إلى مستقبل كارثي للسوريين. إنهم يستحقون دعمنا الفوري وغير المشروط. ويواجه حوالي 12 مليون شخصًا في سوريا -أكثر من نصف السكان- حاليًا، انعدامًا حادًا للأمن الغذائي. وهذا يزيد بنسبة 51٪ عن عام 2019، وهناك 1.9 مليون آخرين معرضون لخطر الانزلاق إلى الجوع مع تحول الوجبات الأساسية إلى رفاهية للملايين، أصبحت التغذية مشكلة خطيرة)).[23]

أمّا الثانية؛ فهي ظاهرة هرب المنتجين والصناعيين والتجار بسبب فقدان الأمان والخدمات والتسهيلات، وارتفاع الضريبة ارتفاعًا غير معقول، وتضارب الأسعار، وغلاء المواد، وتدني قيمة الليرة أمام الدولار.[24]

3. انعكاسات نفسية وسياسية

تنعكس سياسات التقنين على نفسية السكان. فتسود مشاعر اليأس والاكتئاب والخوف. ويرافقها القضاء على الولاء الوطني التقليدي، وازدياد الكفر بالوطن مع ازدياد المحاولات الخطرة للفرار من الجحيم أو انتظار فارغ للفرج الذي لا يأتي. وتتمثل في فقدان الأمل بإعادة الإعمار، والتكيّف مع غياب الحل السياسي، وانعدام التشارك في إدارة البلاد، وانعدام الأمل بالتحول الديمقراطي. ونلاحظ نفور اللاجئين من العودة الطوعية أو القسرية[25]. أي بكلام آخر، التكيّف مع شروط العبودية الجديدة (تقنين الضروريات).

(22) انظر الملحق رقم (2).

(23) د.م، "الأغذية العالمي يحذر من سيناريو مقلق للأمن الغذائي في سورية"، شبكة شام، (2022)، https://2u.pw/iWh9Y2. شوهد في 2023/1/6.

(24) عمر يوسف، "الهروب من المركب الغارق.. آلاف رجال الأعمال السوريين يغادرون البلاد"، (2021)، https://2u.pw/CihRJC.

(25) لوسي بارسخيان، "وهم العودة الطوعية والآمنة للاجئين السوريين: مليون سبب لفشلها"، المدن، (2022)، https://2u.pw/GUbENV.

سابعًا: خاتمة

نحو استراتيجية جديدة

توصلت الدراسة إلى أن تقويض سياسات التقنين عنصر ضروري لحاضر السوريين ومستقبلهم، عن طريق:

1. استراتيجية تشرح سياسات التقنين وأهدافها والجهات المستفيدة منها شرحًا تفصيليًا. وتبدأ بالتشهير بها، ولا تكتفي بمطالبتها بأن تكون أكثر عقلانية لتعذر ذلك بعد أن فصلت عن أسبابها، ولا بمطالبتها أن تكون أكثر عدلًا لاستحالة ذلك بعد فصلها عن القدرة الشرائية والحقوق الأولية، ولا بمطالبتها باحترام الحقوق المعيشية، وإتاحة مزيد من الحرية الشخصية، لأنها قوضتهم عن طريق التحكم بالضرورات وانعدام القدرة الشرائية، بل بمطالبتها بأن تكفّ عن أن تكون سلطة تقنينية، ومن ثم سلطة استبدادية. فانفصال السلطة التقنينية عن السلطة الاستبدادية يساعد في مواجهة الأولى، والتشهير بها من دون عواقب وخيمة من الثانية. أما الاندماج بين السلطتين، فيجعل من مواجهة إحداهما بمنزلة مواجهة الأخرى، وذلك لأنهما سلطة واحدة.

2. تشكيل لجان وتنسيقيات وجمعيات وحركات للاستعلام عن سياسات التقنين ومتابعتها وتعميمها.

3. رفض الفصل بين ثورة الحرية والكرامة، والثورة المطلبية من خلال السعي إلى الفرز بين التقنين الضروري والتقنين السياسي.

4. الاستعاضة عن تقنين الضروريات بتقنين الأسلحة والمخدرات والكماليات.

ملحق 1

الجمهورية العربية السورية
وزارة التجارة الداخلية وحماية المستهلك

نشرة أسعار المواد والسلع الأساسية رقم /٦/
وزير التجارة الداخلية وحماية المستهلك

بناءً على أحكام المرسوم التشريعي رقم /٨/ تاريخ ٢٠٢١/٤/١٢
وعلى أحكام المرسوم رقم /٢٠٨/ تاريخ ٢٠٢١/٨/١٠
وعلى كتاب رئاسة مجلس الوزراء رقم /١/١١٧٨٠ تاريخ ٢٠٢٠/٨/٢٥
وعلى كتاب رئاسة مجلس الوزراء رقم /١/١٢٨٣٦ تاريخ ٢٠٢٠/٩/١٧
وعلى محضر الاجتماع المنعقد برئاسة السيد رئيس مجلس الوزراء مع مجموعة من التجار والصناعيين بتاريخ ٢٠٢٢/٢/٢٦
وعلى محضر الاجتماع الذي عقد برئاستنا مع الفعاليات التجارية بتاريخ ٢٠٢٢/١٠/١١
وعلى مقتضيات المصلحة العامة

١- تحدد أسعار المواد والسلع الأساسية وفق الآتي:

	المادة	الوحدة	السعر للمستهلك(ل.س)
١	سكر	كغ (معبأ)	٤٦٠٠
٢	سكر	كغ (دوكما)	٤٤٠٠
٣	أرز مسيلي + هندي (حبة قصيرة)	كغ (معبأ)	٤٤٠٠
٤	أرز تايلاندي+ هندي (كبسة حبة طويلة)	كغ (معبأ)	٤٠٠٠
٥	زيت دوار الشمس	١ ليتر(معبأ)	١٤٠٠٠
٦	السمن النباتي	١ كغ (معبأ)	١٥٠٠٠
٧	شاي سوبر بيكو اكسترا	كغ (دوكما)	٤٢٠٠٠
٨	شاي سوبر بيكو	كغ (دوكما)	٤٠٠٠٠
٩	شاي بيكو	كغ (دوكما)	٣٨٠٠٠
١٠	تونا قطع(سكيب جاك)	١٦٠ غ	٤٥٠٠
١١	تونا ناعم	١٦٠ غ	٣٠٠٠
١٢	سردين	١٢٥غ	٣٠٠٠
١٣	بن مطحون أول	كغ (دوكما)	٤٠٠٠٠
١٤	بن مطحون روبستا	كغ (دوكما)	٣٢٠٠٠
١٥	دقيق أبيض زيرو	كغ (معبأ)	٣٢٠٠
١٦	سميد	كغ (معبأ)	٣٨٠٠

٢- تكلف مديريات التجارة الداخلية وحماية المستهلك بالمحافظات بإصدار نشرات دورية للبيض والفروج واللحوم الحمراء والألبان والأجبان بشكل أسبوعي بالتنسيق مع المحافظات المنتجة وفروع السورية للتجارة والجهات المعنية

ملحق 2

الجمهورية العربية السورية

وزارة التجارة الداخلية وحماية المستهلك

قرار رقم /٣٦٤/

وزير التجارة الداخلية وحماية المستهلك

بناءً على أحكام المرسوم التشريعي رقم /٨/ تاريخ ٢٠٢١/٤/١٢

وعلى أحكام المرسوم التشريعي رقم /٤٦/ لعام ٢٠١٢

وعلى أحكام المرسوم رقم/٢٠٨/ تاريخ ٢٠٢١/٨/١٠

وبناءً على ما تقرر باجتماع مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠٢٢/١١/٢٩

وإشارة إلى كتاب رئاسة مجلس الوزراء رقم ١/١٤٨١٥ تاريخ ٢٠٢٢/١٢/١

واستناداً إلى كتاب وزارة النفط والثروة المعدنية رقم/٩/٣٢٧٥/س تاريخ ٢٠٢٢/١٢/٤

وعلى الاجتماع المنعقد في وزارة النفط والثروة المعدنية لجهة السماح لشركة B.S بيع ١٥%

من كميات المحروقات التي تستوردها للفعاليات الاقتصادية

يقرر ما يلي

مادة ١: تلتزم شركة B.S ببيع المحروقات التي تستوردها للفعاليات الاقتصادية من مادتي(مازوت – بنزين) خلال شهر كانون الأول من عام ٢٠٢٢ وفق الأسعار التالية :

المادة	السعر متضمناً عمولة محروقات
المازوت الصناعي والتجاري	٥٤٠٠ ل.س لليتر الواحد
البنزين	٤٩٠٠ ل.س لليتر الواحد

مادة ٢: يستمر بيع المشتقات النفطية الموزعة من قبل شركة محروقات ومراكز التوزيع والمحطات الأخرى في جميع أنحاء الجمهورية العربية السورية وفق الأسعار المحددة من قبلنا والمعمول بها سابقاً.

مادة ٣: يتوجب على الموزعين الإعلان عن الأسعار بشكل واضح ومقروء ضمن مراكز التوزيع.

مادة ٤: يخضع مخالفو أحكام هذا القرار للعقوبات المنصوص عليها بالمرسوم التشريعي رقم /٨/ لعام ٢٠٢١

مادة ٥: ينشر هذا القرار ويبلغ من يلزم لتنفيذه اعتباراً من الساعة الأولى من صباح يوم الاثنين الواقع في ٥ /٢٠٢٢/١٢

دمشق ٥ /٢٠٢٢/١٢

وزير التجارة الداخلية وحماية المستهلك

الدكتور عمرو نذير سالم

الدور الاجتماعي للتحويلات المالية من اللاجئين السوريين إلى النازحين في شمالي غرب سورية

عبد الناصر الجاسم[1]

أولًا: ملخص

تسعى هذه الورقة إلى البحث في الدور الاجتماعي لتحويلات اللاجئين السوريين إلى ذويهم من المهجرين قسريًا والنازحين داخليًا على الحدود الشمالية السورية مع تركيا، والهدف دراسة الدور الاجتماعي الذي تلعبه التحويلات في تكيف النازحين السوريين مع أوضاعهم غير المستقرة، ويعد التصدع الذي أصاب رأس المال الاجتماعي السوري من تراجع الثقة المجتمعية والقيم والاتجاهات المشتركة بين الناس والمشاركة المدنية من أبرز نتائج الصراع في سورية. تعد التحويلات التي يرسلها اللاجئون مصدرًا مهمًا لدعم النازحين للتعامل مع القلق والتخفيف من صعوبة أحوال نزوحهم، علاوة على ذلك، تتأثر التحويلات بعوامل النزوح القسري وسياقاته التي تختلف عن تلك الموجودة في سياقات أخرى، مثل الهجرة الاقتصادية وغيرها. وعلى الرغم من أن الأدبيات حول محددات التحويلات وتأثيرها وفيرة، إلا أن الدراسات حول التحويلات في سياقات النزاع وما بعد النزاع ما زالت قليلة، لا سيما في حالة النزوح القسري، بسبب نقص البيانات والأوضاع غير المستقرة، ومع ذلك، تظهر النتائج الأولية أن اللاجئين يحولون إلى عائلاتهم النازحات داخليًا وأقاربهم وأصدقائهم. وهكذا، فإن دراسة التحويلات في السياق السوري أصبحت ذات مغزى تجريبي ونظري كبير.

تطرح هذه الورقة السؤال الرئيس:

ما الدور الاجتماعي لتحويلات اللاجئين (بوصفها مساعدات غير رسمية) في دعم تكيف النازحين مع أوضاع نزوحهم المحفوفة بالخطر؟

تعتمد الورقة البحثية على جمع البيانات الثانوية من الدراسات السابقة والمراجع المختلفة، إضافة إلى جمع البيانات النوعية من خلال استطلاع آراء عينة من الأشخاص المُهجرين قسريًا إلى بعض المناطق في الشمال السوري، ممن يتلقون تحويلات من أقاربهم اللاجئين في الخارج.

وتبين بالخلاصة بأن التحويلات تلعب دورًا اجتماعيًا، من خلال تعزيز الثقة والروابط المجتمعية، والقيم والاتجاهات بين مجتمع اللاجئين ومجتمع المُهجَّرين قسريًا في الشمال السوري.

(1) أكاديمي وباحث سوري.

ثانيًا: مقدمة

تعيش الغالبية العظمى من السوريين، على امتداد الأرض السورية، درجة عالية من الهشاشة وعدم الاستقرار، وهم معرضون بشدة للفقر والبطالة وغياب الرعاية الصحية وخدمات التعليم، وتفاقمت أزمتهم خلال جائحة كورونا (كوفيد 19-)، ففقدوا كثيرًا من إمكانات الوصول إلى سبل عيشهم وتلبية احتياجاتهم الأساسية، ويتعرضون لمخاطر عدة، ولصور مختلفة من الاستغلال، مثل عمالة الأطفال، وتجنيدهم، والعنف القائم على النوع والزواج والمبكر، وتفشي ظواهر التسوّل والاتجار اللاأخلاقي والمخدرات، وذلك كله وسط ارتفاع أسعار جنوني غير منضبط، وتدهور قيمة الليرة السورية، حيث تجاوز سعر الدولار الواحد 7000 ليرة سورية، وتشير كثير من الدراسات إلى أن الأسرة السورية المكونة من 5 أفراد تحتاج إلى حوالى 3 مليون ليرة سورية لتعيش فقط، بينما الحد الأدنى للأجور لا يتجاوز 95 ألف ليرة سورية.

وقد شهدت سورية أكبر أزمة نزوح قسري في العالم، حيث نزح منها 13.5 مليون سوري خلال العقد الماضي من الصراع، وحتى نهاية عام 2020 نزح 6.7 مليون سوري داخليًا، بينما كان 6.8 مليون سوري يعيشون في الخارج بصفتهم لاجئين. وفقًا للأمم المتحدة، يوجد حاليًا 14.6 مليون سوري داخل البلاد بحاجة إلى مساعدة إنسانية، ووثق تقريرٌ لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية عن الوضع في الشمال السوري أن عدد النازحين في المنطقة بلغ حوالى 2.8 مليون نازح داخليًا، منهم 1.7 مليون نازح يعيشون في المخيمات، ويعاني أكثر من 75 بالمئة من السكان انعدام الأمن الغذائي في شمالي غربي سورية، (أي 3.1 مليون من أصل 4.4 مليون شخص)، وهناك مليون شخص إضافي معرضون لخطر انعدام الأمن الغذائي، بحسب تقرير سابق[2].

وللنازحين الحق في السعي لإيجاد حلول دائمة لنزوحهم، ولا سيما في الحالات[3] التي يطول فيها الصراع، وتتعقد متغيرات النزاع، وهذا ما ينطبق على الحالة السورية، وبحسب الأدبيات ذات الصلة عادةً ما تشتمل الحلول الدائمة للنازحين داخليًا على ثلاثة سيناريوهات: ((العودة المستدامة وإعادة الاندماج في المجتمع الأم، أو الاندماج المحلي المستدام في مجتمع الإقامة الحالي أو الانتقال الطوعي والاندماج اللاحق في مجتمع جديد)).

ووقد كان الشمال السوري[4] مركزًا مستمرًا للقتال منذ بداية عام 2011، حيث سيطرت قوات المعارضة السورية على المنطقة لأول مرة في عام 2012، والسيطرة على المنطقة متنازع عليها منذ ذلك الحين. واليوم، ما تزال تلك المنطقة آخر معقل رئيس لجماعات المعارضة التي تهيمن عليها هيئة تحرير الشام في إدلب والمناطق المحيطة بها، وفصائل الجيش الوطني في اعزاز وعفرين والباب وجرابلس وبعض مناطق شرق الفرات. لكن من الملاحظ أن السياق السياسي والصراع الحالي يقيدان بشدة فرص النازحين داخليًا لمتابعة أحد مسارات الحلول الدائمة آنفة الذكر، حيث إن البيئة هناك ما تزال تفتقر إلى الأمان الفيزيائي والمادي، وكذلك تفتقر إلى الأمان القانوني والاجتماعي، ومن ثم، هذا يجعل حال النازحين أكثر صعوبة وعرضة للهشاشة والضعف.

(2) د.م، "نحو ثمانية آلاف حالة نزوح إلى المنطقة خلال آذار: تقرير أممي يوثق تضاعف الحاجة إلى دعم شمال غربي سوريا"، موقع عنب بلدي، (2022)، https://2u.pw/DN65P0

(3) w. w "Syria Solutions Analysis: An assessment of durable solutions conditions in Northwest Syria", (March, 2022)

(4) تعبير يشمل اليوم منطقة جغرافية تمتد إلى محافظة إدلب معظمها، وأجزاء صغيرة من محافظتي حماة واللاذقية، وجزءًا كبيرًا من شمال محافظة حلب.

ولعل مجمل ظروف النزاع في سورية تركت آثارها في نواحي الحياة جميعها، ومنها: التصدع الذي أصاب رأس المال الاجتماعي، وتمثل هذا التصدع في تراجع الثقة المجتمعية والقيم والاتجاهات المشتركة بين الناس والمشاركة المدنية، ويبرز دوره الفاعل في تعزيز الصمود المجتمعي في أثناء الأزمات أكثر منه في أوقات الأحوال العادية.

أظهر (إسماعيل وآخرون) أن مؤشر رأس المال الاجتماعي المركب في سورية انخفض حوالى 30 بالمئة خلال زمن النزاع، ويسهم مكون ثقة المجتمع بنسبة 58 بالمئة في تراجع مؤشر رأس المال الاجتماعي، و كذلك القيم بنسبة 22 بالمئة والشبكات بنسبة 20 بالمئة[5].

مما لا شك فيه أن رأس المال الاجتماعي السوري تصدّع وتضرر عبر السنوات العشر التي تقطعت خلالها أوصال المجتمع بالفعل الأمني والقمعي والعسكري، والفعل السياسي، والفعل الاقتصادي، وفعل التشتت والعجز ومآلات اللجوء والتهجير القسري، وكذلك بفعل سلوك سلطات الأمر الواقع في كل رقعة سورية مقتطعة من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها.

من هنا، يمكننا القول إن مجاميع السوريين الذين كان قدرهم مغادرة البلاد واللجوء إلى عدد من دول العالم وجدوا في التحويلات المالية إلى ذويهم وأقاربهم فرصة للمحافظة على ما تبقى من أواصر وروابط، سواء في الأسرة الواحدة أم في العائلة الممتدة، وصولًا إلى الجار والمحتاج في إطار الوسط الاجتماعي السابق لهؤلاء المهاجرين واللاجئين.

تسعى هذه الدراسة إلى البحث في الدور الاجتماعي لتحويلات اللاجئين السوريين إلى النازحين داخليًا على الحدود الشمالية الغربية السورية مع تركيا، والهدف دراسة الدور الاجتماعي الذي تلعبه التحويلات في تكيف النازحين السوريين مع أوضاعهم غير المستقرة، حيث تعد التحويلات التي يرسلها اللاجئون مصدرًا مهمًا لدعم النازحين للتعامل مع القلق والتخفيف من صعوبة نزوحهم، علاوة على ذلك، تتأثر التحويلات بعوامل النزوح القسري وسياقاته التي تختلف عن تلك الموجودة في سياقات أخرى مثل الهجرة الاقتصادية.

وعلى الرغم من أن الأدبيات حول محددات التحويلات وتأثيرها وفيرة، إلا أن الدراسات حول التحويلات في سياقات النزاع وما بعد النزاع ما زالت قليلة، لا سيما في حالة النزوح القسري، بسبب نقص البيانات، والأوضاع غير المستقرة، ومع ذلك، تظهر النتائج الأولية أن اللاجئين يحولون المال إلى عائلاتهم النازحة داخليًا وأقاربهم وأصدقائهم. وهكذا، فإن دراسة التحويلات المالية في السياق السوري أصبحت ذات مغزى تجريبي ونظري كبير.

تطرح هذه الدراسة السؤال الرئيس:

ما الدور الاجتماعي لتحويلات اللاجئين (كمساعدات غير رسمية) في دعم تكيف النازحين مع ظروف نزوحهم المحفوفة بالمخاطر؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الأسئلة الفرعية:

(5) R. Ismail, J. Jebaie, Z. Mehchy, and R. Nasser, "The Conflict Impact on Social Capital: Social Degradation in Syria", Syrian Center for Policy Research, (2017).

إلى أي مدى تسهم الحوالات في دخل الأسرة النازحة؟.

إلى أي مدى تسهم هذه التحويلات في تعزيز الثقة المجتمعية؟

إلى أي مدى تلعب التحويلات دورًا في تعزيز قيمٍ واتجاهات مشتركة؟

تعتمد الدراسة على جمع البيانات الثانوية من الدراسات السابقة والمراجع المختلفة إضافة إلى جمع البيانات النوعية من خلال استطلاع آراء عينة من الأشخاص المُهجرين قسرًا إلى بعض المناطق في الشمال السوري، ممن يتلقون تحويلات من أقاربهم اللاجئين في الخارج. وكان التواصل معهم عبر الإنترنت ووسائل التواصل المتاحة، وزوِّد كل مشارك بمعلومات عن الدراسة، وعن كيفية استخدام البيانات، مع الحصول على الموافقة الفردية من قبل المشارك، ويراعى في جمع البيانات معايير أخلاقيات البحث العلمي واحترام وقت المشاركين.

سئل الشخص الذي يتلقى حوالات بسبب دوره في الأسرة، فهو الشخص المسؤول المباشر عن الأوضاع المعيشية للأسرة، وكونه الشخص الذي يمكن أن يعبر بطريقته المباشرة أو غير المباشرة عن الدور الاجتماعي لهذه التحويلات، إن وجد.

قد لا يكون متوسط مبلغ الحوالات التي يرسلها اللاجئون كبيرًا، ولكنه ضمن سياق الحاجة الملحة، ووصول ما يزيد على 85 بالمئة من السوريين في الداخل إلى مستويات فقر وفقر مدقع؛ يعد رافدًا وداعمًا لقدرة هؤلاء الناس على التكيّف مع أوضاع نزوحهم غير المستقرة، ومستوى معيشتهم المتدني، وتكفل لهم الحد الأدنى من مستويات الحياة، وبالنتيجة التواصل والتسوق وتبادل المنافع، وهكذا تُعيد الحوالات طرح قيّم التعاون والتعاضد بين أفراد الأسرة وامتداداتها، ويحظى مرسل الحوالات بتقدير عال وإشادة بدوره الداعم لأسرته أو أقاربه أو سواهم، ما يجعل ذكره في المجالس واللقاءات مدعاة للاعتزاز، وإشارة إلى تماسك العلاقات المجتمعية، وتجديد تواصلها بعد الهزات العنيفة التي تعرضت لها خلال سنوات الصراع والمواجهة. ومن الملاحظة المباشرة يتبين أن الحوالات تزداد في المناسبات الاجتماعية ومواسم الأعياد وحالات الضرورة والطوارئ من مثل الإصابات والوفاة والمرض.

وثمة نوع من التحويلات التي تأتي مخصصة لمرافق عامة في البلدة أو المدينة أو القرية، مثل دعم جمعية خيرية تخدم الأيتام والأرامل والأطفال، أو بناء مدرسة، أو دار عبادة، أو شراء مولدة كهرباء أو مضخة مياه، ما يترك أثرًا طيبًا في نفوس الناس، ويعيد الأمل بإعادة رأب الصدع الذي أصاب رأس المال الاجتماعي والبنية المجتمعية السورية.

تتناول هذه الدراسة الثقة المجتمعية والقيم والاتجاهات المشتركة بوصفها أبعادًا وحوامل للدور الاجتماعي من خلال محاولة تلمس الدافع لدى اللاجئ مرسل الحوالة من خلال رصد شعور الشخص مستلم الحوالة في سياق نزوحه أو تهجيره القسري.

تُعرف الثقة الاجتماعيّة بأنها: ((توقّعٌ متفائلٌ واطمئنانٌ نحو كفاءة الآخرين أفرادًا ومؤسّسات))[6]، ولهذه

(6) د.م، "آليات تعزيز الثقافة المجتمعية بين السوريين"، مركز الحوار السوري، (2021)، https://2u.pw/QSLly4

الثقة أربعة أنواع: الثقة بالأشخاص، والثقة بالجماعات، والثقة بالمؤسسات، والثقة بالعالم الخارجي. وتعتمد الثقة الاجتماعيّة في هذه الأبعاد على عوامل أساس تساعدُ في تعزيزها في أيّ مجتمعٍ، بعض هذه العوامل موضوعي من مثل عوامل التاريخ والاقتصاد وأنظمة القانون والمؤسّسات، وبعضها الآخر ذاتي أو شخصي من مثل عوامل الدين والأسرة والتربية والعِرق[7].

وتشير القيم في حقيقتها إلى عمليات انتقاء أو اختيار يقوم بها الإنسان في ميادين الحياة أو مجالاتها التي تنظم اتجاهاته الأساس وميوله عميقة الجذور والأشياء التي تحظى منه بالاحترام والتقديس، أما الاتجاه فهو موقف (وجهة نظر) للإنسان تجاه شيء أو موضوع أو إنسان آخر، وهو لا ينشأ من فراغ، ولا يتجه إلي فراغ، ولكن الاتجاهات ظاهرة اجتماعية تتم في تفاعل الانسان مع غيره وتوجهه وسلوكه تجاه الغير[8].

تسهم الثقة والقيم الاجتماعية في بناء علاقات وشبكات قوية، وتؤثر في سلوكيات الأفراد، وتقوم بدور مهم وكبير في سير الحياة الاجتماعية من خلال الأفراد والمجتمع.

ثالثًا: الحوالات وكيفية وصولها

تُفهم التحويلات عادة على أنها تحويلات مالية أو عينية يقوم بها المهاجرون إلى الأصدقاء والأقارب في المجتمعات الأصلية. ومع ذلك، فإن التعريف الإحصائي للتحويلات الدولية يعكس بصورة جزئية فقط هذا الفهم المشترك، حيث يعد صندوق النقد الدولي، المزود الرئيس لإحصاءات التحويلات الدولية استنادًا إلى بيانات البنك المركزي، التحويلات بأنها مجموع مكونين رئيسين في دليل إحصاءات ميزان المدفوعات: (تعويضات الموظفين) و(التحويلات الشخصية): وهي جميع التحويلات النقدية أو العينية التي يجريها أو يتلقاها المقيمون (سواء كانوا مهاجرين أم غير مهاجرين) من أفراد أو إلى أفراد في بلدان أخرى ((جميع التحويلات الحالية بين الأفراد المقيمين وغير المقيمين))[9].

يمكن أيضًا إرسال التحويلات داخل البلدان، وليس عبر الحدود فقط، وهذه تسمى التحويلات الداخلية. علاوة على ذلك، ليست كل التحويلات ذات طبيعة مالية أو عينية، ثمة ما يسمى بالتحويلات الاجتماعية، وتُعرَّف بأنها ((الأفكار والسلوكيات والهويات ورأس المال الاجتماعي التي تتدفق من مجتمعات البلدان المتلقية إلى مجتمعات البلدان المرسلة))[10]. وتتميز الحوالة الاجتماعية بأنها تشمل أفكارًا مبتكرة وشبكات فعالة عابرة للحدود، والمعرفة، والقيم السياسية، وإصلاحات سياساتية، ومهارات تقنية حديثة.

وبحسب بيانات البنك الدولي، فإن الدول المجاورة لسورية (تركيا، الأردن، لبنان، السعودية، العراق) تمثل 76 بالمئة من مصدر التحويلات الواردة إليها، و24 بالمئة من بقية الدول.

(7) المرجع السابق نفسه.

(8) Teresa Merser, "Upholding Values in Today's Society",2019)). https://2u.pw/e88Gjz

(9) Balance of Payments and International Investment Position Manual,2009)), p273. https://2u.pw/MU1S2K

(10) P. Levitt, " Social Remittances: Migration Driven Local-Level Forms of Cultural Diffusion", International Migration Review, Vol. 32(4), (1998), p926-948.

الشكل رقم (1) مصادر التحويلات القادمة إلى سورية

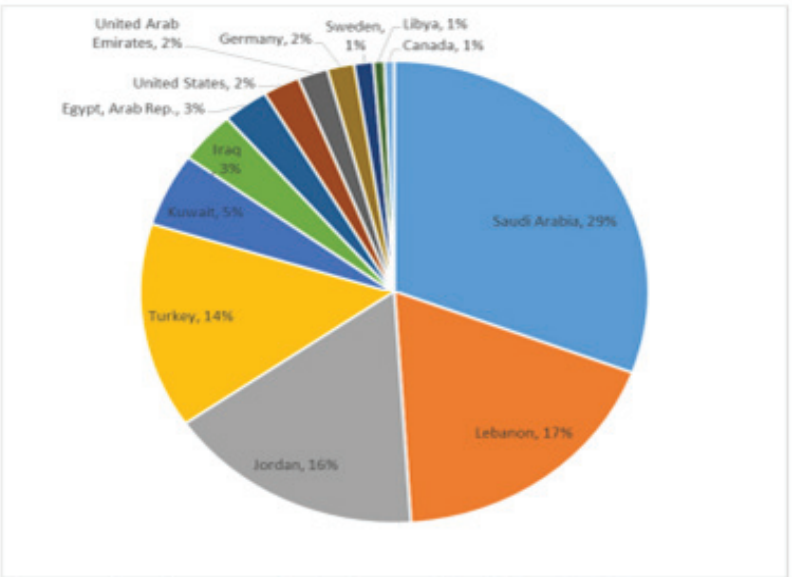

Sources of remittances to Syria. Source: World Bank 2015

وتعد سورية حالة خاصة بالنسبة إلى الدول معظمها بما يخص التحويلات، ولا سيما في السنوات الأخيرات، وذلك لأسباب كثيرة، وأهمها كون هذه التحويلات منقذًا حقيقيًا لكثير من العائلات السورية من الوقوع في المجاعة، وعلى الرغم من انخفاض متوسط قيمة الحوالة الذي ربما يكون أقلّ من 100 دولار شهريًا، فإنه مؤثر في تلبية الحاجات الأساسية من الطعام والشراب.

وطريق الحوالات محفوفة بالمخاطر والتعقيد، فثمة كثير من الأطر القانونية والتنظيمية تؤثر في وصول الحوالات كمًا وكيفًا، منها ما هو مرتبط بظروف الشخص المرسل، ووضعه القانوني في بلد اللجوء، ومدى إمكان تحويل هذه المبالغ، على قلتها، وقانونيته، إضافة إلى ما استجد مؤخرًا من أحوال اللاجئ الاقتصادية بعد موجة التضخم التي يعيشها الاقتصاد العالمي عمومًا وتقلبات أسعار الطاقة في أوروبا، ما يقلل من مبالغ الحوالات أو تواتر إرسالها، وهذا سوف يكون له تبعات وآثار في العلاقات الاجتماعية بين مجتمع اللاجئين ومجتمع النازحين. ومنها ما هو مرتبط بالبيئة العامة في مناطق النزوح، حث لا قوانين ولا أنظمة ولا أوعية مالية رسمية، ما دفع الناس إلى البحث عن حلول بديلة، وأبرزها التحويل عبر مكاتب غير رسمية وغير مرخصة (سوداء) حيث لا رقيب ولا ضمانات سوى الثقة الافتراضية التي تستند إلى معرفة اجتماعية بأصحاب هذه المكاتب.

وينتشر الوسطاء في أنحاء البلاد جميعها، وتربطهم شبكة علاقات غير رسمية مع نظراء لهم منتشرين حيث يوجد السوريون في بلدان اللجوء، وأداتهم الرئيسة وسائل التواصل الاجتماعي وبرامج الاتصالات (واتساب، فايبر، إيمو، تلغرام...)، ويعملون بسرية تامة، وهم عرضة للتفتيش والملاحقات من السلطات المختلفة، وذلك

بحسب مناطق وجودهم.

وثمة طريقة أخرى، وهي إرسال الحوالات إلى حساب بعض الشركات العاملة في مصر أو تركيا أو الأردن أو لبنان، وتُستلم هناك، استلامها ويعاد إرسالها إلى الداخل السوري، وذلك لقاء عمولات تراوح بين 2-5 بالمئة، وذلك بحسب جواب بعض المشاركين في استطلاع الرأي.

رابعًا: مناقشة وتحليل آراء عينة استطلاع الرأي في الدراسة

وصف مفردات العينة:

الجدول رقم (1)[11]

م	النوع	العمر	الحالة الاجتماعية	مكان الإقامة الحالي في الشمال السوري	مكان الإقامة السابق	ملاحظات
1	أنثى	37	زوجها مفقود	الراعي	حلب	
2	أنثى	26	متزوجة	مخيم	السفيرة/ ريف حلب	
3	أنثى	44	أرملة	الراعي	حمص	
4	ذكر	33	متزوج	مخيم	ريف دمشق	
5	ذكر	37	متزوج	مخيم	دير الزور	
6	ذكر	41	متزوج	مخيم	الرقة	
7	ذكر	62	متزوج	الراعي	طيبة الامام / حماة	
8	ذكر	50	أرمل	الراعي	ريف دمشق	
9	ذكر	52	مطلق	مخيم	دير حافر	قدم مبتورة
10	ذكر	28	متزوج	مخيم	دير حافر	

يبدو واضحًا من الجدول السابق أن العينة تتسم بالتنوع من حيث النوع والعمر والحالة الاجتماعية، إضافة إلى مكان الإقامة الحالي والسابق، ما يساعد في إعطاء صورة أكثر وضوحًا وشمولًا من خلال آرائهم حول الدور الاجتماعي للحوالات المالية التي يتلقونها من ذويهم اللاجئين في بلدان العالم المختلفة.

1. مدى إسهام التحويلات في دخل الأسرة

بات من المعروف لدى السوريين معظمهم، إن لم نقل جميعهم، بأن الحوالات المالية الواردة إلى السوريين، أينما كانوا، تمثل شريان الحياة الذي يدعم تكيفهم مع أحوالهم المعيشية الصعبة التي يعيشونها في ظل تدني دخولهم،

(11) الجدول من إعداد الباحث.

وانعدام فرص العمل، وتدهور سعر صرف الليرة السورية، وتوقف الخدمات العامة توقفًا شبه تام، وندرة توافر مصادر الطاقة، ويرافق ذلك كله تذبذب وارتفاع الأسعار غير منتظم وسريع. ولدى سؤال عينة الدراسة عن مدى إسهام الحوالات المالية في تكوين دخلهم بصورة عامة سواء كان الشهري أم السنوي، فقد جاءت الأجوبة معظمها بأن الحوالات تعد الرافد الأساس في دخل الأسرة. أشار أحد المشاركين في معرض إجابته عن هذا السؤال بقوله: ((عندما يتأخر ابني بإرسال الحوالة مدة قصيرة أشعر بالقلق والحيرة، فهي تغطي 75 بالمئة من احتياجاتنا الشهرية)). وعلقت إحدى المشاركات في حديثها عن هذه النقطة بالقول: ((صحيح أن المبلغ ليس كافٍ بالشكل المطلوب، ولكن نقطة قليلة دائمة أفضل من لا شيء)). ويؤكد أحد المشاركين ارتفاع عمولات توصيل الحوالة، فيقول: ((أخي يقتطع مبلغ الحوالة من لقمة عيشه في بلدان اللجوء، وتقاسمنا عليها مكاتب الصرافة والسماسرة، والعمولة غير ثابتة، وتتغير بحسب مزاج صاحب المكتب)).

وتقول إحدى المشاركات: ((لدي 5 أطفال أيتام، ولولا وصول الحوالة الشهرية، لاضطررت للشحادة (التسول) في الشوارع، فهي مصدر دخلي الوحيد، إضافة إلى قليل من المساعدات التي لا تُوزع بشكل عادل، وبحسب الواسطة والمعارف هنا في مناطق الشمال)).

نلاحظ أن ما ورد في الآراء معظمها يتفق مع كثير من الدراسات التي أشارت إلى أهمية الحوالات المالية في دعم معيشة النازحين، وعلى الرغم من أن مبالغ الحوالات ليست كبيرة بصورة كافية، ولا تغطي احتياجاتهم كافة بنسبة 100 بالمئة، فإنها تعد مصدر دعم مهم وأساس لهم، ورافدًا محوريًا في ما يتلقاه النازحون من بعض المعونات العينية والمساعدات التي يصل بعضها عن طريق مشروعات المنظمات والجمعيات التي تستثمر في القطاع الإنساني.

2. مدى إسهام التحويلات في تعزيز الثقة المجتمعية

انطلاقًا من مفهوم الثقة المجتمعية الذي يشير إلى توقّع متفائل واطمئنان إلى كفاءة الآخرين أفرادًا ومؤسّسات، وتشمل الثقة بالأشخاص، والثقة بالجماعات، والثقة بالمؤسسات، والثقة بالعالم الخارجي. توجهنا إلى المشاركين من أفراد العينة بالاستفسار حول إحساسهم بالدور الذي تلعبه التحويلات من هذه الزاوية. تقول إحدى المشاركات: ((لولا أن الله حنَّن قلب العم على أولاد أخيه الأيتام، ويحول لهم الحوالة الشهرية، لا أعرف ما هو مصيرنا، لكن الحمد لله ما زال الخير موجودًا في قلوب الناس)). نجد في رأي المشاركة إشارة واضحة إلى ثقتها بموقف عم أولادها الأيتام، وأسقطت ذلك على قناعتها باجتماع قلوب الناس على فعل الخير.

ويشير أحد المشاركين إلى المعنى الاجتماعي للحوالة التي يرسلها له ولده اللاجئ في قوله: ((تفرحني الحوالة من ابني، ليس فقط لأنها مبلغ من المال بل لأن ابني لم يخيب ظني، وما زال يشعر بالمسؤولية تجاهنا)). هنا نجد أن ثقة الأب النازح تتعزز بابنه اللاجئ من خلال الحوالة المالية الشهرية، وهذا معنى اجتماعي، وبعد غير مالي للتحويلات.

يقول أحد المشاركين: ((تصلني حوالة شهرية ثمنًا للعلاج من ابن عمومتنا في ألمانيا، وهو ليس من أقاربي المباشرين، ولكنه شاب خلوق، وصاحب تربية صالحة، وتربطنا علاقات عائلية جيدة قبل الحرب)).

ويذكر أحد المشاركين: ((كنت قلقًا من أن الغربة سوف تغير النفوس، وتتأثر قيّم أخي، ويتخلى عن واجبه الاجتماعي، ولكن الحمد لله، فهو لا ينسانا بحسب استطاعته وقدرته)).

وقد ورد على لسان أحد المشاركين قوله: ((لقد واجهنا خيبات كثيرة من المنظمات والجهات الدولية والمحلية، وشعرنا بالخذلان، ولكن ما زال أبناء جلدتنا وأبناء مجتمعنا فيهم الخير، ويتذكروننا من خلال الحوالات والمعونات التي يرسلونها إلينا)).

ومن خلال التقاطعات بين الآراء المختلفة الواردة حول تعزيز الثقة المجتمعية من خلال التحويلات، نتلمس دورًا اجتماعيًا ملحوظًا للتحويلات المالية، على الرغم من التعبير غير المباشر أو بمفردات مغايرة لوصف هذا الدور.

3. مدى إسهام التحويلات في تعزيز قيم واتجاهات مشتركة

لا شك في أن ثمة قيمًا إنسانية واتجاهات مشتركة تعزز الجسور الاجتماعية، وتدعم التواصل والمساندة مثل التعاطف والولاء والحب والصدق والتعاون، وتظهر أهمية هذه القيم في أوقات الأزمات والشدائد، وتتحول إلى سلوكيات وأفعال، ومن هذه السلوكيات الالتزام بتقديم مساعدات مالية أو عينية ضمن نطاق الشبكات الاجتماعية للفرد، وإرسال الحوالات المالية من اللاجئ السوري إلى ذويه المهجرين قسريًا يجسد أحد أهم صور هذه القيم.

وقد عبَّر أفراد العينة معظمهم من خلال آرائهم عن معنى هذه القيم ومضمونها، حيث يقول أحد المشاركين: ((أبناء أخي وابن عمي يحفظون الود والعشرة، ويحولون لنا بحسب استطاعتهم، ولو بصورة متقطعة، ولكن كثر الله خيرهم يشعرون بينا وبحاجتنا)). نجد في جواب المشارك إشارة واضحة إلى مشاركة الشعور لدى اللاجئين بأوضاع ذويهم النازحين، واحتياجاتهم، والاستجابة تكون بالتعاون وإرسال الحوالات بحسب استطاعتهم وأحوالهم.

وتقول إحدى المشاركات: ((أبناء عمومتي وعمومة زوجي يرسلون لنا معونات في كل مناسبة مثل العيد أو بداية الشتاء أو في حالات المرض، كثر الله خيرهم، والله يديم مروة (المروءة) السوريين مع بعضهم)). كذلك نرى بوضوح الدور الاجتماعي للتحويلات من خلال الرأي الوارد أعلاه للمشاركة، إذ أشارت إلى قيم التعاضد والتعاون والمروءة لدى أقاربها اللاجئين، والتعبير عن قيمهم من خلال تحويلات مالية تدعم احتياجات أسرتها في المناسبات الاجتماعية وفي المواسم والأحوال الطارئة.

ويشير أحد المشاركين إلى قيمة التعاطف من خلال قوله: ((كوني مصابًا وبرجل واحدة أشعر بتعاطف كبير من أهلي وأقاربي اللاجئين، ويتذكروني باستمرار، جزاهم الله عني كل خير، وهذا مو غريب عليهم (ليس بغريب عليهم)، هذه هي قيمنا وأخلاقنا والحمد لله)).

ويؤكد أحد المشاركين قيمة الحب والتعاون حين يقول: ((عندما استلم الحوالة من ابني المسافر، وهو ما زال شابًا في أول عمره، أشعر بسعادة ومحبة، وأشعر بأني لست وحيدًا في هذه الدنيا الموحشة والقاسية)).

ومن خلال التقاطعات بين مختلف الآراء الواردة حول مدى إسهام التحويلات في تعزيز قيم واتجاهات مشتركة، نتلمس دورًا اجتماعيًا ملحوظًا للتحويلات المالية، دورًا يستند إلى قيم واتجاهات وأفكار مشتركة بين اللاجئ في بلد إقامته والنازح في سياق أحوال معيشته.

خامسًا: الخاتمة

من خلال استعراض العبارات الواردة في ردود المستجيبين، وتحليلها، وجد الباحث أبعادًا مشتركة مع مكونات رأس المال الاجتماعي، ولاسيما رأس المال الاجتماعي الجاسر، ما شجع الباحث على محاولة الربط بين التحويلات المالية من اللاجئين السوريين إلى ذويهم المُهجرين قسرًا ورأس المال الاجتماعي الداعم لتكيفهم مع أوضاع نزوحهم غير المستقرة. ويعبر رأس المال الاجتماعي عن الفوائد المستمدة من التواصل الاجتماعي، ويمكن وصفه ببساطة بأنه جوانب السياق الاجتماعي (الجزء الاجتماعي) الذي له فوائد منتجة، وينشأ رأس المال الاجتماعي من القدرة البشرية على مراعاة الآخرين، والتفكير، والعمل بسخاء وتعاون [12].

مما تقدم، يمكن الاستنتاج أن الحوالات المالية التي يحوّلها اللاجئون السوريون إلى ذويهم وأقاربهم النازحين في الشمال السوري تسهم في تكوين دخولهم بنسبة كبيرة، ويمكن وصفها بشريان الحياة الذي يدعم تكيفهم مع أوضاع معيشية صعبة ومعقدة.

وتلعب هذه الحوالات دورًا اجتماعيًا من خلال تعزيز الثقة والروابط المجتمعية بين مجتمع اللاجئين ومجتمع المُهجَّرين قسرًا في الشمال السوري.

تسهم هذه التحويلات المالية في تعزيز قيم واتجاهات وأفكار مشتركة بين اللاجئ في بلد إقامته والنازح في سياق أوضاع معيشته، وهذا يشير إلى الدور الاجتماعي الذي تلعبه هذه التحويلات.

نظرًا إلى الأهمية القصوى لدور هذه التحويلات في دعم قدرات الناس في الداخل السوري لمواجهة معركتهم مع سبل العيش، وتأمين أساسيات الحياة، وما لهذه الحوالات من دور اجتماعي يتمثل في تعزيز الترابط والتعاون بين المكونات المجتمعية؛ لا بد من استجابة إنسانية دولية، عبر منظمات العمل الإنساني الدولي، وتحت رقابة حقيقية، لحماية هذه المبالغ الصغيرة من التشبيح المالي، ومن جشع سماسرة الحوالات، والتلاعب بأسعار صرفها، وكذلك لا بد من وجود دور فاعل، لمنظمات المجتمع المدني السورية وللمؤثرين وقادة الرأي ووسائل الإعلام في تسليط الضوء على هذه القضية الجوهرية التي تمس حياة السوريين، على أمل الوصول إلى حلول جذرية لمعاناة السوريين الممتدة والمفتوحة على الصعد كافة[13].

(12) M. TalLas, A.Aljasem, and Others, "Syrian Higher Education and Social Capital in Times of Conflict", Education and Conflict Review journal, UCL - London's Global University, N.3, (2020).

(13) عبد الناصر الجاسم، " الحوالات المالية للسوريين شريان حياة "، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (2021)، https://2u.pw/23N0mL

المصادر والمراجع

1. Levitt. P, "Social Remittances: Migration Driven Local-Level Forms of Cultural Diffusion", International Migration Review, Vol.32 (4), (1998).

2. TalLas. M, A. Aljasem, and Others, "Syrian Higher Education and Social Capital in Times of Conflict", Education and Conflict Review journal, UCL - London›s Global University, N.3, (2020).

شح الطاقة وتأثير ذلك في الأحوال المعيشية في سورية بعد ربيع 2011

آرام الحكيم[1]

أولًا: تمهيد

1. أهمية الطاقة في تطور الإنسان

تعد الطاقة منذ فجر التاريخ عاملًا مساعدًا في تسهيل وتيسير حياة الإنسان، فاكتشاف النار واستخدامها في إنضاج الطعام أو التنعم بالدفء أو تحقيق الحماية من الوحوش كان عاملًا حاسمًا في تطور الإنسان الجسدي والعقلي، ومثل ما يقول ول ديورانت ((لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام، وبدأت المدنية بالزراعة فقد بدأت الصناعة بالنار))[2].

إن اكتشاف النار، وتعلم كيفية إشعالها واكتشاف الزراعة، وتدجين الحيوانات والاستفادة منها في الجر والركوب، وكذلك الاستفادة لاحقًا من طاقة المياه في تدوير الطواحين، وكذلك طاقة الرياح في تحريك السفن والقوارب، ورفع المياه من الآبار، وأشكال الطاقة الأحفورية والمتجددة والكهرباء، ساعدت جميعها في تطور الإنسان.

وتعتمد الحياة المعاصرة اعتمادًا متزايدًا على الطاقة (النفط والغاز والكهرباء) في قطاعات الزراعة والصناعة والخدمات، وكذلك في القطاع السكني حيث الحاجة المتنامية إلى الطاقة في التدفئة والطبخ والإنارة والغسيل والاتصالات.

أدى استمرار شح الطاقة، بعد ثورة السوريين على النظام لفترة طويلة، إلى التغيير السلبي في أنماط معيشة السوريين في مأكلهم وملبسهم ومشربهم، وأثر في سكنهم وتعليمهم وصحتهم وأوقات فراغهم وعلاقاتهم الاجتماعية، عند محاولتهم للتكيف السلبي مع نقص الطاقة.

كذلك أدى هذا الشح إلى تدمير ما تبقى من الزراعة والصناعة والمرافق الخدمية وشروط الحياة، ما دفع الناس إلى محاولة الهرب من الجحيم السوري.

(1) كاتب سوري.

(2) انظر: د.م، "كيف اكتشف الإنسان الأول النار"، موسوعة العرب، https://2u.pw/yvIEUE

2. منهج الدراسة

وصفي تحليلي يعتمد على رصد الظاهرة وتحليلها وشرحها، حيث تتناول هذه الدراسة متغيرًا أساسيًا: شح الطاقة وأثره في الأحوال المعيشية للسوريين كمتغير تابع، وتعتمد المنهج النوعي لا الكمي على أساس أسلوبي المسح ودراسة الحالة، عبر رصد الظاهرة وتحليلها وشرحها من دون اللجوء إلى الاستبيانات والإحصاءات الواسعة.

3. إشكاليات الدراسة

ما المتغيرات الطارئة على مأكل السوريين وملبسهم وصحتهم وتعليمهم التي يسببها شح الطاقة، وما مدى هذه المتغيرات التي طبعت حياتهم اليومية؟ هل هي جوهرية وعميقة ومؤثرة؟ وما أشكال التكيف مع هذه المتغيرات؟

ما هو الحد الضروري الذي يحتاجه الفرد من الطاقة، لمنع حصول المتغيرات أو التخفيف منها إن لم نقل عكس اتجاهها، وما هو الحد الضروري الذي يحتاجه المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا حتى يستمر في تطوره، وما هي العلاقة بين الحدين؟

ستحاول الدراسة الربط بشكل عام بين متغير شح الطاقة ومتغيرات الأحوال المعيشية في سورية دون أن تزعم أنها قادرة على فصل تداخل تأثيرات السياسات الاقتصادية والاجتماعية (انهيار العملة، الترفيق[3]، الأتاوات والاحتكار والحرب التي فرضها النظام على الشعب السوري...) عن شح الطاقة على الأحوال المعيشية وظروف الحياة.

4. فرضيات الدراسة

لشح الطاقة تأثير في الأحوال المعيشية، وبمقدار ما يزداد شح الطاقة يزداد تدهور الأحوال المعيشية. يصيب شح الطاقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالموت غير الرحيم.

5. هدف الدراسة

تهدف الدراسة إلى التحقق من فرضية الترابط بين شح الطاقة وتدهور الأحوال المعيشية للسوريين، عبر تتبع التغيرات ورصدها في ظروف حياتهم اليومية وأحوالهم المعيشية، وتعليمهم وصحتهم وتنقلاتهم توازيًا مع النقص المتزايد للطاقة.

يمكن عد مناطق سورية جميعها - بدرجات متفاوتة بأزمنة متفاوتة مع الوصول إلى مآلٍ واحد في نهاية الأمر- مختبرًا لتجارب الحرمان من الطاقة والغذاء والماء والدواء ومتطلبات الحياة عمومًا.

(3) الترفيق: هو فرض خوة على السيارات التي تنقل السلع بين المحافظات وداخلها بذريعة حمايتها. للمزيد انظر الرابط: https://2u.pw/P6XaIM

6. أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في البرهنة على الترابط الوثيق بين شح الطاقة وتدهور الأحوال المعيشية للسوريين، وازدياد تدهور هذه الأحوال مع كل زيادة تقنين إضافية للطاقة، وعلى أهمية دور الطاقة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية المنطلقة من التركيز على الفرد ضمن عملية إعادة إعمار سورية المستقبلية ومكافحة الفقر.

7. تحديد المفهومات الخاصة بالدراسة

أ. شح الطاقة

هو عدم إمكان الوصول بشكل وافر إلى أشكال الطاقة التجارية كافة (نفط وكهرباء وغاز)، ويعد ارتفاع أسعار الطاقة شحًا فيها لأنه يحد من استهلاكها، لذلك يجب أن يكون هدف السياسات العامة تأمين الطاقة المطلوبة بشكل وافر للفعاليات الاقتصادية وللمجتمع بأسعار معتدلة ((تشكل أسعار الطاقة حوالى 10 بالمئة من الدخل في القطاع السكني في أوروبا)).[4]

ب. الأحوال المعيشية

يمكن تعريف مفهوم (الأحوال المعيشية) تعريفًا أكثر تحديدًا بأنه ((عملية مركبة ومتكاملة تتضمن توافر الاحتياجات والإمكانات المادية كافة للفرد أو الأسرة، من مثل المأكل والمشرب والملبس والسكن، وكذلك الحاجات غير المادية (الاجتماعية) من مثل التعليم والعلاج والنقل والمواصلات والبيئة النظيفة الخالية من التلوث. لا شك في أن هذه الحاجات ليست ستاتيكية أو ثابتة، وإنما ذات طبيعة دينامية ومتطورة من خلال ارتباطها بتطور المجتمع وتقدمه)).[5]

ج. الأمن الغذائي

الأمن الغذائي بحسب تعريف منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة هو ((مدى توفر الغذاء الكافي خلال كل الأوقات))[6].

(4) إيمانويل بيرغاس، العلاقة بين الطاقة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية في جنوب البحر الأبيض المتوسط، الهامش التاسع، ص11.

Emmanuel Bergasse, The relationship between energy and economic and social development in the southern Mediterranean, MEDPRO Technical Report No. 27, (European Commission's Seventh Framework Research Programme, February 2013). https://2u.pw/UlGX8s

(5) للمزيد: ويكيبيديا https://2u.pw/2gulkR

(6) راجع تعريف الأمن الغذائي: https://www.fao.org/3/y4671e/y4671e06.htm

8. الدراسات السابقة[7]

يوجد عدد من الدراسات التي تتناول أهمية الطاقة في التنمية وارتباطها بالأحوال المعيشية، لكن المسألة هنا معكوسة، فبسبب حرب النظام التي دمرت المقومات الاقتصادية يتم الانطلاق من درجة ما من الوفرة باتجاه مستويات مختلفة من الفقد والندرة المتواصلين والمستمرين لمدة تزيد على إحدى عشرة سنة.

تخبرنا الأدبيات الاقتصادية عن تأثير شح الطاقة لمدة محدودة في الأحوال المعيشية في أوروبا نتيجة الحظر الاقتصادي الذي مارسته بعض الدول العربية في 15/10/ 1973 حتى 17/ 3 1974، أو عن حالات قطع الطاقة أو الكهرباء كليًا في حالات العواصف العاتية كما في الطوفان الذي ضرب شمال مقاطعة لانكشاير الذي أدى إلى قطع الكهرباء عن مئة ألف شخص و61000 ملكية[8]، أو خلال الحروب، لكن غالبًا ما يستمر الفقد لمدة محدودة، وينتهي أثره بعد مدة وجيزة.

شكلت معايشة الواقع في سورية، ووسائل الإعلام، والدراسات السابقة العربية والأجنبية، مصدرًا مهمًا لمعرفة تدرج أزمة الطاقة والأحوال المعيشية للناس.

ثانيًا: أهمية الطاقة في التطور الاقتصادي والاجتماعي

يعد الوصول الوافر إلى كل أشكال الطاقة شرطًا أساسًا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، علاوة على أن غلاء أسعار الطاقة مشابه للندرة أو الفقد، لأنه يحد من استهلاك الطاقة في القطاعات كلها، ويجعلها حكرًا على الأغنياء. ويجب أن يكون ((توفير الطاقة بكلفة ميسورة أحد الأهداف الأساسية للسياسة العامة للحكومات)).[9]

تعد الطاقة سلعة أساسًا في النشاط الاقتصادي أو مُدخَلًا أساسًا في انتاج السلع، ويؤكد البنك الدولي أن الطاقة ((تلعب دورًا محوريًا في صميم عملية التنمية، فهي تتيح إمكان القيام بالاستثمارات وإطلاق الابتكارات والصناعات الجديدة التي تُعد محركاتٍ لخلق الوظائف، والنمو الشامل للجميع والرخاء المشترك لاقتصادات بأكملها)).[10]

---

(7) ثمة عدد من الدراسات السابقة المهمة تعالج موضوع الطاقة أو الأحوال المعيشية:

سمير سعيفان ومحمود الحسين، "دمار قطاع الطاقة في سورية خلال الحرب 2011- 2020"، مركز حرمون للدراسات، (2021). https://bit.ly/3KxOsOD

د.م، "العيش في دمشق بعد عقد من الحرب العمل الدخل الاستهلاك"، مركز السياسات وبحوث العمليات، (حزيران 2021). https://bit.ly/3pLuMA2

سنان حتاحت وكرم الشعار، "قطاع الكهرباء بعد عقد من الحرب: تقييم شامل"، مايا صوان (مترجمة)، (أيلول 2021)، https://bit.ly/3Fe37xG

وثمة عدد من الدراسات الأجنبية المهمة مثل: ستيفن كاريكيزي، وسوزان مقداد، بريمدا بوردمان جون كيماني، الطاقة والتنمية والفقر، https://2u.pw/VNwjaN

Emmanuel Bergasse, The relationship between energy and economic and social development in the southern Mediterranean...

(8) w.w, Living without electricity One city's experience of coping with loss of power, (London: Royal Academy of Engineering, 2016), p2,3.

(9) ستيفن كاريكيزي وآخرون، الطاقة والفقر والتنمية.

(10) انظر: https://www.albankaldawli.org/ar/topic/energy/overview

تدخل الطاقة بأشكالها المختلفة في مراحل عدة من عملية الإنتاج الصناعي والزراعي والخدمات، سواء بصورة مباشرة كما (في الصناعة والنقل)، أو غير مباشر كمُدخل أساس في السلع عبر مراحل العملية الإنتاجية.

تستهلك الصناعة عمومًا حوالى 30 بالمئة من استهلاك الطاقة العالمي، بينما يستهلك النقل حوالى 27 بالمئة من مجمل استهلاك الطاقة، أما قطاع الخدمات والقطاع السكني والزراعة، فسيهلكان حوالى 33 بالمئة من استهلاك الطاقة[11].

تغدو الطاقة في القطاع السكني من ضروريات الحياة الأساس، إذ يُعتمد عليها في الإنارة والتدفئة والتبريد والطبخ والحصول على المياه النظيفة والاستحمام، أما في قطاع الخدمات بما فيه الصحة والتعليم، فتشكل الطاقة ارتقاءً بهذه القطاعات من الأشكال البدائية والبسيطة إلى مستويات أكثر تطورًا، وتشكل العصب الأساس في قطاعي النقل والاتصالات.

حسنت التقنيات المعتمدة على الطاقة (خاصة الكهرباء) حياة الإنسان المعاصر بصورة كبيرة (في طعامه وشرابه وتعليمه وصحته وعمله وراحته)، وأتاحت له فرص العمل الكثيرة، وحسنت دخله وتعليمه ومستوى صحته بما يتناسب مع درجة وفرة الطاقة واعتدال أسعارها، وجعلت حياته أكثر يسرًا وسهولةً.

ثالثًا: الارتباط بين درجة التطور الاقتصادي والاجتماعي وكمية استهلاك الطاقة

كانت المكننة الزراعية التي تعتمد على الطاقة (الجرارات والحصادات ومضخات المياه...) خطوة مهمة للانتقال من مستوى الاقتصاد الزراعي البدائي الذي يعتمد على الجهد العضلي إلى تحقيق درجة أولية من توافر احتياجات الإنسان الغذائية حتى لا يكون رهنًا بالحاجة والعوز، لكن يتطلب تحقيق هذه الدرجة البسيطة من التنمية الزراعية توافر الطاقة في عمليات الإنتاج الزراعي كلها، وصولًا إلى عملية نقل المحصولات إلى مراكز الاستهلاك.

وعلى الرغم من أهمية الزراعة في تحقيق درجة من الأمن الغذائي في المجتمعات محدودة التطور، بيد أنها لا تلبي إلا جزءًا من احتياجات الإنسان المتنامية التي تحققها التنمية الاقتصادية المرتكزة على الصناعة -وهي في المحصلة الآلة والمادة الأولية والوقود متحدة مع الجهد الإنساني- لإنتاج السلع المطلوبة.

لا تقدم الطاقة المتحدة مع التكنولوجيا السلعَ فقط بل تسهم في خلق صناعات جديدة، وتوفر مزيدًا من فرص العمل والدخل، وتنمي الخبرات واستخدام المصادر المحلية، وتحد من هجرة الريف إلى المدن، ما يتيح للأفراد مزيدًا من الخدمات الصحية والتعليم الجيد وتطوير الملكات والمواهب عبر الاستخدام المتزايد للسلع والمنتجات التي تعتمد أساسًا على الطاقة (الإنترنت والميديا).

(11) Emmanuel Bergasse, The relationship between energy and economic and social development in the southern Mediterranean..., 2.1.1.1.

رابعًا: علاقة الارتباط بين كمية استهلاك الطاقة والناتج المحلي الإجمالي

بقدر ما تكون الدولة أكثر تطورًا اقتصاديًا واجتماعيًا، تؤمن مداخل أكثر لاستهلاك الطاقة (نفط وغاز وكهرباء) بأسعار مقبولة، وتنتج سلعًا وخدمات أكثر، وتحصل على ناتج إجمالي محلي أعلى لكل فرد بما يتناسب عمومًا مع حجم الطاقة المستهلكة، بوصف الطاقة إحدى المُدخلات الرئيسة في إنتاج السلع والخدمات.

وإذ تستفيد الدول المتقدمة من التطور التكنولوجي، وتنتج وحدة الطاقة لديها سلعًا وخدمات أكثر وأقل استهلاكًا للطاقة (كثافة الطاقة)، الأمر الذي يحقق لها مستوى أعلى من الدخل والرفاه الاجتماعي، إلا أنها لا تطبق هذا المعيار في قطاعي السكن والخدمات.

على العموم هناك ارتباط واضح بين حجم الناتج المحلي الإجمالي ودرجة استهلاك الطاقة، على الرغم من وجود بعض الحالات التي لا يتوازى فيها الناتج المحلي الإجمالي مع كمية استهلاك الطاقة، مثل بعض الدول النفطية أو الدول التي تدعم الطاقة.

يوضح الرسم البياني العلاقة بين الناتج المحلي الإجمالي واستهلاك الطاقة،[12] ويشير المستوى العامودي إلى استهلاك الطاقة لكل شخص/مقابل الناتج الإجمالي لكل شخص في المستوى الأفقي.

Figure 1. Energy consumption per capita and GDP per capita (2009)

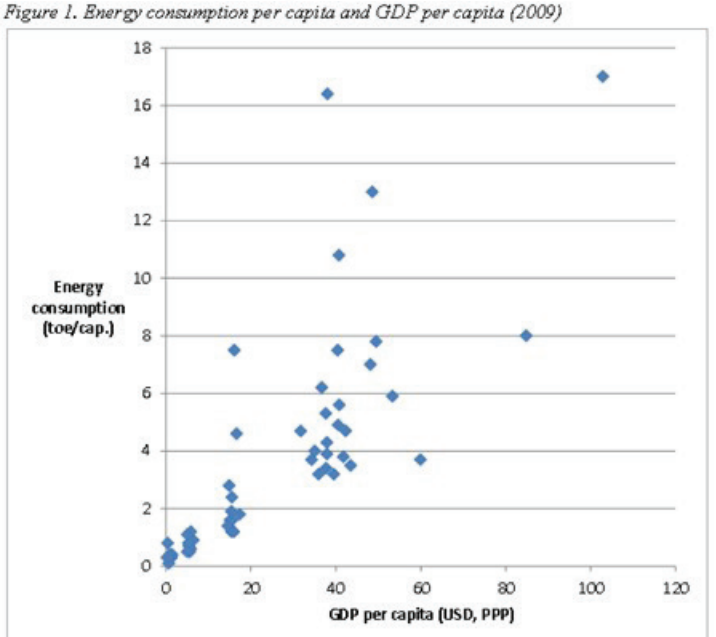

Source: Key World Energy Statistics, IEA, 2011

(12) الشكل مأخوذ من:

Emmanuel Bergasse, The relationship between energy and economic and social development in the southern Mediterranean...,
Source: Key World Energy Statistics, (IEA, 2011).

تشير معلومات الجدول الخاص بسورية[13](وكالة الطاقة الدولية 2011) إلى أن استهلاك الطاقة في سورية هو 1,07 طن نفط و1434 كيلووات ساعي لكل فرد مقابل ناتج إجمالي محلي 3711 دولارًا لكل فرد، وهو مستوى متدنٍ كميًا وفق مؤشر الطاقة للتنمية[14] (الاستهلاك التجاري للفرد من الطاقة؛ حصة الطاقة التجارية في إجمالي استخدام الطاقة النهائي؛ نسبة السكان الذين يحصلون على الكهرباء).

خامسًا: علاقة استهلاك الكهرباء بمؤشرات التنمية البشرية

يملك قطاع الطاقة إمكانية عالية لتقليل الفقر، حيث تؤدي وفرة الكهرباء إلى تحسن الأحوال الصحية والحصول على التعليم الجيد وتحسين نوعية الحياة.

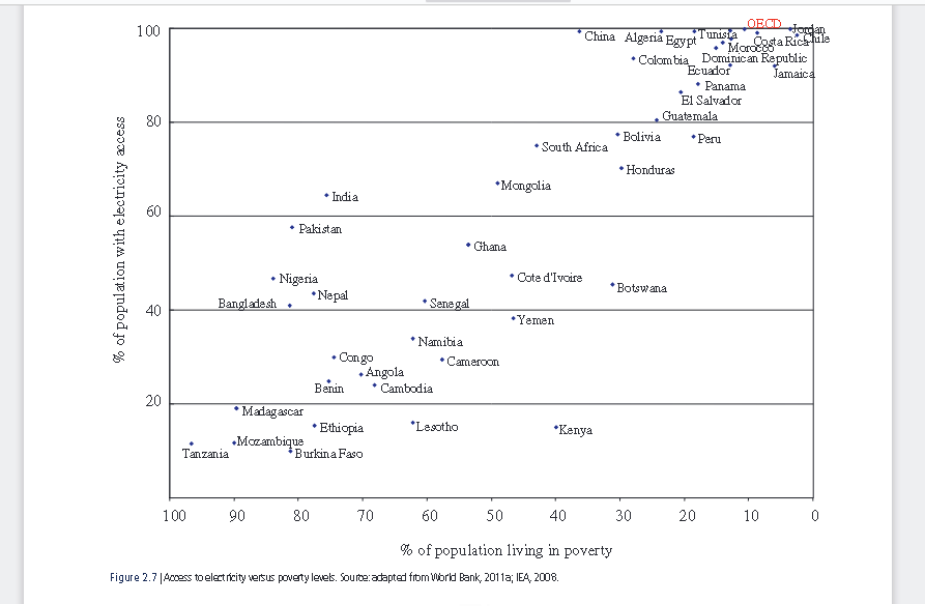

Figure 2.7 | Access to electricity versus poverty levels. Source: adapted from World Bank, 2011a; IEA, 2008.

يظهر الشكل أنه كلما زادت نسبة الوصول إلى الكهرباء (المستوى الأفقي)، قلت نسبة الفقر (المستوى العمودي).[15]

سادسًا: علاقة الفقرواستهلاك الوقود الصلب

تشير تقارير وكالة الطاقة الدولية أنه من بين الفقراء الذين يشكلون حوالى ثلاثة مليارات نسمة والذين يستعملون أساسًا الوقود الصلب (الفحم والوقود الحيوي) يوجد نسبة كبيرة 2,7مليار نسمة تستخدم الوقود الصلب (في الطبخ والتدفئة) في مواقد قليلة الكفاءة. وأن مليار ونصف من الأشخاص ليس لديهم مداخل على

(13) المرجع السابق نفسه، والمعلومات عن وكالة الطاقة الدولية.

(14) ماجدلينا ليغوس، وبيوتر بيترنيك، "مؤشرات تنمية الطاقة المستدامة- تطبيق على دول الاتحاد الأوربي"، (د.ن، د.ت)، ص 4.

(15) المصدر: ستيفن كاريكيزي وسوزان كيماني، الطاقة والفقر والتنمية، ص 165.

الكهرباء.[16]

إن تشتيت جهد الأسرة (غالبًا النساء والفتيات) في جمع (الحطب وبقايا المحاصيل وروث الحيوانات المجفف) والمياه وطحن الحبوب ومعالجتها ونقلها يرتبط بفقر الطاقة، وكما تقول سري موليانى أندراواتي في قمة الطاقة الطلابية الدولية: ((نجد أن فقر الطاقة يعني شيئين اثنين: أن الفقراء هم الأقل حظًا على الأرجح في الحصول على الطاقة. ويمكن على الأرجح أن يبقوا فقراء إذا استمروا دون مداخل إلى الطاقة.))[17]

سابعًا: وضع الطاقة في سورية حتى نهاية 2010

يحتكر النظام السوري تاريخيًا قطاعات الطاقة احتكارًا مطلقًا، ابتداءً من إنتاج النفط والغاز، وتوليد الكهرباء ونقلها وتوزيعها، واستيراد الغاز المنزلي وتوزيعه، إلى تصدير واستيراد بعض المشتقات النفطية، وهو الذي يحدد حاجة الأسرة من المشتقات النفطية، وتقنين الكهرباء، وقطعها.

لم يكن وضع قطاع الطاقة ضاغطًا في بداية العقد الأول من الألفية الثالثة، حيث كان النظام السوري يصدر النفط الخام وبعض المشتقات النفطية، ويستورد المازوت وبعض المشتقات النفطية الأخرى (الفيول والغاز السائل)، ويبيعها بأقل من السعر العالمي.

كانت مواد المازوت والفيول والبنزين متوافرة بأسعار أقل من الأسعار العالمية، سواء للقطاع السكني أم القطاعات الصناعية والتجارية والخدمية، وكانت تُهرب إلى البلدان المجاورة من قبل أزلام النظام للاستفادة من فروق الأسعار.

ولم تكن ثمة أزمة غاز قبل 2010 لأنه كان متوافرًا، وباستثناء بعض الاختناقات النادرة العرضية، حيث كان يمكن للمواطن أن يحصل دائمًا على الغاز عندما يريد، وبالسعر الرسمي الذي لم يكن يتجاوز 250 ليرة سورية، ولم يكن يشكل عبئًا ماديًا على الأشخاص.

تزايدت صعوبة الحصول على المازوت والغاز بعد الثورة السورية، وتضاعفت أسعارهما الرسمية مرات عدة، حيث شكلت وسيلة للنهب من قبل لجان الدفاع الوطني واللجان الحزبية والمخاتير، ونشطت السوق السوداء بوصفها مصدرًا للحصول على هاتين المادتين بأسعار مرتفعة، أما البنزين فقد كان أقل عرضة للاحتكار، على الرغم من ارتفاع أسعاره مرات عدة حتى بداية 2019، إذ أصبح ضمن المواد المقننة التي توزع على البطاقة الذكية[18].

لم تعد تحصل الأسرة إلا على أربع جرات من الغاز سنويًا، وتتجاوز مدة التوزيع على البطاقة الذكية ثلاثة

(16) المرجع السابق نفسه، ص 184.

(17) Sri Mulyani Indrawati, ``Energy and Sustainable Development: What's Next?``, the World bank, (2015). https://2u.pw/zRDbel

(18) أصدرت البطاقة الذكية شركة برمجيات خاصة تدعى (تكامل)، ولا يمكن استلام (المازوت والبنزين والغاز) إلا بعد تلقي رسالة من الشركة.

https://www.facebook.com/Takamol.Co.Sy/

أشهر في معظم الأحيان، وبسبب حرمان كثيرين من إمكان الحصول على الغاز عبر البطاقة الذكية من مثل الطلاب والعسكريين المجندين والعازبين، فقد اضطر كثيرون إلى شرائه من السوق السوداء بأسعار خيالية.

أما قطاع توليد الكهرباء، فقد كان يغطي الحاجة المتزايدة لاستهلاك الكهرباء سنويًا بنسبة 7-8 بالمئة في بدايات العقد، و5-6 بالمئة في نهايته، وباستثناء بعض أوقات الذروة، فقد كان التقنين محدودًا، ووصل توليد الكهرباء إلى 8000 ميغا واط في عام 2010، أنتج (46231919 مليون كيلو واط ساعي)[19]، وكان نصيب الفرد من التوليد يتجاوز 1500 كيلووات ساعي سنويًا.

استمر إنتاج الغاز المستخدم في توليد الكهرباء في التراجع، ليصل إلى حد غير مسبوق، فوصل إلى 6،5 مليون متر مكعب يومي، أما إنتاج الكهرباء، فقد وصل إلى 1900 ميغاواط، وهو ما يعادل أقل من ربع الإنتاج قبل الحرب.[20]

ولم يتجاوز متوسط نصيب الفرد من الكهرباء سنويًا 895 ميغاواط عام 2016 و1190 ميغاواط عام 2020، ويظهر في الرسم البياني تراجع توليد الكهرباء تراجعًا مستمرًا.[21]

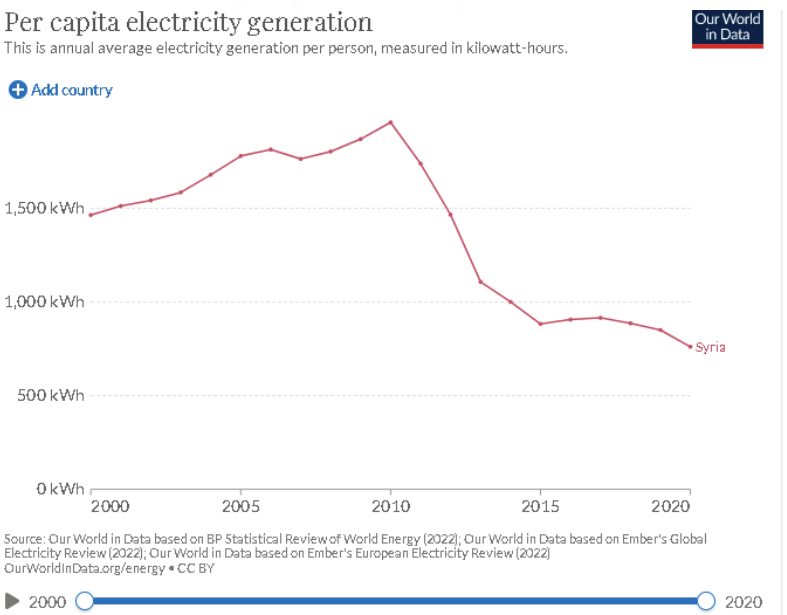

توليد الكهرباء لكل شخص/كيلوواط ساعي

(19) سمير سعيفان ومحمود الحسين، "دمار قطاع الطاقة في سورية خلال الحرب 2011- 2020"، ص 52

(20) د.م، "تراجع الإنتاج إلى 1900 ميغاواط ووزارة الكهرباء تحمل مسؤولية زيادة التقنين لنقص الغاز"، الاقتصاد اليوم، (2022). https://2u.pw/jJoO15

(21) https://ourworldindata.org/energy-access

تحصل الأسرة السورية فعليًا على خمسين لتر من مازوت التدفئة، وأحيانًا قد تحصل بعض الأسر على خمسين لترًا إضافيًا في دورٍ ثانٍ للتوزيع، وعلى حوالى 4 جرات من غاز الطبخ سنويًا.

يعمل النظام على إدارة الأزمة، وهمه الاستفادة ماديًا منها، وقد أدى النقص المستمر في المخصصات الممنوحة من المازوت والغاز والبنزين، وحصرها بالرسائل، وتراجع توليد الكهرباء؛ إلى شلل الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وهجرة الفعاليات الاقتصادية، كما أدى إلى توقف قطاع النقل وتراجع قطاع الخدمات، وتدهور الأحوال المعيشية، كما سنرى لاحقا، وإلى نشاط السوق السوداء وازدهارها، وارتفاع الأسعار إلى مستويات فلكية من جهة أخرى.

ثامنًا: أثر شح الطاقة في الأحوال المعيشية

1. أثر شح الطاقة على الزراعة والاحتياجات الغذائية

شكلت الزراعة تاريخيًا سلة الغذاء السورية، وتسهم بنسبة مهمة من الناتج الإجمالي المحلي. وتشير تقديرات زمن الحرب إلى أنها تشكل 26 بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي في سورية، وكان يعمل بها 26 بالمئة من الناشطين اقتصاديًا في عام 2011.[22]

تنتج سورية محاصيل استراتيجية متنوعة كافية (من مثل القمح والقطن والزيتون والشوندر السكري)، وكانت تنتج الحبوب الأخرى من مثل الحمص والعدس والذرة والشعير بكميات كافية، وتصدر الفائض، وكان ثمة فائض في الأحيان معظمها من الخضراوات والفواكه التي تجد طريقها إلى التصدير.

كذلك كان الأمر في قطاع الثروة الحيوانية والدواجن، عندما كانت سورية مكتفية باللحوم والفروج ومشتقات الحليب، وكانت تصدر الفائض من الأغنام والماعز.

وإذ تحتاج الجرارات والحصادات ووسائل النقل إلى توافر الطاقة، كذلك فإن ري المزروعات يعتمد على ضخ المياه من الآبار الارتوازية والأنهار والينابيع، ويحتاج إلى المازوت والبنزين والكهرباء، لكن بسبب شح الطاقة تراجعت مساحة الأرض المروية إجمالًا من 1399433 هكتارًا في عام 2011 إلى 1013141 هكتارًا عام 2020، وتراجعت مساحة الأرض المروية التي تعتمد على ضخ المياه بالمحركات من الآبار والأنهار والينابيع من 1008574 هكتارًا عام 2011 إلى 740910 هكتارات عام 2020.[23]

يعد محصول القمح، أساس خبز السوريين، أحد عوامل الأمان الاجتماعي، وقد تراجع الإنتاج من 3,858331 مليون طن عام 2011 إلى 1,222988 عام 2018، كما تراجع إنتاج وحدة المساحة من 2537 كغ للهكتار إلى 1115

(22) د.م، "حساب الخسائر: الزراعة في سورية بعد ست سنوات من الحرب، أهمية الزراعة"، ص2.

https://www.fao.org/3/i7081e/i7081e.pdf

(23) د.م، "الأمطار واستعمالات الأراضي"، المجموعة الإحصائية، (2020). moaar.gov.sy/main/archives/24005

كغ للهكتار عام 2018[24].

وبحسب تصريح وزير زراعة النظام السوري لوسائل الإعلام[25]: ((إنتاجنا من القمح هذا العام 1،7 مليون طن ونحتاج 3،2 مليون طن))، ولم تستلم المؤسسة السورية للحبوب منها بحسب تصريح مديرها (2022) سوى 500 ألف طن[26]. لكن مايك روبنسون ممثل منظمة الفاو في سورية صرح أن ((محصول القمح في سورية لعام 2022 بلغ نحو مليون طن بانخفاض 75 بالمئة عن مستويات ما قبل الأزمة في حين أن الشعير بات شبه منعدم))[27].

يتذكر السوريّون جيدًا ساعات الانتظار الطويلة على الأفران، ومعاناتهم من أجل الحصول على ربطة خبز، والشائعات المستمرة حول نفاد الطحين، واضطرارهم إلى شراء الخبز من السوق السوداء، وأخيرًا تقنين الخبز عبر البطاقة الذكية، وما رافقه من مشكلات، وحرمان كثيرين من الخبز.

وانعدم محصول الشوندر السكري الذي كان يغطي جزءًا من حاجة السوريين إلى السكر الأبيض في عام 2021، وفشلت تجربة إعادة إحياء زراعته لموسم 2022، فلم تتجاوز كمية الشوندر المستلمة 37 ألف طن في الوقت الذي كان ((الإنتاج يصل سابقًا إلى 1،25 مليون طن)).[28]

أما القطن الذي يعتمد في زراعته على الري من الآبار الارتوازية أو من الأنهار والينابيع ويحتاج إلى السقاية الدائمة الذي تنعكس وفرته إيجابًا في أسعار الملابس، فقد تراجع إلى مستويات قياسية من 671668 طن في عام 2011 إلى 34042 طن في عام 2017، بينما بلغ الإنتاج 97522 طنًا في عام 2020[29]، ويُهرب غالبًا إلى الدول المجاورة لغياب الأسعار المجزية المقدمة للفلاح، الأمر الذي حول سورية إلى مستورد للقطن[30]والثياب المستعملة (البالة) التي طغت على الإنتاج المحلي.

وإذ يشير تقرير منظمة الفاو عن الوضع الزراعي في سورية عام 2017 إلى أن أهم معوقات الزراعة ((نقص وغلاء أسعار الأسمدة والمبيدات... عدم توفر التيار الكهربائي بشكل مستمر لاستخراج المياه الجوفية...نقص وارتفاع أسعار الوقود والمحروقات لمضخات المياه...، صعوبة نقل وتوزيع المحاصيل والمنتجات الزراعية...، نقص الآلات الزراعية...، التغير المناخي)).[31]

تعرضت المحاصيل والخضار والفواكه بدرجات متفاوتة إلى تقلبات سوق الطاقة سواء عبر سقايتها، أم عبر نقل العمال الزراعيين لقطافها، ونقل المحصول، وأدى تعذر إمكان تخزين الفائض في البرادات بسبب انقطاع الكهرباء لزمن طويل إلى اضطرار كثير من الفلاحين، في عدد من الحالات، إلى ترك الموسم في الأرض تجنبًا

(24) المرجع السابق نفسه.

(25) د.م، "وزير الزراعة السوري: إنتاجنا من القمح هذا العام 1.7 مليون طن ونحتاج 3.2 مليون طن"، سبوتنك، (2022). https://2u.pw/r3T1Bj

(26) مها الدهان، " حصري- فاو: تغير المناخ والصراع يقلصان بشدة محصول الحبوب في سوريا"، (2022). https://2u.pw/nvYtAp

(27) د.م، " إنتاج القمح في سوريا يهوي 75 بالمئة عن مستوياته قبل الأزمة"، سكاي نيوز، (2022). https://2u.pw/1jDj36

(28) رامز الحمصي، "مزارعو حماة ينعون الشمندر السكري.. انخفاض إنتاج السكر في سوريا؟"، الحل، (2022). https://2u.pw/AMyicj

(29) المجموعة الإحصائية، (2020).

(30) د.م، "السماح باستيراد مادة القطن المحلوج لمدة ستة أشهر"، S A N A – سانا، (2021). https://sana.sy/?p=1422138

(31) حسام الباكير، "تقرير عن الوضع الزراعي في سورية"، هاينرش بول، (2018). https://2u.pw/GoiEud

لخسارة أعلى.

أدت هذه العوامل إلى إحجام الفلاحين عن زراعة الأرض، وارتفاع أسعار المواد الغذائية، وصعوبة الحصول عليها، لدرجة باتت فيها غالبية السوريين تعاني انعدام الأمن الغذائي.

أما الثروة الحيوانية فكانت أقل تأثرًا بعوامل شح الطاقة على الرغم من أن أعدادها تراجعت تراجعًا كبيرًا، وذلك لأسباب أخرى، فقد تأثرت بارتفاع أسعار العلف، ونقص الأدوية البيطرية، ما أدى إلى ارتفاع أسعار لحومها بصورة كبيرة، فغابت إلى حد بعيد عن موائد السوريين، واستبدلت بها الفروج الذي عانى بدوره ارتفاع أسعار الصيصان نتيجة انقطاع الكهرباء لمدد طويلة عن أجهزة التفقيس، ما أدى إلى تلفها، وارتفاع كلفة التدفئة في أوقات البرد، وأسعار النقل من دون أن ننسى ارتفاع أسعار العلف والأدوية البيطرية.

	أسعار الحبوب الرز الهندي أو الصيني /كغ	أسعار الألبان سعر „اللبن"/ كغ	أسعار الفروج الحي/ كغ	أسعار الزيوت دوار الشمس لتر واحد	أسعار السكر كيلو غرام	سعر لتر المازوت التجاري	سعر لتر البنزين الحر العادي	سعر لتر المازوت أو البنزين في السوق السوداء
2020	500	800	3500-1000	950	400	650	650	1500-1000
2021	2400	2400	7000-3500	7300	2350	1700	2500	5000-4000
2022	4400	3500	10000-7000	14000	4600	2500	4000	12000 -6000

ويوضح الجدول[32] مستوى ارتفاع الأسعار بالليرة السورية خلال أعوام 2020 - 2022 للحبوب واللحوم ومشتقات الألبان والزيوت والسكر بحسب نشرات وزارة التجارة الداخلية ربطًا مع ارتفاع أسعار الطاقة. أما الأسعار الأخرى، فهي من وسائل الإعلام. علمًا أن أسعار الطاقة في السوق السوداء هي المحدد الحقيقي للأسعار في ظل شح الطاقة.

2. أثر شح الطاقة في السكن وشروطه

يعيش السوريون عمومًا في بيوت تفتقر للشروط الصحية من حيث التهوية والشمس، ما يجعلها رطبة ومظلمة.

ففي عام 2004 عاش حوالى 40 بالمئة من سكّان دمشق -حوالى 1.3 مليون- في مناطق المخالفات[33]من إجمالي 3 مليون نسمة، والنسبة نفسها تقريبًا في حلب، علاوة على افتقار قسم كبير من البيوت النظامية إلى التخطيط العمراني السليم، وغياب المرافق المطابقة للمواصفات الدولية (كهرباء، مياه، هاتف، صرف صحي، مراكز صحية، وحدائق...). تعايشت غالبية السوريين مكرهة مع هذه الشروط، وحاولت التعويض بالتدفئة والإنارة،

(32) الجدول من إعداد الباحث.

(33) للمزيد: http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/563

ما دامت حوامل الطاقة متاحة ورخيصة (كان سعر ليتر المازوت 7 ليرات سورية حتى عام 2007).

بعد قرار رفع الدعم الحكومي عن مادة المازوت في عام 2008 لجأ النظام إلى توزيع قسائم المازوت على العائلات للتدفئة بمعدل 1000لتر للعائلة بسعر 9 ليرات للتر الواحد، ولجأ إلى توزيع مبالغ مالية على العائلات[34] في عام 2009. وعمل على تخفيض أسعار الطاقة في إثر الاحتجاجات الشعبية التي عمت البلاد، لكن السياسات الاقتصادية والاجتماعية للنظام مترافقة مع تراجع إنتاج النفط والغاز وتوليد الكهرباء أدخلت البلد في دوامة من أزمات شح الطاقة.

أدت الارتفاعات المتتالية لأسعار المازوت مع محدودية التوزيع (200 لتر نظريًا للعائلة بالسعر المدعوم لم يكن يصل منها سوى 50 لتر)، وصعوبة شراء المازوت للتدفئة - حيث يصل سعر اللتر في الشتاء إلى 10000 ليرة- إلى استخدام الكهرباء وسيلةَ مساعدة، بيد أن محدودية الوصل والقطع المتكررين تجعل حلم الدفء في الشتاء مستحيلًا، بل إن وجبة غسيل يمكن أن تستغرق يومين أو أيامًا عدة في بعض الأحيان، والاستحمام بالماء الفاتر في أحسن الأحوال[35].

ولجأ الريف عمومًا إلى استخدام الحطب وروث الحيوانات في الطبخ والتدفئة إلا أن ندرة الحطب وغلاء سعره جعلاه فوق طاقتهم وإمكانيتهم (يتراوح سعر كيلو الحطب بين 600-1000 ليرة).

ولكي يهربوا من الأمراض والوفيات المباشرة التي يمكن أن يسببها البرد (أمراض تنفسية، رشح، انفلونزا، أمراض المفاصل...)، حرق السوريون كل ما يمكن أن يمنحهم وأطفالهم وعجائزهم بعض الدفء، بدءًا من بقايا الخشب والورق والبلاستيك ودواليب السيارات والأحذية المهترئة[36]، على الرغم من معرفتهم بالضرر الذي يمكن أن يصيبهم من أمراض تنفسية وتحسسية، وإمكان أن يقصر من آجالهم من أجل الحصول على بعض الدفء.

ينطبق الأمر نفسه على التبريد وحفظ الأغذية، فكثيرًا ما ألقى السوريون مؤونتهم التي حاولوا الاحتفاظ بها دفعًا لغائلة الجوع إلى سلة المهملات، وتعرضوا لنوبات الاختناق بسبب ارتفاع الحرارة صيفًا.

في حين شكلت الإنارة في بيوتهم المظلمة والرطبة هاجسًا آخر في ظل انقطاع الكهرباء وقتًا طويلًا يصل إلى حوالى 18 - 20 ساعة، ويصل إلى أكثر من ذلك في الريف، فقد لجؤوا إلى البطاريات و(الليدات) التي تتطلب تغييرًا دائمًا بسبب غلاء أسعارها وعمرها القصير ورداءة النوعيات المتوافرة في الأسواق، الأمر الذي كان خيارًا مرهقًا لغالبيتهم التي تكافح بشق النفس لتأمين قوت الأطفال.

(34) د.م، "عطري: توزيع إعانات مالية لدعم المشتقات النفطية في أيلول"، (2009). https://www.syria-oil.com/2234/

(35) د.م، " أزمة الطاقة تلقي بظلالها على طقوس الاستحمام في سورية"، الاقتصاد اليوم، (2022). https://2u.pw/CsKFUA

(36) w.w, "How are we expected to survive this?": The impact of Syria's economic crisis on families", reliefweb, (2022), p11. https://2u.pw/ZbLDoB

83 بالمائة من سوريا صار مظلما في صور الأقمار الصناعية

سورية[37] الخميس (12 آذار 2015).

أما الغاز الذي كان وقود الطبخ الأساسي، فقد أصبح مرتبطًا بوصول رسالة استلام جرة الغاز، في مدة قد تصل إلى مائة يوم، لذلك لجأت ربات البيوت إلى السهر ليلًا بانتظار وصل الكهرباء من أجل تجهيز الطعام لذويهن.

يضطر المواطن إلى اللجوء إلى السوق السوداء، حيث يمكن أن يصل سعر جرة الغاز إلى ربع مليون ليرة[38]، لذا لجأ السوريون إلى استخدام المتاح من الكهرباء في الطبخ، وعادوا كذلك إلى بوابير الكاز والمازوت، واستخدموا الحطب وبقايا المحاصيل وروث الحيوانات المجفف.

3. أثر شح الطاقة في قطاعي النقل والاتصالات

يعاني السوريون أزمة مواصلات خانقة، حيث بات الانتقال إلى مكان العمل والعودة إلى البيت يتطلب ساعات طويلة وكلفة كبيرة، وقد ارتفعت إلى حد كبير كلفة نقل المحاصيل والركاب بين المحافظات السورية إلى درجة باتت عبئًا على كاهل الجميع.

يعد غياب وسائل النقل الرخيصة (القطارات مثلًا)، وحالة الطرق السيئة، وأتاوات الترفيق، والحواجز الأمنية، وارتفاع كلفة الوقود؛ عوامل كابحة ومعيقة للعملية الإنتاجية، فمثلًا يشكو أصحاب الفعاليات الاقتصادية من أن تكلفة النقل زادت زيادة كبيرة في ظل شح الوقود، وارتفاع أسعاره، الأمر الذي يدفعهم إلى رفع أسعار السلع.

ويعمل الموظفون في القطاعين العام والخاص على التقاعد المبكر عندما يكون ذلك متاحًا، أو إلى تقديم استقالاتهم، وعدم الالتحاق بالعمل، والبحث عن سبل عيش أخرى قريبة في حال غياب المسؤولية الجزائية

(37) للمزيد: https://arabi21.com/story/816367-83/

(38) د.م، "أسطوانة الغاز" تلامس الربع مليون ليرة في السوق السوداء..!"، سنسيريا، (2022). https://sensyria.com/?p=90888

أو محدوديتها، متخلين أحيانًا عن قدمهم الوظيفي وحقوقهم التقاعدية بسبب ضعف الأجور، وتآكلها، وكلفة التنقلات المرتفعة التي وصلت إلى أكثر من نصف الراتب.

دفع غلاء المحروقات وشحها، والارتفاع المتسارع في أسعار المواد الغذائية، وأزمة المواصلات الخانقة، وانقطاع الكهرباء الذي يتجاوز 20 ساعة في اليوم[39] بالسوريين إلى هجرة اقتصادية، رغبة في الخلاص من أسوأ واقع معيشي وخدمي تشهده البلاد.[40]

لجأ السوريون إلى استخدام الدراجات النارية والدراجات ثلاثية العجلات ((يوجد 600 ألف دراجة نظامية، وهناك تقديرات بوجود ضعف العدد من الدراجات المهربة، علمًا أنها تسهم إسهامًا ملحوظًا في التنقلات، ونقل البضائع ضمن المسافات القصيرة))[41]في المدن والأرياف للتغلب على مشكلة النقل بسبب قلة استهلاكها الوقود، على الرغم من حوادثها ووفياتها المرتفعة، ولجؤوا إلى الدراجات الكهربائية، ومع تصاعد ارتفاع أسعار الوقود المستمر كانت العودة إلى استخدام الحمير والبغال في الزراعة والنقل.

ليس هذا فحسب، بل إن بعض مقاسم الهاتف الأرضية توقفت عن العمل نتيجة تقنين الكهرباء وانعدام الطاقة اللازمة لتشغيل المولدات.[42]

4. أثر شح الطاقة في غذاء السوريين وشرابهم

لعب شح الطاقة دورًا كبيرًا في تراجع الزراعة بصورة عامة، ما أدى إلى ارتفاع أسعار الحبوب والخضار والفواكه، ليضيف النقل كلفة كبيرة على أسعار المواد الغذائية، الأمر الذي جعل تدبر الطعام عبئًا دفع كثيرين إلى اختصار وجباتهم، والامتناع عن تناول المتاح القليل من اللحوم والألبان أو النوم جائعين لتوفير الطعام لأطفالهم. كانت احتياجات السوريين الأكثر إلحاحًا هي الغذاء (93 بالمئة)، والوقود (63 بالمئة)، والماء (40 بالمئة)، والكهرباء (34 بالمئة)، والدواء (33 بالمئة)[43] كما يظهر في الشكل.

(39) عبد الرحمن خضر، "أجور النقل في سورية تجبر مئات الموظفين على الاستقالة"، العربي الجديد، (31 تموز/ يوليو 2021). https://2u.pw/YfDvcj

(40) د.م، " مجلس الوزراء: نظراً للظروف الراهنة المتعلقة بالمشتقات النفطية تعطيل الجهات العامة يومي 11 و18 الجاري"، وكالة سانا، (26.12.2022). https://sana.sy/?p=1798857

(41) د.م، "لا ترخيص للدراجات النارية المهربة: الجمارك تدعو المواطنين لشراء النظامي أو تحمل مسؤولية شراء الأرخص"، سيريا ستيب، (09.11.2022). https://www.syriasteps.com/index.php?d=133&id=189489

(42) ضياء عودة، "شلل خدمي ثلاثي يخرج حياة المواطنين عن الخدمة"، الحرة، (30 تشرين الثاني/ نوفمبر 2022). https://2u.pw/CBBth3

(43) د.م، "كيف نتوقع النجاة من هذا؟ أثر الأزمة الاقتصادية في سورية على العائلات"، مجلس اللاجئين النرويجي، (د.ت).

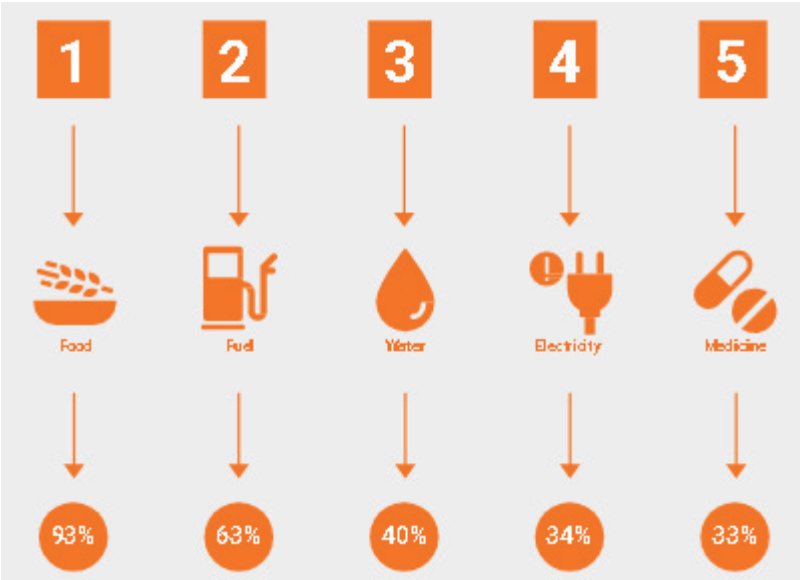

مقابلات مع مئات العائلات المهجرة داخليًا والعائدة إلى ديارها.

ارتفعت أسعار اللحوم إلى حد كبير، ما جعلها خارج المتناول، ولجأ الناس إلى الخيارات الأرخص من مثل الفروج والبيض والألبان، لكن أسعارها هي الأخرى استمرت في الارتفاع لأسباب عدة، كان للطاقة فيها دور مهم، فعلى سبيل المثال تحتاج عملية تصنيع الحليب ومشتقاته إلى الطاقة بدءًا من غلي الحليب، وتصنيعه، وحفظه في البرادات، ونقله إلى أماكن التسويق، الأمر الذي أدى إلى تراجع استهلاك هذه المنتجات إلى حد كبير، وإغلاق قسم كبير من ورش تصنيع الألبان، علاوة على تراجع إنتاج الحليب بسبب الدمار الذي أصاب قطاع الثروة الحيوانية، ما أدى إلى الاعتماد على الحليب المجفف المستورد. وكانت أسعار البدائل من مثل الفروج والسمك فوق طاقة الناس، وبات الناس يشترون أجزاء الفروج بالقطعة الواحدة.

جعل الفقر والحرمان الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش يحذر مع بداية عام 2022 من تفاقم المشكلة تفاقمًا لا يمكن تداركه في سورية، مشيرًا إلى أن ((90 بالمئة من السوريين يعيشون في فقر؛ وأن 60 بالمائة منهم يعانون انعدام الأمن الغذائي)).[44]

و((تزيد الأزمة الأكرانية من تفاقم سيناريو الأمن الغذائي في سورية... ففي شهر آذار ارتفعت أسعار المواد الغذائية بنسبة 24% خلال شهر واحد فقط بعد زيادة بلغت 800 في المائة خلال العامين الماضيين)).[45]

(44) انظر: https://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/mwajht-azmt-alghdha-fy-swrya

(45) W.w. "11 years of conflict: with hunger at historic levels, millions of Syrians hang by a thread",wfp, (2022).

https://www.wfp.org/news/11-years-conflict-hunger-historic-levels-millions-syrians-hang-thread

تعيش غالبية السوريين على الكفاف، فـ((أصبحت الوجبات الأساسية بمثابة رفاهية للملايين)). وتُظهر بيانات عام 2021 أن واحدًا من كل ثمانية أطفال في سورية يعاني التقزم، بينما تظهر الأمهات الحوامل والمرضعات مستويات قياسية من الهزال الحاد، وتشير الحقيقتان كلتاهما إلى تداعيات صحية وخيمة ستظهر على الأجيال القادمة[46].

5. أثر شح الطاقة في التعليم

عانى الطلبة السوريون في مرحلة التعليم الأساسي والثانوي والتعليم العالي ورياض الأطفال ودور الحضانة تداعيات شح الطاقة عبر مستويات عدة حيث:

تساعد وفرة الطاقة على تسهيل الوصول إلى المدرسة والجامعة باستخدام المواصلات في حال كون المدرسة أو الجامعة بعيدة عن البيت، حيث يجبر غلاء أجور سيارات النقل إضافة إلى مصاريف الدراسة الأخرى المرتفعة الأهلَ على اتخاذ قرارات سلبية بإخراج أولادهم من المدرسة، ويجبر الطلبة الجامعيين على ترك الجامعة، والبحث عن عمل يسد رمقهم.

تساعد الإنارة والتدفئة والتبريد في المدرسة والبيت على خلق بيئة مشجعة للتعليم، وتساعد على حضور الطلاب، وتقلل التسرب، ((يمكن لخيارات الطاقة الحديثة والنظيفة أن تخلق بيئة صديقة للطفل تشجعه على الدوام المدرسي وتقلل بشكل كبير التسرب الذي عانت من البلدان المنخفضة الدخل))[47]، وتمكنهم أيضًا إنجاز دراستهم في البيت بصورة جيدة.

تساعد الكهرباء على استقرار الريف، والعملية التعليمية في الريف، وتقلل من هجرة الكادر التدريسي إلى المدن.

تساعد الكهرباء على التعليم عبر الميديا واستخدام الحاسوب وأجهزة العرض والطباعة والمعدات العلمية بما يزيد من ناتج العملية التعليمية، ويضاعفها مرارًا. وتتيح وفرة الطاقة فرصًا تعليمية أعلى للفتيات عبر تحريرهن من بعض الأعباء المنزلية، من مثل البحث عن الحطب وأشكال الوقود الصلب الأخرى في الريف. كما تتيح وفرة الكهرباء والتكييف استمرار العمل في المخابر وهيئات الأبحاث في الجامعات والمعاهد العليا.

لعبت الأوضاع المعيشية المتردية، سواء تلك الناتجة عن حرب النظام على الشعب، وتلك المرتبطة بشح الطاقة، دورًا كبيرًا في تدني مستوى التعليم في المناطق السورية كلها، وأجبرت كثيرًا من الطلبة على ترك الدراسة والعمل للمساعدة في إعالة أسرهم[48].

(46) المرجع السابق نفسه.

(47) ستيفن كاريكيزي وسوزان كيماني، "الطاقة والفقر والتنمية".

(48) للمزيد: https://euromedmonitor.org/ar/article/5334

6. أثر شح الطاقة في الصحة والتسهيلات الصحية

تحتاج الأجهزة الطبية في المستشفيات والمراكز الصحية إلى الكهرباء في غرف العمليات وأجهزة التصوير والتحاليل الدموية وأجهزة تخطيط القلب والتنفس والدماغ وأجهزة التعقيم وبرادات حفظ الأدوية واللقاحات، إضافة إلى التكييف وتوفير المياه الساخنة. إن عدم توافر الكهرباء يعيد قطاع الصحة إلى مستوى الخدمات المقدم في أربعينيات القرن الماضي.

لجأت المستشفيات إلى المولدات جزئيًا، ما جعل فاتورة الاستشفاء مرتفعة للغاية، أما المراكز الصحية الصغيرة وعيادات الأطباء والمخابر والصيدليات (تلف الأدوية التي تحتاج إلى الحفظ)، فتعاني مشكلة انقطاع الكهرباء المزمن مثل القطاع السكني، ويلجأ معظمها إلى المولدات.

7. الطاقة والمياه النظيفة والصرف الصحي الآمن

إن الحصول على مياه الشرب ومياه الطبخ والاستحمام أحد الحقوق الأساس في الحياة التي تسعى الدول لتأمينها لمواطنيها، حيث تعد المياه الملوثة مصدرًا كبيرًا لنقل عدد من الأمراض الخطرة مثل الكوليرا والحمى التيفية والزحار، وعدد من الالتهابات والإنتانات التي تصيب النساء خاصة خلال وقت الدورة الشهرية، بينما توفر المياه النظيفة والمراحيض المناسبة عامل حماية لهن من عدد من الأمراض.

قبل عام 2010 كان 98 بالمئة من سكان المدن و92 بالمئة في المجتمعات الريفية يتمتعون بسبل موثوقة للحصول على المياه الصالحة للشرب، وفي عام 2002 كان 98 بالمئة من سكان المدن و80 بالمئة من سكان الريف لديهم صرف صحي.

بعد عشر سنوات من الحرب لا تعمل سوى 50 بالمئة من أنظمة المياه والصرف الصحي بصورة صحيحة في أنحاء سورية جميعها.[49]

وفي تقرير لاحق أفادت تقديرات الأمم المتحدة أن السكان في سورية معظمهم يفتقرون إلى مصادر مياه الشرب الآمنة، أي ما يقدر بحوالى 15 مليون نسمة، كما يفتقر ثمانية ملايين شخص إلى الصرف الصحي وخدمات النظافة.[50]

تبدو النساء والأطفال وخاصة حديثي الولادة والرضع الفئات الأكثر حساسية لتلوث المياه، ففي دراسة أعدت بالتعاون بين وزارة الصحة السورية واليونسيف عام 2008 سبب الإسهال بحسب الدراسة 12،6 بالمئة من وفيات الأطفال في عمر 4 أسابيع ودون سن الخامسة في العينة[51]، وتشير تقارير المستشفيات بصورة متزايدة إلى الإسهال والتهابات الأمعاء الناتجة عن تلوث المياه.[52]

(49) انظر: https://2u.pw/iEABbv

(50) انظر: https://www.unicef.org/syria/water-sanitation-and-hygiene

(51) انظر: https://2u.pw/XBjVpW

(52) انظر: https://2u.pw/eb4gxa

استمرت معاناة المواطنين في قطع المياه والكهرباء معًا لدرجة اضطرار المواطن إلى إنفاق جزء كبير من دخله لتأمين المياه، ويلجأ الأهالي في حال تعطل محطات معالجة المياه، أو توقف ضخ المياه من الآبار الارتوازية أو عبر الشبكة بسبب نقص الطاقة خاصة في الريف، إلى مصادر مياه مشكوك بها أو ملوثة، ما يجعلهم عرضة للأمراض التي تنتقل عبر المياه، مثلًا عزا المسؤولون الصحيون سبب ظهور الكوليرا أساسًا إلى تلوث مياه نهر الفرات، لكنها سرعان ما انتشرت في عدد من المحافظات، وأدت إلى عدد من الوفيات.[53]

هذا يؤكد على أن المشكلة ليست متعلقة بالنهر فقط بل هي مشكلة شاملة ومرتبطة أساسًا بدمار قطاع مياه الشرب والصرف الصحي، لذلك يتطلب الاهتمام بتوفير مصادر مياه آمنة تأمينَ مصدر طاقة واحد احتياطي في الأرياف لمؤسسات مياه الشرب (طاقة الرياح أو الطاقة الشمسية) لتأمين احتياجات الناس، كي لا تضطر إلى اللجوء إلى مصادر المياه غير الآمنة، وكذلك تأمين مصادر طاقة كهربائية ذاتية لمحطات معالجة الصرف الصحي لتقليل التلوث.

تاسعًا: النتائج الاجتماعية المترتبة على فقدان الطاقة أو شحها

أبرز هذه النتائج:

1. تزايد البطالة والتدهور الشديد في وضع القوة العاملة.
2. تزايد الفقر مع كل الآفات المرافقة المرتبطة به من مثل الجريمة والسرقة والمخدرات.
3. التغيير في العادات اليومية والسلوكيات بما يتوافق مع وضع التكيف السلبي لفقد الطاقة وندرتها.

استنتاجات

مداخل الطاقة ليست وقودًا وكهرباء للآلة فقط بل شرطًا أساسًا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فهي تخلق مزيدًا من الناتج الإجمالي المحلي، وتحسن فرص العمل والدخل، وترتقي بالصحة والتعليم والخدمات ومكافحة الفقر، وتحد من هجرة الريف إلى المدينة.

تزايدت أهمية الكهرباء في تطوير الاقتصاد، فتتسع بشكل متنامٍ استخدامات الكهرباء بوصفها أحد أشكال الطاقة النظيفة متعددة الاستخدام في الصناعة والزراعة والقطاع الخدمي، أما في القطاع السكني، فيمكن استخدام الكهرباء بدلًا من أشكال الطاقة الأخرى كلها تقريبًا، ويتيح تطور قطاع الاتصالات مزيدًا من فرص العمل المنزلي والتعلم والمعرفة عبر الإنترنت.

إن تحسن الأحوال المعيشية للفرد، وتوفر مداخل كافية للطاقة هما المؤشران اللذان يفترض أن يكونا مركز

(53) انظر: https://2u.pw/Mpigmt

اهتمام صانعي السياسات في عملية إعادة الإعمار.

سببت سياسات النظام المترافقة بشح الطاقة في تدهور التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وفي حالة إفقار شديدة لأغلبية الشعب السوري، وتدهور كارثي للطبقة الوسطى، وتراجعها، وبروز طبقة من أمراء الحرب وكبار التجار والمصرفيين المتحالفين مع السلطة.

جوهر سياسة الطاقة بالنسبة إلى النظام السعي المرتجل لتحرير أسعار الطاقة ونهب المجتمع من خلال إدارة الأزمة والتحكم بها[54]، وفرض اعتماد الطاقة المتجددة من دون توفير مقوماتها بأسعار معقولة بل تحويلها إلى فرصة لتحقيق الأرباح. إن ضرورة اعتماد سياسات الطاقة المتجددة العملاقة كخيار توفير طاقة أقل كلفة على المدى الطويل، والاستفادة من تنوع المناخ والتوقيت، والاستفادة من تجارب الدول التي سبقتنا في هذا المضمار من مثل المغرب ومصر والأردن مهمة مطروحة على السلطات البديلة لنظام الأزمات والجوع والفقر.

(54) قرار وزارة التجارة الداخلية وحماية المستهلك ترخيص بيع شركة بي إس الخاصة للخدمات النفطية والشركات الأخرى (المازوت بسعر 5400 والبنزين بسعر 4900) للقطاعين الصناعي والتجاري، والشركات على العموم مرتبطة بالنظام بصورة أو بأخرى.
محمد القاضي، "تزامناً مع أزمة كبيرة للمحروقات في سوريا الحكومة ترفع أسعارها"، نورث برس، (2022).
https://npasyria.com/132775/

مزدوجة تدهور الواقع الصحي مع انهيار المستوى المعيشي في سورية

وجيه حداد[1]

أولًا: ملخص البحث

هدف هذا البحث إلى تعرف العلاقة بين عجز النظام عن تأدية وظائفه الاجتماعية وتراجع الواقع الصحي في مناطق النظام، بفعل تقليص الإنفاق الحكومي، وتراجع الخدمات والمرافق الصحية، وبفعل الأوضاع العامة التي أدت إلى هجرة غالبية العاملين في القطاع الصحي، نجم أيضًا عن تدمير النظام البنية التحتية في المناطق الخارجة عن سيطرته، فتدهور القطاع الصحي فيها إلى درجة الغياب شبه الكامل، وخاصة في الشمالين الشرقي والغربي من سورية.

وأدّى تدمير النظام سورية، وإيصالها إلى مرتبة الدولة الفاشلة، وتراجع مؤشراتها العامة بما فيها المؤشرات الصحية والغذائية إلى المرتبة الأخيرة عالميًا؛ إلى تفاقم انهيار الواقع الصحي ، وعجز السوريين معظمهم عن تلقي الرعاية الصحية اللازمة ، وأدّى انهيار الواقع الاقتصادي، وارتفاع نسبة الفقر إلى ما يزيد عن 90 بالمئة من السوريين ، وارتفاع نسبة غير الآمنين غذائيا إلى نسب غير مسبوقة، ووصول عدد المحتاجين إلى مساعدات إنسانية إلى 13 مليون سوري؛ إلى عجز السوريين معظمهم عن تأمين الشروط الصحية والطبيعية لحياتهم أو المحافظة على صحتهم، كما عجزوا عن القدرة على التداوي والعلاج في حالات المرض.

وبالمثل أسهمت حرب النظام وتداعياتها ومظاهر العنف والبؤس المعيشي في ارتفاع الأمراض النفسية، وحالات الانتحار، وارتفاع منسوب التوتر والقلق ضمن أوضاع شديدة القسوة وسريعة الانحدار.

ثانيًا: مقدمة

شهد القطاع الصحي في سورية انهيارًا حادًا على خلفية الدمار الكبير في منظومته الذاتية، وانهيار شبكات الأمان الاجتماعية المتشابكة معه، بفعل الحرب وتداعياتها، ومن أبرزها ارتفاع معدلات الفقر إلى مستويات غير مسبوقة تجاوزت نسبة 90 بالمئة من الشعب السوري، إضافة إلى تدني المداخيل العامة، وتقليص النظام منسوبَ الدعم الاجتماعي المقدم للقطاعات الحيوية كافة، وتعذر سبل العيش الأساسية على وقع الأزمات الإنسانية المستمرة، وفي مقدمتها شح مصادر الطاقة، وانعدام الأمن الغذائي.

وترتبط الرعاية الصحية ارتباطًا وثيقًا بمستويات الحياة العامة، واقتصاديات المجتمع والأفراد، تبعًا

(1) باحث سوري متعاون مع مركز حرمون للدراسات المعاصرة، له عدد من الدراسات والمقالات المتعلقة بالشأن السوري.

لمداخيلهم وقدرتهم الإنفاقية، حيث يشكل القطاع الصحي 11 بالمئة من إجمالي الناتج المحلي العالمي[2]، في حين يشكل نسبة متدنية في سورية من ناتج محلي شديد الانخفاض، ما يجعل إمكان الحصول على الخدمات الصحية الضرورية والجيدة أمرًا متعذرًا، وهو أمر لا يترك مفاعيله في حياة الأفراد فحسب، وإنما في مستقبل الاقتصاد برمته، حيث يحدد البنك الدولي العلاقة بين الاقتصاد والصحة بصورة تفاعلية، فأشخاص أصحاء يدفعون باتجاه اقتصاد أقوى.

ويتوسع عند منظمة الصحة العالمية مفهوم الصحة بوصفه: السلامة الكاملة البدنية والنفسية والاجتماعية، وليس فقط غياب المرض والعاهة،[3] لتتقاطع وفق تلك الرؤية المحددات الصحية مع المحددات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية كافة، فترتبط الصحة بالغذاء والأمن الغذائي، المرتبط بدوره بالقوة الشرائية والمداخيل العامة، وترتبط أيضًا بشروط البيئة المكانية وتفاعلها مع الأوضاع المعيشة السائدة، وكذلك مع البنيتين الاجتماعية والسياسية لعلاقة الصحتين الجسدية والنفسية بنظم الحياة اليومية، وبالقدرة على تلبية احتياجات الجسد الفيزيولوجية والمعنوية وفق المعايير الإنسانية .

وبشكل تقني، حددت منظمة الصحة العالمية شروطا لاعتبار النظم الصحية فعالة: ((إذا وفّرت خدمات صحية جيدة، وقوى عاملة صحية مدرّبة جيدًا، ونظام معلومات صحيًا فعّالًا، وعدالة في الحصول على الخدمات الصحية واللقاحات والتكنولوجيا الطبية، وتمويل كاف للصحة، إضافة إلى حوكمة رشيدة وقيادة متماسكة))[4]، وإذا كانت هذه الشروط مشوبة بنقص كبير في الزمن السابق للحرب، فإنها باتت بعد الحرب بعيدة كل البعد عن تلك المعايير.

ومع تهالك النظم الصحية الثلاث في سورية، والموزعة حاليا، تبعا للسيطرة العسكرية بين النظام والإدارة الذاتية في الشمال الشرقي، وقوى المعارضة والنفوذ التركي في الشمال الغربي، وعجزها عن بناء النظم الصحية الفعالة وتوفير الإنفاق الصحي اللازم والكافي، يشهد القطاع الصحي السوري مزيدًا من التدهور وغياب الخدمات الأساس، ويشهد أيضًا تراجعًا متناميًا في حصول المواطنين السوريين على الرعاية الصحية الفورية والضرورية لاستمرار الحياة، بما ينذر بمخاطر آنية تصل إلى حدود الكارثة الإنسانية والاجتماعية، إضافة إلى المخاطر المتعلقة بمستقبل السوريين وصحة أطفالهم وأجيالهم اللاحقة، نتيجة لتردي الخدمات الصحية، وغياب مقومات الصحة الرئيسة، سواء في ما يخص الوقاية والشروط الصحية، أو ما يخص علاجهم من الأمراض الناشئة.

وشكل تراجع الخدمات العامة المتعلقة بالمياه والصرف الصحي وانعدام القدرة على تحقيق النظافة الشخصية والنظافة العامة بيئة خصبة للأمراض والأوبئة في مجتمع بات أفراده يكافحون للبقاء على قيد الحياة.

(2) انظر: البنك الدولي، "بيان صحفي: سكان البلدان النامية ينفقون نصف ترليون دولار من أموالهم الخاصة على الرعاية الصحية سنويًا"، (2019)، https://bit.ly/3uKfgpn

(3) انظر: منظمة الصحة العالمية، "أسئلة متكررة، ما هو تعريف المنظمة للصحة؟"، https://www.who.int/ar/about/frequently-asked-questions

(4) فؤاد فؤاد، خيارات السياسات الصحية ودور رأس المال الاجتماعي: سورية بين زمنين، (مركز مالكوم كير- كارنيغي للشرق الاوسط، 2015). https://bit.ly/3uF89yG

ثالثًا: مشكلة البحث

تحددت مشكلة البحث في إيجاد العلاقة بين تراجع المؤشرات الصحية العامة في سورية وتراجع الإنفاق العام على الصحة والمرافق الصحية من الموازنات الحكومية، وفي العلاقة بين تراجع الإنفاق العام وازدياد الحاجة إلى الانفاق من الجيب الخاص للحصول على التداوي المطلوب، وتحددت من خلال إيجاد الرابط بين مؤشرات سبل العيش بوصفها مؤشرًا اقتصاديًا، ومؤشرات الصحة العامة.

رابعًا: أهمية البحث

وتنبع أهمية البحث من خلال كشف الترابط بين العوامل الأكثر فاعلية في تدهور قطاع الصحة السوري، وذلك بالإجابة عن الأسئلة الآتية: ما تصنيف الواقع الصحي الحالي في سورية؟ كيف تأثر قطاع الصحة المدمر في الحرب السوري بتراجع الإنفاق العام؟ وما أثر ذلك في قدرة السوريين على التداوي والحصول على الرعاية الصحية والعلاج المطلوب؟ سواء من قطاع الصحة العام أم من جيوبهم عبر الإنفاق الخاص على الصحتين الجسدية والنفسية، وما تأثيرات تراجع عجز النظام عن تأمين الخدمات والمرافق الصحية في الواقع الصحي؟ وما الآثار المترتبة على صحة السوريين جراء تدهور الواقع المعيشي وعجزهم عن تأمين المتطلبات الرئيسة للحياة، وفي مقدمتها الدواء والغذاء؟، وما تأثير المناخ والأحوال الجوية في إطار عجز السوريين عن تأمين بيئة مناسبة للعيش من تدفئة وتبريد وبيئة صحية في كامل الجغرافيا السورية؟.

إن الإجابة عن تلك الأسئلة تمثل الركيزة الأساس في تحديد عوامل النهوض بالقطاع الصحي السوري من خلال تحديد الثغرات الرئيسة فيه.

خامسًا: منهج البحث

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، كونه من صنف الأبحاث المكتبية التي تعتمد عادة المنهج الوصفي التحليلي، من خلال البحث في الدراسات والتقارير السابقة بهدف تتبع المؤشرات الصحية، والبيانات العامة والكلية للواقعين الصحي والمعيشي في سورية، بما يكشف عن مدى الترابط التفاعلي المتبادل بينهما، ويكشف التشابه الكبير في تلك المؤشرات ضمن المناطق السورية الثلاث حاليًا، مع الإشارة إلى أن التباينات القائمة في تلك المناطق لا تشكل فرقًا في النوع، وإنما فروقًا في الدرجة لتشابه الواقع الصحي فيها.

سادسًا: تراجع الدعم الحكومي للقطاع الصحي

1. انخفاض الموازنة الصحية العامة

يعد الإنفاق على الصحة واحدًا من أهم المؤشرات الرئيسة لسوية الخدمات الصحية المقدمة في أي بلد، وكمها، ويضم الإنفاق على الصحة مجموع ما تنفقه الدولة على النظم والرعاية الصحية، ومجموع ما ينفقه الأفراد من جيوبهم الخاصة. وتاريخيًا صنفت سورية من البلدان متدنية الإنفاق على الصحة في المستويين كليهما العام والخاص، ففي حين شكل القطاع الصحي 11 بالمئة من الناتج الإجمالي العالمي، فإن مجموع الإنفاق على الصحة في سورية في القطاعين العام والخاص كليهما تراوح قبل الحرب بين 2.5 و5 بالمئة بمتوسط أقل من 4 بالمئة من الناتج الاجمالي المحلي، وبقيت حصة الإنفاق الحكومي فيه أقل من النصف.

وشكل الإنفاق الحكومي على الصحة من الموازنة العامة نسبة 4.5 بالمئة عام 2000، و6.1 بالمئة عام 2005، و6.3 بالمئة عام 2010، لكنه أيضًا مع الارتفاع الظاهري في النسب، بقي أدنى من نسبة النمو السكاني، وتراجعت حصص الأفراد من نفقات الرعاية الصحية العامة، ويوضح الشكل (1) تطورات الإنفاق العام والخاص على الصحة ما بين عامي (2000، و2010).

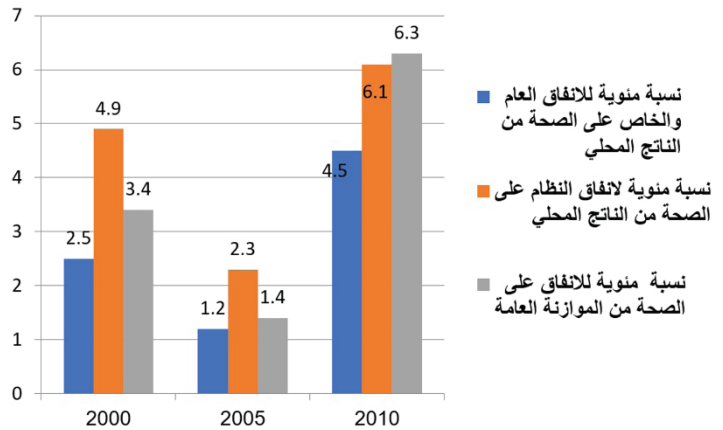

الشكل رقم (1) تطورات الإنفاق العامة: الأرقام من المكتب المركزي للإحصاء

واحتلت سورية ضمن هذا المعدل المرتبة 175 من أصل 194 دولة[5]، وانتمت سورية مع 26 دولة في العالم إلى الشريحة الدنيا من الإنفاق على الصحة بنسبة تقل عن 4 بالمئة من الناتج الإجمالي المحلي[6]، مع ملاحظة تراجع مستمر في حصة الإنفاق الحكومي قياسًا بالإنفاق الشخصي من الجيب، من حدود 48 بالمئة عام 2000 إلى 46 بالمئة عام 2005، ثم إلى 41 بالمئة 2010، كما يوضح الشكل رقم (2).

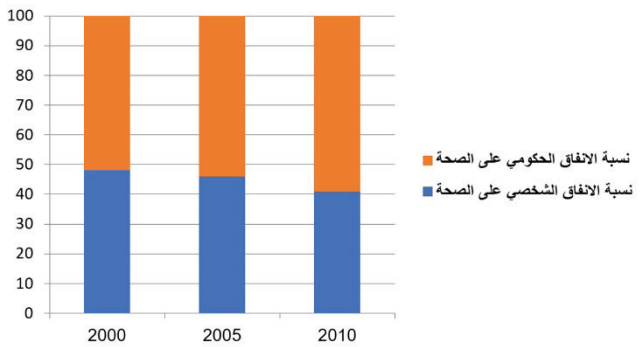

الشكل رقم (2) العلاقة بين الإنفاق الحكومي والإنفاق من الجيب على الصحة (الأرقام من المكتب المركزي للإحصاء).

وبعد الحرب، تراجع الإنفاق الفعلي للنظام على الصحة تراجعًا كبيرًا، وشكل انخفاض نسبة الإنفاق الحكومي والخاص على الصحة في سورية مع انخفاض الناتج الإجمالي المحلي عاملًا مركبًا لتدني الإنفاق وفق معيار منظمة الصحة العالمي، ولفهم التراجع الشديد في الإنفاق، فإن حصة النظام من المساعدات الصحية المقدمة من الأمم المتحدة والمنظمات الدولية لسورية باتت تعادل في السنوات 2020 إلى 2022 حصته من الإنفاق على الصحة[7]، وتزيد قليلاً عنها.

وكانت أدنى نسبة من الإنفاق الحكومي على الصحة من الموازنة العامة في عام 2012 بنسبة 1.5 بالمئة منها، ولم يشكل ارتفاع نسبتها، و ارتفاعها الرقمي في السنوات اللاحقات زيادة فعلية في الإنفاق الحكومي على الصحة لمجيئها ضمن موازنات مالية تضخمية بفعل انهيار سعر صرف الليرة السورية[8]، فعلى سبيل المثال، إن موازنة عام 2011 شكلت بالقيمة الدولارية 248.6 مليون دولار، في حين بلغت 170 مليون دولار عام 2015، وتراجعت

(5) المرجع السابق نفسه.

(6) د.م، "إنفاق سورية على الرعاية الصحية متدن عالميا: والقضية ليست بذمة العام وحده"، (2011). https://bit.ly/3BltQrq

(7) انظر: منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسف)، "المكتب القطري في سورية، الموازنة العامة للدولة في الجمهورية العربية السورية لعام 2022"، (تموز/ يوليو، 2022).

(8) المصدر السابق نفسه.

إلى 79 مليون دولار عام 2021 [9]، كما هو موضح بمقارنة الشكلين (3) و(4)، وهو رقم يعادل ثلث الإنفاق الحكومي على الصحة عام 2011، وباحتساب عدد السكان المقيمين في منطقة النظام بحدود 12 مليون، فإن حصة الفرد من الإنفاق الحكومي على الصحة في موازنة عام 2021 لا يتجاوز 6.5 دولار، ويتقلص إلى نصف القيمة في حال احتساب عدد السكان الكلي في سورية.

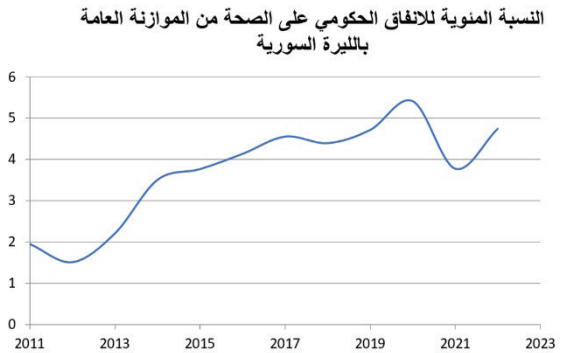

الشكل رقم (3) نسبة الإنفاق الحكومي على الصحة من الموازنة العامة (بالليرة السورية)

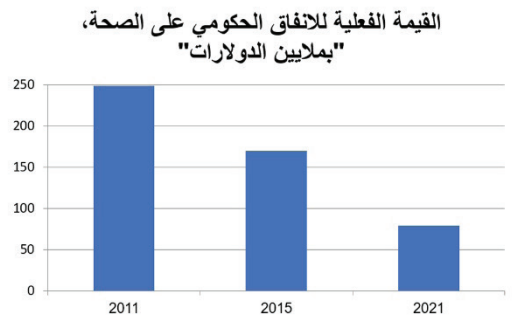

الشكل رقم (4) القيمة الفعلية للإنفاق الحكومي على الصحة في سورية (بالدولار).

(9) د.م، "أكثر من نصف الشعب السوري بات يحتاج مساعدة صحية"، قاسيون، (2022)، https://bit.ly/3BoODud

أ. النظام الصحي في شمالي شرق سورية

أما في الشمال الشرقي في سورية، فتشير المعطيات إلى غياب شبه كلي لمنظومة صحية على الأرض، وتغيب البيانات المالية عن القطاع الصحي هناك، ويعاني القطاع الصحي الخاضع للإدارة الذاتية الانهيارَ الشامل بحسب مسؤولي الصحة فيها[10]، وتدل مؤشراتها الصحية الموثقة أمميًا على أن بعض مؤشراتها هي الأسوأ في البلاد والأشد خطرًا، ولا سيما في ما يخص الأوبئة، والوضع الصحي للأطفال.[11] وكانت الإدارة الذاتية طرحت مسودة قانون صحي للمناقشة العامة، واعترف مسؤول الصحة أن النظام الصحي في المنطقة منهار انهيارًا كاملًا خلال عشر سنوات من الحرب التي أثرت تأثيرًا مباشرًا في الخدمات الصحية.

ب. النظام الصحي في شمالي غرب سورية

وفي حال مشابهة يفتقر الشمال الغربي من سورية بقسميه؛ الخاضع للمعارضة السورية والخاضع للإدارة التركية، إلى وجود قطاع صحي فعال ضمن أوضاع إنسانية وصحية كارثية، ويتقاسم أعباء الرعاية الطبية فيه، بصورة محدودة وغير كافية، منظمات طبية دولية إضافة إلى منظمات مجتمع مدني، ومديريات الصحة التابعة لسلطات الأمر الواقع فيها[12]، وتغيب البيانات المالية الواضحة.

وأمام هذا الواقع الشامل تتوسع الكارثة الصحية باطراد في كامل الجغرافيا السورية، مع تعمق الكارثة الاقتصادية والانسانية، وعدم القدرة على إيجاد التمويل اللازم للقطاع الصحي، وكانت منظمة الصحة العالمية أكدت ((إن الاحتياجات الإنسانية في سورية وصلت إلى أعلى مستوياتها منذ بدء الحرب، مشيرة إلى أنها "تعمل في جميع أنحاء البلاد لتوفير الدعم الصحي المُنقذ للحياة)).[13]

2. تراجع القدرة على التداوي

شكلت مزدوجة تراجع الخدمات الصحية مع انهيار الواقع الاقتصادي، ولا سيما في مناطق النظام، عائقًا كبيرًا أمام قدرة السوريين في الحصول على الرعاية الطبية اللازمة، فمع تقليص الإنفاق العام على الصحة توقفت المنشآت الطبية العامة عن توزيع الأدوية وعن إجراء التحاليل المخبرية وصور الاشعة النوعية، ومستلزمات العمل الجراحي والقطع التعويضية، وارتفعت الأعباء المادية على المرضى، وازدادت معدلات الإنفاق من الجيب الخاص بالتوازي مع ضعف المداخيل، وتخطي الواقع المعيشي حدود الكارثة الجماعية.

وأسهم توقف عدد من المنشآت الطبية عن الخدمة في تراجع القدرة على التداوي، وذلك لعدم القدرة على تشغيلها لأسباب متنوعة، منها دمارها أو خروجها عن السيطرة أو عدم وجود التمويل الكافي والكادر الصحي،

(10) د.م، "الإدارة الذاتية تسعى لتفعيل نظام الرعاية الصحية شمال شرق سورية"، (2022)، https://bit.ly/3iSvSsl

(11) د.م، "منظمة الصحة العالمية تدعو إلى اتخاذ اجراءات عاجلة لمعالجة سوء التغذية في شمال شرقي البلاد"، الأمم المتحدة، (2022)، https://bit.ly/3W1AA5y

(12) عبد الله البشير، "الشمال السوري: الواقع الصحي وسط العجز (2-4)"، العربي الجديد، (2018) https://bit.ly/3Fi53FH.

(13) د.م، "الصحة العالمية: الصراع جعل النظام الصحي في سورية يكافح من أجل التأقلم"، مجموعة العمل من أجل فلسطيني سورية، (2022)، https://bit.ly/3URiGS2

فمن بين 101 مستشفى يتبع القطاع العام، يعمل 47 مستشفى بصورة كاملة ، و24 مستشفى بصورة جزئية، و30 مستشفى متضررة بفعل الحرب[14]، كذلك أدّى خروج ما بين 60 بالمئة و70 بالمئة من الكادر الطبي إلى خارج البلاد [15] في تراجع القدرة على التداوي ضمن منشآت القطاع العام، لعدم القدرة على تغطية الأعداد الكبيرة من المرضى، وخاصة مرضى الحالات السريعة الذين لا يمكنهم الانتظار بسبب طبيعة حالاتهم الصحية، إضافة إلى تعطل كثير من الأجهزة الطبية النوعية في مستشفيات القطاع، وعدم القدرة على إصلاحها أو استبدال غيرها بها، من مثل الأجهزة المخبرية و أجهزة تصوير الطبقي المحوري وأجهزة تصوير الرنين المغناطيسي.

ومع انخفاض إمكان التداوي في القطاع العام، شهدت أجور الرعاية الطبية في مناطق النظام ارتفاعات مهولة ضمن القطاع الخاص، وخاصة ذات الطابع السريع والإسعافي، كما في حالات وباء كوفيد 19، وبلغت كلفة الليلة الواحدة في بعض المستشفيات الخاصة 7 مليون ليرة، وهو رقم يعادل أجر موظف حكومي لمدة تزيد على خمس سنوات، وبلغت تكلفة صورة الطبقي المحوري بين 600 ألف ليرة ومليون ليرة، ووصلت تكلفة غسيل الكلى لمرة واحدة إلى ربع مليون ليرة،

وتحولت زيارة المرضى عيادات الأطباء إلى نوع من المغامرة المالية، لارتفاع تكاليف التداوي الخاص، واضطر عدد من المرضى إلى بيع بيوتهم وأملاكهم لتأمين حالات التداوي الاضطرارية لتعذر الحصول على الخدمة السريعة أو الكافية في القطاع العام، في حين واجه العاجزون عن تأمين المبالغ المطلوبة مصائرهم المحتومة.

وارتفعت أسعار الدواء الوطني ارتفاعًا مهولًا بحدود 50 و100 ضعف مع انخفاض كبير في فاعليتها، بحسب عدد من الأطباء، وكانت العقوبات قد أدت إلى سحب تراخيص دوائية من 58 شركة محلية، ما أثر على نوعية الدواء المحلي.

وفي ظل تراجع الإنفاق الحكومي على الصحة تنامى الإنفاق من الجيب الخاص، وكان قد وصل عام 2017 إلى 68 % وفق دراسات تابعة للنظام[16]، ويرجح ارتفاع هذا الرقم حاليًا مع تراجع الإنفاق الطبي العام، وشكل نقص الكادر الطبي وتراجع أعداد العاملين في قطاع الصحة عاملًا إضافيًا في تراجع القدرة على التداوي، وأسهمت أزمات الطاقة في تقليل عدد العاملين في قطاع الصحة العام والخاص، حيث اضطر عدد من الأطباء إلى تقليص دوامهم في عياداتهم إلى يومين فقط أسبوعيًا لصعوبة الوصول إلى العيادات[17].

سابعًا: تأثير انعدام الأمن الغذائي في الصحة في سورية

تأثر النظام الغذائي للسوريين بشدة على وقع تداعيات حرب النظام على الشعب السوري واشتداد الأزمات الاقتصادية وانخفاض المداخيل والأجور العامة في مناطق النظام إلى حوالى 20 دولار شهريًا، فبات من العسير لمعظم الشعب السوري تأمين كفايته من الغذاء خارج إطار المساعدات.

(14) عمار الخطيب، "السوريون يصرخون ألمًا: فكيف يتدبرون أمر مرضهم وعلاجهم؟"، صور، (2022)، https://bit.ly/3BkBeTK.

(15) منظمة الصحة العالمية، https://bit.ly/3uJFdpf.

(16) انظر: د.م، "القطاع الصحي في سورية شاهدا على التنمية والحرب"، مركز دمشق للأبحاث والدراسات، (2020). https://bit.ly/3uIsxij.

(17) "حديث إذاعي لنقيب اطباء ريف دمشق خالد موسى"، إذاعة شام اف ام، (2022/12/11). https://www.facebook.com/radioshamfm.

وأدّى تدهور الواقع المعيشي إلى عجز غالبية الشعب السوري عن تأمين الاحتياجات الغذائية كمًّا ونوعًا، فمع الانهيار الشديد في الوضع الاقتصادي السوري، وتراجع الوضع المعيشي، اختل توازن السلة الغذائية للسوريين، وباتوا عاجزين عن تأمين التنوع في مصادرهم الغذائية، واقتصرت وجباتهم معظمها على الخضروات والحبوب والبقول، وغابت عنهم مصادر رئيسية ومهمة في الغذاء توفر عناصر غذائية مطلوبة من مثل البروتين الحيواني والمعادن والفيتامينات.

وأدّى عدم حصول السوريين على السعرات الحرارية اللازمة للجسد وعلى كميات البروتين والفيتامينات والأملاح الضرورية للفرد إلى حدوث اختلالات ومضاعفات صحية متنوعة، اندرج بعضها في إطار سوء التغذية، وعزز بعضها تفاقم حالات مرضية في عدد من الأمراض المتنوعة الأخرى المترابطة مع نقص الغذاء وسلامته.

وكانت التكاليف المعيشية الشهرية[18] وتراجع المداخيل وارتفاع نسب الفقر في سورية إلى ما يزيد عن 90 بالمئة مع التدهور المستمر في سعر صرف الليرة السورية؛ قد وضع الشعب السوري على حافة المجاعة الحقيقية بحسب عدد من التحذيرات الأممية.

وفي إحصاءات رسمية تمت بالتعاون مع جهات دولية عام 2020، ولم ينشرها النظام[19]، بينت أن نسبة الآمنين غذائيًا في سورية لا تتجاوز 5.1 بالمئة، وأن نسبة 39.4 بالمئة من الشعب السوري يندرج نظامهم الغذائي في إطار الأمن الغذائي المقبول، في ما يندرج 47.2 في انعدام الأمن الغذائي متوسط الشدة، و8.3 بالمئة في انعدام الأمن الغذائي الشديد[20]، وفي إطار التدهور المستمر والمتسارع بشدة للوضع المعيشي، قدر برنامج الغذاء العالمي عام 2022 وجود 12 مليون شخص يعانون انعدامًا حادًا في الأمن الغذائي في سورية، و1.9 مليون شخص مهددين بالانزلاق إلى براثن الجوع، كاشفًا أن سلة الغذاء الأسرية ارتفعت بمقدار 800 بالمئة في العامين الماضيين[21].

وكان مسؤولون صحيون في النظام أكدوا من خلال الأرقام والبيانات ارتفاع الترابط بين سوء التغذية وضعف المناعة وتأثيراتهما في كثير من الأمراض غير السارية، مثل أمراض القلب والأوعية، ودورها في رفع معدلات النوبات القلبية، والسكتة الدماغية، وخاصة في الأعمار الصغيرة والمتوسطة[22].

ومن جهة ثانية، أدّى انخفاض القوة الشرائية، وضعف الرقابة الغذائية، وتغول الفساد والفوضى في مناطق النظام إلى ازدياد حالات الغش، ووجود كثير من الأصناف الغذائية غير الصالحة للاستهلاك البشري في الأسواق، ما أدّى في كثير من الحالات إلى تسمم جماعي، إضافة إلى التأثيرات الصحية المديدة أو المسرطنة لبعض تلك الأصناف.

(18) انظر: "أكثر من ثلاثة ملايين وسطي تكاليف معيشة الأسرة في تموز"، قاسيون، (2022). https://kassioun.org/economic/item/73880-3.

(19) انظر: زياد غصن، "مسح حكومي- أممي مشترك: نصف الأسر السورية بلا أمن غذائي"، الأخبار، (2021). https://bit.ly/3FmQ4KO

(20) انظر: زياد غصن، "مسح حكومي- أممي مشترك.

(21) انظر: د.م، "الجوع في سورية يبلغ مستويات تاريخية، والملايين على شفير الهلاك"، برنامج الأغذية العالمي. https://news.un.org/ar/story/2022/05/1101332

(22) د.م، "رئيس الطب الشرعي: ارتفاع حالات الجلطة بين الشباب في سورية"، موقع تلفزيون سورية، (2022). https://bit.ly/3iT5hvA

إن آثار سوء التغذية لا تتوقف عند نتائجه المرضية فقط، بل تمتد إلى رفع كلفة التداوي المالية، ما يدفع في الحالة السورية إلى مزيد من الإنفاق ضمن وضع معيشي شديد التدهور، ليؤدي بدوره إلى مزيد من العوز والإفقار، ((ما قد يؤدي إلى حلقة لا نهائية من الفقر واعتلال الصحة))[23].

ثامنًا: تأثير المناخ والعوامل الجوية في الصحة

شهدت سورية تبدلات مناخية ملحوظة قبل الحرب، وأسهمت الحرب ونتائجها بمزيد من التبدلات البيئة والمناخية، ويرتبط المناخ بالعوامل الصحية سواء عبر تأثيراته المباشرة في الإنسان وصحته من خلال درجات الحرارة المباشرة، أو بتأثيراته غير المباشرة من خلال التداعيات الزراعية ونتائجها بما يخص نقص الغذاء وأمراض سوء التغذية[24]، كذلك في ما يخص انتشار السلالات الفيروسية الجديدة وتطورها بفعل تغيرات مناخية وبيئية وفرت شروطًا مناسبة لانتشارها[25]، إضافة إلى الآثار الصحية الناجمة عن الجفاف ونقص كميات المياه الجوفية ومياه الشرب ومياه الاستخدام الشخصي.

((كما تساهم الانبعاثات الحرارية الناجمة عن الاحتباس الحراري ومنها " انبعاثات CH4 (الميتان) من التخمير الداخلي وانبعاثات CH4 وN2O نتيجة إدارة السماد الطبيعي، والذي يؤثر بشكل كبير على إمداد الغذاء ويساهم في تلوث المياه الصالحة للشرب)).[26]

وعملت الحرب السورية على إنتاج أوضاع أكثر هشاشة وأقل فاعلية للتعامل الصحي مع المتغيرات المناخية، سواء تلك التي خلقتها أحوال التشرد الداخلي وانعدام المأوى للملايين، أم تلك الناجمة عن عدم تلبية البيئة الحرارية المناسبة للعيش من مثل التدفئة في الشتاء والتبريد في الصيف، وازدادت فاعلية التأثيرات مع تردي الواقع المعيشي وأزمة المحروقات شبه المستمرة في مناطق النظام منذ عام 2011، والانقطاع المستمر للكهرباء، ما كثف من سطوة العوامل الجوية بصورة مباشرة لانعدام القدرة على الحد من تأثيراتها في المنازل والمدارس والأماكن العامة وأماكن العمل، ويعيش 15 مليون سوري ضمن أوضاع إنسانية صعبة لا يمكنهم تأمين سبل العيش الضرورية خارج إطار المساعدات[27]. ومنها الاحتياجات الناجمة عن المناخ من مثل الحصول على التدفئة في الشتاء.

و كانت انخفاضات الحرارة والأحوال الجوية القاسية قد أدت إلى انتشار متزايد للحالات المرضية في سورية، ولا سيما في مخيمات اللجوء الداخلية غير المجهزة، ونجم عنها عدد كبير من الوفيات بين الأطفال وكبار السن، وأسهم ارتفاع درجات الحرارة في انتشار الأمراض والاوبئة كالكوليرا التي ضربت مرارا في سورية، ونجم عنها

(23) د.م، "سوء التغذية"، منظمة الصحة العالمية، (2021)، https://bit.ly/3V12Jca

(24) انظر:د.م، " تقييم قابلية تأثر القطاع الصحي في سورية للمتغيرات المناخية وإجراءات التكيف الممكن اتخاذها"، (2008). https://www.moh.gov.sy/pages/Environment/subjects01.html

(25) د.م، "هل يؤدي تغير المناخ إلى اندلاع جائحة أخرى؟"، الباحثون السوريون، https://www.syr-res.com/article/24465.html

(26) د.م، "البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة في جنيف: مذكرة وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي حول المساهمة في مسألة التزامات حقوق الانسان المتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة"، الجمهورية العربية السورية،Syria.doc (live.com)

(27) راجع الرابط الآتي: https://www.facebook.com/humanitarianresponse1 2022/12/2

مؤخرا 49 حالة وفاة في مناطق سيطرة النظام، وإصابة 1587 حالة[28]، كما نجم عنها 45 حالة وفاة خارج سيطرة النظام[29]، 30 منها شمال شرق سورية، و13 حالة في الشمال الغربي، وحالتان في مناطق النفوذ التركي، وذلك بالتزامن مع ازدياد معدلات الجفاف[30].

تاسعًا: علاقة النشاط البدني بالصحة

أثرت الحرب السورية في مجمل أوجه النشاط الإنساني في سورية، ومنها النشاط المرتبط بالجوانب الاقتصادية والمعيشية للبالغين بمثل العمل والبحث عن موارد الرزق، بالتوازي مع تزايد الأزمة الاقتصادية، وانهيار الواقع المعيشي في عموم سورية، وفي مقدمتها مناطق النظام.

وأجبرت الأوضاع القاسية السوريين معظمهم على العمل لمدد طويلة في وظيفة واحدة أو وظائف عدة لتحقيق مردود إضافي يقلل الفجوة بين تكاليف الحياة والمداخيل المتدنية، ضمن ظروف غير مواتية غذائيًا وصحيًا، وذكرت دراسات أن 41.1 بالمئة من السوريين يعملون بين41 و60 ساعة، في ما يعمل 24.4 أكثر من 60 ساعة يوميًا[31]، ويعمل كثير من السوريين لزمن يمتد من 12 إلى 15 ساعة يوميًا، لمدة 7 أيام في الأسبوع[32]، ومنهم أصحاب الأعمال المجهدة من مثل عمال البناء (المياومين).

وبسبب الحرب وآثارها وعجز النظام عن تأمين مقومات الحياة الطبيعية ارتفع انخراط النساء في سوق العمل، وزاولت بعضهن أعمالًا عرفت تاريخيًا باقتصارها على فئة الذكور بسبب طبيعتها البدنية، وفي حال النساء بصورة عامة، والنساء المعيلات الوحيدات، لم يتوقف الجهد البدني المبذول عند حدود العمل الخارجي، وإنما امتد إلى تفاصيل المنزل وأعماله المجهدة بسبب غياب الطاقة وغياب مقومات الحياة الطبيعية، وكانت نسبة النساء المعيلات الوحيدات لأسرهن قد ارتفعت منذ عام 2014 إلى الربع[33]، لأسباب متنوعة منها الترمل والطلاق والغياب القسري للأزواج والأبناء واعتلال صحة الأزواج.

ومع ارتفاع هجرة الذكور وتداعي الوضع المعيشي ارتفعت أيضا، نسبة النساء المعينات لأزواجهن في الدخل عبر انخراطهن في سوق العمل، وفي أعمال الزراعة والمنزل مما استدعى من النساء في كثير من الاحيان بذل نشاطات بدنية ومجهودات اكثر من طاقة احتمال النساء بدنيا، ما انعكس بدوره على واقع المرأة السورية بشكل عام، والمرأة العاملة بشكل خاص، وتشكل منطقة النظام النسبة الأكبر للنساء العاملات في سورية.

(28) د.م، "الصحة: وفيات الكوليرا 49 شخصا والإصابات 1587"، سيريا نيوز، 2022، https://bit.ly/3Wk6SsH

(29) عبد الرزاق ماضي، "كوليرا سورية: نحو 50 ألف مشتبه في اصابتهم"، العربي الجديد، (2022).

(30) د.م، "تغير المناخ ساهم في انتشار الكوليرا"، الصحة العالمية.

(31) عروة خليفة وكرم شعار، "العيش في دمشق بعد عقد من الحرب، العمل الدخل، والاستهلاك"، مركز السياسات وبحوث العمليات، (2021)، https:// bit.ly/3W2DIhA

(32) د.م، "يعملون لمدة 12 بدل 8 ساعات... تقرير: استغلال ومخالفات قانونية في القطاع الخاص ومحلات تجارية بدمشق"، بزنس تو بزنس، (2018)، https://bit.ly/3hj6trt

(33) رغداء زيدان، "المرأة السورية وتحقيق السلام"، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (2020)، https://bit.ly/3Pm0cYI

وكانت الحرب السورية وتداعياتها الاقتصادية القاسية أجبرت عددًا من الأهالي على زج أطفالهم في سوق العمل لإعانتهم على مصاعب الحياة، حيث اضطر الأطفال إلى مزاولة أعمال لا تتناسب مع أعمارهم، ومنها الأعمال المجهدة. واضطر عدد من كبار السن والمتقاعدين إلى العمل المأجور في قطاعات عدة، لا تتناسب مع أعمارهم وطاقتهم البدنية، بسبب احتياجاتهم الملحة لمصدر دخل إضافي، الأمر الذي عرضهم لمزيد من المخاطر الصحية مع أوضاع سوء التغذية وانعدام وسائل التدفئة.

عاشرًا: مياه الشرب والصرف الصحي ودورها في انتشار الأمراض الوبائية

شهد قطاع المياه والصرف الصحي في سورية أضرارًا جسيمة في البنية التحتية نتيجة الحرب، واتباع نهج تدمير البنية التحتية، والعمل على سياسة الأرض المحروقة، وإحكام الحصار على المعارضين، وترافق الضرر الجسيم مع تراجع في مخصصات موازنة النظام لقطاعي مياه الشرب والصرف الصحي، فهبطت الموازنة بين 2011 و2022 إلى الخمس من نسبة 3.31 بالمئة من الموازنة العامة إلى 0.75 بالمئة، وفي القيم الحقيقية، فإن مخصصات قطاع الصرف الصحي هي أدنى بنسبة 90 بالمئة مما كانت عليه 2011 [34].

ونتج عن هذا التدمير في البنية التحتية عدم الوصول إلى المياه المأمونة التي كانت متاحة بنسبة 93 بالمئة ما قبل 2011 [35]. وتشير التقديرات إلى اعتماد نسبة 47 بالمئة من السوريين على موارد مائية بديلة، ولكنها في كثير من الأحيان غير مأمونة، وذلك من أجل تلبية احتياجاتهم المائية، وتصب ما لا يقل عن 70 بالمئة من مياه الصرف الصحي خارج الخدمة[36]، ليقدر عدد المحتاجين إلى دعم في قطاع المياه والصرف الصحي عام 2022 إلى 13.4 مليون سوري[37].

وتشكل سلامة مياه الشرب وخدمات الصرف الصحي أحد المؤشرات الاجتماعية المتشابكة والمؤثرة في الواقع الصحي والمؤشرات الصحية، حيث ((يرتبط تلوث المياه وتردي خدمات الصرف الصحي بانتقال أمراض مثل الكوليرا والإسهال والزحار والتهاب الكبد A والتيفويد وشلل الأطفال. ويعرّض انعدام خدمات المياه والصرف الصحي أو عدم توافرها بالقدر الكافي أو سوء إدارتها صحة الأفراد لمخاطر يمكن تلافيها))[38].

وارتفعت بفعل الحرب وتدمير البنية التحتية للمياه والصرف الصحي نسبة المياه الملوثة في دمشق وريفها إلى 74 بالمئة بالتزامن مع عدم توافر مواد وتجهيزات للتعقيم والصيانة، ما أدّى إلى انتشار عدد من الأمراض، ولا سيما (التهاب الكبد الفيروسيA والإسهال الحاد)[39]، وبيّنت تحاليل رسمية عام 2013 أنه من بين 23 عيّنة ثبُتَ أنَّ 6 عيّنات فقط مقبولة جرثوميًا وK17 عيّنةً غير مقبولة، ما يعني أنَّ نسبة 26 بالمئة من العيّنات مقبولة و74

(34) د.م، المكتب القطري في سورية، "الموازنة العامة للدولة في الجمهورية العربية السورية لعام 2022"، منظمة الأمم المتحدة للطفولة/ اليونيسف، (تموز، 2022).

(35) د.م، "التقرير الوطني الثالث للأهداف التنموية للألفية في الجمهورية العربية السورية"، (2010)، الرابط: https://bit.ly/3BEahe2

(36) تمام أبو الخير، "وفيات وعشرات الاصابات الكوليرا تهاجم سورية"، نون بوست https://bit.ly/3Pr3v0E

(37) د.م، "تصاعد الاحتياجات الانسانية في سورية بعد عشر سنوات من الصراع"، الأمم المتحدة، (2021)، https://bit.ly/3PsnnR4

(38) د.م، "مياه الشرب"، منظمة الصحة العالمية، (2022)، https://bit.ly/3FgzBHK

(39) د.م، "وبال الصراع السوري يصل الى مياه الشرب"، أريج، 2014/ https://bit.ly/3Wke2Nv

بالمئة من العيّنات مُجرثمة، ما يفيد بأنَّ 74 بالمئة من سكان تلك المناطق يشربون مياهًا مُجرثمة [40]

ومن جهة ثانية مع التقنين الشديد لمصادر الطاقة تراجعت كميات ضخ مياه الشرب وأوقاتها في عدد من المدن والبلدات السورية، ما أدى إلى عجز كثيرين عن الحصول على الكميات الكافية للشرب والغسيل والاستحمام، الأمر الذي شكل بيئة خصبة للأمراض والأوبئة السارية التي تشهدها سورية، وأبرزها وباء الكوليرا حاليًا.

خدمات الصرف الصحي

أدى الضرر الكبير في شبكات الصرف الصحي وشح المياه النظيفة إلى مفاقمة معاناة السوريين، وقلة النظافة والرعاية الصحية، وتلوث المياه والغذاء، وخاصة في المناطق التي شهدت صراعًا داميًا، وقالت ريتش، وهي خدمة بحث ومعلومات مرتبطة بالأمم المتحدة، إنه في مناطق شمال سورية حيث تضم أعدادًا كبيرة من النازحين السوريين، إن نصف أنظمة الصرف الصحي على الأقل معطلة، وقالت إنه في مساكن موقتة في محافظة دير الزور يعيش 40 في المئة من السكان، وهم لا يملكون المراحيض[41].

وعلى سبيل المثال، تضح في عدد من الأماكن مياه الصرف الصحي الخام مباشرة في نهر الفرات، بالتوازي مع انخفاض مستويات المياه الجوفية، وتلوث عدد منها، وتعطل محطات الضخ الرئيسة، ليتوقف اعتماد السكان على المياه المنقولة بالصهاريج غير المعقمة وغير المراقبة[42].

وبفعل التراجع في سلامة مياه الشرب، وانخفاض كمياتها، وتراجع خدمات الصرف الصحي، انتشر عدد من الأمراض والأوبئة في سورية خلال سنوات الحرب، كان قد تقلص قبل الحرب إلى مستويات دنيا، أو كان اختفى من خريطة الأمراض السورية إلى حد ما، ومن أبرز تلك الأمراض المرتبطة بسلامة المياه والصرف الصحي: الكوليرا، الليشمانيا، أو ما يسمى شعبيًا (حبة حلب)، الحصبة والتهاب الكبد، الإسهال الحاد، التهاب الكبد الفيروسي، وتزايدت بصورة واضحة وكبيرة معدلات أمراض أخرى، مثل شلل الأطفال والسرطان وأمراض القلب والأوعية الدموية.

أحد عشر: الاضطرابات النفسية وارتباطها بالحرب السورية

أنتجت الحرب السورية ومشاهد القتل والدمار الناجمة عنها واقعًا شديد القسوة في المستويين المادي والنفسي، عبر عنها تدهور الحياة المعيشية، وتنامي حال القهر والحرمان، وصعوبة الحياة، أدت جميعها إلى انخفاض القدرة على التأقلم، وانعكست في الحالة النفسية للسوريين معظمهم بدرجات متفاوتة، واعترفت تصريحات رسمية تابعة للنظام عام 2018 بوجود حوالى مليون سوري وسورية (4 في المئة من السكان) يعانون

(40) المرجع السابق نفسه.

(41) د.م، "مشاكل المياه في سورية تؤدي إلى تفشي الكوليرا القاتلة"، نيويورك تايمز، بلا رتوش، (2022)، https://bit.ly/3BBt9tW

(42) المرجع السابق نفسه.

اضطرابات نفسية شديدة، في حين يعاني 5 في المئة آخرون اضطرابات نفسية متوسطة الشدة[43].

وكانت دراسة ميدانية على عينة من السوريين في مدينة دمشق بينت أن الأمراض النفسية هي الأكثر انتشارًا بنسبة 22.7 بالمئة[44]، وتشير تقارير بحثية أخرى إلى وجود معدلات أعلى بكثير لانتشار الاضطرابات النفسية، فعلى سبيل المثال، خلصت الغرفة الألمانية الاتحادية للمعاجين النفسيين إلى أن نصف اللاجئين السوريين في ألمانيا يعانون مشكلات نفسية[45]، وأصدرت السلطات التركية نتائج مماثلة عن اللاجئين في تركيا[46].

وبيّن تحليل أجرته الهيئة الطبية الدولية[47] تم من خلال منشآت صحية تدعمها الهيئة لصالح اللاجئين السوريين والنازحين في سورية والأردن ولبنان وتركيا أن 54 في المئة من الأطفال يعانون مشكلات فكرية نمائية.

وأشارت بحوث أخرى إلى أن 50 في المئة من الأطفال اللاجئين يعانون الاضطرابات النفسية اللاحقة للصدمة أو الاكتئاب، ويعاني المختطفون وعشرات الآلاف من المقاتلين من الأطراف جميعها مرضًا عقليًا، وأما النساء والفتيات فهن عرضة على وجه الخصوص لانتهاكات من قبيل العنف المنزلي والعنف الجنسي وزواج الأطفال والاستغلال الجنسي[48].

وفي دراسة أجراها (محمد بهاء الدين الحفار وآخرون)[49] بشأن صحة الفم وانتشار الاضطرابات النفسية الشديدة اللاحقة للإصابة لدى الأطفال، تبين أن نسبة 91.5 في المئة في مدينة دمشق تعاني هذه الاضطرابات، وقد تركزت الإصابات في مناطق السكن العشوائي لمدينة دمشق، وتحديدًا في مناطق الدويلعة والطبالة ونهر عائشة وجرمانا.

الاضطرابات النفسية وظاهرة الانتحار

ومع الظروف الشديدة القساوة ارتفعت نسب ظاهرة الانتحار في سورية دليلًا على العجز واليأس، وطالت الظاهرة الجنسين كليهما، ومن مختلف الأعمار، وكانت الهيئة العامة للطب الشرعي في سورية أعلنت تسجيل 101 حالة انتحار منذ بداية عام 2022 حتى شهر تموز".[50]

(43) د.م، "مليون سوري يعانون اضطرابات نفسية شديدة"، سكاي نيوز، (2018). https://bit.ly/3W9DWDE

(44) طلال مصطفى، "الأوضاع المعيشية للأسرة المهجرة في ظل الأزمة السورية"، مج: 13، ع:1 ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، (الأردن: جامعة اليرموك، 2016)، ص 145-161.

(45) عمر كاراسابان، "اللاجئون السوريون: أزمة الصحة العقلية"، مدونات البنك الدولي.

https://bit.ly/3j2jaHK

(46) "The Response to Syrian Refugee Women's Health Needs in Lebanon, Turkey and Jordan(2015)" ., https://bit.ly/3HBnYOq

siryan crisis", international corps, https://bit.ly/3BDO5Au" (47)

(48) - Omer Karasapan, " Syria s Mental Health Crisis" , Future Development , 25(April 2016) . https://bit.ly/3PrgPSI

(49) Muhammad Bahaa Aldin Alhaffar Khattab Mustafa , Samira Sabbagh, Kamal Yabrode, Ghalia Shebib and Chaza Kouchaj, " seven years of War in Syria the Relation between Oral Health and P TSD among children", journal of oral Health and Research, vol .4m NO.1, (2018).

(50) د.م، "أكثر من 100 حالة انتحار منذ بداية العام معظمها في حلب"، موقع تلفزيون سورية، (2022). https://bit.ly/3hvaKZ5

يضاف إلى أوضاع الحرب القاسية وتداعياتها، شكلت الأحوال الصعبة اقتصاديًا وإنسانيًا السبب الرئيس في ارتفاع ظاهرة الانتحار في سورية، فمع ازدياد شدة الأزمة الاقتصادية، وارتفاع عدد المحتاجين إلى مساعدات ملحة وفورية إلى أكثر من 12 مليون إنسان، وأحوال المهجرين والنازحين داخليًا، وواقع المخيمات البائس، تزايد اليأس والإحباط والاكتئاب والأمراض النفسية التي تشكل العامل الأبرز في أسباب الانتحار.

اثنا عشر: خاتمة

يعيش السوريون كارثة إنسانية غير مسبوقة يكشف عنها الواقع الصحي في أوضح تعبيراتها، لتشابك القطاع الصحي مع القطاعات التنموية والإنسانية كافة في المجتمع، فالصحة من منظور المجتمع أساس التنمية، وهي مفتاح العناية برأس المال البشري، واستثماره، وهي من أبرز المؤشرات إلى اهتمام الفرد والمجتمع بحياة الإنسان وقيمتها العليا.

ويتعدى الاهتمام بالصحة والواقع الصحي مفهوم إمكان التداوي والحصول على العلاج اللازم والرعاية الطبية المطلوبة إلى تأمين البيئة الصحية، وتأمين المتطلبات والاحتياجات الإنسانية الرئيسة من الغذاء والملبس والمسكن والمياه النظيفة والبيئة الخالية من السموم، وتأمين الأجواء النفسية المستقرة وعوامل الأمن والأمان النفسيين.

وإذا كان النهوض بالواقع الصحي في سورية على الصعيد البدني يعد أحد المفاتيح الرئيسة للنهوض بالواقع المدمر لبناء سورية، فلا يمكن بناء اقتصاد فاعل بمجتمع من المرضى، ومن هنا يمثل الاهتمام والعناية بالصحة النفسية أحد المؤشرات والمحفزات الرئيسة لدفن الأحقاد والضغائن، وبناء الإنسان السوي مجتمعيًا وإنسانيًا، بما يعزز الانتماء الاجتماعي والوطني، ويساعد في تحديد الأهداف الجماعية، والعمل عليها.

ثالثًا: الدراسات

التحديات الجديدة التي تواجه الأخلاق الإسلامية[1]

الموضوعات والجبهات والمواجهات

إغناتسيو دي فرانشيسكو[2]

أولًا: ملخص

(المعضلة الأخلاقية) مسألة أساسية في إسلام اليوم: كيف يمكن إعادة صياغة أخلاق النظام الديني لجعله مكونًا أساسًا إلى جانب العقيدة والعبادة، ومن ثم مقاومة تهميشها؟ تبدأ هذه الورقة بتقديم عرض موجز لبعض الموضوعات الأساس (تاريخ الأفكار، الشخصية الأخلاقية، التعليم، العلاقة بين الجنسين)، لتناقش بعد ذلك موضوعين حساسين بصورة خاصة؛ الأخلاق الاقتصادية والأخلاق الطبية. يثير كل موضوع مذكور هنا تلقائيًا التساؤل حول ما قيل حول هذه المسألة في الجانب المسيحي، ومن ثم سنختم مع بعض الاعتبارات التي تتعلق بجانب المقارنة، وبجانب الحوار بين الأديان.

ثانيًا: سؤال الهوية الحاسم

في المؤتمر الدولي الأول لـ (مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق) CILE[3] كان ضيف الشرف الشيخ يوسف القرضاوي الذي استطاع التعبير بأسلوبه الجذاب الذي جعل منه نجمًا في وسائل الإعلام عن بعض الأفكار الرئيسة حول هذا الموضوع في هذه الدراسة. في المقام الأول، المركزية الأساسية لدور الأخلاق في الإسلام كما يتلخص في القول المشهور ((الدين المعاملة))، ثم الصلة التي لا تنفصم بين الإيمان والأخلاق، ما يعني أن الظلم يقارن الشرك، والانحراف يقارن الإثم؛ ويتبع ذلك الارتباط الوثيق بين المجال الديني والسلوك، حيث يستمد السلوك قوته وتوجيهه من المجال الديني؛ وأخيرًا: التصور المنتشر بين المسلمين على نطاق واسع بأن الغرب في موقف مناهض لبنية هذه الفضائل، كما قال: ((الغربيون يظنون أن الاقتصاد الحقيقي ليس له علاقة بالأخلاق،

(1) Ignazio De Francesco, "The New Challenges Facing Islamic Ethics: Topics, Fronts, Confrontations," Islamochristiana 46 (2020) 219–233.

(2) باحث مستقل، متخصص في آباء الكنيسة (Augustinianum) Patrology وحاصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من المعهد البابوي للدراسات الإسلامية في روما (Pisai). مندوب سابق للحوار بين الأديان في كنيسة بولونيا، إيطاليا. له مؤلفات عدة في الأدب المسيحي السرياني والمصادر الإسلامية: الزهد، والأخلاق، والشريعة.

(3) Center for Islamic Legislation and Ethics.

عقد هذا المؤتمر في الدوحة في 28/2/ 2013 تحت عنوان (السياسة والفن في ميزان الأخلاق: رؤية واقعية). مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق هو مؤسسة بحثية تابعة لكلية الدراسات الدينية في جامعة حمد بن خليفة في قطر.

العلم لا علاقة له بالأخلاق، والسياسة والحرب، كل شيء ليس له علاقة بالأخلاق. الحياة إذًا تمضي بحسب المصالح، والمصالح الخاصة، وليست مصلحة البشرية العامة كما يريد الإسلام، ... يريدون المنفعة الشخصية، منفعة الشركة، منفعة المجموعة، منفعة الحزب، منفعة البلد، وليذهب الآخرون إلى الجحيم))[4].

تستحضر الكلمات الحماسية لـ (الواعظ العالمي) ذي المنزلة الكبيرة المُثل العليا الشاملة للأخلاق الإسلامية، ومعها التحذير من المخاطر العالمية التي تتعرض لها اليوم في عالم مترابط بصورة متزايدة، حيث الآخر الذي يُقَدم على أنه (النقيض) هو في الواقع الفعلي (مجاور) و(داخل) بصورة متزايدة. إن مطالعة الكم الهائل من المنشورات التي أنتجت في عشرين سنة ماضية، بالعربية واللغات الغربية، تكشف عن نطاق التحدي بوضوح: يمكن إعادة صياغة أخلاق النظام الديني لجعلها مكونًا أساسًا إلى جانب العقيدة والعبادة، وبالنتيجة مقاومة تهميشها؟ الحل ليس بسيطًا، فمن ناحية هناك إصرار قوي على الحاجة إلى العودة إلى (النصوص التأسيسية) التي يزيد عمرها عن ألف عام، ومن ناحية أخرى هناك الاعتراف بأن السياقات الجديدة تتحدى الكفاءات التقليدية المبنية علي تلك النصوص.[5] إضافة إلى فهم أنه ليس دور المفتي هو ما على المحك فحسب، ولكن أيضًا (إعادة تأسيس) مقاصد الشريعة في الوقت الحاضر.[6] ربما يكون وائل حلاق هو المؤلف الذي أكد تأكيدًا صريحًا الصعوبة البالغة، بل استحالة (الحكم الإسلامي) بالنسبة إلى مسلمي اليوم، ((بما أنهم يعيشون في الحداثة، فهم يعيشون أيضًا مشاريع حديثة))[7].

لذا فإن أهمية الموضوع وإلحاحه يبرران المبادرة التي اتخذها الكاتب للقيام بالعمل المعقد لوصف الجهات الكثيرة التي على الأخلاق الإسلامية اليوم إعادة تحديدها والدفاع عن هويتها. في ما يتعلق بوفرة الإسهامات الخاصة بقطاعات محددة، لا يوجد - على حد علمنا - نص يقدم نظرة شاملة، ويأخذ في الحسبان أيضًا المنظور المقارن.[8] لذلك يمكن عدّ هذه المقالة بمنزلة دراسة تمهيدية للكتاب القادم: على أساس اختيارنا لعدد واضح من الوثائق (أكثر من 600 كتاب وبحث حتى الآن) بالعربية واللغات الغربية، سنقدم أولًا قائمة موجزة ببعض المجالات المتعلقة بموضوعات أساس، ثم سنناقش مسألتين أساسيتين حساستين: الأخلاق الاقتصادية والأخلاق الطبية. وسنختم ببعض الملاحظات المتعلقة بالجانب المقارن والحوار بين الأديان.

---

(4) الاقتباس من الخطاب الذي ألقاه في 9 آذار/ مارس 2013، يوتيوب، من الدقيقة 9.
https://www.youtube.com/watch?v=fHHKfNczozs

(5) لأخذ فكرة عامة انظر: القيم الحضارية في السنة النبوية، في ثلاثة مجلدات، ووقائع المؤتمر الدولي الذي نظمته كلية العلوم الإسلامية، إضافة إلى أعمال مؤلفين آخرين مثل: طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000)؛
T. Ramadan, Radical Reform. Islamic Ethics and Liberation, (Oxford University Press, Oxford 2009).

(6) انظر:
M. Bano (ed.), Modern Islamic Authority and Social Change. I: Evolving Debates in Muslim-Majority Countries; II: Evolving Debates in the West, (Edinburgh: (Edinburgh University Press, 2018).

والمعلومات حول بعض الأبحاث الأساسية الجارية حاليًا:
M. Almarakeby, A. Shaybana, A. Alhaj, M. al-Khatib, Journal of Islamic Ethics 3, (2019), p. 245-256.

إن العدد الكبير من المناظرات التليفزيونية التي يمكن العثور عليها تحت عبارة (الثابت والمتغير في الشريعة) يدل على أن الأمر غير مقتصر على المتخصصين.

(7) W.B. Hallaq, The Impossible State. Islam, Politics, and Modernity's Moral Predicament, (New York: Columbia Univ. Press, 2013).

(8) سيحتوي الكتاب قيد التحضير على ملحق مقارن بقلم فابريزيو ماندريولي Fabrizio Mandreoli المحاضر في كلية اللاهوت في إميليا رومانيا، ومائير بار-آشر Meir Bar-Asher المحاضر في الجامعة العبرية في القدس.

ثالثًا: رسم خريطة مجالات الموضوعات

من أين أتينا؟ المجال الأول الجدير بالاهتمام هو مجال الأعمال التي تعيد بناء (خط الفكر)، أي تطور موضوع الأخلاق في مسار التاريخ.[9] مؤلفون مثل المصري درّاز والباكستاني رهبار روّاد في محاولة استخلاص مدونة أخلاق المسلمين من القرآن مباشرة، بينما يعود الفضل إلى اللبناني ماجد فخري لدفعه خط البحث إلى تجاوز الأبحاث القرآنية والدراسات الأخلاقية الإسلامية الأساسية عند (الماوردي، ابن حزم، الرازي، الغزالي) إلى تلك ذات الطبيعة الفلسفية المتأثرة تأثرًا مباشرًا بالنماذج الهلينستية؛ الكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد، مسكويه.[10] تضم قائمة المؤلفين التي نوقشت أيضًا مفكرًا مسيحيًا صاحب منزلة مثل يحيى بن عدي الذي احتل منزلة مرموقة في مقال حديث لناجي التكريتي، أحد أكثر المؤلفين غزارة في تاريخ الأخلاق.[11] إلى جانب الأعمال الأكثر حداثة باللغة العربية، يمكننا وضع نصين تبسيطيين يحاولان وضع الأخلاق الإسلامية في النسيج الأوسع لحضارات العالم، من الشرق إلى الغرب.[12] من هذه المجموعة الأدبية المتزايدة باستمرار، يمكن الوصول إلى فكرة (تحدي الذاكرة): التركيز على الروابط مع (المصادر) ومع الأنظمة الأخلاقية الأخرى، وهي أداة محتملة للحوار بين الثقافات، وترتبط بالجهود المبذولة لتحديد الأصالة الواضحة للمساهمة الإسلامية.[13]

من تاريخ الأخلاق إلى الأخلاق باعتبارها ممارسة يومية، تبدأ المجموعة الأخيرة من الدروس حول الأخلاق لمحمد علي شوملي، وهو عالم دين شيعي ناشئ، من المقدمات التاريخية والفلسفية للوصول إلى تحليل السلوك الموصى به.[14] يقودنا هذا الإسهام إلى الإشارة إلى مجال آخر يستحق الاستكشاف، الأعمال التي تمثل الدعوة الأخلاقية للإسلام بالطريقة الأكثر تقليدية والأكثر شعبية أيضًا، من خلال الكتابات المكرسة لوصف (في سبيل الغرس) فضائل المسلم. ضرورة نقل النموذج الأخلاقي الذي تركه نبي الإسلام يبرر بدء الأعمال الموسوعية مثل

---

(9) لأخذ ملخص حديث حول الموضوع انظر:

M. Hashhas - M. al-Khatib, "Modern Arab-Islamic Scholarship on Ethics", in: Id., Islamic Ethics and the Trusteeship Paradigm, (Brill: Leiden Boston 2020),

وأيضًا: س. رشوان، "الدرس الأخلاقي للقرآن: قراءة في بعض المقاربات الحديثة، في:

Journal of Islamic Ethics 1, (2017), p158-194.

(10) M. Fakhry, Ethical Theories in Islam, (Brill: Leiden, 1991).

ونشر في الهند بعد عشرين سنة بالعنوان نفسه.

S.M. Hasan Ethical Theories in Islam, (New Delhi: MD Publications, 2010).

ويجب أيضًا ذكر:

Islamic Ethics by Mariam al-'Attār, 2010

A Companion to Muslim Ethics edited by Amyn B. Sayoo.

Fakhry, G. Hourani, Reason and Tradition in Islamic Ethics, (New York: Cambridge University Press, 1985).

(11) ناجي التكريتي، فلسفة الأخلاق عند مفكري الإسلام، (عمّان: د.ن، 2012). وقد خصص كتابًا خاصًا للفلسفة الأخلاقية عند يحيى بن عدي، نشر في عام 2016، بعد أن كان نشر دراسات خاصة تتعلق بالأخلاق عند الرازي والفارابي.

(12) محمد أحمد درويش، الأخلاق: الجينالوجيا – الأديان – الميتافيزيقا، (القاهرة: عالم الكتب، 2014)؛ مصطفى كمال المعاني، مدخل إلى فلسفة الأخلاق، (الأردن/ إربد: عالم الكتب الحديث، 2018).

(13) المساحة المخصصة للبحث بالكاد تسمح بذكر نصوص أساسية لبناء (خط المناقشة)، مثل: أحمد محمود صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، (د.م: د.ن، 1969)، و: أحمد عبد الحليم عطية، الأخلاق في الفكر العربي المعاصر، (د.م: د.ن، 1990).

(14) M.A. Shomali, Lessons on Islamic Morals, (London: Institute of Islamic Studies, 2017).

تلك التي نشرها أحد أهم الناشرين السعوديين في اثني عشر مجلدًا منذ ما يزيد عن عشرين عام بقليل.[15] مصادر هذا العمل مأخوذة من القرآن ومن أقدم مجموعات الحديث، وصنفت بمجلدات بحسب المؤلفين الكلاسيكيين مثل ابن أبي الدنيا (ت. 281/ 884).[16] وهي ما تزال مصدر إلهام لكثير من المؤلفين المعاصرين الذين يكرسون أنفسهم لتقديم الصفات المرغوبة في البشر، وربما تنظيمها في لمحة عامة عن الآداب الإسلامية، ومن ثم يتمكنون الإشارة إلى ارتباطهم الرأسي بالصفات الإلهية (أسماء الله الحسنى).[17] في هذا السياق، فإن الثلاثية التي أنتجت في السنوات الأخيرات من حياة أحد أعظم فقهاء السنة المعاصرين، وهبة الزحيلي، مهمة للغاية، وتثبت (كما لو كانت ثمة حاجة إلى ذلك) الارتباط الوثيق بين علم الكلام والأخلاق والشريعة بخط يضم مؤلفين مثل الباكستاني المودودي والسوري الميداني والقرضاوي نفسه في إسهام حديث جدًا.[18]

نقل الأخلاق إلى الشباب؛ التعليم هو مجال آخر جدير بالدراسة، بسبب التحدي الكبير الذي يواجهه الإسلام اليوم في نقل مدونة قيمه إلى الأجيال الجديدة، وتحدي أهميته التي لم تصل بعد إلى مستوى تعليم العقيدة. لذلك ليس من قبيل المصادفة أن عددًا من المؤلفين الذين يكتبون عن هذا الموضوع يشيرون صراحةً إلى حالة الأزمة: هذا هو الحال مع محمد الفاتح حمدي الذي وصف التوتر بين انتقال القيم في الأسرة وانفتاح الأجيال الجديدة على (الخارج الذي لا يمكن السيطرة عليه)، وبعد ذلك يولي اهتمامًا خاصًا بدور وسائل الإعلام، ولا سيما القنوات الفضائية.[19] في هذا المجال، يمكن توجيه الباحث إلى دراسة التعاليم الأخلاقية التي تقدم من خلال كمية كبيرة من مواد الفيديو المنتجة للتلفزيون والإنترنت التي تجمع عشرات الملايين من المشاهدات. ثمة طريقة أخرى مهمة للاستكشاف هي تحليل الخطاب الأخلاقي في الكتب المدرسية حول الإسلام، (وليتم مقارنتها مع كتب التربية المدنية والتاريخ والأدب)، وهو موضوع مهم للغاية في المناهج المدرسية كما أوضحنا عند مناقشة الكتب المدرسية المستخدمة حاليًا في الأردن.[20]

(15) مجموعة من المؤلفين، موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح (مشرفان)، (جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، 1998).

(16) مثل ما يتضح من الاستخدام المكثف له في:

I. Zilio-Grandi, Le virtù del buon musulmano, (Torino: Einaudi, 2020).

يذكر في هذا السياق ابن المقفع (ت. 759/139)، المحاسبي (ت. 857/243)، الجاحظ (ت. 868/255)، الطبراني (ت. 918/360)، أبو الحسن الماوردي (ت. 1058/450)، ابن حزم الأندلسي (ت. 1064/456)، الراغب الأصفهاني (ت. 1108/422)، ابن الجوزي (ت. 1200/597).

(17) مثال عن النوع الأول، انظر: محمد الغزالي، خُلُق المسلم، (القاهرة: دار الريحان للتراث، 1987/1408)، والذي ما يزال يتمتع بانتشار كبير. والأحدث: أحمد رجب الأسمر، مكارم الأخلاق في الإسلام: نظرية وتطبيقيًا، (عمّان، دار الفرقان، 2008/1428).

فيما يتعلق بالنوع الثاني انظر: خالد الخراز، موسوعة الأخلاق، (الكويت: مكتبة أهل الأثر، 2009/1430).

فيما يتعلق بالنوع الثالث انظر: محمد هويدي، أسماء الله الحسنى وأثرها في الواقع النفسي والاجتماعي، (بيروت: دار البلاغ، 2002/1422).

(18) وهبة الزحيلي، أخلاق المسلم: علاقته بالخالق، أخلاق المسلم: علاقته بالنفس والكون، أخلاق المسلم: علاقته بالمجتمع، (دمشق: دار الفكر، 2002/1423، 2005/1426، 2006/1427).

A. Maudoodi, The Ethical View-Point of Islam, (Lahore: Jama'at-e-islami 1944).

عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأصولها، (دمشق: دار القلم، 1999/1420). و: يوسف القرضاوي، أخلاق الإسلام، (قطر: دار المشرق، 2017).

(19) محمد الفاتح حمدي، أزمة القيم ومشكلات الشباب في زمان البث الفضائي العربي، (عمّان: دار أسامة، 2017). وانظر أيضًا: ي م نهان، التربية وأزمة الأخلاق، (عمّان: دار جليس الزمان، 2013). و: رقية نياز، "حاجة الشباب إلى الثقافة الإسلامية في زمان الانفتاح: من المنظور الدعوي"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع: 95، (2013/1435)، ص 469-507.

وبالإيطالية:

F. Bocca-Aldaqre, Un Corano che cammina. Fondamenti di pensiero educativo, didattica e pedagogia islamica, Studium, (Roma: 2018).

(20) انظر:

I. De Francesco, "Teaching Islam in Times of Emergency: Tradition and/or Innovation? New Jordanian Textbooks as a Major Case Study",

ثورة وردية؛ يمكن أيضًا وضع (سؤال النسوية) في هذه الصورة. يتعرض هذا القطاع لضغط شديد، ليس فقط من خارج من العالم الإسلامي، ولكن أيضًا من الداخل، من قِبَلِ أجيال جديدة من النساء اللواتي يشككن في البنية التقليدية لأدوار الجنسين. الجهد المبذول لتأكيد ما ورد في التراث،[21] والذي يمكن أن يصل إلى تفسير بعض الإبداعات في العادات الأنثوية بأنها مرتبطة بـ (نهاية الزمان)،[22] ويمكن أن تشمل رد فعل محذر من وثائق مثل CEDAW (اتفاقية الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة)[23]، يجب أن تقارن مع تلك التي تنتجها أصوات (النسوية الإسلامية) في اتجاه مختلف. لا تشير صفة (مختلفة) بالضرورة إلى معارضة صدامية، أو حتى سمة (معادية للدين)، لأن عددًا من هؤلاء الكاتبات يهدف إلى استعادة إسلام (نقي) خالٍ من ثغرات تقاليد السلطة الأبوية التي زيّفت رسالة المساواة الأصلية على مر القرون.[24]

واستمرارًا للتفكير في أخلاق العلاقات بين الجنسين، تجدر الإشارة في المقام الأخير إلى مسألة الأخلاق الجنسية؛ إعادة تعريف العلاقة الزوجية الحميمة، التوتر بين (الحق في المتعة) المتبادلة وهدف الإنجاب، هي في مركز القضايا الأساس الجديدة بدءًا من نقل مبدأ عذرية ما قبل الزواج إلى الأجيال الجديدة. التحديات التي يجب مواجهتها فعليًا أوسع بكثير من تلك المتعلقة بالعلاقة مع الجنس الآخر؛ من ناحية ثمة مسألة العلاقات الجنسية المثلية التي تتوتر بسبب المطالبة بالاعتراف بها، وما يزال الإسلام رسميًا يعد هذا الاعتراف مستحيلًا، ومن ناحية أخرى مسألة التحول الجنسي، وهو أمر مرفوض رفضًا أكبر، ما يجعل الحل الناعم لإخفاء الهوية (كما هو الحال بالنسبة إلى المثليين جنسيًا) أمرًا مستحيلًا، ويؤدي إلى الاتهام بهجوم شيطاني على الحق الفريد لله الخالق.[25]

Islamochristiana 43, (2017), 243-263.

من أصل 588 درسًا للدورة، من الصف الأول إلى الأخير، خصص أكثر من مئة للأخلاق (نسبة 3/1 مقارنة بدروس العقيدة)، ومن خلالها يمكن الحصول على خريطة الفضائل الشخصية والسلوك الموصى به المسلمين، وكذلك السلوك المدان، بتفاصيل إرشادية تتماشى مع دعوة الإسلام الشاملة التي تذهب إلى حد تقديم قاعدة لكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية. سجلنا أيضًا خمسة دروس في موضوع البيئة: احترام الحيوانات وحماية المياه والنظام البيئي بصورة عامة والنظافة العامة.

(21) انظر: رحيمة الطيب، "الإنسان: صورة المرأة في السنة الشريفة"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع: 98، (2014/1435) 173-217؛ عدنان حسن باحارث، أسس التربية الإيمانية للفتاة المسلمة، (الرياض: دار المجتمع، 2004/1425).

(22) انظر: علي العمري، "صور المرأة في أحاديث أشراط الساعة"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع: 64، (2006/1427)، ص17-79.

(23) انظر: ج. الرفاعي، خ التوبة، "اتفاقية سيداوا: حقيقتها، أضرارها، وموقف الشريعة منها"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع: 91، (1433/2012)، ص 559-605.

(24) انظر:

Sh. Daqouri, La donna araba tra presenza e assenza. L'harem del XXI secolo, Marietti, (Genova Milano)2008 :.

والأحدث هو نقد كيشا علي:

K. Ali, Sexual Ethics & Islam: Feminist Reflections on Qur'ān, Hadith and Jurisprudence, Oneworld, Oxford 2006.

ولفكرة عامة عن الأدبيات انظر:

F. Seedat, "Islam, Feminism and Islamic Feminism: Between Inadequacy and Inevitability", Journal of Feminist Studies in Religion, 29, (2013), p25-45.

حول ظهور الحركات ذات التوجه الديني والنشاط التربوي للعالم النسائي، انظر أيضًا البحث الأخير (باكستان، سوريا، نيجيريا) في:

M. Bano, Female Islamic Education Movements. The Re-democratisation of Islamic Knowledge, Cambridge University Press, Cambridge 2017. In Italian R. Pepicelli, Femminismo islamico: Corano, diritti, riforme, (Roma: Carocci, 2010).

(25) لعرض عام، بما في ذلك أحدث المصادر والمراجع، انظر:

I. De Francesco, "Giovani, intimità coniugale, omosessualità, transessualità: Le nuove sfide dell'etica sessuale islamica", Rivista di teologia dell'evangelizzazione 24, (2020), p475-492.

رابعًا: أخلاق الثروة

في الكم المتزايد من الإسهامات في رسالة الأخلاق الإسلامية وأدواتها في المجال الاقتصادي، يمثّل المقطع الآتي ملخصًا جيدًا للمعضلة التي يجد عدد من المفكرين المسلمين أنفسهم يناقشونها اليوم:

((يُجادَلُ بشكل عام أن العالم الإسلامي بقيمه الفريدة وثقافته ومعتقداته الدينية قد فشل في تحقيق التقدم والتطور نفسه الذي شهدته الدول الغربية. وعلى ذلك، تطورت في الغرب على مدى سنوات كثيرة رواية مهمة، وكذلك في الدوائر العلمانية بين المسلمين التي اعتبرت الإسلام السبب الجذري للتخلف في العالم الإسلامي)).[26]

في الخلفية الفكرية، دائمًا ما يتم التطرق إلى المواجهة مع رواية العصر الذهبي التي تؤكد تقليديًا أهمية البعد الاقتصادي في حياة الأمة وسيرة أبطالها الأوائل إلى حد أن بعضهم وصف الإسلام بأنه (دين ريادة الأعمال): ((يمكن اعتبار الإسلام نفسه (دين ريادة الأعمال)، بمعنى أنه يمكّن ويشجع نشاط ريادة الأعمال، أي السعي وراء الفرص والمخاطرة والابتكار))[27].

أعاد عبد الحليم الجندي في الجزء التاريخي من كتابه عن الأخلاق الاقتصادية بناء تاريخ البدايات باعتبارها قصة مؤمنين لم يُعِقْهُم إيمانهم على الإطلاق، بل على العكس، منحهم الشجاعة للانخراط بحماس في نشاط رابح، مع الإشارة إلى المرحلة الحاسمة في المدينة المنورة (احترامًا للسرد التقليدي) باعتبارها نقطة تحول تدفع إلى تطوير أنماط جديدة من التعاون الاقتصادي.[28] فإذا كان الزهد المتطلع إلى حال من النقاء قادرًا على تحذير المتدينين من التجارة في السوق، وعلى الرغم من شرعيتها (تشتت القلب) عن الله، فلا يمكن إعادة بناء المجتمعات الإسلامية التي تفشل في تأكيد الدور الحاسم الذي يلعبه التجار في انتشار الإسلام، إلى جانب الجنود والوعاظ.[29]

هذا الموقف الإيجابي للإسلام من السوق، بوصفه جزءًا لا يتجزأ من البعد الأرضي الخاضع لله، يجب أن يُؤخذ اليوم بالحسبان مع تحديات العولمة التي تمثل من الناحية الاقتصادية لدين الهلال تهديدًا وفرصة في الوقت ذاته. فمن ناحية، إن لدى المؤلفين إدراكًا واضحًا لخطر أخبث بكثير من الخطر الذي مثّله الاستعمار، ويمكن تحديده كجسم غريب في بلاد الإسلام من خلال الاحتلال الظاهر بجيوشه وهياكله، في حين إن الهجوم الجديد لليبرالية الجديدة يعمل على تغيير المجتمعات الإسلامية من الداخل، ويعيد تشكيلها بشكل مخادع في ضوء المصالح الخاصة لليبرالية الجديدة. من ناحية أخرى، وتحديدًا بسبب الطبيعة العالمية للتهديد التي لا تعرف حدودًا للثقافة والدين والعرق، فإن الإحساس بأن الإسلام يمكن أن يضع نفسه في صدارة الحلول من أجل التنمية المستدامة وعلى مستوى البشرية، ما زال أيضًا حيًا.[30]

---

(26) Sh. Jan-M. Asutay, A Model for Islamic Development: An Approach in Islamic Moral Economy, (Edward Elgar Publishing, 2019), p62.

(27) Ali A. Gümüsay, "Entrepreneurship from an Islamic Perspective", Journal of Business Ethics, 130, (2015), p203.

(28) عبد الحليم الجندي، الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، (القاهرة: دار المعارف، 2004)، 52ص-54.

(29) انظر مثلًا: أحمد العقيلي، أمة التجارة: دور النُجّار في نشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا، (الرياض: المؤتمن للنشر، 1998)؛ إمام حمّودي وقاسم غنيمات، دور التجار في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا، (الشارقة: دار الخليج، 2017).

(30) لأخذ فكرة عامة انظر:

A. Zaman, "Islamic Economics: A Survey of the Literature", in Islamic Studies 48, (2009), p395-424; A.J. Ali - A. al-Aali, Marketing and Ethics: "What Islamic Ethics Have Contributed and the Challenges Ahead", Journal of Business Ethics, 129, (2015), p833-845; in Italian E. Francesca,

ولذا، فإن نقطة البداية لاهوتية، كما بحث عز الدين بن زغيبة بحثًا جيدًا في دراسته عن مقاصد الشريعة في مجال الاقتصاد، ملكية البضائع تعود لله، والإنسان مؤتمن عليها. وظيفة الخلافة ضمان التوجه الأخلاقي في استخدام الثروة، يمكن للإنسان أن يستخدمها، وأن ينصاع لغريزة التملك التي خلقها الله، ولكن لا يتجاوزها إلى حد الإضرار بالممتلكات نفسها، وبمجتمع الإخوة.[31] وهكذا ففي عدد من الأعمال الإسلام هو المرشح لدور المركز الوسط بين الانحراف الأخلاقي للرأسمالية التي تضحي بالمجتمع على مذبح تعظيم الأرباح الفردية، والماركسية التي تحرم الشخص من غريزة التملك المشروعة التي خلقها الله، وهي بالنتيجة خير.[32]

تبشّر الأخلاق الإسلامية في المقام الأول عالم الاقتصاد المريض بالتغلب على منطق المضاربة البحتة التي تميز العالم المالي بصورة متزايدة على نطاق واسع، مع الانفصال عن الاقتصاد الحقيقي الذي هو أمام عيني الجميع. إن تحريم الشريعة الربا، أي القرض بفائدة، يحمل رسالة جذرية؛ بما أن المال ليس أصلًا في حد ذاته، ولكنه أداة في خدمة الملكية، فمن غير الأخلاقي أن يصبح المرء ثريًا بالمتاجرة بالمال، أو الاستفادة من المال من دون العمل عملًا مباشرًا في حقل أو ورشة عمل أو في موقع بناء. لكي تكون أخلاقيًا، يجب أن تكون الأعمال المصرفية في خدمة المجتمع خدمة حقيقية، لا في خدمة الأسواق، يجب أن توسع القاعدة الاجتماعية التي يمكنها الوصول إلى الملكية، ما يرضي غريزة التملك التي وضعها الله في البشر؛ عليها أن تربط خدماتها باقتصاد حقيقي ذي طابع أخلاقي، وبالنتيجة في إطار ما تصفه الشريعة بالحلال.

بناءً على هذه الافتراضات، عمل التمويل الإسلامي في العقود الأخيرة على إنتاج منتجات مالية بأسماء مختلفة (مشاركة، مضاربة، مرابحة، إجارة، واستصناع)، ولكنها تتميز أساسًا بمبدأ أن مقدّم المال يشارك في مخاطر الشركة، يكسب إن كان ثمة أرباح، ويخسر إن كان ثمة خسارة. كان نجاح هذا البديل من منطق المضاربة (الكلاسيكي) ساحقًا، فبلغ حجم مبيعاته ثلاثة تريليونات دولار أميركي، لكن السؤال الذي يتجادل العلماء حوله هو إلى أي مدى تتوافق المثل العليا لطريقة العمل وتحقيق الربح من قبل المشغلين والأدوات المالية (الإسلامية) مع الواقع، مع آراء يمكن أن تكون قاسية للغاية، مثل الآتي: ((إن مجموع الأدوات القائمة على الديون التي أصبحت محور التمويل الإسلامي، تتعارض مع طبيعة الشريعة في تجنب الديون... وبهذه الطريقة، فإن أساس مبدأ التمويل الشرعي، أي تجنب الديون، ومن ثم تأثير الربا، تمّ تجاهله في التمويل الإسلامي)).[33]

طُرِح سؤال مماثل عن مشكلة تسويق المنتجات التي يشار إليها بوصف (الأسلمة)، وكذلك آثار التشكل في فضائل العمل الإسلامية والعلاقة بين موضوعات نظام الشركات، يمكن للبعد الديني أن يكون إيجابيًا في توجيه

"Denaro e valori", in Divus Thomas 119, (2016), p137-170.

(31) عز الدين بن زغيبة، مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 2001/1422).

(32) انظر الإعلان التقليدي لـ: مناع القطّان، موقف الإسلام من الاشتراكية ونظرية التملك في الإسلام، الرياض، (د.م: دار الثقافة الإسلامية، د.ت). وهي حصيلة محاضرة شهيرة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 22 نوفمبر 1961.

(33) M.A. Choudhury, "The Nature of Business Social Ethics in Mainstream and Islamic Worldview", in: A.J. Ali (ed.), Handbook of Research on Islamic Business Ethics, (Cheltenham: Edward Elgar Pub., 201596 ,); Similarly L. Rethel, "Whose Legitimacy? Islamic Finance and the Global Financial Order", Review of International Political Economy, 18, (2011), 95. Cfr. also M. Khan, "Islamic Banking Practices: Islamic Law and Prohibition of Ribā", Islamic Studies, 50, (2011), p413-422; S. Dreher, "Islamic Capitalism? The Turkish Hizmet Business Community Network in a Global Economy", Journal of Business Ethics, 129, (2015), p823-832.

الاتصالات التجارية والتزام موظفيها، ولكن يمكن اختزالها إلى دعاية من دون مضمون.[34] وضمن الجانب الأخلاقي الاقتصادي يمكننا التساؤل عما إذا كان ثمة حد للقدرة على الربح، أو ما إذا كان الإسلام يسمح بأي مكسب، بشرط أن يوافق عليه الأطراف وعلى أشياء مشروعة: ((الشريعة لا تحدد مدى الربح، بل طريقة الربح))[35]. وفي سياق (أخلاقيات التراكم) أثيرت أيضًا مشكلة الترف، أي البذخ الزائد الذي يتعارض مع الزهد الذي يعني التخلي طوعًا عن الأشياء التي يكون من حق الإنسان امتلاكها. وتشجع دراسة حديثة نشرتها مجلة الشريعة في جامعة الكويت على الاعتدال في هذا الأمر، أكثر من تحديد قاعدة، لأن ((الإسلام دين واقعي لا يهدف إلى حشر الناس في زوايا ضيقة))[36]. أخيرًا، في هذا العرض المختصر لبعض المشكلات الأخلاقية للاقتصاد الإسلامي، فإن الجدل حول مشكلة استخدام المال الحرام، أي الثروة التي يجمعها المسلم من مصادر غير شرعية (على سبيل المثال تجارة المنتجات غير الحلال والمضاربة المالية) في ظروف عولمة الاقتصاد، بما في ذلك عيش المسلمين في الخارج؛ يجعل من شبه المستحيل تجنب التجاوزات.[37]

العرض المختصر المقترح يعيدنا إلى المعضلة التي بدأنا منها. في الأزمة المعممة للنموذج الاقتصادي الغربي والليبرالي الجديد تقدم الأخلاق الاقتصادية الإسلامية مخرجًا جذابًا، مع تحول الاهتمام من دخان ومرايا التمويل إلى الاقتصاد الحقيقي ورسالته الاجتماعية الشاملة. لكن لكي تنجح المُثل الإسلامية، فإن وضعها في التطبيق أمر ضروري وحاسم بدءًا من المناطق الإسلامية:

((تعاني البلدان النامية والأمة الإسلامية على وجه الخصوص مشكلات اقتصادية مثل البطالة والتضخم والتوزيع غير المتكافئ للثروة... ما يمثل تحديات خطرة أمام الاقتصاد الإسلامي الأخلاقي لتقديم حلول معقولة لهذه المشكلات. إذا كان بإمكان الاقتصادي الإسلامي الأخلاقي تقديم حلول لهذه المشكلات، فسيقبله العالم بوصفه نظامًا بديلًا))[38].

يمكن أن تنطبق هذه الاعتبارات أيضًا على موضوع جانبي، ولكنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بموضوع الطريقة الإسلامية للتنمية الاقتصادية المستدامة؛ المشكلة البيئية. بالاطلاع على أعمال شخصيات رائدة مثل سيد حسين نصر، فضلون خالد، وماويل عز الدين،[39] نجد اتهامًا للقوى الاقتصادية والإنتاجية المرتبطة بـ (النموذج

(34) A.J. Ali, "Islamic Work Ethic: a Critical Review", Cross Cultural Management, 15, (2008), p5-19; R. Haniffa-M. Hudaib, "Exploring the Ethical Identity of Islamic Banks via Communication in Annual Reports", Journal of Business Ethics, 76, (2007), p97-116; M.M. Al-Nashmi, "The Relationship Between Islamic Marketing Ethics and Brand Credibility. A Case of Pharmaceutical Industry in Yemen", Journal of Islamic Marketing, 8, (2017), p261-288.

(35) انظر: أشرف محمود عقلة بني كنانة، "اتباع الأثر في حكم تحديد أرباح التجار"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع: 89، (1433/ 2012)، ص314. يرى المؤلف أن الأدلة المؤيدة لوضع حد على قيمة البضاعة للعلامة التجارية ليست ملزمة، وإنما هي إرشاد عام إلى الإنصاف والكرم في التفاوض.

(36) I. Kāẓim al-'Isāwī, "al-Wasaṭiyya fī al-taraffuh wa-l-sa'a fī al-fiqh al-islāmī", Mağalla al-šarī'a wa-l-dirāsāt al-islāmiyya, 78, (1430/2009), p420.

(37) Ab. Belhaj, "Illicit Money in Contemporary Islamic Ethics", in Religions, 9, (2018), p226-235.
عباس أحمد الباز، "الانتفاع بالفوائد الربوية والأموال المشبوهة في الأعمال الخيرية"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، 98، (1435/2014)، ص371-331.

(38) Jan – Asutay, A Model for Islamic Development, p95.

(39) لنظرة عامة موجزة انظر:
D.L. Johnston, "Intra-Muslim Debates on Ecology: Is Shari'a Still Relevant?", Worldviews, 16, (2012), p218-238. For more complete documentation, cfr. R.C. Foltz - F.M. Denny - A. Baharuddin, Islam and Ecology, A Bestowed Trust, (Harvard University Press, Cambridge Mass, 2003).

الغربي) التي فقدت البصيرة لرؤية الصلة بين المخلوقات والخالق، ومن ثم، فهي مسؤولة عن الكارثة البيئية التي لها في التفسير الإسلامي أولًا وقبل كل شيء جذور لاهوتية وأنثروبولوجية، وبالنتيجة أخلاقية، ويمكن تلخيصها في خيانة دور الخليفة الذي كلف الله به آدم ونسله. ولعكس المسار، يقترح المؤلفون المسلمون في المقام الأول استعادة علاقة دينية وتأملية مع الطبيعة، والتثقيف في استخدام أشياء هذا العالم من خلال نظرة تشمل العالم الآخر.[40] بالانتقال إلى الخطة التنفيذية، يحاول هؤلاء المؤلفون استخلاص تلك المؤسسات من القرآن والسنة والمصادر الفقهية (على سبيل المثال: حما، حريم، وقف) التي يمكن تحديثها في سياسات حماية البيئة. ومع ذلك، فإن اللجوء إلى المصادر القديمة لا يمكنه تجنيب الانطباع بأن الخطاب الأخلاقي الإسلامي في هيكله الكلاسيكي مستقطب من قبل البعدين الشخصي والاجتماعي، ومن ثم، أقل انتباهًا للعلاقة بين الإنسان والطبيعة.

يتم الحديث عن المسافة بين هذه الرواسب والسلوك العملي بصورة كبرى ففي المستوى العملي، ما دفع عثمان ليولين، أحد أبرز الشخصيات في علم البيئة الإسلامية، إلى القول:

((إن الممارسات التقليدية المحافظة في البلدان الإسلامية معظمها ترتكز على الشريعة والقانون وأخلاق الإسلام. بالنسبة إلى المجتمعات المسلمة، ثمة فرق كبير بين حماية شيء ما لأن الحكومة تخبرنا بعمل ذلك، وحمايته لأن ذلك واجبنا تجاه رب الكائنات جميعها. ومع ذلك، لسوء الحظ، فإن الممارسات التقليدية المحافظة غير معترف بها رسميًا في البلدان الإسلامية والتشريعات الإسلامية معظمها، ونادرًا ما تطبق التشريعات الإسلامية تطبيقًا فعّالًا أو خلّاقًا. ما يزال الإسهام الذي يجب أن تقدمه الشريعة الإسلامية والأخلاق غير محقق إلى حد كبير)).[41]

خامسًا: مسألة حياة أو موت

تقدم فاطمة حافظ من خلال الانغماس في التاريخ (وهي مسألة موضوعية للغاية في الأوضاع الحالية) مثالًا ملموسًا على نطاق التحدي الذي يضعه تقدم العلوم الطبية على التراث الديني، وعلى وجه الخصوص شخصية المفتي، وهي مسألة التقاطع بين التقوى والأخلاق والقانون.[42] الأمر متروك له – أي المفتي - لتقدير القضايا الجديدة تمامًا التي تتطور بسرعة مذهلة، مسلحًا بالنصوص والمناهج الجدلية منذ أكثر من ألف عام؛ عمل شجاع! لوقف صور الأوبئة التي عصفت بمصر في القرن التاسع عشر، فرضت حكومة محمد علي التباعد الاجتماعي (الحجر الصحي) وأولى حملات التطعيم. وبسبب الطبيعة القسرية لهذه الابتكارات في قطاع الصحة، فإن الإحساس الأخلاقي للناس كان أكبر، وكانت السلطات الدينية منزعجة بصورة خاصة، توجه أكثر انتقاد الورعين إلى حد رؤية أن الخضوع الذليل لعمل الله الخلاق ولقضائه الذي وضعه لكل كائن حي في خطر، إن اللجوء إلى الأساليب الجديدة كان بمنزلة خيانة لإيمان مترنح، وهو نية أفسدتها (الرغبة في الحياة الدنيوية

(40) يتضمن هذا أيضًا موضوع التوازن الجديد في العلاقة مع عالم الحيوان:
S. Tlili, "Animal Ethics in Islam: A Review Article", Religion, 9, (2018), p269-287 (online); I. Zilio-Grandi, "I diritti degli animali nell'islam tra voci contemporanee e fondamenti tradizionali", Quaderni di studi arabi, 14, (2019), p399-414.

(41) S. Faiz, "Llewellyn of Arabia: Eco-Personality – An Interview", EcoIslam, 4, (2008), p6, https://www.ifees.org.uk/news-media/eco-islam/.

(42) فاطمة حافظ، "المفتي والتحديث: التقنيات الطبية وأثرها على مرجعية الشريعة"، Journal of Islamic Ethics 3، (2019)، 152-128.

والخوف من الموت). ردّ المسؤولون الحكوميون على هذه الاعتراضات ذات الطبيعة الأخلاقية المتقنة بقسوة لا تقل عنها، واتهموا المعارضين بأنهم (لا يفهمون شيئًا)، وبأنهم (مثل الحيوانات التي لا تميز بين الخير والشر).

على جبهة (لا) {المعارضة للإجراءات الصحية}، إن إحراج مرجع ديني من عيار محمد عليش (ت. 1882) مسألة مهمة وملموسة في الفتوى الصادرة ضد التطعيم ضد الجدري. بعد أن أثار عاصفة ضد فرض ممارسة قد تكون ضارة (تعريض الطفل للإصابة قصدًا من شأنه أن يضفي الشرعية على قانون الثأر أو الدية في حالة الفشل) من (الأشرار وأعداء الدين) الذين يجب عدم طاعتهم، لكنه اعترف بأنه لم يستطع اقتباس (نص قديم) واحد لصالحه، وطلب المساعدة، مؤكدًا أن الله سيكافئ من ينجح في إيجاده.[43] بلمسة من السخرية، يلاحظ مؤلف الدراسة أن عدم القدرة على إيجاد نص ذو سلطة حجية يُنظر إليه على أنه (معضلة حقيقية وضربة لقوة الفتوى الجدلية). لكن حالة أخرى لم تمنع المفتي من ممارسة اجتهاده بحرية: ((كان أول من أعلن تأييده استخدام التلغراف، على الرغم من غياب أي نص يمكن أن يبني عليه موافقته))[44].

ليس من المبالغة القول إنه منذ ذلك الحين، استمر (النزال) بين (الطب الجديد) والأخلاق الدينية من دون انقطاع. من الواضح أن هذا ينطبق على مجالات توسع الحضارة التكنولوجية جميعها، ولكن المجال الطبي هو بلا شك المجال الأكثر إشكالية، حيث يقع على الحدود بين الحياة والموت، ومن ثم، يلامس قضايا حساسة للغاية مثل حالة الإنسان، والعلاقة بين الروح والجسد، وحرية (التدخل) في امتيازات الخالق. يمكن ملاحظة ذلك بصورة ملموسة في إعادة بناء المناقشة داخل الإسلام حول ما يسمى (مشروع الجينوم البشري) الذي انطلق في بداية الألفية الجديدة على جانبي الأطلسي، من أجل فهم وظيفة مكونات الحمض النووي فهمًا أفضل، ومن ثم، الوصول إلى إنتاج علاجات طبية مبتكرة. يلاحظ محمد غالي[45] في وصف موقف الجهتين السلبية الحذرة والأخرى المتطلعة إلى الحكمة المحتملة مبدئيًا الحيرة النسبية للعلماء الذين يشعرون أنهم لا يستطيعون إتقان المعلومات جميعها التي تأتي من حقول الأبحاث البعيدة كل البعد عن كفاءاتهم التقليدية. ووفقًا للمعارضين، يذهب هذا البحث إلى حد عده اقتحامًا لا داعي له لعمل الخالق الحصري، وهو عمل من أعمال الغطرسة اللاهوتية المماثلة لتلك التي أنتجت القنبلة الذرية. وفي تحديد هذا الموقف، فإن الحكم على التوجه الديني للعلماء مهم أيضًا: ((عدد من نتائج البحث العلمي الحديث لا يتفق مع الشريعة الإسلامية لأن القادة في هذه المجالات لا يسترشدون بالقيم الدينية، ومدفوعون أساسًا بالاهتمام المادي والهوى الشخصي ... غياب الهدي الإلهي كما وصلنا من خلال الكتب المقدسة سيؤدي حتمًا إلى الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم))[46].

وفي المقابل، فإن من يؤيدون البحث الجيني يقلبون الحُجّة، ويرون في عمل العالم انعكاسًا لحكمة الله: ((في مقابل هذه الخلفية اللاهوتية، تتوافق نتائج الثورة العلمية مع عدل الله وحكمته، بمعنى أن أولئك الذين استخدموا ما وهبهم الله، أي الفكر البشري، وعملوا بلا هوادة (الدول الغربية) انتهى بهم الأمر بحصاد نتائج

(43) محمد عليش، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، 2: 167.

(44) حافظ، "المفتي والتحديث"، 134. لم تذكر المؤلفة مصدرها هنا، ولكنه على الأغلب فتوى جواز استخدام معلومات التلغراف المتداولة عند رؤية الهلال للإعلان عن بداية شهر رمضان: انظر: محمد عليش، فتح العلي، 1: 180.

(45) M. Ghali, "Islamic Ethics and Genomics: Mapping the Collective Deliberations of Muslim Religious Scholars and Biomedical Scientists", M. Ghaly (ed.), Islamic Ethics and Genome Question, (Brill, Leiden 201947-79 ,).

(46) المرجع السابق نفسه، ص60. الإشارة هنا إلى الموقف الذي عبّر عنه عجيل النشمي، محاضر في الشريعة بجامعة الكويت.

جيدة، بينما تخلّف عن الركب أولئك الذين لم يرقوا إلى السلوك المثالي في هذا المضمار (الدول الإسلامية))[47].

المنفتحون على الأبحاث الجينية يفعلون ذلك عن طريق منحها مكانًا ضمن مقاصد الشريعة الإسلامية، مع إدراك أنه يمكن استخدامها لحماية النسل والنفس، اثنين من المقاصد الأساسية للشريعة. وتشير إلى ما يعرف باسم (المصلحة المرسلة) التي تشير إلى نوع من ((الفائدة التي لم تذكر أو تنظم صراحة في مصادر التشريع)) وفق مبدأ معترف به في أصول الفقه الإسلامية.

التحدي بين الطب والدين أكبر عند الحد الفاصل بين الحياة والموت؛ مع انتقال فكرة الموت من توقف الجهاز التنفسي القلبي إلى الفكرة الثورية حول (الموت الدماغي)، يجب على العلماء أن يأخذوا في الحسبان أهمية إعادة تحديد مكان حدوث الوفاة وزمانها. وثكق كثيرون الجدل الإسلامي في هذا المضمار، بمن فيهم عمر سلطان حق، مع تحقيق في الجانب الأكثر إثارة للجدل في التطبيق؛ زرع الأعضاء. ما مكان الروح في الجسد، وإلى متى تبقى في جسد من مات؟[48] ولا يقل أهمية عن ذلك المناقشة في شرعية إزالة الأعضاء من جسد شخص ما لجعلها في جسد شخص آخر. يوضح مصطفى سالم استقطاب المواقف[49]: المعارضون يضعون الطبيعة المقدسة للإنسان في المركز التي كرمها الله تكريمًا خاصًا (القرآن 17: 70)، ليعلنوا أنه يمكن الاستفادة من كل شيء، إلا من الجسد البشري، لأنه ليس ملكنا، وإنما هو ملك لله، لذلك لا يمكن لأحد أن يمنح شيئًا لا يملكه. وأما المؤيدون، فيقتبسون من القرآن (2: 173)، للمحافظة على مبدأ (الاضطرار) في حالة الضرورة القصوى، حيث يصبح المحظور جائزًا، وعمليات الزرع تنقذ الأرواح.[50]

إن مشكلة الطبيعة المقدسة للجسد وعدم إتاحته لتعديلات تعسفية تغير خلق الله، تدخل أيضًا بصورة كبيرة في منطقة لا يمكن أن تستدعي (في الحالات معظمها) معيار الضرورة: الجراحة التجميلية. النص الرئيس الذي استند إليه معارضو التقنيات المبتكرة لتعديل المظهر الخارجي هو من سورة النساء {الآية 119}، إذ يرد على لسان إبليس: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، (وأيضًا السورة 30: الآية 30)، هذا أصل التحريم التقليدي للوشم، وقياسًا على ذلك الجراحة التجميلية. ومع ذلك حاول عبد الرحمن حللي إظهار أن ما هو على المحك في الآيات المستخدمة ليس التغيير المادي للجسد بوصفه تحديًا دينيًا، وإنما هو التوحيد الذي كان يستهدفه المشركون. تسمح إعادة بناء السياق التاريخي لتلك الفقرات بالقول، في ما يتعلق بالتطبيق، إن الجراحة التجميلية مسموح بها من حيث المبدأ، إذا لم تُصبغ بآثار الابتداع الديني.[51] ثم هناك ضغوط السوق البينية الإسلامية: مع وجود الأرقام في متناول اليد (زيادة مذهلة في عمليات التجميل في دول الخليج، تنافس الآن مصر ولبنان وإيران)، أظهر بن آري شوش كيف أن الطلب على هذه العمليات حجب

(47) المرجع السابق نفسه، 65. من ممثلي هذا الموقف عبد الستار أبو غدة.

(48) O.S. Haque, "Brain Death and Its Entanglements: A Redefinition of Personhood for Islamic Ethics", The Journal of Religious Ethics, 36, (2008), p13-36.

(49) M. Salem, "The Islamic Legal System vis-à-vis Euthanasia and Organ Transplantation", H.M. Vroom (ed.), Looking Beneath the Surface: Medical Ethics from Islamic and Western Perspectives, (Brill, Leiden 2013), p265-282.

(50) أحد الجوانب الخاصة لهذه المناقشة إمكانية حصول المسلم على عضو تبرع به غير مسلم. انظر:
K. Schipper, M. Ghaly, T.A. Abma, "Receiving a Donor Organ and Muslims in Europe", Vroom, Looking Beneath, p215-226. Can a Muslim pray validly with the kidneys of an unbeliever?

(51) عبد الرحمن حللي، "تغيير الخلق وأحكام التصرف بالبدن: دراسة نقدية في أقوال المفسرين والفقهاء"، Journal of Islamic Ethics 3 ، (2019)، 179-153.

الموقف الرافض حتى لسلطة فكرية من عيار يوسف القرضاوي، في حين إن البحث الذي أجراه على محتويات الفتاوى في الإنترنت يظهر توسعًا في القبول في حالات تصحيح التشوه الجسدي (سواء الخَلْقي أو الذي حدث لاحقًا) لأولئك الذين يهدفون فقط إلى الراحة النفسية ممن يطلبون هذا النوع من الجراحة.[52] يمكن استخدام الحديث الشهير الموثق في المصادر الصحيحة لتبرير ذلك: ((إن الله جميل يحب الجمال)).

لا تسمح المساحة المتاحة هنا بمناقشة الموضوعات الأخرى المهمة - بإيجاز - على خطوط المواجهة بين الحكمة الدينية والعلوم الطبية، على سبيل المثال قبول تقنيات الإخصاب المساعد (التلقيح المغاير – من غير الأب الشرعي- محرّم تمامًا)، والذي يتضمن بالنسبة إلى الإسلام أيضًا تحديد لحظة نفخ الروح في الجنين،[53] التلاعب الجيني لتصحيح عيوب الجنين وإطالة العمر، حيث تدخل أيضًا اعتبارات (أخلاق النهاية)، أي النية المخفية وراء هذه الأنواع من الإجراءات؛[54] القتل الرحيم الذي يستمر الخطاب الإسلامي في رفضه بشدة (استنادًا إلى الحديث في كتب الصحاح عن العقوبة الأخروية للانتحار) بينما يناقش وقف العلاج للمرضى الميؤوس من شفائهم.[55] إلى أي مدى تسمح حكمة الإرث التقليدي للمفتي بمجاراة مستوى ابتكارات من مثل هذه المجالات؟ إن حميد مافاني أحد الأصوات التي تطرح ضرورة إثراء الاجتهاد بالمعرفة والمهارات التي لا يملكها غالبية الفقهاء لمواجهة التحديات الجديدة: ((وهذه بدورها تتطلب نقلة نوعية بعيدًا عن نموذج الاجتهاد التقليدي الذي وصل إلى حدوده، ولا يمكنه تقديم ردود مقنعة تتوافق مع العدالة المتساوية والأخلاق القرآنية))[56].

سادسًا: معرفة الأخلاق الإسلامية لمعرفة الذات وللحوار

إن الكم الهائل من الموضوعات المدرجة بإيجاز شديد في هذا الإسهام، وتعقيدها، يمكن أن يجعلا مشروع تأليف كتاب يقدم نظرة شاملة عن المسائل الأساس في الأخلاق الإسلامية يبدو متهورًا. ومع ذلك، يُحب الإسلام أن يصف نفسه بأنه كلي، وأن الشمولية تتضمن جوانب الحياة جميعها، ما يعطي أهمية استثنائية لمجال السلوك، وفقًا لمثل أعلى يجعل المسلم، كما كُتب مؤخرًا "كائنًا أخلاقيًا"))[57]. ومن ثم، فإن محاولة تقديم رؤية شاملة

(52) B.-A. Shosh, "The Changing Attitude of Islam Toward Cosmetic Procedures and Plastic Surgery", Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, 66, (2013), p147-161; B. Atiyeh, "Aesthetic Surgery and Religion: Islamic Law Perspective", Aesthetic Plastic Surgery, 23, (2008), 1-10.

صالح الفوزان، الجراحة التجميلية: عرض طبي ودراسة فقهية مفصلة، (الرياض: دار التدمرية، 2008/1429).

(53) Sh. Islam, Ethics of Assisted Reproductive Medicine: A Comparative Study of Western Secular and Islamic Bioethics, (London: International Institute of Islamic Thought, 2013), p97-131.

(54) عمارة الناصر، الجينوم والحياة: تمديد الحياة وأثره على المجتمعات الإسلامية، Ghaly, Islamic Ethics ، 330-304.

(55) S. Alsolamy, "Islamic Views on Artificial Nutrition and Hydration in Terminally Ill Patients", Bioethics, 28, (2014), p96-99. For a general overview, cfr. J.E. Brockopp, "The 'Good Death' in Islamic Theology and Law", Id., Islamic Ethics of Life, Abortion, War, and Euthanasia, (Columbia: University of South Carolina, 2003), p177-193.

وحول الموضوع ذاته انظر أيضًا الإعلان المشترك للأديان الإبراهيمية التوحيدية في مسألة نهاية الحياة، الفاتيكان 2019/10/20، وأيضًا: Islamochristiana, 45, (2019), p393-396 for the English original.

(56) H. Mavani, "Two Shi'i Jurisprudential Methodologies to Address Medical and Bioethical Challenges: Traditional Ijtihād and Foundational Ijtihād", The Journal of Religious Ethics, 42, (2014), p279.

(57) Davids-Y. Waghid, Ethical Dimension of Muslim Education, Palgrave Macmillan, London 2016, 1.

للأخلاق الإسلامية تتوافق مع الطبيعة المنهجية لخطابها، وتتوافق معها الأجزاء المختلفة، على الأقل بصورة مثالية.

يثير كل موضوع من الموضوعات المذكورة هنا بصورة شبه تلقائية السؤال: ماذا يقال عنها (في الجانب المسيحي)؟ هذا يثير حافزًا قويًا للمقارنة، ولتتم المقارنة من خلال التركيز على بعض الأسئلة التي حددت، إذا جاز التعبير، مقابل الخلفية اللاهوتية والفلسفية والأنثروبولوجية للأسئلة الأخلاقية الفردية التي قد تكون متغيرة في كثير من الأوقات. على وجه الخصوص أسئلة من نوع العلاقة بين الممارسة الأخلاقية والأنثروبولوجيا/ الثقافات والقوانين (الموحاة)؛ الطرق التي يعاد من خلالها تفسير هذه الثقافات-البيئات في ضوء المصادر التقليدية، والطرق التي تُقرأ بها مصادر التقاليد، ويختارها الفكر المعاصر، ويفسرها. يمكن أن يوفر هذا العمل، بفضل تأثير إعادة الانعكاس بعض أدوات العمل المفيدة للاهوت/الأخلاق المسيحية، وللتفكير الأخلاقي أيضًا من قبل التقاليد الدينية الفردية التي عليها أن تواجه تحديات مماثلة في المواجهة مع التعددية الأخلاقية فائقة الحداثة.[58]

إن التعرف على الآخر مفيد، لا للتعرف على الذات بصورة فضلى فحسب، ولكن لنسج فرص أعمق للحوار أيضًا، كما يتضح من وثيقة أبو ظبي للأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش معًا التي وقع عليها في 4 شباط/ فبراير 2019 البابا فرانسيس والإمام الأكبر للأزهر أحمد الطيب، وما تلاه من الرسالة البابوية (2020/10/3) (كلنا إخوة). (في الأخوة والصداقة الاجتماعية) نص رصين له روابط عميقة بها. إن دور البعد الأخلاقي في بناء الجسور ليس فقط بين الأديان، ولكن أيضًا بين الأديان والمواطنة التي هي ملك للجميع، مؤمن وغير مؤمن، واضح في الوثيقتين كلتيهما.[59]

(58) نقتبس هنا من ملاحظات فابريزيو ماندريولي Fabrizio Mandreoli، محرر الملحق المقارن للعمل قيد الإنجاز.

(59) حول مركزية المصطلحات الأخلاقية لوثيقة أبو ظبي انظر:

I. De Francesco, “Alcune note sul testo arabo del Documento di Abu Dhabi”, in Rivista di teologia dell’evangelizzazione 47 (2020) 79-82.

فيما يتعلق بوثيقة "كلنا أخوة" (All Brothers Fratelli tutti) راجع على سبيل المثال رقم 29، الذي يعلن صرخة الإنذار من "تدهور الأخلاق" من وثيقة أبو ظبي. وأيضا، فيما يتعلق بتطوير موضوع تعزيز الصالح الأخلاقي من الأرقام 113-112. الأمر نفسه ينطبق على فئة المواطنة التي تذكرها "كلنا أخوة" في رقم 131، مع اقتباس نصي من وثيقة أبو ظبي.

المصادروالمراجع

باللغة العربية

1. الأسمر. أحمد رجب، مكارم الأخلاق في الإسلام: نظرية وتطبيقيًا، (عمّان، دار الفرقان، 2008/1428).
2. الجندي. عبد الحليم، الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، (القاهرة: دار المعارف، 2004).
3. الخراز. خالد، موسوعة الأخلاق، (الكويت: مكتبة أهل الأثر، 2009/1430).
4. الزحيلي. وهبة، أخلاق المسلم: علاقته بالخالق، أخلاق المسلم: علاقته بالنفس والكون، أخلاق المسلم: علاقته بالمجتمع، (دمشق: دار الفكر، 2002/1423، 2005/1426، 2006/1427).
5. العقيلي. أحمد، أمة التجارة: دور التُجّار في نشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا، (الرياض: المؤتمن للنشر، 1998).
6. الغزالي. محمد، خُلُق المسلم، (القاهرة: دار الريحان للتراث، 1987/1408).
7. الفوزان. صالح، الجراحة التجميلية: عرض طبي ودراسة فقهية مفصلة، (الرياض: دار التدمرية، 2008/1429).
8. القرضاوي. يوسف، أخلاق الإسلام، (قطر: دار المشرق، 2017).
9. القطّان. مناع، موقف الإسلام من الاشتراكية ونظرية التملك في الإسلام، الرياض، (د.م: دار الثقافة الإسلامية، د.ت).
10. الميداني. عبد الرحمن، الأخلاق الإسلامية وأصولها، (دمشق: دار القلم، 1999/1420).
11. باحارث. عدنان حسن، أسس التربية الإيمانية للفتاة المسلمة، (الرياض: دار المجتمع، 2004/1425).
12. بن زغيبة. عز الدين، مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 2001/1422).
13. حمدي. محمد الفاتح، أزمة القيم ومشكلات الشباب في زمان البث الفضائي العربي، (عمّان: دار أسامة، 2017).
14. حمّودي. إمام، وقاسم غنيمات، دور التجار في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا، (الشارقة: دار الخليج، 2017).

15. درويش. محمد أحمد، الأخلاق: الجينالوجيا – الأديان – الميتافيزيقا، (القاهرة: عالم الكتب، 2014).

16. صبحي. أحمد محمود، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، (د.م: د.ن، 1969).

17. عبد الرحمن. طه، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000).

18. عطية. أحمد عبد الحليم، الأخلاق في الفكر العربي المعاصر، (د.م: د.ن، 1990).

19. عليش. محمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

20. مجموعة من المؤلفين، موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح (مشرفان)، (جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، 1998).

21. نبهان. ي. م، التربية وأزمة الأخلاق، (عمّان: دار جليس الزمان، 2013).

22. هويدي. محمد، أسماء الله الحسنى وأثرها في الواقع النفسي والاجتماعي، (بيروت: دار البلاغ، 2002/1422).

بلغة أجنبية

1. Ali. A.J., (ed.), Handbook of Research on Islamic Business Ethics, (Cheltenham: Edward Elgar Pub., 2015).

2. Bano. M. (ed.), Modern Islamic Authority and Social Change. I: Evolving Debates in Muslim-Majority Countries; II: Evolving Debates in the West,)Edinburgh: (Edinburgh University Press, 2018).

3. Bocca-Aldaqre. F., Un Corano che cammina. Fondamenti di pensiero educativo, didattica e pedagogia islamica, Studium, (Roma: 2018).

4. Daqouri. Sh., La donna araba tra presenza e assenza. L'harem del XXI secolo, Marietti,)Genova Milano: 2008).

5. Fakhry. M., Ethical Theories in Islam, (Brill: Leiden, 1991).

6. Foltz. R.C.& F.M. Denny - A. Baharuddin, Islam and Ecology, A Bestowed Trust, (Harvard University Press, Cambridge Mass, 2003).

7. Hallaq. W.B., The Impossible State. Islam, Politics, and Modernity's Moral Predicament, (New York: Columbia Univ. Press, 2013).

8. Hasan. S.M., Ethical Theories in Islam, (New Delhi: MD Publications, 2010).

9. Hourani. Fakhry, G., Reason and Tradition in Islamic Ethics, (New York: Cambridge University Press, 1985).

10. Id., Islamic Ethics and the Trusteeship Paradigm, (Brill: Leiden Boston 2020).

11. Id., Islamic Ethics of Life, Abortion, War, and Euthanasia, (Columbia: University of South Carolina, 2003).

12. Islam. Sh., Ethics of Assisted Reproductive Medicine: A Comparative Study of Western Secular and Islamic Bioethics, (London: International Institute of Islamic Thought, 2013).

13. Jan-M. Asutay. Sh., A Model for Islamic Development: An Approach in Islamic Moral Economy, (Edward Elgar Publishing, 2019).

14. Maudoodi. A., The Ethical View-Point of Islam, (Lahore: Jama'at-e-islami 1944(.

15. Ramadan. T., Radical Reform. Islamic Ethics and Liberation,)Oxford University Press, Oxford 2009).

16. Shomali. M.A., Lessons on Islamic Morals, (London: Institute of Islamic Studies, 2017).

17. Zilio-Grandi. I., Le virtù del buon musulmano, (Torino: Einaudi, 2020).

واقع الصحافة السورية المستقلة في المرحلة 2000 - 2010

ما بين معضلة شعارات الانفتاح وقمع الحريات

ماريانا الطباع[1]

لم تكتمل تجربة الصحافة المستقلة في سورية في المرحلة ما بين 2000 و2010، وذلك في إبان عملية توريث السلطة والوعود السياسية بتغيير شامل في المستويات كلها، ومنها الحريات، وبالفعل واكبت الصحافة ربيع دمشق والحراك السياسي، وأُصدرت أول جريدة سياسية ساخرة (الدومري) التي نشأت وأُغلقت في ظروف استثنائية، امتدت في إثرها حالة من التأرجح والمد والجزر في هامش الحريات المفروض على الصحافيين/ات المستقلين/ات، ولا توجد أسباب واضحة ومفهومة لتأرجح سياسات السلطة غير المعلنة وغير المفهومة أحيانًا، تجاه الصحافة المستقلة، ولذلك تحاول هذه الورقة أن تختبر فرضيات متعددة حول آلية عمل السلطة وسلوكها، والعوامل التي تؤثر فيها، إما السماح واحتواء بعض الأصوات والتجارب الصحافية، أو التعامل بشكل أمني، ولجوئها إلى المنع أو الرقابة أو القمع في بعض الحالات. وتبحث الورقة في الخطوط الحمر الثابتة والمتغيرة التي امتدت على السنوات العشر، ومن ثم تختبر فرضية تأثير المتغيرات الإقليمية في مناخ الحريات في الداخل السوري وتختبر النزاع داخل النخبة السياسية الحاكمة في سورية ومدى تأثر الصحافة بذلك الصراع الداخلي.

أولًا: المقدمة

اكتسحت موجة من الدمقرطة عددًا من الدول بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في 1991 [2]. وواجهت الأنظمة السياسية الأوتوقراطية تحديات للمحافظة على استمراريتها وتثبيت حكمها بالوسائل الممكنة كلها، فلجأ عدد إلى استراتيجيات جديدة للبقاء في الحكم، منها إقامة مؤسسات تمثيلية كمجلس الشعب ذات انتخابات شكلية، أو الادعاء بوجود إعلام حر ومستقل مع تحكم ورقابة، واستراتيجيات أخرى تقليدية تتمثل في كتم الأصوات المعارضة من جهة أو احتوائها وضمها إلى المنظومة الحاكمة من جهة أخرى.

يتحدث وينتروب عن ما سماه (معضلة الدكتاتور)، حيث ليس لدى للطغاة القدرة على معرفة حقيقة ولاء رعاياهم، هل هم خصوم السلطة أم حلفاء لها؟ ومن ثم يواجه الدكتاتور تهديدًا مستمرًا بالتمرد الشعبي أو الثورة ضد حكمه. إذ يخمد محاولات إطاحته من قبل جزء من السكان المناهضين له، بينما يرعى آخرين من خلال

(1) باحثة مستقلة حاصلة على شهادة الماجستير في الاقتصاد السياسي والسياسة المقارنة من جامعة نيويورك، الولايات المتحدة. متخصصة في الأبحاث المتعلقة في السياسات العامة في الأنظمة الدكتاتورية، والمشاركة السياسية، وتحليل النزاعات.

(2) Samuel P. Huntington, The third wave: democratization in the late twentieth century, (Norman: University of Oklahoma Press, 1991).

تقديم المنح والعطايا لكسب ولائهم وطاعتهم وضمانهما.[3] وتتوسع غاندي في شكل الهبات وآلية منحها في الدولة المعاصرة، ترى أن الحكام يخلقون مؤسسات تدعي أنها ديمقراطية، على سبيل المثال، هيئات تشريعية شكلية تُدمج من خلالها الجهات المعارضة عبر ترخيص أحزابها أو تشكيلها حركات سياسية تدور في فلك السلطة وتقدم السلطة تنازلات هنا وهناك في سياساتها العامة.[4]

ونظرًا إلى تعقيد الإدارة الحكومية ضمن شكل الدولة الحديثة، ولأن الدكتاتوريات غير آمنة بطبيعتها،[5] فلا يستطيع الدكتاتور الحكم بمفرده، وهو بحاجة إلى مجموعة من الأفراد تدعمه وتحكم معه، وتكون مخلصة لاستمرار حكمه وتحصل على غنائم تحقق رفاهًا اقتصاديًا لهذه المجموعة تعويضًا لهذا الدعم والتفاني،[6] وهي ما اصطُلح عليه بالنخبة الحاكمة، ليس لها شكل محدد أو عدد محدد ولكن استطاع علماء السياسة تصنيف هذه النخبة عند مراجعة أنظمة الحكم الأوتوقراطية عبر التاريخ، فتأخذ النخبة شكل مجلس ضباط رفيعي المستوى في الدكتاتوريات العسكرية، يقود المجلس أو (خونتا) الحكومة وشؤون البلاد مثل الدكتاتوريات العسكرية في أميركا الجنوبية في السبعينيات.[7] بينما في دكتاتوريات الحزب الحاكم الواحد، فتأخذ النخبة شكل الهيئة القطرية أو اللجنة التنفيذية للحزب الحاكم كما في الاتحاد السوفييتي سابقًا، أما في الدكتاتوريات الشخصية فهي مجموعة محددة من المقربين جدًا إلى السلطة ودورهم ليس محوريًا بسبب قوة الدكتاتور وطغيانه، مثل نظام صدام حسين، وقد تكون مزيجًا هجينا من الأنواع السابقة.[8]

ولاستكشاف آلية صنع القرار لدى السلطة الحاكمة في سورية – وهي سلطة تنتمي إلى النمط الثيوقراطي – ذهبت (غيديز) في دراساتها المتخصصة بتصنيف أنواع الأنظمة الثيوقراطية وتبويبها[9] إلى وضع نظام الحكم في سورية ضمن الأنظمة (الهجينة)، لأنه يحتوي على سمات من دكتاتورية عسكرية متمثلة في سيطرة الجيش والأجهزة الأمنية، وبقايا حزب البعث حزبًا قائد للدولة والمجتمع، وتوزع سيطرة الأسرة الحاكمة وأفرادها على الاقتصاد والجيش والتمثيل السياسي[10].

في بداية عام 2000 عند انتقال السلطة من الأسد الأب إلى الابن، عقد عدد من السوريين/ات الآمال على الحكم الجديد، والرغبة في إنهاء عقود من السيطرة السياسية والأمنية على الفضاء العام. وبالفعل، أُرسلت إشارات عدة تمثلت إحداها في خطاب القسم الأول لبشار الأسد حين تحدث عن موضوع الديمقراطية وأننا

(3) R. Wintrobe, The Dictator's Dilemma. In The Political Economy of Dictatorship, (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), pp. 20-40.

(4) J. Gandhi, Political institutions under dictatorship, (Cambridge University Press, 2008).

(5) D. Acemoglu, & Robinson, J. Economic Origins of Dictatorship and Democracy, (Cambridge: Cambridge University Press 2005).

(6) M. B. Bueno, The logic of political survival, (Cambridge, Mass: MIT Press 2003).

(7) حكومة عسكرية، استولت على السلطة في بلد ما بالقوة وليس بالانتخاب. للمزيد الاطلاع على
https://dictionary.cambridge.org/us/dictionary/english/junta

(8) Wright, J. B. Geddes, & Frantz, E., Autocratic Breakdown and Regime Transitions: A New Data Set, (Perspectives on Politics, (2014).

(9) للمزيد الاطلاع على مشروع The Authoritarian Regimes Data Set
https://sites.psu.edu/dictators/

(10) حنا بطاطو، فلاحو سوريا فلاحو سورية أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنا وسياساتهم، (د.م: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014).

بحاجة إلى ((تجربتنا الديمقراطية الخاصة بنا))،[11] وأرسلت إشارة أخرى تتمثل في سماح السلطة لجريدة (الدومري) السياسية المستقلة بالنشر، وتجاوز حواجز الرقابة من دون وجود غطاء تشريعي بعد،[12] إذ أُصدر لاحقًا قانون المطبوعات رقم 50 بعد نحو خمسة أشهر. وبالفعل بدأت مجموعة من الناشطين والناشطات السياسيين والسياسيات بعقد تجمعات علنية لمناقشة الإصلاح السياسي في سورية، ومناقشة سلطة حزب البعث على المجتمع السوري مشكلين (ربيع دمشق)، لكن بعد نحو عشرة أشهر طالت كثيرين منهم موجة من الاعتقالات،[13] إضافة إلى منع جريدة الدومري من الإصدار والنشر.[14] بعد حالة الانفراج ثم التضييق في حرية الرأي والتعبير، عادت السلطة وأفسحت المجال مجددًا للصحافة الخاصة في سورية لتغطية الموضوعات السياسية ضمن مجالات محددة، وبعد سنوات لم يعد المجال متاحًا للصحافيين/ات المستقلين/ات للكتابة عنها.

صعوبة الوصول إلى المناقشات السياسية ضمن الدوائر الحاكمة وآلية صنع القرار الغامضة في سورية تجعل الافتراض أن استراتيجية السماح بترخيص وسائل الإعلام -لا سيما بعد توريث الحكم في عام 2000 - وفتح مساحة للحريات وحق التعبير عن الرأي، إحدى الوسائل التي انتهجتها السلطة لمواكبة تطورات الألفية الجديدة، ولكنها سرعان ما غيرت رأيها، وحدّت منها، ومن ثم تأرجحت بين فتح المجال مرة أخرى ثم الانقباض. هذه الورقة هي دراسة استكشافية لفهم أسباب هذا التأرجح والتغيير، والعوامل التي كانت جوهرية في تغيير سياسات السلطة في منح حرية الصحافة أو الحد منها، وتتناول الدراسة ثلاث فرضيات اختُبِرن لفهم ما كان يحدث في تلك المرحلة الزمنية 2000 - 2010.

ويجدر بالذكر أن الدراسة لم تتناول أدبيات العلوم السياسية، وبخاصة في دراسة سلوكات الأنظمة الأوتوقراطية موضوع الصحافة الخاصة أو الصحافة المستقلة في الدكتاتوريات عند المقارنة، مع تركيز هذه الأدبيات على دراسة الانتخابات والتنازلات التي تقدمها السلطة في هذا الشأن، فكان من المهم فهم ظاهرة تأرجح السلطة في منح حرية الرأي والتعبير والحد منها، وكيف لعب ذلك دوره في ترسيخ أركان الحكم الجديد.

ثانيًا: المنهجية

اعتمدت هذه الورقة على مراجعة الدراسات المتعلقة بوضع الإعلام والصحافة في سورية، والتقارير الإعلامية والحقوقية في المرحلة من 2000 إلى 2010، إضافة إلى تحليل نتائج خمس عشرة مقابلة عُقدت افتراضيًا مع صحافيين/ات ومالكي وسائل إعلامية مستقلة ومدونين وباحثين موجودين حاليًا داخل سورية وخارجها، واتخذت شكل مقابلة مفتوحة خلال شهري آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر 2022.

(11) تلفزيون سوريا، " كلمة السيد الرئيس بشار الأسد أمام مجلس الشعب بعد أدائه القسم رئيسًا للجمهورية، يوتيوب، (17 07 2000).
https://youtu.be/dsNwHs9B6RI?t=34

(12) ماريانا طباع، مقابلة مع موريس عايق صحفي مستقل عبر الواتساب، (نيويورك، 13 تموز/ يوليو 2022).

(13) د.م، "العقد الضائع، حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد"، هيومن رايتس ووتش، 2010). https://www.hrw.org/ar/report/2010/07/16/256102#_ftn25

(14) قناة الجزيرة، "خارج النص| صحيفة الدومري .. تجربة رائدة أعدمها الأسد"، يوتيوب.
https://youtu.be/p_2ZER9Qe7Q

عقدت هذه المقابلات وفق آلية كرة الثلج من حيث الوصول إلى الصحافيين/ات والخبراء، واختير الأشخاص من الذين عملوا في صحف رسمية وصحف خاصة، وصحف حزبية وصحف بالإنكليزية وممن عملوا في الإذاعة والتلفزيون، ومن عملوا وكتبوا في صحف لبنانية. وكان عدد منهم قد تعرضت صحفه للمنع أو السحب من الأسواق، أو تعرضوا بشكل شخصي لمحادثات أمنية واعتقالات متكررة للبعض.

طُرحت مجموعة من الأسئلة المفتوحة والأسئلة حول أسباب تأرجح سلوك السلطة في ما يتعلق بهامش الحريات. وتمحورت الأسئلة حول الممارسات الفعلية وأمثلة وتجارب شخصية. لم تتعمق الدراسة في فرضية محددة وتختبرها بشكل متكامل، بل كانت ذات طابع استكشافي. رُصد التفاعل وردات الأفعال وأعطيت مساحة لنقاش الآراء المختلفة والقضايا الرئيسية مع الدخول في تفاصيل الفرضيات المطروحة الثلاث: الأولى: الخط الأحمر للصحافة هو شخص الرئيس، الفرضية الثانية: انعكاس المتغيرات الإقليمية على الصحافة المستقلة في الداخل، الثالثة: النزاع داخل النخبة الحاكمة -وأُشير إليه بين الحرس القديم والجديد- الذي خلق مساحة للصحافيين المستقلين للعمل الصحافي الجاد. وواجهت الدراسة صعوبة في وجود مراجع ودراسات سابقة عن تلك المرحلة وهذا الموضوع ومن تلك الزاوية، ومن ثم اتخذت الدراسة الطابع الاستكشافي. وواجهت صعوبة في الحصول على الموافقات لعقد اللقاءات والمقابلات من المعنيين.

ثالثًا: المشهد الصحافي السوري المستقل

عند وصف المشهد الصحافي السوري المستقل بعد 2000، قد يبدو لأول وهلة وجود مشهد لوسائل صحافية عدة، وتجارب في تغطية الموضوعات، واستقلالية في العمل الصحافي، لكن في الحقيقة، لم تكتمل التجربة المستقلة، بل كانت أقرب إلى كونها وسائل صحافية ذات ملكية خاصة منها إلى حالة من الصحافة المستقلة. فلم تتناول تلك الوسائل موضوعات ذات بعد سياسي بشكل حرّ ومتسق ومنتظم، بل عملت ضمن المتاح لها، بما في ذلك الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت ضمن أطر تحددها توجهات السلطة، إضافة إلى تغطية الموقف الحكومي الرسمي. فكثيرون من الكتاب والصحافيين يكتبون في صحف لبنانية كالحياة والسفير والنهار مقالات رأي سياسية، بينما لا يستطيعون نشرها ضمن مجلاتهم أو جرائدهم في داخل سورية.

التعبير الأدق للمشهد الصحافي المستقل في تلك المرحلة هو وجود مجموعة من الصحافيين والصحافيات الناشئين/ات والمخضرمين/ات، ممن خاضوا تجارب العمل الصحافي المستقل إما في إدارة التحرير أو في تغطيات استقصائية أو تحقيقات أو تقارير...الخ. ضمن تجارب فريدة عدة، منها على سبيل المثال لا الحصر، جريدة الدومري (آذار/ مارس -2000 تموز/ يوليو 2003).[15] كذلك الأمر، حاول رؤساء تحرير في عدد من الوسائل الخاصة العمل الصحافي الجاد، إلا أنهم عُزلوا أو نقلوا أو وقعوا تحت ضغوطات الاستقالة.[16]

وأضافت التجارب المستقلة في تلك المرحلة تطويرات عدة، منها في مستوى اللغة المكتوبة، والدقة والموضوعية، وتنوع المصادر، والاعتماد على الوثائق والإحصاءات، والأسلوب الصحافي المتمثل في التحقيقات أو المقالة

(15) قناة الجزيرة، "خارج النص | صحيفة الدومري .. تجربة رائدة أعدمها الأسد"، يوتيوب، 5.00

(16) ماريانا الطباع، مقابلة مع وائل سواح باحث وكاتب، عبر الاتصال الهاتفي، (نيويورك: 15 أيلول/ سبتمبر، 2022).

الاستقصائية المحترفة. وعند محاولة هذه التجارب الجادة لعب دور السلطة الرابعة، واجهتها مؤسسات الرقابة في وزارة الإعلام أو عبر المراكز الأمنية، بالمنع، أو عدم التوزيع، أو سحب الأعداد والإغلاق، والاستدعاءات الأمنية، وفي حالات عدة الاعتقال والسجن.

رابعًا: التحول السياسي والاقتصادي

انتقلت السلطة السياسية إلى بشار الأسد في عام 2000، وتبع ذلك وعود عن تهيئة المناخ العام لمرحلة جديدة، ورغبة في الانفتاح الاقتصادي، الأمر المرتبط بسياسات الخصخصة ومنح القطاع الخاص حيزًا في الفضاء العام، خروج الصحافة والإعلام من احتكار مؤسسات الدولة، وامتداد هذا النهج الانفتاحي. وهذا الانتقال يصب في مصلحة شعار (التطوير والتحديث) المعلن عنه في تلك المدة، وللمفارقة لم ترفع حالة الطوارئ المفروضة على البلاد منذ 1962 طوال عشر سنوات.

صدر قانون المطبوعات 50 لعام[17] 2001، ونظمت فيه الدولة العمل الإعلامي والصحافي الخاص. وعند مراجعة القانون تبدو فيه القيود والرقابة على الصحافيين/ات السمة الأبرز، إضافة إلى إعطاء دور كبير لوزارة الإعلام ونقابة الصحافيين في تقييد عمل الصحافيين والصحافيات، واحتكار مؤسسات الدولة للطباعة، وتوزيع المطبوعات. فعلى سبيل المثال، تجرِّم المادة 51 (أ) في قانون المطبوعات لعام 2001 الصحافي أو الصحافية عند نقلهم لما وصفه القانون بـ(الأخبار غير الصحيحة) ونشرهم (أوراق مختلقة أو مزورة)، من دون توضيح القانون المفردات المبهمة والقابلة للتأويل بسهولة.[18] ويعتقل الصحافي أو الصحافية ويسجن لمخالفته مواد القانون، ضمن محكمة الجنايات من دون إدراجهم ضمن محكمة أمن الدولة أو اعتبار الموضوع قضية سياسية.[19]

في السنوات الأولى من إصدار القانون مُنحت تراخيص محدودة لجرائد يومية مثل جريدة الوطن، وجريدة بلدنا، ومنح ترخيص مجموعة من المطبوعات الأسبوعية والشهرية المتنوعة؛ اقتصادية، طبية...إلخ. وكانت التراخيص في تلك المدة تمنح لأشخاص مقربين من السلطة أو ضمن توازنات معينة. بعد 2003 منحت تراخيص لعدد أكبر من المطبوعات، إلا أنه ما يثير الانتباه هو نشأة مجلة (الاقتصادية) وجريدة (الدومري) الساخرة، وكانت تربط مالك الأخيرة -علي فرزات- علاقة شخصية مع بشار الأسد. صدرت الاقتصادي والدومري قبل صدور قانون المطبوعات رقم 50، من خلال تغطية سياسية، وفي حال (الدومري) أعطيت موافقة شفهية من رئيس الدولة لعلي فرزات لإصدارها، وأُغلقت استثنائيًا كما نشأت عند تجاوزها الخطوط الحمر آنذاك.[20]

(17) الجمهورية العربية السورية، قانون المطبوعات، تنظيم عمل المطابع والمكتبات ودور النشر وأصول منح التراخيص للدوريات وإجراءاتها، المرسوم التشريعي رقم (50). المجلس التشريعي الفلسطيني، (2001).
https://www.plc.gov.ps/menu_plc/arab/files/%C2%BDf%C2%ACn%C6%92/t%C6%92dfd%20%C6%92TO%C3%9F%C3%A1f-p%C6%92%C3%B3.htm

(18) د.م، "حالة الإعلام وحرية التعبير: سوريا 2007 . عام من الرقابة الحديدية"، (د.م: المركز السوري للإعلام وحرية التعبير، 2007). https://tinyurl.com/4ucarpaz

(19) ماريانا طباع، مقابلة مع راما نجمة باحثة وصحافية مستقلة عبر اتصال عبر زووم، (نيويورك، 2 أيلول 2022.)
قناة الجزيرة، المقابلة: مسيرة نظام البعث السوري من حافظ الأسد للثورة على بشار مع عبدالحليم خدام (2)، (2017).

(20) مقابلة مع صحافي سوري يفضل عدم ذكر اسمه.
R. Najmeh, La presse et la jeunesse en Syrie: la sortie du silence...mais pas encore le droit à la parole. Revue des mondes musulmans et de la

وسمح للأحزاب -ضمن الجبهة الوطنية التقدمية- بإصدار مطبوعات وجرائد، مثل (صحيفة النور) التابعة للحزب الشيوعي- جناح يوسف فيصل، وجريدة قاسيون التابعة للجنة الوطنية لوحدة الشيوعيين السوريين - قدري جميل. ولم تركز صحافة الأحزاب في تغطيتها على الموضوعات السياسية من ناحية تداول السلطة، بل ركزت على المقاربة السياسية للموضوعات الاقتصادية والمعيشية. وتميزت تجارب صحافة الأحزاب بنيل هامش أعلى نسبيًا من الحريات، عند مقارنتها بالصحافة المستقلة لأسباب عدة منها: حساسية رؤساء تحريرها من المناخ العام السياسي، وقدرتهم على فهم الإشارات ومزاج السلطة بسبب موقعهم الحزبي. ثم إن محدودية انتشارها ونقاط توزيعها مقارنة بنظيراتها الرسمية والخاصة إضافة إلى أن جمهورها معروف وخطها الأيديولوجي واضح، جعل انتشارها وتأثيرها في الرأي العام السوري محدودًا.

بينما كانت تجربة الصحافة السورية الخاصة باللغة الإنكليزية مختلفة أيضًا، فتمتعت بهامش حريات أوسع قليلًا من نظيرتها العربية، نظرًا إلى استهدفها جمهورًا متمثلًا في السفارات والبعثات الأجنبية، وليس المواطنين والمواطنات السوريين. ومع أنها تناولت موضوعات حساسة مثل تغطيتها في عدد كامل مشكلة التصحر 2007 وآثارها، إلا أن تأثيرها في الرأي العام السوري كان محدودًا بسبب حاجز اللغة الإنكليزية.[21]

ضمن أي وسيلة صحافية سواء كانت تصدر باللغة الإنكليزية أم تابعة لحزب ما أو ورقية أو كانت موقعًا ألكترونيًا، كان على الصحافي والصحافية المستقلين، أن يتسما بالحذق والحذر المستمر، والحساسية العالية للأجواء العامة وسلوك السلطة، أو النشر بأسماء مستعارة إن لزم الأمر، وكثيرون كانوا يختارون الموضوعات بأنفسهم ضمن محاولات توسيع هامش الحرية، ويتحملون تبعات النتائج، ما يعطي إشارات للصحافيين الآخرين بالحدود الجديدة والخطوط الحمر المحدثة.[22]

خامسًا: تأرجح هامش الحريات

لم يعد قلم الصحافي الذي كان يكتب موضوعًا في 2001 يستطع الكتابة عنه مرة أخرى في 2004، والتحقيق الذي أنجزته صحافية استقصائية في 2005، أصبح نشره في غاية الصعوبة في 2009.[23] خلال العشر سنوات التي مرت على سورية، وتوالي الأزمات الداخلية والخارجية التي هددت النظام السوري في أثنائها، تأثر هامش

Méditerranée, (2006). 115-116. https://journals.openedition.org/remmm/3017

قناة الجزيرة، المقابلة: مسيرة نظام البعث السوري من حافظ الأسد للثورة على بشار مع عبدالحليم خدام (2)، (2017).

(21) ماريانا الطباع، مقابلة مع كندة قنبر مديرة تحرير Syria Today. اتصال عبر زووم، (نيويورك، 10 أيلول 2022).
ومقابلة مع صحافي سوري يفضل عدم ذكر اسمه.

(22) ماريانا الطباع، مقابلة مع شعبان عبود صحافي ومراسل جريدة النهار. اتصال عبر الهاتف، (نيويورك، 2 أيلول 2022).
فاروق حجي مصطفى، صحفي وكاتب في المستقبل
ماريانا الطباع، مقابلة مع فاروق حجي مصطفى صحافي وكاتب في المستقبل عبر الفيسبوك، (نيويورك: 3 أيلول 2022).
مقابلة مع صحافي سوري يفضل عدم ذكر اسمه.

(23) R. Najmeh, La presse et la jeunesse en Syrie: la sortie du silence...mais pas encore le droit à la parole. Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée.

حرية الصحافيين المستقلين بصورة مباشرة أو غير مباشرة.[24] إلا أن فهم تأثير هذه الأزمات من تشديد القبضة أو انفراجها على عمل الصحافيين ما زال غير واضح وبحاجة إلى دراسة أعمق.

ولكن باستعراض سريع، نجد أن السلطة الحاكمة تتعامل وفق استراتيجيتين عند وجود خطر داخلي يمسها، الأولى تستقطب الأقلام الناقدة للسلطة، وتمنحهم عطاءات متمثلة في توسيع هامش الحريات أو مناصب عامة أو ترخيص وسيلة صحافية. وتقوم الاستراتيجية الثانية على التعامل معهم أمنيًا، من خلال الاستدعاءات والتخويف والترهيب، أو بدرجة أعنف من خلال الاعتقالات والتعذيب و السجن.[25] وذلك يتوافق مع ما أكده علماء السياسة في تفسير سلوك الأنظمة الأوتوقراطية بين اختيار القمع أو الاحتواء ومنح العطايا.[26] حيث يرى سلوفيك أن الدكتاتور عندما يواجه تهديدًا لسلطته يتجلى في معارضة جماهيرية ومنظمة وربما عنيفة، فإنه يعتمد -في معظم الأحيان- على جيشه لقمعه وهو خيار مكلف ماليًا،[27] والخيار الثاني كما عبر عنه بونو وسميث، عن طريق زيادة توفير السلع العامة مثل السماح بالتجمعات السلمية، والشفافية، وحرية التعبير ... إلخ، أو قد يكون شكلًا آخر، عن طريق تقديم تنازلات للأصوات المعارضة من خلال تعيينات جديدة أو إسقاط حكومة أو انتخابات مبكرة على سبيل المثال. يعتمد النجاح على قدرات الحكومة المالية، ومدى كفاءة قادتها على الوصول إلى الموارد متمثلة في المساعدات الخارجية أو الموارد الطبيعية، وهكذا، يغدو الدكتاتور أفضل تجهيزًا للنجاة من التهديدات.[28]

في سورية، تظهر الاستراتيجية الأولى -بصورة جلية- في عقب عملية التوريث واستلام الأسد الابن مقاليد الحكم. منحت السلطة الجديدة مساحة للحوار السياسي، فكانت فترة ربيع دمشق التي تعددت فيها المنتديات والصالونات السياسية في إثر خطاب القسم في تموز/ يوليو 2000، وسُمح للسوريين والسوريات بالمناقشة السياسية والتجمعات بعد منع متطرف لسنوات عدة، إلا أن ربيع دمشق تجاوز توقعات السلطة، في المطالبات والرغبة في تحقيق تغيير حقيقي في جسد الدولة السورية، وبخاصة في تركيزه على انتقاد حزب البعث، وسيطرته على المؤسسات العامة والمدارس، والمطالبة بانتخابات ديمقراطية وتداول السلطة كمطلب أولي وأساسي.[29] هذا الانفراج في الجو العام انعكس على الصحافيين في تناول موضوعات سياسية إلى حد ما تعكس الحالة السياسية الفريدة التي عاشتها في سورية. فوُسع هامش الحريات وتناولوا موضوعات ذات طابع سياسي وتحليلات لم يكن بالإمكان في السنوات اللاحقة الكتابة بمستواها.

تدخلت الاستراتيجية الثانية - القبضة الأمنية في شباط/ فبراير 2001، وتمثلت في حملة تشويه إعلامي

(24) D. Isaacs, "Hoping for media freedom in Syria", BBC NEWS, (2005). http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/4381739.stm

(25) CPJ, أسوأ عشرة بلدان للمدونين، (2009). https://cpj.org/ar/2009/04/post-17/ د.م، العقد الضائع...

(26) M. B. Bueno & A. Smith, The dictator's handbook: Why bad behavior is almost always good politics, (New York: Public Affairs, 2011).

(27) Svolik, M. Introduction: In The Politics of Authoritarian Rule. Cambridge Studies in Comparative Politics, (Cambridge: Cambridge University Press, 2012).

(28) M. B. Bueno & A. Smith, The dictator's handbook: Why bad behavior is almost always good politics.

(29) د.م، "ربيع دمشق"، مركز مالكوم كير- كارينغي للشرق الأوسط، (د.ت). https://carnegie-mec.org/syriaincrisis/?fa=48518

واعتقالات وتهديدات طالت سياسيين بارزين، شاركوا في ربيع دمشق. كانت هذه رسالة غير مباشرة إلى الصحافة، ومفادها أن الموازين تغيرت ولا يمكن الاستمرار في المطالبة السياسية بالتغيير بهذه الطريقة. وعبر عنها الناطق الإعلامي باسم مجلس الوزراء أن تشريعات الصحافة المفروضة في 2001 أعيد تقييمها.[30]

لم يكن غزو العراق في آذار/ مارس 2003 حدثًا عرضيًا على سورية، نظرًا إلى القرب الجغرافي وتهديدات وزير الخارجية الأميركي رامسفيلد آنذاك بأن سورية ستكون المحطة التالية بعد العراق[31] فطرأ تهديد مباشر وجدي وأثر ذلك في السلطة وانعكس على الحريات مرة جديدة[32].

تجلت تداعيات اغتيال الحريري في شباط/ فبراير 2005، وخروج الجيش السوري من لبنان في استنفار أمني وسياسي داخل سورية. وحشدت السلطة الصحف الرسمية وغير الرسمية والمجلات غير السياسية والإذاعات والوسائط الأخرى، لمواجهة الحملة الإعلامية والضغوطات حول مسؤولية سورية عن الحادثة. وسُمح مجددًا بتناول الموضوعات السياسية ومن ثم استطاع الصحافيون توسيع هامش الحريات مرة أخرى.[33]دخلت سورية في تلك الفترة عزلة دولية، وتأثر هامش الحريات مرة أخرى، في التشديد على بعض الموضوعات، وبخاصة الخصخصة وتناول أسماء معروفة ومقربة من النخبة الحاكمة. وكان من الممكن جس نبض حساسية السلطة من خلال الدعوة إلى الانتخابات الرئاسية في 2007، وإجبار عدد من الموظفين الحكوميين وغير الحكوميين وتهديدهم بالفصل في حال عدم الذهاب والمشاركة في الانتخابات الرئاسية.[34]

استمرت العزلة إلى 2008، حين دعا الرئيس الفرنسي ساركوزي بشار الأسد وعقيلته لزيارة فرنسا، ضمن قمة إطلاق الاتحاد من أجل المتوسط، وإنهاء فعلي للمقاطعة. دخلت سورية بعد تموز/ يوليو 2008 حالة من الرخاء التدريجي مرة أخرى، إلا أن هامش الحريات لم يعد واسعًا كما كان في بداية الألفية.[35] وبشكل تدريجي ازدادت حالات الرقابة والمنع والتشديد على عمل الصحافيين المستقلين، في سنوات 2009 و2010 وتجلى ذلك في محاولة بعض الصحافيين حذف موادهم المنشورة سابقًا خوفًا من تداعيات ومساءلات أمنية.[36]

يبرز الشكل التوضيحي السنوات 2000 - 2010 مع أبرز الأحداث الإقليمية التي تأثرت بها سورية وكانت محط الدراسة في الأعلى، وأبرز المتغيرات الداخلية المتعلقة بحريات التعبير وعمل الصحافة المستقلة أدناه.

(30) D. Isaacs, "Hoping for media freedom in Syria".

(31) P. Gordon, After Iraq: Is Syria Next?, (The Brookings Institution, 2003).
https://www.brookings.edu/opinions/after-iraq-is-syria-next/

(32) CPI, Attacks on the Press 2003: Syria, (2004). https://cpj.org/2004/03/attacks-on-the-press-2003-syria/

(33) ماريانا الطباع، مقابلة مع إياد شربجي مالك مجلة شبابلك عبر زووم، (نيويورك: 19 آب أغسطس، 2022).
مقابلة مع وائل سواح، ومقابلة مع موريس عايق.

(34) مقابلة مع موريس عايق.

(35) ماريانا الطباع، مقابلة مع جوشوا ليندز، مدير مدونة Syria comment عبر الهاتف، (نيويورك، 18 آب/ أغسطس، 2022).
مقابلة مع وائل سواح.

(36) مقابلة مع موريس عايق.

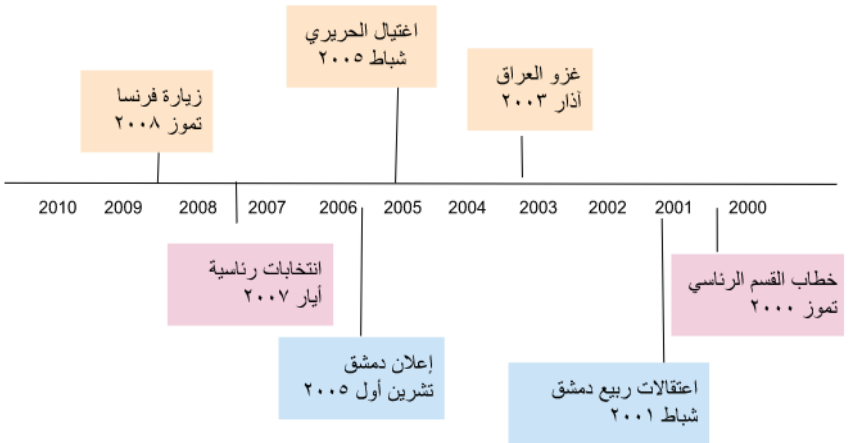

شكل بياني (1): خط زمني لمتغيرات إقليمية وداخلية أثرت في مناخ عمل الصحافيين والصحافيات المستقلين والمستقلات في سورية.

سادسًا: الخطوط الحمر

لأول وهلة، يتبادر إلى الذهن وجود خطوط حمر واضحة على الصحافيين والصحافيات عدم تجاوزها أو المساس بها. وقد يوافق السوريون أغلبهم على عدم انتقاد الرئيس شخصيًا أو تناول عائلته، وما دون ذلك فهو قابل للنقاش. ولكن عند البحث في المحرمات، بدأ الخط الأحمر السابق بالتماهي، وظهرت تفاصيل ومحددات، تنفي أن يكون شخص الرئيس هو المحظور فقط في التناول.

ومن البدهي أن تكون الخطوط الحمر غير مكتوبة وغير معلنة، إلا أنها -في سورية- غير محددة ومتغيرة، ومهمة الإدارة الصحافية من رئيس التحرير وفريق إدارة التحرير جسّ وإدراك الجو العام السياسي، والظرف الداخلي أو الإقليمي الذي تعيشه البلاد، فنشر تحقيقات فساد في 2001 لا يمكن نشرها في 2003، وتناول موضوع ذي طابع سياسي في 2005 لا يمكن تناوله في 2009.

ومكان النشر، هو أحد المحددات الأخرى لفهم طبيعة الخطوط الحمر. فكانت المواد الصحافية التي تنشر في المجلات التي تصدر باللغة الإنكليزية مثل سيريا تواي Syria Today ، أو في أخبار مدونة سيريا كومينت Syria

Comment، لا يمكن نشرها في مجلة تصدر باللغة العربية.[37] ومن الممكن أن يُنشر مقال ذو طابع سياسي لكاتب أو كاتبة نظرًا إلى منزلته/ها الاجتماعية أو السياسية، مثل صادق جلال العظم بينما لا ينطبق ذلك على صحافي أو صحافية ناشئين. فبعض الشخصيات العامة ذات تاريخ وثقل سياسي، قد يمنع استدعاؤها من قبل المراكز الأمنية وتمنح (تغطية) ما[38]. ولغة الكتابة مهمة، من حيث كانت لغة مباشرة أو رمزية، وهل يذكر الصحافي أو الصحافية أسماء وتفاصيل محددة لحوادث وبراهين لا تحتمل التفسيرات، وهل تُسمى الأمور بمسمياتها مثل استخدام مفردة احتكار أو إفلاس القطاع العام أم يتم التلميح حولها.

ما هو شائع في العمل الصحافي استخدام لغة واضحة وسهلة ومباشرة، لا تحتمل الغموض والتأويل، الأمر الذي يجعل الصحافي والصحافية المستقلين، أو إدارة التحرير في موقع المسؤولية المباشرة. ويمزق في بعض الأحيان جزء من عدد المجلة أو يمنع توزيع عدد آخر لصحيفة، يحتوي مادة تجاوز فيها أحدهم خطًا أحمر ما.[39] وفي النتيجة، كان على الصحافيين في سورية وضع أُطر لعملهم في بيئة شديدة الرقابة، لضمان استدامة عملهم وتوسيع هامش الحرية وتناول موضوعات تهمّ الشارع السوري. يمكن تصنيف الخطوط الحمر وفق مستويات ثلاث:

المستوى الأول وهو خطوط حمر أساسية، وتتمثل في شخص الرئيس وعائلته، إضافة إلى المؤسسات الأمنية ورؤسائها وممارساتها، وأخيرًا الجيش وتركيبته وعلاقاته...إلخ. يعد هذا المستوى من المحرمات، ولا يمكن تجاوزه وهو واضح ومعروف عند الجميع.[40] بينما المستوى الثاني، خطوط حمر ثانوية -وهي أقل بدرجة من الأساسية، ولكنها ما تزال ضمن الممنوع- وهي حالة حقوق الإنسان في سورية، وقضية الإخوان المسلمين، والطائفية في سورية، وإدارة السلطة لملف الأكثرية والأقلية الدينية وبشكل تلقائي القضية الكردية. كذلك موضوع الاحتكار، وبخاصة المرتبط بأفراد الأسرة الحاكمة أو من في فضائها. وما زال المستوى الثاني يشكل خطرًا كبيرًا على الصحافيين، وهنا تستخدم مفردات رمزية وجمل تحمل التأويل، إلا أن الأمر قد يضع المعني أو المعنية محل الاتهام. وأخيرًا المستوى الثالث، وهي خطوط حمر متغيرة، غير ثابتة تُخلق وفق ظرف معين أو حادثة ما، قد تكون موضوعات تثير الرأي العام وتعمل على خلق ضجة وتظاهرات شعبية، ومنها على سبيل المثال: شركات الاتصال الخلوية وشراكتها مع المؤسسة العامة للاتصال، وأرباحها ودور رامي مخلوف فيها. اغتيال الحريري والتلميح لمسؤولية حزب الله أو إيران بالاغتيال. الانفتاح الاقتصادي ودور الاحتكارات، والثروات المتحصلة منها، وشبكة العلاقات الاقتصادية المرتبطة بالسلطة.[41] وعدد من الموضوعات التي يتم تحسسها وفق الظرف المرحلي، إلا أن تغطية موضوع الفساد كانت أكثر تعقيدًا، فمن جهة كانت تسمح السلطة بمواد وتحقيقات تتعلق بموضوع الفساد وفيها اتهامات مباشرة ووثائق وأدلة، وكانت تُنشر في الصحف الرسمية،

(37) ماريانا الطباع، مقابلة مع كندة قنبر ومقابلة مع جوشوا لانديز.

(38) مريانا الطباع، مقابلة مع وائل سواح.

(39) ماريانا الطباع، مقابلة مع إياد شربجي، ومع كندة قنبر، ومع صحافي سوري يفضل أن عد ذكر اسمه.

(40) قناة الجزيرة، المقابلة: مسيرة نظام البعث السوري من حافظ الأسد للثورة على بشار مع عبدالحليم خدام (2)، (2017)، 09:00.
لقراءة المقالة كاملة:
ن. سمان، "رحلة إلى جزيرة شفّافستان"، كلنا شركاء (2017). لم ينشر سمان مقاله في العدد الأول من جريدة الدومري.
https://all4syria.microsyria.com/e2583/

(41) ماريانا الطباع، مقابلة مع وائل سواح، شعبان عبود، محمد ديبو.

وأدت في عدد من الحالات إلى إقالة المسؤول المتهم أو عزله. وأحيانًا أخرى، لم يستطع الصحافيون تغطية قضايا فساد في موضوعات أو قطاعات معينة أقل (أهمية) ويتم توقيفهم أو منع النشر. والتفسير المبدئي لذلك هو أن موضوع الفساد في القطاع العام الذي كان موجهًا ومستخدمًا ضد أشخاص محددين ليسوا ضمن دائرة الحماية أو مصلحة السلطة فيسمح بنشر مواد صحافية عنهم، تمهيدًا لإقالتهم.[42] وهو أمر يمكن البحث فيه وفهم آلية استخدام سلطة الصحافيين كأداة.

سابعًا: المتغيرات الإقليمية

ركز البحث على ثلاثة متغيرات إقليمية ودولية، ومنعكساتها على مناخ الحريات في سورية وبخاصة في عمل الصحافيين المستقلين وهامش الحريات وهي: الغزو الأميركي للعراق 2003، واغتيال رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري 2005 وتداعياتها، ودعوة ساركوزي الرئيس السوري للمشاركة في قمة المتوسط 2008.

وقبل البحث في هذه الأحداث الثلاثة وتأثيرها في سياسات السلطة في سورية، يجدر بالذكر أن الأزمات أو الانفراجات الخارجية التي تتعرض لها النخبة الحاكمة في سورية تنعكس إما في ردات فعل غاضبة و/أو خائفة، أو ردات فعل أكثر هدوءًا واسترخاء. ولا تعني بالضرورة حالة الغضب أو الخوف أن تتجلى في قبضة أمنية قاسية، أو تشديد أو قمع على الصحافة. وحالة الهدوء والاسترخاء لا تترجم بشكل عفوي إلى انفراج في الداخل ومزيد من الحريات، قد يكون العكس تمامًا. وفهم هذه الآلية يحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء.

فبعد غزو العراق 2003، وجهت الإدارة الأميركية تهديدًا إلى القيادة السورية على خلفية الأسلحة الكيماوية التي تمتلكها الأخيرة، إضافة إلى إرسالها مقاتلين أجانب إلى العراق ضمن شعارات ((مقاومة الغزو الأميركي)). في هذه الأثناء، استمرت حالة التضييق على الفضاء العام الصحافي التي بدأت مع اعتقالات ربيع دمشق 2001، وحصر العمل الصحافي وهامش حرياته في الشق الاقتصادي، وبخاصة ضمن التحضيرات للتحول الاقتصادي إلى نموذج اقتصاد السوق الاجتماعي، إضافة إلى قضايا اجتماعية متنوعة، إلا أن السلطة كانت صارمة للغاية بشأن أي مادة صحافية تتناول تعامل الدولة السورية مع الملف العراقي، حتى ولو كانت ذات طابع غير سياسي. على سبيل المثال اعتقال السلطات السورية مدير مكتب دمشق لصحيفة الحياة اللندنية ابراهيم حمادي مدة خمسة أشهر، في إثر مقالة كتبها قبل أشهر قليلة من غزو العراق عن استعداد سورية لاستقبال مليون لاجئ عراقي، وتحضير مخيمات على الحدود العراقية السورية. لم يكن المقال أو الخبر ذا طابع سياسي أو نقدي للسلطة ومع ذلك تم الاعتقال.[43]

بعد اغتيال رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري في شباط/ فبراير 2005، وخروج الجيش السوري من لبنان، تعرضت سورية إلى هجمة سياسية وموقف عربي يدين الاغتيال، كان مترافقًا مع هجوم وسائل إعلام لبنانية وعربية على السلطات السورية حول مسؤوليتها عن الاغتيال. ونظرًا إلى تداعيات الاغتيال وإنهاء ما يقرب من

(42) ماريانا الطباع، مقابلة مع شعبان عبود.

(43) M. Young, Ibrahim Hamidi: 3 reasons to let him go, The Daily Star, (Accessed on Oct 3, 2022). https://www.mafhoum.com/press4/128S61.htm

ثلاثة عقود من وجود الجيش السوري، والمحكمة الدولية الخاصة، ما كان لوزارة الإعلام إلا أن اجتمعت مع وسائل الإعلام الرسمية والخاصة، معلنة ضرورة صد الهجمة عن سورية، خصوصًا أنها أدركت حاجتها إلى صحافة وأدوات إعلامية لصدها.[44] فطلبت السلطة عبر اجتماع وزارة الإعلام مع وسائل الإعلام الخاصة أن تتناول موضوع تداعيات الاغتيال[45]، ما يعني خلق مساحة للكتابة بالشأن السياسي من جديد ضمن التوجهات، إلا أن عددًا من الصحافيين أدركوا وجود فرصة للكتابة ضمن حملة الخطاب التسويقي الدفاعي، فكتب عدد عن قضايا الداخل من جديد والفساد والأدوار السياسية في اغتيال الحريري.[46] وتحسست المعارضة السورية اللحظة وتزامن الأمر في تشرين الأول/ أكتوبر 2005، مع نشر إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي الموقع من شخصيات معارضة في الداخل والخارج السوري ويدعو إلى إنهاء حكم الأسد والتحول إلى نظام ديمقراطي في سورية.[47]في عام 2008، دعا الرئيس الفرنسي آنذاك ساركوزي بشار الأسد إلى فرنسا، ضمن جهد فرنسا لإحياء قمة المتوسط، وإنهاء حالة القطيعة الدولية، ورحب بعودة سورية مجددًا.[48] إلا أن دعوة الأوروبيين إلى العودة لم تكن مشروطة بتحسين مناخ الحريات في الداخل، أو الضغط بملف حق التعبير عن الرأي.[49] وبشكل تدريجي، في السنوات التي تلت 2008، عادت حالة الشدّ وتضييق الخناق على الصحافيين المستقلين مرة أخرى وعدم السماح بمواد صحافية كانت تنشر قبل سنوات قليلة.[50] ولم تكن الصحافة هي المستهدفة، بل أي نشاط مدني ذي طابع سياسي، وعلى سبيل المثال مُنع عقد مؤتمر (الدولة العلمانية ومسألة الدين) في دمشق 2010 قبل يوم واحد من انعقاده، على الرغم من الحصول على الموافقات الرسمية، بحجة عطل تقني في صالة المؤتمرات التابعة لجامعة دمشق، على الرغم من انعقاد المؤتمر الأول للعلمانية في دمشق 2007.[51]

ثامنًا: نزاع داخل النخبة الحاكمة

يبدو أن الأزمات الخارجية في الحالة السورية قد لعبت دورًا في إظهار أزمات داخلية كانت خفية على العموم. وذلك من خلال نزاع داخلي في النخبة الحاكمة في السلطة وخروج أحد أعضائها عن الاتفاق الضمني بينهم، فكُشفت النزاعات، وتصارعت القوى داخل النخبة الحاكمة. وكانت إحدى هذه الأزمات انشقاق نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام عن النظام السوري. وما رُوج له بانتقال سلس للسلطة في 2000، لا تنطبق عليه تلك الصفة بعد لقاءات خدام الإعلامية المتكررة وانتقاده لما كان يحصل ضمن دوائر السلطة.[52] فتوجد أطراف

(44) م. كريدي، "إصلاح الإعلام ونواقصه. صدى، تحليل عن الشرق الأوسط"، مؤسسة كارينغي، (2003). https://carnegieendowment.org/sada/21504

(45) ماريانا الطباع، مقابلة مع موريس عايق.

(46) ماريانا الطباع، مقابلة مع موريس عايق.

(47) د.م، "إعلان دمشق"، مركز مالكوم كير- كارينغي للشرق الأوسط، (د.ت). https://carnegie-mec.org/syriaincrisis/?fa=48515

(48) د.م "فرنسا تدعو بشار الأسد إلى احتفالات عيدها الوطني"، فرانس 24، (2008).
https://www.france24.com/ar/20080612-syria-france-french-national-day-ceremonies-assad-invitation

(49) ماريانا الطباع، مقابلة مع محمد ديبو.

(50) ماريانا الطباع، مقابلة مع جوشوا ليندز، ومع موريس عايق.

(51) د.م، سورية: إلغاء مؤتمر عن العلمانية في دمشق، القدس العربي، (2010). https://tinyurl.com/mpsb765n.

(52) قناة الجزيرة، المقابلة: مسيرة نظام البعث السوري من حافظ الأسد للثورة على بشار مع عبدالحليم خدام (2)، (2 آذار/ مارس، 2017)
https://youtu.be/D84NLQTJH4k?t=32

على النقيض ضمن النخبة الحاكمة في سورية، وتتمثل في الردود الدبلوماسية والسياسية على الأزمات الداخلية أو الرد الأمني والعنيف عليها.

وعلى الرغم من عدم التركيز في هذه الورقة على مكونات النخبة السياسية السورية ودورها في موضوع الحريات العامة، وما هو الصراع الدائر داخلها وأبعاده على السياسات العامة، إلا أنه من المهم معرفة هل كانت إحدى نتائج هذا الصراع الداخلي ثغرات، وهوامش استطاع الصحافيون المستقلون العمل ضمنها أم لا.

الأمر الممكن البحث فيه هو توازنات القوى داخل هذه النخبة ونجده في مستوى أضيق في ميزان القوى بين فروع الأمن الأربعة الرئيسة في دمشق، واستقلاليتها حينًا، وتنافسيتها في بعض الأحيان.[53] استفاد بعض الصحافيين من السند أو الحماية التي كانت تمنحها شخصية مؤثرة في السلطة، إن كان رئيس الوزراء أو وزير الإعلام أو في دوائر هذه النخبة من ضباط عالي المستوى، ومن دون هذا الدعم كان من الممكن اعتقال الصحافي. تعود ملكية كثير من وسائل الصحافة الخاصة إلى شخصيات ضمن السلطة مثل رامي مخلوف (الوطن)، ومجد سليمان (بلدنا)، وبلال التركماني (أبيض وأسود)، أو تربط مالكيها بعلاقات قوية ومتينة مع النخبة السياسية، مثل سيريانيوز أو الدومري. هذه العلاقة إشكالية، فهي تضع هذه الوسائل الإعلامية بين خيارين؛ إما أن تكون امتدادًا إعلاميًا للسلطة أو ستواجه تحديات جسيمة في حال انقلبت على السلطة، بينما الصحف والمجلات التي لا تملك النوع ذاته من الحماية، فتتم دعوتها إلى لقاءات ودية مع أسماء الأسد أو رئيس فرع أمن ما، أو وزير إعلام على سبيل المثال. وتمنح فيها الرعاية، ويستفسر ممثلو السلطة عن أي طلبات أو احتياجات، ويؤكدون العمل المشترك والمتكامل الذي يصب في شعارات التطوير والتحديث. في بعض الحالات، ينم هذا التفاعل عن بداية اتفاق ما أو شكل من المقايضة غير المباشرة، تتمثل في تغطية هذه الوسيلة أخبار الرئاسة والأخبار التي تصدر من المكتب الرئاسي، أو الانضمام إلى حملة إعلامية دفاعية كما حصل في إبان اغتيال الحريري، مقابل توفير حماية لها واستمرار عملها بيسر.[54]

ما زال غامضًا فهم النزاع الداخلي ضمن أفراد النخبة الحاكمة، هل كانًا صراع بين حرس قديم من إرث الأب مع حرس جديد جاؤوا مع الابن، أو ضمن أفراد العائلة الحاكمة نفسها، إلا أن ما يدل على وجود شرخ في التحالف العائلي الحاكم في سورية، هو إخراج رامي مخلوف -الوجه الاقتصادي الأبرز للسلطة- من ضمن الدائرة الحاكمة ودخول لاعبين جدد عام 2019.[55]

تاسعًا: الصحافيون أداة بيد السلطة

في نهاية التسعينيات وبداية الألفية، لعبت الصحافة الرسمية المتمثلة في صحف تشرين والبعث والثورة دور أداة السلطة وخصوصًا في ملفات الفساد التي كانت تغطيها، فضمن جهد تمهيد إقالة أو عزل مسؤول حكومي

(53) د.م، "للجدران آذان: تحليل وثائق سرية من أجهزة الأمن السورية"، المركز السوري للعدالة والمساءلة، (2019).
https://ar.syriaaccountability.org/1787/

(54) ماريانا الطباع، مقابلة مع إياد شربجي. ومقابلة مع صحافي سوري لا يود ذكر اسمه.

(55) س. الخالدي وم. الدهان وت. بيري، وم. جورجي، "تقرير خاص- اقتصاد منهار ونزاع عائلي يكثفان الضغط على الرئيس السوري الأسد"، رويترز، (2020).
https://www.reuters.com/article/syria-assad-ea6-idARAKCN2592N7

تُسرب ملفات وتحقيقات حول تورط هذا الشخص في فساد ملف ما، على سبيل المثال، فساد في التعاون السكني، أو فساد يتعلق بالمازوت أو استغلال المنصب الرسمي في مديرية السكك الحديدية ...إلخ. وتكون مصادر هذه الملفات إما المراكز الأمنية أو الرقابة والتفتيش، مع العلم أنه في كثير من الحالات تلفق ملفات فساد وتشهير ضد أشخاص لم يتعاونوا بشكل مرضٍ مع السلطة ومنهم عصام الزعيم. تسرب الملفات إلى الصحف الرسمية لتنشر على شكل تحقيقات وفضائح. الأمر المثير للغرابة حول التسريبات هو سرعة تواتر نشر تحقيقات استقصائية وهو ما يتنافى مع إجراء تحقيق استقصائي محترف، وحاجته إلى ستة أشهر وسطيًا.

لم تمارس السلطة على الصحافيين المستقلين الآلية السابقة بل كانت تستخدم الصحافة بطرائق أخرى، منها عند نشوء خلاف ونزاع داخلي بين مركزين أمنيين على سبيل المثال، أو بين شخصية عامة مهمة وضابط عالي المستوى، ولكل منهما القدرة على التواصل مع صحافي أو صحافية مستقلين، ويسرب معلومات مهمة للنيل من خصمه عبر نشرها في وسيلة صحافية، الأمر الذي يعيه عدد كبير من الصحافيين المستقلين في سبيل إظهار الحقيقة على الملأ. وكانت السلطة تترك المجال لبعض الوسائل الإعلامية الخاصة لتجري تحقيقات في مستوى البلديات أو قضايا صغيرة على أهميتها في كثير من الأحيان، لم يكن في المستطاع تناول قضايا أساسية وفي مستوى عالٍ من الفساد.

عاشرًا: أثر الصحافة المستقلة

كانت المدة بين 2000 و2010 هي ما أطلق عليه عدد من الصحافيين المستقلين (السنوات الذهبية) واصفين عملهم الصحافي المستقل، فقد أتت بعد أعوام طويلة من القمع وكبت الصحافة المستقلة، وقبل 2010 وتفجر وسائل التواصل الاجتماعي وانتشار تويتر واليوتيوب، وظهور المواطن الصحافي أو المواطن الإعلامي، وأصبح نشر المعلومة لا يخضع لمعايير صحافية احترافية.

وضمن هذه السنوات العشر، نجحت الصحافة المستقلة بكسر هيبة حزب البعث في المجتمع السوري الذي لم يعد خطًا أحمر كما كان في السابق، الأمر المتوافق مع توجهات السلطة آنذاك. ومن وجهة نظر أخرى استطاع عدد من الصحافيين والصحافيات إنتاج تقارير وتحقيقات استقصائية، لم تكن موضوعاتها جريئة فحسب -وهو عامل مهم في ظل نظام قمعي- بل كانت طريقة عملها احترافية من حيث تنوع مصادر المعلومات، والدقة ودعم المادة بوثائق ومستندات. وبرزت أهميتها في قدرتها على فتح ملفات تصل بالمسؤولين فيها إلى المحاكم لوجود شهادات ومستندات وأرقام موثقة، الأمر الذي كانت تواجهه السلطة بمنع بعض الأعداد خوفًا من ردة فعل الرأي العام.[56]

(56) ماريانا الطباع، مقابلة مع راما نجمة.

حادي عشر: النتائج

لم تستطع مدة عشر سنوات خلق مشهد صحافي مستقل في سورية، بل استطاع صحافيون مستقلون انتزاع هامش من الحريات لم يكن متاحًا سابقًا، وكانت تكلفة ذلك كبيرة. ولا توجد خطوط حمر ثابتة ومستقرة، بل هي في تغير مستمر، وفق الظرف الداخلي حينًا والإقليمي حينًا آخر، وانعكاس ذلك على مزاج السلطة وتوجهاتها. أما بالنسبة إلى المتغيرات الإقليمية، فلم ترصد دلائل واضحة على ربط سلوك السلطة بخصوص التحكم في هامش حريات التعبير مع غزو العراق 2003، الحادثة الأبرز هي اعتقال مراسل الحياة اللندنية في إثر تناوله خبر إمكانية إنشاء مخيمات على الحدود العراقية السورية، ولم يكن للحدث تأثير واضح وسببي في الصحافة والصحافيين المستقلين، بينما كان لأزمة اغتيال الحريري وتداعياتها أثر واضح في المناخ العام للحريات والكتابة بالشؤون السياسية في سورية. ولما كان إنهاء العزلة المطبقة على سورية في 2008، الأثر البطيء والتدريجي في الصحافة في تشديد القيود من جديد، إلا أنه توجد حاجة إلى رصد عينة تمثيلية من المقالات ودراستها وتصنيفها لنتمكن من الوصول إلى نتائج علمية تعتمد على أدلة.

النتائج في هذه الدراسة أولية، وكل من المتغيرات المدروسة والأحداث السياسية الداخلية والخارجية بحاجة إلى عزل، ودراسة وجود ارتباط بين الحدث وهامش الحريات، وهل هو ارتباط سببي. الأمر الذي لم يتطرق إليه هذا البحث لطابعه الاستكشافي.

المصادروالمراجع

بالعربية

1. د.م، "حالة الإعلام وحرية التعبير: سورية 2007: عام من الرقابة الحديدية". (2007)،
2. د.م، "للجدران آذان: تحليل وثائق سرية من أجهزة الأمن السورية"، المركز السوري للعدالة والمساءلة، (2019).
3. د.م، "العقد الضائع، حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد"، هيومن رايتس ووتش، 2010).
4. بطاطو. حنا، فلاحو سورية أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم، (د.م: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014).

بلغة أجنبية

1. Acemoglu. D., & Robinson, J. Economic Origins of Dictatorship and Democracy, (Cambridge: Cambridge University Press, 2005)
2. Bueno. M. B., & Smith, A., The dictator's handbook: Why bad behavior is almost always good politics, (New York: Public Affairs, 2011).
3. Bueno, M. B., The logic of political survival Cambridge, (Mass: MIT Press, 2003).
4. Gandhi, J., Political institutions under dictatorship, (Cambridge: University Press, 2008).
5. Geddes, B., Wright, J., & Frantz, E. Autocratic Breakdown and Regime Transitions: A New Data Set. Perspectives on Politics, 2014).
6. Huntington, Samuel P. The Third Wave: Democratization in the Late Twentieth Century, (Norman: University of Oklahoma Press, 1991).
7. Svolik, M. Introduction in: The Politics of Authoritarian Rule. Cambridge Studies in Comparative Politics, (Cambridge: Cambridge University Press, 2012).
8. Wintrobe, R. The Dictator's Dilemma in, The Political Economy of Dictatorship, (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

الأرشفة والتّوثيق خلال الثّورة السوريّة بين الجهد الفردي والمؤسسي

دراسة مقارنة وتحليل

لبابة الهواري[1]

يعد توثيق أحداث المراحل الزمنية المختلفة جزءًا من كتابة التّاريخ وصوغه، وعادة ما يسعى أبناء الثّورات والحروب إلى توثيق الأحداث التّي يمرون بها بطرائق مختلفة، وبجهد متفاوت يراوح بين العشوائي والمنظم، الفردي والجماعي والمؤسسي.

وتسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضّوء على الجهد التّوثيقي والأرشيفي لأحداث الثّورة السوريّة التّي بدأت في آذار/ مارس 2011، ومرت بمراحل مختلفة، وما تزال مستمرّة حتى يومنا هذا، سواء أكان الجهد التّوثيقي جهدًا فرديًا، أم جماعيًا مؤسسيًا، إذ سيعرض البحث أهم التّجارب الفردية والمؤسسية في المجال التّوثيقي الإعلامي، مع تحليل كل تجربة وتبيان أنواع التّوثيق المستخدمة، وإجراء مقارنة بين الجهد الفردي والمؤسسي، والأثر المستقبلي الذّي تركه وأهميته.

وعليه فقد قُسّمَ البحث إلى مهاد نظري يحتوي على عرض لمصطلحي التّوثيق والأرشفة، ومبحث أول يهتم برصد التّجارب الفردية والمؤسسية في مجالي الأرشفة والتّوثيق، ودراسة كل منها على حدة، ومبحث ثانٍ يُعنى بالمقارنة بين التّجربتين الفردية والمؤسسية، ضمن مجموعة من المعايير، لتبيان أثر المستقبلي لكل منها وأهميته، ومن ثم عرض للخلاصة، وخاتمة توضح أهم النّتائج والتّوصيات.

أولًا: مقدمة نظرية ومنهجيّة

ينظر إلى التّوثيق بوصفه بداية لكتابة التّاريخ وصوغه وصونه، وعادة ما يسعى الأفراد والمنظمات إلى توثيق المراحل الزمنية التّي يعاصرونها، لا سيما إن ارتبطت هذه المراحل بأحداث مفصلية تغير العالم، وتؤثر في المنطقة بأكملها، وتعد الثّورة السوريّة أحد أهم أحداث القرن الواحد والعشرين، إذ امتدت إحدى عشرة سنة، تعرضت خلالها سوريّة إلى تغيير شمل المستويات جميعها، الأمر الذّي دفع الأفراد والجماعات إلى توثيق أحداث الثّورة السوريّة وأرشفتها، ضمن جهد مختلف، بعضه بدأ مع بدايات الثّورة، وبعضه الآخر تأخر في انطلاقته، إلا أن الجهد كله يهدف إلى حفظ أحداث الثّورة من التّشويه والتّزوير، والتّضليل الذّي يسعى النّظام إلى فعله باستمرّار، وبطريقة ممنهجة مستخدمًا الوسائل كافة لتحقيقه.

(1) كاتبة سورية.

1. إشكالية الدراسة

تناقش الدراسة التّجارب الفردية والمؤسسية في التّوثيق والأرشفة للثّورة السوريّة، فتعمل على تحليل هذه التّجارب، كل على حدة، وتبيان هدفها، وآليات عملها، ومنهجيتها المتبعة، وأدوات جمع البيانات، ومن ثم مقارنتها، واستخلاص نتائج لبيان فائدة هذه التّجارب وأثرها في الثّورة السوريّة.

2. أهمية الدراسة

تسلط الدراسة الضّوء على الجهد العامل في مجالي الأرشفة والتّوثيق، وتحاول حصر أهم التّجارب، وتحليلها، ومقاطعة آلياتها لتبيان أثرها ودورها في الثّورة السوريّة، إذ لم يسبق أن جمعت دراسة هذه التّجارب التّوثيقية والأرشيفية وقارنت بينها.

3. أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى:

أ. عرض التّجارب الفردية والمؤسسية في مجالي التّوثيق والأرشفة.
ب. معرفة آلية عمل التّجارب الفردية والمؤسسية والمنهجيّة التّي تقوم عليها.
ت. تحليل هذه التّجارب
ث. تحديد أهداف التّجارب المذكورة
ج. مقارنة التّجارب الفردية والمؤسسية من حيث آلية العمل والمنهجيّة، ونتائج العمل.

4. منهجيّة الدراسة

تعتمد الدراسة على المنهجين الوصفي التّحليلي والتاريخي، بعدّهما أسلوبًا علميًا يساعد على تحقيق أهداف الدراسة، ومقاربة محاورها، مع تقديم مقارنة وفق معايير محددة بين التّجارب.

5. وسائل جمع المعلومات

الدراسات العلمية، ومراكز الدراسات المعنية بالشّأن السّوري، إضافة إلى مواقع الأرشفة والتّوثيق للتجارب المؤسسية، كذلك تعد المواد الإعلاميّة على اختلافها، والتّقارير الإخبارية إحدى وسائل جمع المعلومات، إضافة إلى المقابلات مع ذوي الشّأن.

ثانيًا: مهاد نظري

1. التّوثيق

يعود الأصل اللغوي لكلمة التّوثيق إلى الفعل وثق، ويشير إلى معاني الائتمان والإحكام والعهد، ولذا يقال أخذ منه ميثاقًا، أي عهدًا، ووثق به، أي: ائتمنه[2]، أي إن المراد هو إحكام الأمر وضبطه، وتأمينه، ومنه جاءت كلمة الوثيقة وهي كل ما يوثّق كتابة، من دون التّدقيق بالكاتب، أو التّاريخ، أو المواد المستخدمة[3]، أما علم الوثائق فهو ((العلم الذّي يعالج المراحل المختلفة للوثيقة))[4]. وتُعالج الوثائق وفق منهج البحث التّاريخي، من خلال مرورها بثلاث مراحل، الجمع والنّقد، والمطابقة والتّركيب[5].

ومنها جاء علم الوثائق أو ما يطلق عليه الدبلوماتيك diplomatics، وهو العلم الذّي يعنى بدراسة مصادر التّاريخ ووثائقه ودراستها دراسة نقدية، والتّحقق من صحتها[6]. أما التّوثيق فهو ((جمع الوثائق والمستندات ونقدها وتمحيصها، وتقديمها للناس في هيئة أقرب ما تكون إلى الأصل الذّي صدر عن مؤلفها أو صاحبها))[7]، إلا أن تعريف التّوثيق تطور مع الوقت، وأصبح يطلق على عملية إثبات أمر أو خبر عبر كتابته مع أدلته. وبهذا المعنى عُمل بالتّوثيق في الثّورات، لا سيما الثّورة السوريّة، إذ سعى الأفراد والجماعات إلى توثيق الأحداث عبر إثباتها وكتابتها مع الأدلة التّي تدل عليها من صور، وفيديوهات، وتسجيل شهادات شهود العيان وغيرها. وأصبحت مراكز التّوثيق تعنى بتوثيق الأحداث التّي تجري على الأرض، وتحقيقها، والتّثبيت من صحتها، ومعالجتها، وجمع الأدلة المتوافرة عليها كلها.

2. الأرشفة

يعود أصل كلمة أرشيف إلى اشتقاق يوناني Arche (آرخ) وهي الوظيفة، ويقصد بها عمل إداري، أو عمل حكومي، وقد أطلقت كلمة أرشيف قديمًا على الأوراق التّي تتراكم عند الموظف في العمل، لكن منذ العصر الوسيط تجدد معنى الكلمة وأصبحت خاصّة بالوثائق القديمة[8].

بعد ذلك تطور تعريف الأرشيف ليطل على المواد المكتوبة التّي تنتج من نشاط جماعي أو فردي، بشرط أن تكون قد رتبت ترتيبًا معينًا، ونظمت على نحو سهل يمكن الرّجوع إليه عند الحاجة من دون عناء التّعب والبحث[9]. ويعرف الأرشيف وفقًا للمدرسة الفرنسية التّي يمثلها (شارول سامران) بأنه مجموعة من الوثائق

(2) مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط8، (بيروت: مؤسّسة الرسالة للطباعة والنّشر، 2005)، ص927.

(3) محجوب محمد بابا، "مدخل تعريفي لعلم إدارة الوثائق (الأرشيف): وعي وثائقي عام لتطوير ذاكرة الأمة"، مجلة الوثيقة، مج18، ع36، (1999)، ص152.

(4) محجوب محمد بابا، "مدخل تعريفي لعلم إدارة الوثائق (الأرشيف): وعي وثائقي عام لتطوير ذاكرة الأمة"، ص152.

(5) محمد كريم الشمري، "نشأة علم الوثائق العربية"، مجلة التّواصل، ع9، (2003)، ص 27.

(6) شوقي الجمل، علم التّاريخ نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى، (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1997)، ص 93-94.

(7) عبد المجيد عابدين، "التّوثيق تاريخه أدواته"، مجلة الوثائق العربية، ع3، (1977)، ص63.

(8) محمد عباس حموده، المفهوم العلمي للوثائق والتّوثيق، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد الأول، (1979)، ص 226.

(9) محمد عباس حموده، المفهوم العلمي للوثائق والتّوثيق، ص226.

الرّسمية أو التّي تكون جزءًا من معاملات رسمية، تحفظ على نحو معين يسهّل طريقة الرّجوع إليها عند الحاجة[10].

أما علم الأرشيف فيقصد به ((العلم الذّي يدرس على مستوى النّظرية والتّطبيق طبيعة وخصائص الوثائق الأرشيفية، والمستندات، وحركة إنتاجها، واقتنائها، وتنظيمها، وتيسير الإفادة منها))[11].

وقد سعى الشّعب السّوري إلى صنع أرشيفه الخاص من الوثائق التّي عمل على توثيقها وكتابتها خلال سنوات الثّورة، سواء كان هذا الجهد فرديًا أم جماعيًا.

ثالثًا: التّجارب الفردية

بدأت التّجارب الفردية في توثيق أحداث الثّورة السوريّة وأرشفتها منذ السّنوات الأولى لعمر الثّورة، على يد أشخاص شاركوا في الثّورة، وعاشوا أحداثها، ومن منطلقات تتعلق بالرّغبة في المحافظة على تاريخ الأحداث، وإثبات إجرام النّظام، والمساهمة في كتابة تاريخ الثّورة عبر أرشفة أحداثها، وتدوين وقائعها، إلا أن عدد العاملين بجهدهم الفردي في هذا المجال يعد محدودًا جدًا، نظرًا إلى صعوبة المهمة، وحاجتها إلى الوقت والجهد والبحث والاطلاع، والقدرة على الاستمرّارية، لا سيما أن تاريخ الثّورة ممتد منذ إحدى عشرة سنة، والتّطورات التّي طرأت على المدن والمحافظات خلال هذا السّنوات كثيرة، وقد سُجلت أسماء قليلة ترك جهدها الفردي في الأرشفة أثرًا في تاريخ الثّورة، من أهمها:

1. تامر تركماني

ناشط سوري من مدينة حمص[12]، بدأ مشروع أرشفة أحداث الثّورة السوريّة وتوثيقها بعد قيامه بعمل لوحة تضم صور أكثر من 50 ألف شهيد من مختلف المحافظات عام 2014م، ليبدأ بعدها بتوثيق كل ما يخصّ الشّهداء، ما جعل المشروع يتطور مع الوقت نتيجة حذف يوتيوب فيديوهات الثّورة لمخالفتها سياسة الموقع، فبدأ تركماني يعمل على حفظ فيديوهات قنوات الثّورة السوريّة جميعها من موقع اليوتيوب، بمحتوياتها كافة[13].

هدف مشروع تركماني إلى المحافظة على ما وُثق من مواد خوفًا من الضّياع والحذف، والعمل على تأمينها في مكان واحد، ليتمّ التّعامل معها مستقبلًا على نحو أفضل، وحفظ تاريخ الثّورة من التّشويه والتّضليل والتّزوير

(10) أشرف عبد المحسن الشريف، الإدارة الحديثة للوثائق التّاريخية، ط1، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2011)، ص31-32.

(11) أحمد الهوش، الأرشفة الإلكترونية الأسس والنّظرية، ط1، (القاهرة: دار حميثرا للنشر والتّرجمة، 2018)، ص 35-36.

(12) انشق عن الجيش النّظامي في أثناء الخدمة الإلزامية التّي كان يؤديها بعد أشهر قليلة من اندلاع الثّورة السوريّة عام 2011، والتّجأ إلى مدينة درعا، حيث عمل هناك مصورًا وموثقًا للأحداث مدة سبعة شهور قبل أن يصاب ويخضع للعلاج وينتقل إلى الأردن ليعمل متطوعًا في المنظمات السوريّة هناك، ينظر: عزام الخالدي، "أرشيف الثّورة السوريّة: نحن قادرون على كتابة تاريخنا بأيدينا"، جريدة شامنا الأسبوعية، (2021)، https://2u.pw/H98Mr

(13) عبد الحميد حاج محمد، "أرشيف الثّورة الحي.. (تركماني) يتابع مشروعه ويستهدف المواقع الثّورية"، موقع صحيفة حبر، (2020)، https://2u.pw/aoUPA

الذّي يسعى النّظام جاهدًا لفعله[14].

بدأت آلية عمل مشروع تركماني بتوثيق كل ما يخص الشّهداء، ثم طُورت نتيجة حذف المواقع المواد الخاصّة بالثّورة، لتصبح الآلية جمع كل ما يخص الثّورة على اختلاف أنواعه ومجالاته.

وتُقسم عملية جمع البيانات ومعالجتها في مشروع تركماني بحسب نوعها، فالمواد المرئيّة (الفيديوهات) تُحمّل من اليوتيوب، وتُفرز المادة إلى القناة التّي تنتمي إليها، وفي المرحلة الثّانية تُفرز المواد بحسب تاريخها، وفي المرحلة الثّالثة تُستخرج المواد المتشابهة من خلال برامج معينة تعمل على المقارنة بين الفيديوهات المتشابهة وإبقاء أكثرها جودة، وفي المرحلة الرّابعة تُحلل مادة الفيديو وتكتب تقارير عنها، فإذا كانت المادة قصف منطقة معينة تُحلَّل الأماكن المستهدفة، وتُوثق أسماء المنشآت التّي قصفت، ونتائج القصف، والأضرار البشرية والمادية.

وتُوثق الصور عن طريق أخذ نموذج عن الصورة من وكالات أنباء عالمية، ثم تبدأ عملية البحث عن المصوّر للحصول على الصورة بدقة عالية، وكتابة بيانات الصورة كما وردت من المصور، ومن الوكالات العالمية مع التّاريخ، ثم فرز الصور المتشابهة والإبقاء على الأفضل. أما طريقة توثيق بيانات الشّهداء فبدأت بالجمع من التّنسيقيات والمراكز الإعلاميّة، ثم مع تطور المشروع وانتشاره بين السّوريين أصبح الأفراد يتواصلون بهدف التّبليغ عن أسماء الشّهداء، وتُجمع البيانات من خلال التّواصل مع أهالي الشّهداء، والأفراد الذّين شهدوا الحادثة.

وبالنّظر إلى تجربة مشروع تركماني يتّضح أن منهجيّة المشروع لم تكن دقيقة وواضحة منذ إطلاقه، إذ كان المشروع في بدايته متخصصًا بتوثيق الشّهداء، اعتمد في جمع بياناته خلال هذه المرحلة على مصادر البيانات المفتوحة من تنسيقيات ومراكز إعلامية من دون خطوات أخرى. لكن في المرحلة الثّانية من المشروع حين وُسّع استجابة للظروف، أصبحت منهجيّة العمل أكثر دقة وعملية، تمرّ بخطوات عدة، تبدأ بجمع البيانات من خلال الملاحظة والمقابلات المتنوعة، ومصادر البيانات المفتوحة، ثم فرز المواد بحسب نوعها ومقارنتها، وإبقاء الأفضل منها، ثم تحليل مادتها، وكتابة تقارير عنها، وفي بعض البيانات المصوّرة يجري التّواصل مع المصدر، وتُستخدم الشّروح التّي استخدمها المصدر ذاته.

وقد نتج من المشروع أرشيفًا يضمّ 160 ألف مادة صورة ثابتة، و2.4 مليون مادة فيديو، مصنفة بحسب نوعها، إضافة إلى أرشفة معلومات 718 كتابًا عن الثّورة السوريّة، وتأمين 451 كتابًا بصيغة كتاب إلكتروني، وتوثيق 312 مقالًا صحافيًا، وما يزيد على 225 ألف اسم شهيد، وأكثر من 4 آلاف مجزرة[15].

2. حمود الكروم

من قرية معرشمشة بريف معرة النّعمان في مدينة إدلب، التّحق بالثّورة السوريّة منذ بدايتها، وأخذ على عاتقه توثيق أحداث كاملة، إذ تعد مظاهرة سوق الحريقة الدمشقي في شباط/ فبراير 2011 أول الأحداث

(14) مفيدة عنكبر، "تامر تركماني لـ(تفاصيل): توثيق ملفات الثّورة وصور شهدائها واجب ثوري وأخلاقي"، تفاصيل، (2020)، https://2u.pw/AzmxN. و: منتصر أبو نبوت، "بعد تعرضها للحذف.. هكذا تمكن شاب سوري من أرشفة مئات آلاف الفيديوهات للثورة"، الجزيرة نت، (2020)، https://2u.pw/JT9Q8 . و: مقابلة أجرتها الباحثة مع النّاشط تامر تركماني. في 30 سبتمبر/ أيلول 2022.

(15) لبابة الهواري، مقابلة مع النّاشط تامر تركماني. (30 أيلول/ سبتمبر 2022).

السوريّة التّي عمل على توثيقها[16].

هدف مشروعه التّوثيقي إلى حفظ الحقائق من التّشوية، والكذب والتّضليل الذّي يعمد إليه النّظام على نحو ممنهج ومستمرّ.

استخدم الكروم الحبر العادي والدفاتر لتوثيق الأحداث وأرشفتها، واعتمد على القنوات التّلفزيونية الموثوقة ذات الصدقية، واتبع طريقة تقاطع المعلومات للتأكد من صحة ما يكتبه، إضافة إلى تتبعه الأخبار من أصدقاء وأشخاص متعددين من مختلف المحافظات. وعمل على توثيق الأحداث كافة، وتوثيق كل ما يتصل بالثّورة السوريّة[17].

وقد اقتصرت منهجيّة أرشيف الكروم على توثيق الأحداث وأرشفتها وفقًا لتاريخها، مع اعتماد آلية تقاطع المعلومات للتأكد من صحتها، من دون المرور بأي مراحل معينة لمعالجة البيانات، أو تصنيفها، أو تحليلها، واقتضت هذه المنهجيّة استخدام المقابلات والملاحظة ومصادر البيانات المفتوحة المعتمدة على القنوات الإخبارية العالمية.

نتج من أرشيف الكروم أكثر من 80 ألف صفحة ورقية مكتوبة بخط اليد، وفق تسلسل زمني تاريخي.

3. محمد عبد الباقي

ينتمي محمد عبد الباقي إلى قرية معرشمشة التّابعة لمعرة النّعمان. ويعود سبب اهتمامه بالتّوثيق إلى تكرار التّساؤلات عما حدث في مرحلة الثّمانينيات، إذ غابت التّفاصيل والأحداث معظمها، لذا سعى منذ بداية الحراك الثّوري إلى التّوثيق كنوع من المشاركة في كتابة التّاريخ.

وقد عمل على توثيق أسماء الشّهداء والمعتقلين والمصابين، إذ بدأ عمله من استبانات ونماذج حصل عليها من تنسيقيات الثّورة، ثم طوّر هذه النّماذج وأضاف معلومات توثيقية أكثر عن الأسماء التّي يكتبها، كبيانات العائلة، وتواريخ الميلاد، والحالة الاجتماعية، وتاريخ وقوع الحالة، وشرح الوضع الطبي في حالة الإصابة، ثم تضاف التّفاصيل لاحقًا إذا حصل الشّفاء، أو الخروج من المعتقل. وقد استحدث بند السّيرة الذّاتية، وهي فقرة يكتب فيها لمحة عن حياة الشّخص الذّي يوثق له[18].

اعتمدت منهجيّة عمله على توثيق الانتهاكات التّي تخصّ الإنسان من قتل، اعتقال، إصابة، مستخدمًا استبانات ونماذج ورقية مكتوبة بخط اليد طوّرها مع الوقت لتحتوي على معلومات شاملة عن الحالة التّي يوثق لها، عبر الملاحظة، والمقابلة، ومتابعة تطور الحالة في حالتّي الاعتقال والإصابة، إلا أن هذه البيانات لا تخضع للفرز أو التّرتيب وفق معايير معينة، واقتصرت البيانات على أبناء القرية التّي يعيش فيها، ليكون جهده محدود النّطاق، فقد استطاع حتى عام 2019 توثيق أسماء 70 شهيدًا و50 معتقلًا 60 مصابًا مع متابعة كاملة لكافة

(16) "بـ(الورقة والقلم).. سوري يواصل توثيق أحداث الثّورة السوريّة منذ 11 عامًا"، السوريّة نت، (2022)، https://2u.pw/l1zKn

(17) عبد العزيز نجم، مؤرّخ الثّورة السوريّة.. يعيش في خيمة ويدوّن أحداثها بخط اليد ويحلم بطباعتها يومًا!، أورينت نت، (2022)، https://2u.pw/QezE8

(18) ميس الحاج، "كي لا تتكرر المأساة.. جهود فردية للتوثيق"، سيريا أنتولد – حكاية ما انحكت، (2019)، https://2u.pw/h0vB0

حالاتهم وأوضاعهم.

ويمكن القول إن الجهد الفردي في أرشفة الثّورة السوريّة هو جهد عشوائي نوعًا ما، لم يخضع لخطة ممنهجة، وإنما كان نتيجة دوافع متشابهة وهي محاولة حفظ تاريخ الثّورة من التّشويه والتّضليل، والتّطور الذّي حدث خلال هذه الأرشفة في هذه التّجارب كان استجابة للظروف المحيطة، والتّطورات التّي تحدث على الأرض. ويمكن تلخيص الجهد الفردي كله عبر الجدول:

	الهدف	منهجيّة العمل	الأدوات	النّتائج
تامر تركماني	الحفاظ على المواد الموثقة حفظ تاريخ الثّورة من التّضليل	جمع البيانات فرز بحسب النّوع والتّاريخ مقارنة واختيار الأفضل تحليل وكتابة تقارير.	الملاحظة المقابلة المصادر المفتوحة	160 ألف صورة 2.4 مليون فيديو 312 مقالًا معلومات 718 كتابًا 225 ألف شهيد
حمود الكروم	حفظ تاريخ الثّورة من التّضليل	جمع البيانات مقاطعتها مع أكثر من مصدر للتأكد	الملاحظة المقابلة المصادر المفتوحة	أكثر من 80 ألف صفحة مكتوبة بتسلسل تاريخي
محمد عبد الباقي	المشاركة في كتابة التّاريخ	جمع البيانات التّأكد منها من خلال المقابلات	الاستبانات والنّماذج المقابلة الملاحظة	توثيق أسماء 70 شهيدًا و50 معتقلًا 60 مصابًا

رابعًا: التّجارب المؤسسية

لم تكن التّجارب المؤسسية المنظمة في أرشفة أحداث الثّورة السوريّة وتوثيقها وليدة سنوات الثّورة فحسب، فقد نشأت مؤسسات توثيقية أرشيفية عدة في سوريّة قبل الثّورة، خلال حكم حافظ الأسد ومن بعده ابنه بشار الأسد، سعت هذه المؤسسات إلى توثيق انتهاكات حقوق الإنسان، وتوثيق حالات الاعتقالات والاعتداءات والأحداث المختلفة التّي تعرض لها الشّعب، فكان جهدها بمنزلة الخطوات الأولى في طريق التّوثيق والأرشفة، إذ عدت هذه التّجارب مرجعًا أساسيًا في هذا الميدان، إلا أن الدراسة ستنظر إلى جهد هذه المؤسسات وغيرها خلال مدة الثّورة السوريّة، إذ تعددت التّجارب المؤسسية في التّوثيق والأرشفة، وتنوعت، ولعل من أهما:

1. الأرشيف السّوري

هو مبادرة سوريّة وأحد مشروعات منظمة Mnemonic، مقسم إلى قسمين، المشروع الأول (استعادة المحتوى المفقود) ويهدف إلى استعادة المحتوى التّوثيقي المفقود من وسائل التّواصل الاجتماعي، أما المشروع

الثّاني فهو (الذّاكرة الرّقمية السوريّة) ويهدف إلى التّحقيق في المواد التّي بنت الذّاكرة الرّقمية السوريّة في عقب بدء الثّورة السوريّة[19].

أقيم المشروع بهدف حماية الوثائق المتعلقة بحقوق الإنسان، وتوثيق الجرائم المرتكبة من الأطراف جميعها، ودعم المدافعين عن حقوق الإنسان كلهم، ومناصرة الجهد المقدم لتوثيق الانتهاكات.

تقوم آلية عمل الأرشيف السّوري على مجموعة من الخطوات في كل مرحلة من مراحل التّوثيق:

المرحلة الأولى الجمع: وفيها تُنشأ قاعدة بيانات مصادر موثوقة للمحتوى الرّقمي، وأخرى للتحقق، وجمع البيانات في مخططات وصفيّة موحدة.

المرحلة الثّانية الحفظ: تبدأ بفرز المواد وفقًا للنوع، ثم التاريخ، وأخذ نسخ احتياطية، ثم حفظ المواد على خوادم خارجية.

المرحلة الثّالثة المعالجة: تستخرج البيانات الوصفيّة من المحتوى المرئي، وتُحلّل للتأكد منها من المصادر الموثوقة المحددة مسبقًا، وإخضاعها لبرمجيات معينة أيضًا بهدف التّأكد.

المرحلة الرّابعة التّحقق: يتمّ التّحقق من السّجلات الرّقمية، والمصدر، والتّاريخ والوقت، المكان والمعالم البارزة، الذّخائر وأنواعها، وكل التّفاصيل الموجودة في المادة.

المرحلة الخامسة تحقيق المعلومات ومتابعتها: من خلال مقاطعة المعلومات مع إفادات الشّهود، والتّحقق من البيانات العامة، وبيانات رصد الطيران في حالات القصف، ومقاطعتها مع المحتوى البصري.

المرحلة السّادسة المراجعة: تخضع الخطوات السّابقة كلها للمراجعة للتأكد من عدم وجود تناقض.

ويتضح من خلال خطوات آلية العمل أن منهجيّة العمل واضحة، وضمن خطة متقنة، تُجمع فيها البيانات من مصادر مفتوحة موثقة مسجلة مسبقًا، باستخدام النّماذج الموحدة، وإفادات الشّهود والمقابلات، إضافة إلى الملاحظة الدائمة لتسجيل التّطورات ومتابعتها، مع العمل على مقاطعة المعلومات للتأكد من صحتها.

وقد جمع الأرشيف السّوري ما يزيد على ثلاثة ملايين ونصف مليون مادة فيديو، عولج 650 ألف فيديو، وتم التّثبت من أكثر من 8 آلاف فيديو، إضافة إلى التّحقيق في أكثر من ألفي حادثة.

2. مركز توثيق الانتهاكات

انطلق مركز توثيق الانتهاكات في سوريا VDC في منتصف عام 2011، على يد النّاشطة الحقوقيّة رزان زيتونة، بهدف التّوثيق الدقيق والمستقل لانتهاكات حقوق الإنسان كافة في سوريّة، سواء كانت انتهاكات قديمة أم حديثة،

(19) موقع الأرشيف السّوري، https://syrianarchive.org/ar

للوصول إلى المساءلة المستقبلية وتحقيق العدالة في سوريّة المستقبل.

ويعمل المركز على توثيق جميع انتهاكات حقوق الإنسان من جميع الأطراف، وتمرّ عملية التّوثيق بمجموعة من المراحل؛ تبدأ بجمع المعلومات من مصادر مختلفة من قبل الفريق الميداني، ثم التّحقق من المعلومات من خلال مقاطعتها مع مصادر مختلفة. بعد ذلك تُجمع الصور ومقاطع الفيديو وأي تفاصيل تمسّ الضّحايا، وتكون المرحلة الثّالثة للمتابعة والتّحديث، بحيث تُستكمل المعلومات النّاقصة، وتضاف أي مواد ذات صلة بالأمر، وتتابع المعلومات المتعلقة بالمعتقلين والمصابين.

وتقوم منهجيّة المركز وفق إطار قانوني يرتكز على القانون الدّوليّ الإنسانيّ (وبخاصة اتفاقيات جنيف الأربع)، وقانون حقوق الإنسان، وفق آلية عمل دقيقة تُجمع من خلالها البيانات بطرائق مختلفة من ملاحظة ومقابلة، ومصادر مفتوحة، ومواد مرئية، مع متابعة دائمة.

يصدر عن المركز تقارير إحصائيّة وأخرى وصفيّة دوريّة، وتقارير مفصّلة بعدد القتلى والمعتقلين، والجهات الفاعلة، كان آخرها توثيق مقتل 239627 شخصًا في سوريّة منذ آذار/ مارس 2011، وحتى أيلول/ سبتمبر 2022[20]. إضافة إلى العمل مع جهات حقوقيّة أوروبيّة وسوريّة لرفع قضايا ضدّ منتهكي حقوق الإنسان، كان أولها ما قدّم إلى مكتب المدعي العام الألمانيّ بالتّعاون مع 7 جهات سوريّة أخرى ضدّ مسؤولين من المخابرات العسكريّة السوريّة، تتناول الشّكوى انتهاكات ضدّ الإنسانيّة.

3. الشّبكة السوريّة لحقوق الإنسان

هي منظمة حقوقيّة، مستقلّة، أُسّست الشّبكة في حزيران/ يونيو 2011، بمبادرة من النّاشط الحقوقي فضل عبد الغني، تستند إلى مبادئ القانون الدولي لحقوق الإنسان.

تهدف إلى ((رصد انتهاكات حقوق الإنسان في سوريّة وتوثيقها، ومحاولة الحدّ منها، والمساهمة في حفظ حقوق الضّحايا، وفضح مرتكبي الانتهاكات، والعمل على تقديم مرتكبيها للعدالة، وتوعية المجتمع السّوريّ بحقوقه، ودفع عجلة العدالة الانتقاليّة، ودعم التّغيير الدّيمقراطيّ، وتحقيق العدالة والسّلام في سوريّة، وحفظ سرديّة الأحداث وتأريخها))[21].

(20) التّقرير الإحصائي الشهري للقتلى في سوريا، مركز توثيق الانتهاكات، https://2u.pw/zjJCz

(21) من نحن، الشبكة السوريّة لحقوق الإنسان، https://2u.pw/QV3HT

وتعمل الشّبكة على رصد انتهاكات حقوق الإنسان وتوثيقها منذ بداية الثّورة، وفق قواعد بيانات أُنشئت لأرشفة الانتهاكات وتصنيفها بحسب نوعها، مع تطوير مستمرّ لآلية التّوثيق والأرشفة بما يتناسب مع المستجدات[22]، وفق منهجيّة واضحة، مبنية على مبادئ وبروتوكولات داخلية، من خلال خطوات واضحة تبدأ بـ:

أ. متابعة الأحداث اليوميّة، ومحاولة الوصول إلى مكان الحادثة، أو الحصول على بيانات الحادثة من مصادر موثوقة، ورصد كلّ ما صدر عن كل حادثة.
ب. تجميع المواد وفرزها والتّحقق من صدقها، وصلتها بالحادثة.
ت. تحليل المواد المصوّرة وتسجيل الانتهاكات فيها.
ث. التّحقق من المواد المرئيّة عبر عمليات تدقيق خاصّة في حالة عدم الحصول على معلومات أوليّة، كالتّحقق من مكان التّصوير، وتاريخ الرّفع على الشّبكة، وتحليل عناصر الفيديو ومقارنتها بصور الأقمار الصّناعيّة.
ج. المقاطعة بين المصادر البصرية وربطها مع روايات الشّهود وبقية التّفاصيل عن الحادثة.
ح. توثيق نوع السّلاح المستخدم، وطرح تصوّر لشكل الهجوم ونمطه.
خ. تحديث البيانات باستمرّار وحفظ نسخ احتياطية في أماكن آمنة.
د. التّواصل مع الشّهود، والتّوثيق من خلال المواد المرئيّة.
ذ. تقاطع المعلومات من مصادر عدة، وتحديثها باستمرّار.
ر. تحليل البيانات الواردة كلها، والتّحقيق فيها، لتحقيق هدف تقديمهم إلى العدالة في المستقبل[23].

ويصدر عن الشّبكة تقارير وجداول إحصائيّة ووصفيّة دوريّة توثق الانتهاكات، وقد وثّقت الشّبكة مقتل 229119 مدنيًا في سوريّة منذ آذار/ مارس 2011، وحتى أيلول/ سبتمبر 2022، ووثّقت اعتقال 154398 شخصًا منذ آذار/ مارس 2011، وحتى آب/ أغسطس 2022[24]. وتشارك الشّبكة المعلومات الموثّقة في قاعدة بياناتها مع الجهات الدّوليّة المختصّة بحقوق الإنسان، وقد عدّت وكالات أمميّة عدة بيانات الشّبكة السوريّة لحقوق الإنسان مصدرًا أساسيًا في توثيق الانتهاكات في سوريّة.

4. المرصد السّوري لحقوق الإنسان

هو منظمة حقوقيّة غير ربحية مستقلّة وحيادية، أسّسها رامي عبد الرّحمن عام 2006، في المملكة المتّحدة، كرست نفسها في البداية لحماية حقوق السّجناء السّياسيين وسجناء الرّأي، وانضمّ إليها مئات المدافعين عن حقوق الإنسان في سوريّة، وبعد اندلاع الثّورة السوريّة أصبح توجّه المرصد لرصد التّطورات على الأرض توثيق الانتهاكات[25].

هدف المرصد إلى توثيق انتهاكات حقوق الإنسان، وتعريف العالم بالخروقات والانتهاكات التّي يتعرض لها

(22) لبابة الهواري، مقابلة مع فضل عبد الغني، (2 تشرين/ أكتوبر الأول 2022).
(23) منهجية العمل، الشبكة السوريّة لحقوق الإنسان، https://2u.pw/HJQoa
(24) حصيلة الضّحايا المدنيين وحصيلة الاعتقال التّعسفي، الشبكة السوريّة لحقوق الإنسان، https://2u.pw/UBZ8W
(25) موقع المرصد السّوري لحقوق الإنسان، https://2u.pw/eLpUh

الإنسان في سوريّة، والقيام بحملات توعوية وحملات مناصرة لمواجهة الانتهاكات، التّنسيق مع المنظمات الدّوليّة ذات العلاقة لفضح التّجاوزات، والسّعي لمحاسبة المجرمين[26].

وتقوم آلية عمل المرصد على توثيق انتهاكات حقوق الإنسان كافّة، من قبل الأطراف كلّها، وذلك من خلال مراقبة الأوضاع، وإنتاج معلومات وتقارير دقيقة وموضوعيّة، باستخدام وسائل متعدّدة، مدعّمة بالمواد المرئيّة والشّهادات الحية، والتّغطية الميدانية.

وقد خضعت منهجيّة العمل إلى تطوير يتناسب مع المستجدات والتّحديثات التّكنولوجية، فجمع البيانات يحدث من خلال جداول ونماذج معينة، ومن ثم يجري التّحقق منها من خلال مقاطعتها مع مصادر معلومات مختلفة مثل الشّهادات الحية، والمواد المرئيّة، وما سجله الفريق الميدانيّ في حالة وجوده في المكان، ومن ثم تُعالج هذه البيانات وتُحلل وتُصدر تقارير وصفيّة وإحصائيّة توضح الانتهاكات وتوثقها، وتوصلها إلى الجهات الدولية المختصة.

ويقدم المرصد تقارير إحصائيّة ووصفيّة دوريّة، وكتيبات شهريّة، وتقارير عامة توثق انتهاكات حقوق الإنسان من جانب مختلف الأطراف، وتصدر على نحو مستمرّ وسائط متعددة تدعم تقاريره ونشاطه.

5. تجمع ثوار سوريا

أُسس تجمع ثوار سوريا (تجمع أنصار الثّورة سابقًا) في عام 2013، على يد مجموعة من النّاشطين، ويضم حاليًا أكثر من 45 عضوًا من ناشطين ميدانيين وإعلاميين في مختلف المناطق السوريّة الذّين استطاعوا على مر السّنوات بناء علاقات ثقة وصدقيّة مع أفراد المجتمع المحلي. وهدف التّجمع إلى توثيق الانتهاكات المرتكبة بحق المدنيين، وكشف الحقائق، تمهيدًا لمحاسبة مرتكبي الانتهاكات، وتحقيق العدالة، وإنصاف الضّحايا وذويهم[27].

وتقوم آلية العمل على توثيق الانتهاكات بكافّة أنواعها، مع الحرص على سلامة المصدر المباشر للمعلومات؛ من شهود عيان، وذوي الضّحايا، مع الاعتماد على التّصنيفات الواردة في القانون الدولي لحقوق الإنسان.

ويُرصد الانتهاك حال وقوعه، وفق منهجيّة تعتمد على تحليل طبيعة الانتهاك، وجمع المعلومات عنه من مصادر مختلفة، ومقاطعتها مع بعضها للتأكد من دقّتها وصحتها، وتدعيم التّوثيق بأدلّة مرئيّة، وتحديد أطراف الانتهاك، ومن ثمّ تقييم المعلومات، ومعالجتها للتّأكد من دقتها وصدقيتها، وأرشفتها بطريقة يدويّة في برامج البيانات، وحفظ نسخة احتياطيّة، ومن ثمّ فرزها عبر برمجيّات خاصّة، مع الحرص على تحديث البيانات باستمرار[28].

ويعمل التّجمع على إصدار تقارير إحصائيّة دوريّة للشّهداء يوميّة وشهريّة وسنويّة وعامّة، إضافة إلى

(26) لبابة الهواري، مقابلة مع رامي عبد الرحمن، (7 تشرين الأول/ أكتوبر 2022).

(27) لبابة الهواري، مقابلة مع عمر إدلبي، (4 تشرين الأول/ أكتوبر 2022).

(28) لبابة الهواري، مقابلة مع عمر إدلبي.

إنفوغرافيك دوريّ يوضح أعداد الشّهداء وأماكن استشهادهم، والجهات المسؤولة عن قتلهم.

6. الذّاكرة السوريّة

يعد مشروع الذّاكرة السوريّة مشروعًا علميًا لتأريخ الثّورة السوريّة وأرشفة أحداثها، وهو مبادرة سوريّة احتضنها المركز العربيّ، وما زال العمل عليها ممتدًا منذ أربع سنوات من قبل فريق من المتخصصين في هذا المجال، وتنقسم إلى أقسام عدة أبرزها اليوميّات، والتّاريخ الشّفويّ، والأرشيف ويتبع كلّ قسم منهجيّة ملائمة تتناسب مع طبيعة موضوعه، ومن المتوقع إطلاقها في ذكرى الثّورة الثّانية عشرة[29].

ويهدف المشروع إلى حفظ الذّاكرة السوريّة، والتّحول إلى مؤسّسة وطنية تعمل على حماية هذه الذّاكرة من النّسيان، وتقديم مرجع علميّ موثوق لأحداث الثّورة السوريّة جميعها، على اختلاف أنواعها[30].

تقوم آلية العمل في المشروع على منهجيّة علميّة بحثيّة، تتّبع قواعد صارمة في التّسجيل والتّحرير وتصنيف البيانات، بهدف تقديم مادة موثقة تعد مرجعًا علميًا للباحثين، والعلماء، والمختصين في هذا الشّأن.

ويتبع المشروع منهج البحث التّاريخي أو ما يعرف باسم (التّاريخ الرّاهن)، فتدوَّن المعلومات استنادًا إلى الشّهادات، ومقابلات الفاعلين والأطراف الفاعلة، وتوثيق الزمان والمكان، والمرور بعمليات تدقيق وتحرير وصياغة، مع الاعتماد على نحو أساسي على المصادر المرجعيّة الرّئيسية والمواقع الرّسميّة، والإعلاميّة الموثوقة[31].

ويعمل المشروع على إصدار سجل تاريخي شامل لما حدث في حياة السّوريين منذ تأسيس الدولة الوطنية إلى اليوم أي ما يزيد على مئة عام.

وبالنّظر إلى الجهد المؤسسي المختلف، يمكن القول إن التّقاطعات بينها بدت كبيرة في نقاط عدة، ويلاحَظ أن المنهجيّة خضعت لتطوير مع الوقت استجابة للتطورات على الأرض، وتناسبًا مع التّطور التّكنولوجي لدى المشروعات جميعها.

(29) لبابة الهواري، مقابلة مع عبد الرحمن الحاج، (3 أكتوبر/ تشرين الأول 2022).

(30) د.م، "الذّاكرة السوريّة.. أضخم مشروع علمي لتأريخ وتوثيق الثّورة السوريّة يرى النّور قريبًا"، تلفزيون سوريا، (2021)، https://2u.pw/SciRo

(31) لبابة الهواري، مقابلة مع عبد الرحمن الحاج.

ويمكن المقارنة بين المشروعات والتّجارب المؤسسية التّي وثّقت للثّورة السوريّة وأرشفتها عبر الجدول الآتي:

	الهدف	منهجيّة العمل	الأدوات	النّتائج
الأرشيف السّوري	حماية الوثائق المتعلقة بحقوق الإنسان. توثيق الجرائم المرتكبة من جميع الأطراف. دعم كل المدافعين عن حقوق الإنسان. ومناصرة الجهد المقدمة لتوثيق الانتهاكات.	جمع البيانات حفظها معالجتها التّحقق منها التّحقيق فيها مراجعتها	نماذج وصفيّة موحدة. الملاحظة. المقابلة المصادر المفتوحة	جمع: < من 3.5 مليون فيديو معالجة 650 ألف فيديو التّثبت < 8 آلاف فيديو التّحقيق < ألفي حادثة
مركز توثيق الانتهاكات	التّوثيق الدقيق والمستقل لانتهاكات حقوق الإنسان ملفة في سورية، للوصول إلى المساءلة المستقبلية وتحقيق العدالة في سوريّة المستقبل	جمع البيانات التّحقق منها مقاطعتها مع معلومات أخرى المتابعة والتّحديث	الملاحظة المقابلة المصادر المفتوحة	تقارير إحصائيّة ووصفيّة دوريّة عن المعتقلين والقتلى توثيق مقتل 239627 شخصًا تقديم أول شكوى جنائية ضد مسؤولين في المخابرات العسكرية السوريّة.
الشّبكة السوريّة لحقوق الإنسان	رصد انتهاكات حقوق الإنسان في سوريّة وتوثيقها. المساهمة في حفظ حقوق الضّحايا فضح مرتكبي الانتهاكات العمل على تقديم مرتكبي الانتهاكات إلى العدالة توعية المجتمع السّوري بحقوقه ودفع عجلة العدالة الانتقالية ودعم التّغيير الديمقراطي وتحقيق العدالة والسّلام في سورية وحفظ سردية الأحداث وتأريخها	جمع البيانات وفرزها التّحقق منها تحليلها تسجيل الانتهاكات فيها المقارنة بينها المقاطعة مع مصادر أخرى الرّبط مع روايات الشّهود تحديث البيانات باستمرّار حفظ نسخ احتياطية	الملاحظة المقابلة النّماذج والاستبانات المصادر المفتوحة	توثيق مقتل 229119 مدنيًا واعتقال 154398 شخصًا شراكات مع مؤسسات حقوقيّة أممية مهتمة بالشّأن السّوري.

المرصد السّوري لحقوق الإنسان	توثيق انتهاكات حقوق الإنسان تعريف العالم بالخروقات والانتهاكات القيام بحملات توعوية وحملات مناصرة لمواجهة الانتهاكات التّنسيق مع المنظمات الدولية ذات العلاقة لفضح التّجاوزات السّعي لمحاسبة المجرمين	جمع البيانات وفرزها التّحقق منها ومقاطعتها مع مصادر معلومات أخرى تحليلها وتسجيل الانتهاكات إصدار تقارير والتّواصل مع جهات دولية مختصة	الجداول والنّماذج الملاحظة المقابلة	تقارير إحصائيّة ووصفيّة دوريّة وكتيبات شهرية تقارير عامة توثق انتهاكات حقوق الإنسان من قبل مختلف الأطراف وسائط متعددة تدعم تقاريره ونشاطه.
الذّاكرة السوريّة	حفظ الذّاكرة السوريّة التّحول إلى مؤسّسة وطنية تعمل على حماية هذه الذّاكرة من النّسيان وتقديم مرجع علمي موثوق لأحداث الثّورة السوريّة جميعها، على اختلاف أنواعها	جمع البيانات تصنيفها بحسب نوعها توثيق الزمان والمكان التّدقيق في الصدقية مقاطعة المعلومات عمليات التّحرير وإعادة الصياغة	نماذج مصادر موثوقة رسمية المقابلة	إصدار سجل تاريخي شامل لما حدث في حياة السّوريين منذ تأسيس الدولة الوطنية إلى اليوم أي ما يزيد على مئة عام.
تجمع ثوار سوريا	توثيق الانتهاكات المرتكبة بحق المدنيين كشف الحقائق تمهيدًا لمحاسبة مرتكبي الانتهاكات إنصاف الضّحايا وذويهم	رصد البيانات تحديد طبيعته، وجمع معلومات والمقاطعة بينها. تقييم المعلومات ومعالجتها أرشفتها في جداول خاصّة وفرزها إلكترونيًا بحسب نوعها حفظ نسخة احتياطية.	الملاحظة المقابلة نماذج موحدة	إصدار تقارير إحصائيّة دوريّة للشهداء وإنفوغرافيك دوري يوضح أعداد الشّهداء وأماكن استشهادهم، والجهات المسؤولة

خامسًا: مقارنة نماذج عمل

وعلى الرغم من اتباع المؤسسات معظمها منهجية دقيقة ذات خطوات معينة، مع اختلاف ترتيبها، إلا أن النتائج تأخذ بعدًا آخر مع ملامستها للواقع، فتنعكس المنهجية المتبعة على طريقة معالجة البيانات والأخبار، والتوثيق والتفاعل مع الأحداث، ويمكن التدقيق في ذلك من خلال نماذج مختلفة:

1. النموذج الأول: خبر قصف يومي

في الثامن من شهر أيلول/ سبتمبر 2022م قصفت الطائرات الحربية الروسية محيط قرية حفسرجة بريف إدلب الغربي، ما أدى إلى استشهاد مدنيين، وأضرار مادية. وقد نُشر الخبر في كل من موقع المرصد السوري لحقوق الإنسان، وموقع الشبكة السورية لحقوق الإنسان ضمن فئة الأخبار، متضمنًا تفاصيل الأمر على النحو الآتي:

	المرصد السوري لحقوق الإنسان[32]	الشبكة السورية لحقوق الإنسان[33]
عنوان الخبر	بعد استشهاد وإصابة نحو 25 مواطنًا.. طائرات روسية تجدد القصف على ريف إدلب	مجزرة بحق مدنيين إثر قصف جوي روسي قرية حفسرجة في إدلب في 8-9-2022
عدد الشهداء	استشهاد 7 مواطنين	6 مدنيين على الأقل، بينهم طفلان
عدد الجرحى	إصابة 15 مواطنًا	إصابة ما يقارب 11 مدنيًا بجراح
الأضرار المادية	منشرة ومنزل	منشرة لقص الحجر ومنازل يُقيم فيها مدنيون قرب المنشرة شظايا القصف قد تطايرت إلى مخيم عشوائي للنازحين يقع على بعد قرابة 200م من منشرة قص الحجر، كما تسبب القصف بدمار كبير في بناء المنشرة
نوع السلاح	3 طائرات روسية	4 طائرات ثابتة الجناح يعتقد أنها روسية

(32) د.م، "بعد استشهاد وإصابة نحو 25 مواطن.. طائرات روسية تجدد القصف على ريف إدلب"، موقع المرصد السوري لحقوق الإنسان، https://2u.pw/MhaXa

(33) د.م، "مجزرة بحق مدنيين إثر قصف جوي روسي قرية حفسرجة في إدلب في 8-9-2022"، موقع الشبكة السورية لحقوق الإنسان، https:///2u.pw/kogDN

تفاصيل الخبر	طائرات جوية روسية، استهدفت منشرة حجارة ومنزل عند أطراف قريتي الشيخ يوسف-حفسرجة ومناطق في سهل الروج غربي مدينة إدلب. كما تعرضت المنطقة لقصف بصاروخ أرض-أرض محمل بقنابل عنقودية. وارتفع عدد الضربات الجوية الروسية إلى 14 غارة، وصاروخ أرض-أرض.	أربع طائرات ثابتة الجناح نعتقد أنها روسية شنّت قرابة 16 غارة بالصواريخ على مناطق جبلية تقع في أطراف قريتي الغفر وحفسرجة غرب محافظة إدلب، إحدى هذه الغارات تسببت بوقوع المجزرة جنوب قرية حفسرجة.
وجود صور خاصة	لا يوجد	وجود صورة خاصة بالشبكة توضح الدمار وآذار الدماء
تفاصيل أخرى	لا يوجد	ضم الخبر توضيحًا للخروقات التي قامت بها القوات الروسية بهذا القصف: -خرق لاتفاق وقف إطلاق النار الذي تم التوصل إليه بعد مشاورات بين الرئيسين التركي والروسي، والذي دخل حيّز التنفيذ في 6-3-2020. - خرق لقراري مجلس الأمن رقم 2139 و2254 القاضيَين بوقف الهجمات العشوائية. - انتهاك قواعد القانون الدولي الإنساني الخاصة بالتمييز بين المدنيين والمقاتلين
طرائق توثيق المعلومة	الفرق الميدانية إفادات الشهود مقابلات مع الجهات المختصة على الأرض	الفرق الميدانية إفادات الشهود مقابلات مع الجهات المختصة على الأرض

ويتضح من الجدول السابق أن هناك تفاوتًا بين المرصد والشبكة في توثيق الخبر، بدءًا من العنوان إذ عدّه المرصد قصفًا، فيما صنفته الشبكة مجزرة بحق المدنيين، وفقًا للمنهجية التي تتبعها في التصنيفات والتسميات، إذ تستند إلى التعريفات والتصنيفات الواردة في القانون الدولي لحقوق الإنسان، والقانون الدولي الإنساني، فالمجزرة وفقًا للقانون الدولي هي مقتل ما يزيد على خمسة أشخاص في مكان واحد، وهذا ما يؤكد التزام الشبكة بمنهجيتها، والأساس المنهجي الذي بني عليه عملها.

ويتضح الفرق في توثيق الضحايا والجرحى، ويمكن إيعاز ذلك إلى الآلية المتبعة في التوثيق، والخطوات والمراحل التي تمر بها في كل مؤسسة، والتوقيت الذي وصلت فيه الفرق الميدانية إلى مكان الحادثة، والتطورات

التي حدثت بعد الحادثة فقد يستشهد أحد المصابين بعد ساعات عدة من الحادثة أو في اليوم التالي، ما يؤدي إلى اختلاف في الأعداد، كذلك يمكن إيعاز هذه الفروقات إلى شبكة العلاقات المحلية التي استطاعت الفرق الميدانية تكوينها مع الجهات المختصة، من كوادر طبية، وطواقم الدفاع المدني، وشهود عيان وغيرها، وقدرتها على جمع البيانات من جهات متعدد ومقاطعتها للتثبت منها.

وتؤكد الصورة الحصرية المرفقة في الخبر عند الشبكة السورية لحقوق الإنسان بيانات الخبر المتعلقة بمكان القصف (المنشرة، والمنازل)، إذ تتيح الفرصة لمقاطعة المعلومات مع إفادات الشهود.

كذلك فإن الخروقات القانونية الدولية التي ارتكبتها القوات الروسية وأشارت إليها الشبكة السورية لحقوق الإنسان في الخبر الصادر تؤكد المنهجية القانونية التي تعتمدها الشبكة، وتتبعها في تقاريرها العامة واليومية.

وعلى الرغم من استناد المرصد السوري لحقوق الإنسان إلى القوانين الدولية لحقوق الإنسان؛ إلا أنه لم يعرج على ذكرها في الخبر، ولم يتطرق إلى الانتهاكات التي ارتكبتها القوات الروسية بهذا القصف، كذلك لم يصنف الخبر منذ بداية تحت اسم المجزرة، على الرغم من تطابق حالة الخبر وعدد الضحايا مع تعريف المجزرة في القانون الدولي، ما يوضح أن المنهجية القانونية الدولية غير واضحة في تقارير المرصد اليومية.

2. النموذج الثاني: إحصائية عدد الشهداء

وثقت جهات عدة عدد الشهداء الكلي منذ بداية الثورة، وحتى شهر أيلول/ سبتمبر 2022م، وقد اقتصر توثيق بعض الجهات على الضحايا المدنيين فحسب، فيما وثقت جهات أخرى الشهداء كافة على اختلاف تصنيفهم. ومن هذه الجهات التي وثقت:

الجهة الموثقة	عدد الشهداء
تامر تركماني	< 225000 شهيد
الشبكة السورية لحقوق الإنسان	229119 مدنيًا

على الرغم من أن الشبكة السورية لحقوق الإنسان توثق الشهداء المدنيين فحسب؛ إلا عدد الشهداء الموثقين لديها يزيد على عدد الشهداء الموثقين عند تامر تركماني بما يزيد على أربعة آلاف شهيد.

ولعل هذا يوضح منهجية العمل بين التجربة المؤسسية والتجربة الفردية، فاعتماد الشبكة على سلسلة من الخطوات قبل توثيق الضحايا، مع وجود فرق ميدانية، وفرق تعمل على التحليل والتأكد، إضافة إلى البرمجيات

المساندة، يؤدي إلى دقة في التوثيق وقدرة على تغطية مناطق أوسع، وقدرة على الوصول، إضافة إلى شبكة العلاقات المحلية والعالمية التي بنتها الشبكة على مدار السنين، الأمر الذي أسهم في دقة بياناتها وصحتها.

ولعل اعتماد تركماني على توثيق الشهداء من التنسيقيات والمراكز الإعلامية بداية، ثم من تواصل الأفراد معه بعد ذلك، جعل الوصول والقدرة على دقة التوثيق محدودين.

3. النموذج الثالث: مجزرة الكيماوي في الغوطة 21 آب/ أغسطس 2013

في يوم الأربعاء 21 آب/ أغسطس 2013، بعد منتصف الليل بما يقارب ثلاث ساعات، قصفت قوات النظام براجمات الصواريخ مدينة زملكا، ومدينة عين ترما، والمنطقة الفاصلة بين زملكا وبلدة حزة، والمعضمية بصواريخ محملة برؤوس كيماوي، ما أدى إلى سقوط مئات الشهداء من المدنيين.

	الشبكة السورية لحقوق الإنسان[34]	مركز توثيق الانتهاكات[35]	المرصد السوري لحقوق الإنسان[36]
المادة التي صدرت	تقرير	تقرير	بيان
تاريخ كتابة المادة	26 آب/ أغسطس 2013	25 آب/ أغسطس 2013	22 آب/ أغسطس 2013
عدد الشهداء	613 شهيدًا	1302 شهيد	322 شهيدًا
طريقة التوثيق	مقابلات وإفادات الشهود والكوادر الطبية	مقابلات وإفادات الشهود والكوادر الطبية	مقابلات وإفادات الشهود والكوادر الطبية
محتويات المادة	مقدمة شرحت الحادثة تحديد نوع السلاح مقابلات مع شهود وكوادر طبية ذكر أعراض الإصابة مقاطع فيديو صور ثابتة القوانين الدولية التي تحظر استخدام الأسلحة الكيماوية استنتاجات قانونية المسؤولية والتعويض التوصيات	مقدمة شرحت الحادثة خريطة توضح أماكن الاستهداف وصف الحالة وفقًا للشهود العيان منذ بداية القصف ولحظات الإسعاف الأولى حالة المستشفيات الميدانية أعراض الإصابة صور ثابتة مقاطع فيديو إحصائية بعدد الشهداء وتوزعهم بين المناطق خاتمة مع توصيات	ذكر الحادثة وعدد الشهداء ذكر آلية التأكد من العدد والتوثيق دعوة المجتمع الدولي إلى التدخل ذكر ما قام به المرصد منذ وقوع الحادثة

(34) د.م، "ثاني أكبر هجوم بالأسلحة الكيميائية على المدنيين في العالم في العصر الحديث"، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، https://2u.pw/sgaW2

(35) د.م، "تقرير خاص حول استخدام السلاح الكيماوي في محافظة ريف دمشق"، مركز توثيق الانتهاكات في سوريا https://2u.pw/ZljT6

(36) د.م، "مئات الشهداء ضحايا الغازات السامة في ريف دمشق"، المرصد السوري لحقوق الإنسان، https://2u.pw/YKQa0

يظهر تباين واضح بين الجهات الثلاثة في توثيق مجزرة الكيماوي، على الرغم من ظهور المواد المتعلقة بالمجزرة في تواريخ متقاربة من بعضها، ومن تاريخ المجزرة كذلك، فأخذ التوثيق عند الشبكة السورية لحقوق الإنسان الشكل القانوني، ووثقت الأعداد وفقًا للسياسة المتبعة في الشبكة، مع توضيح أن هذه ليست الحصيلة النهائية نتيجة لصعوبة الوصول ولكثرة الشهداء. وذُكر السلاح المستخدم، والآلية التي حدث بها الأمر بشكل مفصل، كذلك فقد ذكرت القوانين التي تحظر الأسلحة الكيماوية، وانتهكتها قوات النظام في القصف، مع التركيز على جملة من التوصيات للمجتمع الدولي بضرورة التدخل ومحاسبة الفاعلين، ودعم التقرير بكثير من الملحقات المكونة من صور وفيديوهات وإفادات الشهود.

وفي مركز توثيق الانتهاكات في سوريا جرى التوثيق في اليوم التالي مباشرة عبر زيارات ميدانية للنقاط الطبية، والمقابلة مع الشهود، والتركيز على الحالة في النقاط الطبية والمستشفيات الميدانية منذ لحظة القصف وحتى الدفن، إلا أن إحصائية عدد الشهداء في نهاية التقرير هي من المكتب الثوري الطبي الموحد، وليست من توثيق المركز نفسه، ودعم التقرير كذلك بمجموعة من الملحقات المتعلقة بالمقابلات وإفادات الشهود، والصور والفيديوهات.

وجاء بيان المرصد السوري لحقوق الإنسان خاليًا من المقدمات، ورُكز فيه على جهد المرصد في توثيق عدد الشهداء، وجهد المرصد منذ وقوع الحادثة في التواصل مع الجهات الدولية المعنية، وخُتم البيان بالمناشدات، وتحميل المجتمع الدولي المسؤولية.

ويتبين من المنهجية التي عولجت الحادثة بها عند الجهات الثالثة، أن الشبكة ثبتت على منهجيتها على الرغم من صعوبة الحادثة وعدد شهدائها الكبير، وتسلسل تقريرها على نحو منهجي يوضح الحالة مع التركيز على الجانب القانوني، وإصدار توصيات مناسبة.

فيما حمل تقرير مركز الانتهاكات وصفًا للنقاط الطبية والمستشفيات الميدانية، مع التدعيم بالأدلة، ولم يقم بتوثيق الشهداء وإنما اكتفى بالإحصائية من المركز الطبي الموحد، أي إن منهجيته لم تظهر في التعامل مع الحادثة، وغلب الوصف على التقرير القانوني الموجه للجهات المعنية.

إلا أن بيان المرصد السوري لحقوق الإنسان جاء توضيحًا لخطوات عمل المرصد بخصوص الحادثة ونداءات استغاثة، من دون التطرق إلى أي أدلة أو صور، أو ذكر للمادة القانونية التي انتهكتها قوات الأسد، كذلك لم يصدر تقرير منهجي مفصل عن الحادثة في تلك الفترة من المرصد واكتُفي بالبيان الذي صدر.

وهذا يوضح أن منهجية العمل عند المؤسسات لا تُطبق على نحو دائم بالدقة ذاتها، ويتفاوت الالتزام بها بين مؤسسة وأخرى وفقًا للمرجعية التي تتمسك بها المؤسسة، وللمهنية في تطبيق المنهجية.

سادسًا: الخلاصة والنّتائج

1. تعدّ التّجارب الفرديّة في التّوثيق والأرشفة لأحداث الثّورة السوريّة وضحاياها تجارب محدودة وقليلة.
2. هدفت التّجارب الفردية إلى حفظ أحداث الثّورة السّوريّة من محاولات النّظام التّشويه والتّزوير، وهدفت إلى المحافظة على تاريخ الثّورة بتفاصيله كلها.
3. تنوّعت التّجارب المؤسسية ما بين جهد توثيقي وأرشيفيّ، وهدفت في معظمها إلى جمع الاثنين معًا.
4. عملت التّجارب المؤسسية وفق رؤية واضحة، وخطة سير دقيقة، وآلية عمل منهجيّة، تخضع لقواعد علمية.
5. تطورت منهجيّة العمل في التّجارب المؤسسية استجابة للظروف، ومواكبة للأحداث، وتماشيًا مع التّكنولوجيا.
6. اشتركت التّجارب المؤسسية جميعها في أدوات جمع البيانات، واعتمدت جميعها على الملاحظة والمقابلة، وهما أداتان أساسيتان في العمل التّوثيقي، إذ تعد مراقبة الأحداث ومتابعتها، ومقابلة الجهات الفاعلة، وشهود العيان، وذوي الضّحايا، والكوادر الطبية، وطواقم الدفاع المدني، والمقاتلين، وغيرها من أهم طرائق جمع البيانات.
7. اعتمدت التّجارب المؤسسية في منهجيتها على خطوة مقاطعة المعلومات من مصادر مختلفة بهدف التّحقق والتّثبت ومنع التّضليل.
8. استخدمت بعض التّجارب المؤسسية استبانات ونماذج موحدة، بهدف ضبط تدوين البيانات والمعلومات، وسهولة التّعامل معها.
9. حملت التّجارب المؤسسية الطابع القانوني وسعت في معظمها إلى توثيق الانتهاكات بهدف محاسبة المجرمين وتقديمهم إلى العدالة.
10. استطاعت التّجارب المؤسسية تحقيق تأثير عالمي في المنظمات الحقوقيّة والأمم المتحدة.
11. أسهمت التّكنولوجيا في تيسير العمل في مجال التّوثيق والأرشفة وتسهيله، والوصول إلى الرّأي العام العالمي.
12. أدت التّجارب المؤسسية إلى نتائج أكثر دقة من التّجارب الفردية في مجالي الأرشفة والتّوثيق.
13. تفاوتت التجارب المؤسسية في دقة منهجيتها في أثناء معالجة الأحداث، فتمسك البعض بالمنهجية كاملة، في ما غابت خطوات أساسية في المنهجية عن جهات أخرى.

14. تجاوز خطوات أساسية من منهجية العمل في أثناء التوثيق يضعف من صدقية العمل.

15. وضوح الجهد الريادي للأفراد الذين بادروا إلى التوثيق قبل نشوء مجموعة من المؤسسات الكبرى.

سابعًا: التّوصيات

1. تبني التّجارب الفردية من قبل التّجارب المؤسسية، لا سيما أن بعض التّجارب الفردية تنادي بهذا الأمر، أو العمل على إيجاد صيغة تعاون ومتفاهم بين الطرفين بحيث يُستفاد من المواد المؤرشفة والموثقة بما يخدم الشّعب السوريّة والقضية.

2. تقديم الدعم للتجارب الفردية ما يسهم في جعلها مؤسسات منظمة.

3. توحيد جهد المؤسسات المؤسسي، عبر مذكرات تفاهم، وتبادل للمعلومات، بما يصب في المصلحة العامة.

4. الالتزام بالمنهجية العلمية في التوثيق في جميع الأحداث ينتج موادًا ذات صدقية عليا.

5. دعم أي جهد يثمر في إطار التّوثيق والأرشفة، لا سيما من جانب النّاشطين الميدانيين على الأرض.

المصادروالمراجع

1. الجمل. شوقي، علم التّاريخ نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى، (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1997).
2. الشّريف. أشرف عبد المحسن، الإدارة الحديثة للوثائق التّاريخية، ط1، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2011).
3. الفيروز آبادي. مجد الدين، القاموس المحيط، ط8، (بيروت: مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنّشر، 2005).
4. الهوش. أحمد، الأرشفة الإلكترونية الأسس والنّظرية، ط1، (القاهرة: دار حميثرا للنشر والتّرجمة، 2018).

الكيانات السياسية في سوريا خلال القرن الرابع عشر ق.م

فاروق إسماعيل[1]

أولًا: ملخص

كانت الأراضي السورية الحالية مقسّمة خلال القرن الرابع عشر ق.م بين ثلاثة عشر كيانًا سياسيًا مستقلًا. وسعى حاكم كل منها إلى المحافظة على سلطته، فاختلفوا وتحاربوا، ولجأ معظمهم إلى الاستقواء بإحدى القوى الكبرى المجاورة (المملكة المصرية، الحثية، ميتاني)، وارتبط بها بالولاء والتبعية بغية طلب الدعم والحماية عند الحاجة.

يبدأ البحث بتحديد الإطار الجغرافي العام للبحث ومصادره، ويعرض لمحة تعريفية بالقوى الكبرى التي انهمكت في الصراع حول سوريا، ثم ينتقل إلى الجانب الأساس في البحث، ألا وهو رسم تصور شامل عن خريطة الكيانات السياسية في سوريا آنذاك، فيقسمها إلى خمسة أقسام، هي:

1. مملكة ميتاني الحوريّة في مناطق شرقي الفرات (الجزيرة السورية).

2. الكيانات الشمالية (أشتاتا، حلب، موكيش).

3. الكيانات الوسطى (نُخَشّي، نيا، تونيب، قَطْنا، كنْزا/قادش).

3. الكيانات الساحلية (أوجاريت، سيّانو، أمورو).

4. دمشق في الجنوب.

ويهدف البحث إلى وصف الأوضاع في سوريا خلال تلك المدة العصيبة، وتحليل طبيعة الصراعات الداخلية السورية، وأطماع القوى الخارجية المجاورة. ويلمح البحث إلى مقاربة شديدة مع الواقع السوري المعاصر، منذ بدء الثورة السورية 2011.

(1) أكاديمي وباحث سوري، أستاذ فقه اللغات السامية وحضارات الشرق القديم في جامعة برلين الحرة.

ثانيًا: مقدمة

يستخدم البحث تسمية (سوريا) بدلالتها الجغرافية الحديثة، وبصفتها جزءًا من بلاد الشام التي تشمل لبنان وفلسطين والأردن أيضًا. لم تكن الأراضي السورية الحالية مقسمة -من حيث الكيانات السياسية المتعددة الحاكمة فيها كما كانت خلال القرن الرابع عشر ق.م- فقد بلغت ثلاثة عشر كيانًا مستقلًا، تصارع حكامها مرارًا، ولم تكن قادرة على الاستمرار في الوجود زمنًا طويلًا اعتمادًا على قواها الخاصة، سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا، ولذلك كانت مضطرة إلى اختيار إحدى الممالك الكبرى (المصرية، الحثية، ميتاني) حليفًا ترتبط به بالولاء طلبًا للدعم والحماية.

هذه إشكالية تاريخية تحتاج إلى توضيح، ولذلك يهدف البحث إلى عرض لمحة عن تلك الكيانات السياسية، وقبل ذلك التعريف بالقوى الكبرى المحيطة التي كانت ترقب التطورات الداخلية في سوريا، وتقف إلى جانب كيان ضد آخر؛ بما يناسب مصالحها، وطبيعة تلك الصراعات، وأحداثها، وأهدافها، ونتائجها. وسوف يعتمد البحث منهجًا وصفيًا تحليليًا؛ حيث سيتم وصف الأحداث التاريخية وربطها وتحليلها بأسلوب يوضح أهداف البحث المبتغاة.

تكمن أهمية البحث في أنه يضيء الأوضاع في سوريا خلال مدة عصيبة لم تشهد خلالها الاستقرار، وهي تثير في الذهن صورة الأوضاع السائدة فيها في الزمن المعاصر؛ منذ أكثر من عشر سنوات، وتستدعي المقاربة والمقارنة.

اعتمد البحث على مصادر كتابية عديدة من القرن الرابع عشر ق.م، هي:

- أرشيف الوثائق المدوّنة بالكتابة المسمارية المقطعية واللغة الأكّدية (البابلية الوسيطة) المكتشف في تل العمارنة (جنوبي مدينة المنيا- مصر). ومعظم هذه الوثائق رسائل أرسلها ملوك الممالك الكبرى في الشرق القديم (الميتانية، البابلية، الحثية) وعدد كبير من ملوك ممالك بلاد الشام (الصغرى) وحكامها وزعمائها إلى ملوك من الأسرة الثامنة عشرة الحاكمة في مصر وممثليهم الكبار. وهي تغطي حقبة قصيرة نسبيًا، تبلغ حوالى ربع قرن (حوالى 1360-1335 ق.م).[2]

- الوثائق المكتشفة في أوجاريت Ugarit)) (رأس شمرا، قرب اللاذقية) التي دُوّن معظمها بكتابة مسمارية خاصة (أبجدية) أبدعت في أوجاريت، وبلغةٍ محلية تُعرف باللغة الأوجاريتية، وأخرى بالكتابة المسمارية المقطعية، وبلغات عدة (الأكّدية، السومرية، الحورية، الحثية)، تعود إلى القرون 14-12 ق.م.[3]

- الوثائق المكتشفة في العاصمة الحثية خَتّوشا (attušaḪ) (بوغاز كوي، شرقي أنقرا)، وهي مدوّنة بالكتابة المسمارية المقطعية، واللغات الحثية والأكّدية والحورية، تعود إلى القرون 13-17 ق.م.[4]

---

(2) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة الدولية "وثائق مسمارية من القرن 14 ق. م"، (دمشق: دار إنانا، 2010).

(3) الوثائق منشورة ضمن السلسلة العلمية:

PRU = Le palais royal d'Ugarit, (Paris: Mission de Ras Shamra).

(4) يبلغ عددها حوالى ثلاثين ألف وثيقة، وهي منشورة ضمن السلسلتين العلميتين:

.(KBo = Keilschrifttexte aus Boghazköi, (Leipzig: J. C. Hinrichs'sche Buchandlung

- أرشيف القصر الملكي في قطنا (Qaṭna) (تل المشرفة، 17 كم شمال شرقي حمص) الذي تضمن رسائل ووثائق إدارية وقانونية، ويعود إلى أواسط القرن الرابع عشر ق.م؛ قبيل قيام الحثيين بتدمير المدينة.[5]

ثالثًا: المشهد التاريخي العام في الشرق القديم

تساعد المصادر الكتابية على إضاءة المشهد التاريخي العام في الشرق القديم آنذاك، ومعرفة طبيعة التحالفات والصراعات، وتبدلات موازين القوى السياسية، وأشكال النفوذ السياسي، وتغيّر الولاءات وطبيعتها، وغير ذلك من جوانب التاريخ السياسي.

كانت هناك قوتان سياسيتان خارجيتان تؤثران في أوضاع سوريا وبلاد الشام وتبدلاتها إبّان القرن الرابع عشر ق.م، هما المملكتان المصرية والحثّية، وسنعرض في ما يأتي لمحة موجزة عنهما:

1. المملكة المصرية

حكم في بداية القرن تحتمس الرابع(1391-1401) (Thutmose IV ق.م)، وواجه في مطلع عهده تجدد التمردات ضد النفوذ المصري في سوريا، وانتهج سياسة جديدة، إذ تحالف مع مملكة ميتاني الحورية في الجزيرة السورية، وصاهر ملكها أَرْتَتما الأول(Artatma I) (حوالى 1400-1380 ق.م)، ونشأت بينهما علاقات وطيدة، وتم اتفاقهما على تنظيم الحدود المشتركة بينهما في سوريا، فكانت حدود مناطق النفوذ المصري تمتد في المناطق الساحلية، أكثر من الداخلية، وتشمل أوجاريت. أما في وادي العاصي فكانت الحدود تمتد ضمن منطقة سهل حمص تقريبًا.

أدى هذا إلى أن تكون الفترة التالية؛ بدءًا من حكم أمنحتب الثالث (1352-1390) (Thutmose III ق.م) فترة سلام وازدهار، وتوقف الأعمال العسكرية المصرية في بلاد الشام، وبانتقال الحكم إلى أمنحتب الرابع (1352-1336 ق.م) تحوّل الحكم من سلطان عُرف بميله إلى اللهو والترف إلى فيلسوف، أو داعية سلام وعدل تركز جلّ اهتمامه على نشر عبادة آتون الذي أعلنه في العام السادس من عهده إلهًا واحدًا للبلاد، وتلقّب باسم جديد: آخِن آتون، أخناتونAkhnaten))، وقرر بناء عاصمة جديدة، بدلًا من طيبة (الأقصر)، هي آخت آتون (Akhetaton) (تل العمارنة) وانتقل إليها.

اصطدم أخناتون بمواجهة من الكهنة الذين كانت معابد الآلهة الكثيرة تفيدهم اقتصاديًا، وتوقفت ضرائب معابدهم المفروضة على التجارة مع بلاد الشام، وتضررت بلاد الشام بسبب إهمال القصر الملكي المصري لشؤونها، لأن أخناتون نذر على نفسه ألا يبرح عاصمته.

ولذلك سارت المملكة نحو الانهيار بدءًا من العام الثاني عشر من عهده (1341 ق.م)، كما تضررت مملكة

KUB = Keilschrifturkunden aus Boghazköi, (Berlin, Staatlichen Museen).

(5) Thomas Richter, „Das Archiv des Idanda“, (Berlin: Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft, 135, 2003) 167-188; Thomas Richter, Sarah Lange, Das Archiv des Idadda, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2014).

ميتاني (Mittani) كثيرًا من هذا الوضع، وانقطعت العلاقات الحسنة بعد سنوات قليلة من بدء حكم أمنحتب الرابع.

ثم حكم سمنخ كارع (Smenkhkare) (1332-1335 ق.م) ومات في آخت آتون، وبعده أعاد توت عنخ آمون (1332-1323/1322) (Tut Ankh Amun ق.م) الحكم إلى طيبة، ولكنه كان طفلًا فتولت المؤسسة الكهنوتية الحكم عمليًا، وانصرف الكهنة إلى استعادة نفوذهم ومكاسبهم، ثم حكم آي (Ay) فترة قصيرة، وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو حور محب (1295-1322) (Horemheb ق.م) الذي نجح في إجراء إصلاحات إدارية داخلية متميزة.[6]

2. المملكة الحثّية

تقع بدايات القرن الرابع عشر ق.م ضمن مرحلة حكم المملكة الحثية الوسطى التي دامت حوالى قرن من الزمان، وتفاصيلها غير واضحة تمامًا. حكم خلالها خمسة ملوك، أشهرهم تودخاليا الثاني (Tudḫaliya) (نحو 1385 ق.م) الذي حارب الحوريين في شمال شرقي سوريا بضراوة، وأجلى عددًا كبيرًا منهم إلى عاصمته خَتّوشا، وفي شماليها أرغم حلب على العودة إلى السيادة الحثية.

نشبت ثورات عدة في أطراف المملكة في عهد الملك التالي تودخاليا الثالث (حوالى 1353 ق.م)، وتمزقت البلاد، فاستغل الحوريون ذلك، وعبروا الفرات نحو الشمال، واحتلوا المناطق الجبلية، وتقلصت المملكة الحثية إلى حد كبير. وقويت مملكة أرزاوا (Arzawa) المجاورة في المنطقة الساحلية الجنوبية (محيط مرسين)، وباتت تشكل خطرًا عليها، وبدأت مصر تسعى إلى عقد صلات معها، ولكن ذلك لم يتحقق لبروز شأن شوبيلوليوما (Šuppiluliuma) ابن الملك الحثي الذي صار يقود حملات عسكرية، ويقمع التمردات، حتى استلم العرش بعد وفاة والده.

بدأت مرحلة تاريخية جديدة تدعى (المملكة الحثية الحديثة) بحكم شوبيلوليوما (الأول) 1343-1322/1323 ق.م، وشهد عهده نشاطًا سياسيًا وعسكريًا مكثفًا في مناطق سوريا الشمالية؛ بعد احتلال كركميش (Karkamiš) (جرابلس)، وانهارت مملكة ميتاني، وتحسنت العلاقات مع المملكة البابلية، وتعاصر ذلك مع اضطراب الأوضاع في مصر بعد موت توت عنخ آمون الذي لم يخلّف ابنًا يرثه.

وتقع في هذا السياق التاريخي الرسالة المفاجئة التي أرسلتها أرملة الملك المصري إلى شوبيلوليوما، وهو يحاصر مدينة كركميش، تطلب فيها منه أن يرسل إلى مصر أحد أبنائه ليتزوجها. وقد لبّى شوبيلوليوما طلبها، بعد التحقق من صحة نواياها، وأرسل أحد أبنائه، ولكنه قُتل قبل وصوله إلى البلاط المصري، ويرجح أن ذلك تم بيد رجالٍ حرّضهم القائد العسكري المصري آي الذي استلم الحكم بعد ذلك.

لقد أدرك شوبيلوليوما أهمية موقع مدينة كركميش على الفرات وفي وسط الشمال السوري، فجعلها مركزًا عسكريًا وإداريًا متخصصًا بالشؤون السورية، منه تنطلق الحملات العسكرية، وإليه ترد التقارير اللازمة عن

(6) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، 32-37.

الأوضاع داخل سوريا، وقد احتفظت بهذا الدور حتى نهاية المملكة الحثية في مطلع القرن الثاني عشر ق.م.[7]

خلّفه في الحكم ابنه أرنو وندا (Arnuwanda) (الثاني) لثلاث سنوات فقط، ثم حكم ابنٌ آخر له، هو مورشيلي الثاني (1295-1321) (Muršili ق.م) الذي تشير تقارير سنواته الأولى إلى أن المملكة كانت مهددة بأخطار داخلية وخارجية. ففي سوريا حصلت تمردات في نُخَشّي (Nuḫašši) وقادش (Qadiš) خلال سنة حكمه التاسعة (1310 ق.م)، فزحفت قواته إلى هناك، وأمر بتغيير حاكم نخشّي، وحرق محاصيل البلاد، ثم احتل قادش. ولضبط الأوضاع في شمالي سوريا؛ عيّن حاكمًا جديدًا في كركميش، وجعل ابنه تَلْمي شرّوما (Talmi-šarruma) ملكًا على حلب، وتابع فرض السيادة الحثية على الممالك الساحلية الثلاث: أوجاريت، سيانو (Siyānu)، أمورو(Amurru). ومن ثم يمكن القول إنه سيطر على المناطق الشمالية والداخلية والساحلية، باحتلال مباشر أو بفرض الولاء والتبعية.[8]

رابعًا: الخريطة السياسية في سوريا

يعدّ القرن الرابع عشر ق.م مرحلة تفتت في سوريا وبلاد الشام عامة، فقد نشأت فيها ممالك صغيرة أو إمارات كثيرة موزعة في شتى المناطق، وكان معظمها يشغل رقعة جغرافية صغيرة تقتصر على مدينة مركزية (عاصمة) ومناطق محيطة بها، باستثناء مملكة ميتاني الحورية في الجزيرة السورية، ولم يهنأ معظمها بالاستقرار، لذلك نجد أن المنجزات الحضارية؛ العمرانية والفنية، فيها ضئيلة نسبيًا.

كانت هذه الكيانات ضعيفة ومضطرة إلى الولاء والاحتماء بإحدى المملكتين (المصرية، الحثية)، طلبًا للدعم والحماية عند اللزوم. وسنعرض لمحة عمّا يوضح الخطوط الأساسية لتاريخها خلال هذا القرن، ونركز على طبيعة علاقاتها الداخلية والخارجية. يمكن تقسيمها إلى مجموعات؛ بحسب الأطر الجغرافية، هي:

1. مملكة ميتّانّي (Mittani) الحورية في الجزيرة السورية

شكل الميتانيون هجرة ثانية من الموطن الأم للحوريين في محيط بحيرة وان (Van) (جنوبي شرق تركيا) إلى مناطق الجزيرة السورية وطور عابدين خلال القرن السابع عشر ق.م، ثم استطاعوا تشكيل مملكة جديدة مع أبناء جلدتهم الحوريين المقيمين هناك منذ القرن الثالث والعشرين ق.م، واتخذت وَشّوكاني (Waššukanni) (ربما تل فخيرية بجوار مدينة رأس العين) عاصمة لها.

دخلت المملكة في صراعٍ دامَ حتى القرن الخامس عشر ق.م مع المملكة الحثية في بلاد الأناضول التي كانت تريد التوسع جنوبًا وشرقًا. وفي أواسط القرن الخامس عشر ق.م امتد نطاق نفوذ مملكة ميتاني غربي الفرات، فقد احتلت حلب وموكيش (Mukiš)، وتوسعت نحو البحر المتوسط وشمالي حمص،[9] حيث قامت كيانات سياسية

(7) N. Marchetti, (Ed.) Karkamish. An Ancient Capital on the Euphrates, (Bologna: 2014) 86-98.

(8) Horst Klengel, Geschichte des hethitischen Reiches, (Leiden.Boston.Köln: Brill, 1999) 196-200.

(9) Peter Pfälzner, Levantine Kingdoms of the Late Bronze Age, In: Daniel T. Potts, (Ed.) Companion to the Archaeology of the Ancient Near East,

عدة يحكمها حكام ميتانيون أو محليون تابعون لميتاني، ما أثار قلق الملك المصري تحتمس الثالث، فسار سنة 1447 ق.م بحملة إلى سوريا، وتغلغل في الأراضي الميتانية، ثم تتالت حملاته حتى حملة سنة 1438 ق.م التي قمع خلالها ثورة في تونيب وقادش بدعم ميتاني.[10]

استمر الصراع الميتاني – المصري حول السيادة على سوريا الشمالية والوسطى حتى عهد الملك الميتاني أرتتما الأول (نحو1380-1400 ق.م) الذي وقّع معاهدة مع الملك المصري تحتمس الرابع، فبدأت مرحلة السلام والمصاهرات وتبادل الهدايا، ووقفت القوتان معًا في وجه الأطماع الحثية.

واستمر ذلك في عهد شُتّرنا الثاني (1365-1380) (Šuttarna II ق.م)، ثم شهدت المملكة اضطرابات بعد موته، لأن الحثيين كوّنوا تيارًا معاديًا للتحالف الميتاني–المصري ضمن البلاط الميتاني نفسه، ودبّروا مؤامرة اغتيال وريث العرش أرتشمارا (Artašumara) ليصل تشرتا (Tušratta) الموالي لهم إلى الحكم. ولكن تُشْرَتّا (1335-1365 ق.م) انقلب ضدهم بسرعة، وأعاد توطيد العلاقات مع مصر بشكل أقوى من ذي قبل.

عاصر تُشْرَتّا أمنحتب الرابع/أخناتون (Akhnaton)، وكانا حريصين على استمرار التحالف، ولعبت تي الملكة المصرية (الأم) دورًا إيجابيًا في ذلك، كما إن اقتران الملك المصري في مطلع حكمه بالأميرة الميتانية تادو خبا (Tadu-Ḫeba) شكّل سندًا متينًا لتحالفهما. ولكن الوضع تبدل فجأة، وبدأت العلاقات تفتر، مما فسح المجال أمام الحثيين لمحاربة ميتاني بشدّة، وبدأت ميتاني تضعف رويدًا رويدًا، فاستقلت موكيش وحلب، واضطربت الأوضاع الداخلية في ميتاني، وتم اغتيال تُشْرَتّا على يد أحد أبنائه، وقام شترنا الثالث -ابن أرتتما الثاني الذي كان قد تمرد، وأعلن حكمًا ميتانيًا مستقلًا في تَئيد (Ta'idu)- بثورة يدعمه الآشوريون فيها، واحتل العاصمة وَشّوكاني، ثم استعادها شَتّي وازا (attiwazaš) بعد تعاونه مع شوبيلوليوما ومصاهرته له.

كانت مناطق مملكة ميتاني في أواخر القرن الرابع عشر ق.م مقتصرة على مناطق مثلث الخابور، وفيها عاصمتان؛ وَشّوكاني في الغرب، تئيد في الشرق، ثم اختفى دورها في سوريا الشمالية والداخلية. ولذلك سهل على الحثيين فرض نفوذهم؛ بدءًا من موكيش وأوجاريت حتى قطنا جنوبًا، وتراجع النفوذ المصري إلى جنوبي قادش.[11]

2. الكيانات الشمالية

شملت ثلاث ممالك واقعة بين الفرات وجبال الساحل (شرقي أوجاريت)، وقد كانت موالية للميتانيين غالبًا، وخضعت لاحتلالهم، فانتشروا فيها بكثافة. ثم بدأت منذ أواسط القرن الرابع عشر ق.م تتحول مضطرة إلى الولاء للحثيين، لوقوعها على الحدود معها، ولتكثف الحملات العسكرية الحثية عليها، وهي:

(Oxford, 2012) 771.

(10) James Henrey Breasted, Ancient Records of Egypt. Historical Documents, Vol. II, (Chicago: The University Chicago Press, 1906) 215.

(11) Horst Klengel, "Qatna – ein historischer Überblick", (Berlin: Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft, 132, 2000) 249.

أ. أشتاتا (Aštatta)

اسم البلاد المحيطة بمدينة إيمار (Emar) (تل مسكنة على الضفة الغربية من الفرات، بين حلب والرقة). سيطر عليها الحثيون خلال القرن الرابع عشر ق.م، واتخذوها جهة لمواجهة الأخطار المحتملة في الشرق والغرب، فقد كان ملكهم تودخاليا الثاني يحارب الحوريين في الشرق بضراوة، ويفرض سيطرته على حلب في الغرب.

ثم مرت المملكة الحثية بمرحلة ضعف وتمزق، وتقلصت حدودها، حتى بروز شأن الملك شوبيلوليوما الأول الذي بدأت في عهده مرحلة جديدة مختلفة، وبرزت أهمية بلاد أشتاتا الاستراتيجية من جديد، حيث جعلها مرتبطة بكركميش؛ مركز حكمه وحملاته العسكرية إلى حلب ووسط سوريا وأوجاريت.

في عهد ابنه مورشيلي الثاني ظلت أشتاتا معبرًا لحملاته ضد التمردات في نُخَشّي وحلب،[12] وبنى فيها، أو بالقرب منها؛ ربما في تل فقعوس (12 كم جنوب شرقي تل مسكنة)،[13] حصنًا زوّده بحامية عسكرية تحسبًا لهجمات ميتانية أو آشورية من الشرق.[14] ثم هدأت الأوضاع بسبب انصراف الملك الحثي إلى الاهتمام بشؤون بلاده الداخلية. وظلت أشتاتا خلال القرن التالي تحت الحكم الحثي؛ كما يتضح من الأرشيف المكتشف في إيمار.[15]

ب. حلب (Ḥalab)

كانت حلب تتمتع بموقع استراتيجي مهم، ولكن أهميتها الأساس كانت تكمن في كونها مركزًا دينيًا أساسيًا لعبادة إله الطقس تِشّوب (Teššub)/ أدّو (Addu)/ أدد (Adad)/ هدد (Hadad)؛ كما كانت في ظل ممالك إبلا (Ebla) ويَمْخَد (Yamḫad) وألالاخ (Alalaḫ) من قبل، ومملكة أرفاد (Arpad) من بعد. ولم تكن ذات سلطة سياسية واسعة المساحة.

اهتم الميتانيون باحتلالها منذ القرن الخامس عشر ق.م، وتمّ لهم ذلك عندما كان يحكمها إيليم إيليمّا (Ilim-il-imma) والد إدريمي (Idrimi)،[16] وظلوا يصدّون الهجمات الحثية ويحكمونها حتى أواسط القرن الرابع عشر ق.م، ولعل أهميتها الدينية كانت السبب في سعي الحثيين المستمر إلى احتلالها، ولذلك عندما احتلها شوبيلوليوما الأول، عيّن ابنه تلبينو (Telipinu) أول الأمر كاهنًا لإله الطقس فيها، ثم حاكمًا عليها، ومراقبًا على الممالك السورية، ويدعمه الجيش لدى ظهور تمردات في حلب والمناطق القريبة.[17]

وفي عهد مورشيلي الثاني تولى حكمها ابنه تَلْمي شَرّوما الذي اختلف عن أبيه، ويبدو أنه ابتعد عن الصراعات، وعمل على تحييد حلب، والاهتمام بطابعها الديني، ولذلك لا تظهر حلب كحليفة للحثيين في المعاهدة التي فرضها

(12) فاروق إسماعيل، "الحثيون وحملاتهم على سورية"، مجلة دراسات تاريخية، 81-82، (دمشق: 2003)، 25.

(13) J.-M. Margeron, "Aux marches de l'empire Hittite: une campaigne de fouille à Tel Faq'ous (Syrie), citadelle du pays d'Aštata. in: Yon, (Ed.) La Syrie au Bronze Récent, (Paris: 1982) 47-66.

(14) A. Götze, Die Annalen des Muršiliš, Hethtische Texte, Heft 6, 2. Edition, (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1967) 118-121.

(15) Daniel Arnaud, Recherches au pays d'Aštata, Emar VI, tomes 1-4, (Paris: Editions Recherches sur les Civilisations, 1985-1987).

(16) عيد مرعي، "إدريمي ملك ألالاخ"، مجلة دراسات تاريخية، 29-30 (دمشق: 1988) 103-126.

(17) Klengel, Syria 3000 to 300 B. C. A Handbook of Political History, (Berlin: Akademie Verlag, 1992) 128 Horst.

الملك الحثي على نقميبا (Niqmipa) ملك أوجاريت (1250-1312ق.م)،[18] كما لا يرد ذكر لعلاقات لأوجاريت مع حلب، بل مع كركميش الأبعد منها.[19]

استمر حكمه حتى بدايات القرن الثالث عشر ق.م، بعد موت أبيه؛ بدليل أنه عقد معاهدة مع الملك التالي مواتللي (Muwatelli).[20]

ج. موكيش (Mukiš)

امتدت في مناطق وادي العمق وعفرين، وعُرفت قبل ذلك بمملكة ألالاخ، نسبة إلى عاصمتها ألالاخ (تل عطشانة، على العاصي، شمال شرقي أنطاكيا). كانت خاضعة للنفوذ الميتاني خلال القرن الخامس عشر ق.م، فهاجمها الحثيون ودمّروا العاصمة ألالاخ، ونهبوها، واحتلوا مناطقها الشمالية، ويُرجح أن مركز الحكم انتقل بعد ذلك إلى موكيش التي يفترض وقوعها في الجنوب أو الشرق.[21]

أخبار البلاد خلال القرن الرابع عشر ق.م قليلة، وردت في وثائق حثية معدودة،[22] ولم يتم اكتشاف وثائق في مناطقها نفسها بعد. ولعل أهم أخبارها هو تحالفها مع نُخَشّي ونيا (Niya) لمحاربة أوجاريت والحثيين، بدعم ميتاني.[23]

3. الكيانات الوسطى

تشمل خمس ممالك لعبت الدور الأبرز في الصراع الدولي على سوريا بسبب موقعها الجغرافي المتوسط بين الممالك الكبرى، هي:

أ. نُخَشّي (Nuḫašši)

كانت أوسع الكيانات السورية القائمة في غربي الفرات مساحة. نشأت في المناطق السهلية والبادية بين أطراف مدينتي حلب وحماة وغربي وادي الفرات وشرقي وادي العاصي، وبذلك جاورت مدنًا وممالك عدة، هي: إيمار، حلب، قطنا، تونيب (Tunip)، نيا. وامتد وجودها بين حوالى 1450-1310 ق.م، ولم تُعرف أو تُكتشف عاصمتها بعد.[24]

---

(18) جهان عزت محمد، النصوص الأكّدية للمعاهدات الحثية-السورية "ترجمة ودراسة"، (دمشق: دار آرام، 2019) 139.

(19) Horst Klengel, Syria 3000 to 300 B. C., 129.

(20) جهان عزت محمد، النصوص الأكّدية للمعاهدات الحثية-السورية، 179.

(21) E. M von Dassow, "Archives of Alalah IV in Archaeological Context", Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 338, 2005, 53.

(22) Giuseppe F. del Monte, Johann Tischler, Die Orts- und Gewässernamen der hethitischen Texte, RGTC 6, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1978), 275; Giuseppe F. del Monte, Johann Tischler, Die Orts- und Gewässernamen der hethitischen Texte, Supplement, RGTC 6/2, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1992), 106.

(23) Amon Altman, "EA 59: 27-29 and the Efforts of Mukiš, Nuḫašše and Niya to establish a common Front against Šuppiluliuma I", Ugarit Forschungen, 33, (Münster: Ugarit-Verlag, 2002) 1-25.

(24) تعتمد معظم المعلومات المتعلقة بمملكة نُخَشّي على: فاروق إسماعيل، "مملكة نُخَشّي في المصادر الأكّدية والمصرية القديمة"، مجلة دراسات تاريخية،

مع بدء مرحلة التحالف المصري-الميتاني في مطلع القرن الرابع عشر ق.م، وتنظيم الحدود بينهما، ظلت نُخَشّي في الجانب الميتاني حتى نحو 1350 ق.م، واستقرت الأوضاع فيها، وشاع جوّ من السلام والازدهار. ويبدو أن زعماءها القبليين برعوا في الاستفادة من الطرفين المتنازعين (الميتاني والحثي)، فقد طالبوا الملك الميتاني بحق السيادة في مدن ومناطق حدودية مع حلب، فاستجاب لطلبهم، ثم فعلوا الأمر نفسه مع الملك الحثي ختوشيلي الثاني (Ḥattušili II).[25]

وعندما بدأت حملات الحثي شوبيلوليوما الأول صارت أراضيها معبرًا لجيوشه، أو مقرًا لها أحيانًا، فقد عبرتها خلال الحرب الحثية الأولى (1343 ق.م) التي وصلت حتى بلاد عمقي (Amqi) (وادي البقاع في لبنان)، واضطر ملكها شَرّوبشي (Šarrupši) إلى الترحيب بها، ما دفع الملك الميتاني تشرتا إلى الانتقام منه، فأسرع شروبشي في إرسال رسول لطلب المساعدة من القوات الحثية المرابطة عند ضفاف الفرات، فاندفعت لحماية نُخَشّي وإبعاد الجيش الميتاني. ولكن الولاء لميتاني لم ينته مباشرة، وذلك لكثرة الزعامات القبلية في البلاد، فقد برزت في البلاد قبائل لم ترض بتغلغل الجيش الحثي بعد ذلك في الأراضي الميتانية، وعبّرت عن استيائها، فسار إليها الجيش الحثي وأخضعها، وهرب الملك شروبشي.

في هذه الأثناء؛ كتب أَدّو نيراري (Addu-nirari) أحد زعماء القبائل الكبار رسالة إلى أمنحتب الرابع/أخناتون ملك مصر، وأكّد ولاءه له، ودعاه إلى التعاون في دعم ميتاني ضد الخطر الحثي، ولكن الرسالة لم تلق صدى، كعشرات الرسائل التي أرسلها غيره من الحكام إلى أمنحتب الرابع/أخناتون؛ كما يتضح من رسائل أرشيف العمارنة. ولذلك وجد أَدّو نيراري نفسه مضطرًا إلى التعاون مع الحثيين الذين عيّنوه ملكًا جديدًا على البلاد، وانتشرت جيوشهم فيها.

ارتبط التحول الأكبر في الأوضاع بسياسة عزيرو (Aziru) ملك بلاد أمورو (Amurru) الساحلية، فقد احتل مناطق في مملكتي نيا وتونيب المجاورتين لبلاده من الشرق، وبات على مقربة من نُخَشّي، وراح يفاوض الحثيين، ويرسل في الوقت ذاته رسائل ولاء إلى مصر، ويطلب الدعم لمواجهة الحثيين.[26] وعندما لم يلق تجاوبًا مصريًا عقد معاهدة مع الحثيين،[27] والتزم بالتعاون العسكري معهم، وبات الزعيم السوري الأساسي الذي يعتمدون عليه في ضبط الأوضاع الداخلية. لكن ذلك لم يمنع أَدّو نيراري من تشكيل تحالف ضد الحثيين بدعم ميتاني ضم مملكتي موكيش ونيا، وحاول استمالة أوجاريت أيضًا، ولكن ملكها لم يستجب، فهاجمته قوات التحالف، لكن الجيش الحثي صدّها، ثم احتل نُخَشّي، وفرض حاكمًا مواليًا عليها هو تِكيب ـِشَرّي (Tikip-šarri) (حوالى 1337 ق.م).[28]

في 1324 ق.م حصل تمرد في نُخَشّي على الاحتلال الحثي، ولم يستطع حاكمها تهدئة الوضع، فتدخل الملك

115-116، 2011، 29-86.

(25) ورد ذلك في معاهدة تَلْمي شَرّوما حاكم حلب مع الملك الحثي مواتللي، راجع: جهان عزت محمد، النصوص الأكّدية للمعاهدات الحثية-السورية، 179-191.

(26) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 165.

(27) فاروق إسماعيل، "معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (نحو 1380-1340 ق.م) مع الممالك السورية، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، ع: 11، (2008)، ص8.

(28) Amon Altman, "EA 59: 27-29 and the Efforts of Mukiš, Nuḫašše and Niya.

الحثي، وقمع التمرد، واستبدل به حاكمًا جديدًا يدعى تيتّي (Tette)، وفرض عليه معاهدة تبعية.[29]

في السنة اللاحقة مات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول، واستمر تيتي يحكم في ظل الاحتلال الحثي خلال عهد خليفه أَرنو وَنْدا الثاني (1321-1322) (Arnuwanda II ق.م) والعقد الأول من عهد مورشيلي الثاني، ويتبع شَرّي كوشوخ (Šarri-Kušuḫ) نائب الملك، المستقر في كركميش.

تمرد سكان بلاد نُخَشّي مرة أخرى في 1314 ق.م،[30] فانتهج شري كوشوخ سياسة جديدة في مواجهتهم، حيث عرض التحالف العسكري على ملك أوجاريت، وراح يحضّه على مواجهة ملك نُخَشّي، كما يرد في وثيقة مكتشفة في أوجاريت.[31]

بعيد موت شَرّي كوشوخ؛ ظهر تمرد جديد في نُخَشّي،[32] لكن مورشيلي الثاني لم يرغب في حرب جديدة، لانهماكه بمشكلات داخلية، فقرر الاستعانة بأفراد من أسرة تيتي طالبًا إزاحته عن الحكم لتعود الأوضاع، كما كانت. يتعاصر هذا الحدث مع السنة 12/11 من حكم حور محب في مصر (1323-1295 ق.م)، وقد كان قد بدأ باستعادة الاهتمام المصري العسكري بالممالك السورية. ويطرح كلنجل Klengel إمكانية الدعم المصري لتمرد تيتي على الاحتلال الحثي، ولا سيما أن وثائق حثية تذكر تيتي ومصر في سياق واحد.[33] ويبدو أن أسرة تيتي أدركت خطر الموقف، فثار عليه أحد أخوته وأزاحه، وأخضع نفسه للسيادة الحثية تمامًا.[34]

ب. نيا (Niya)

مملكة صغيرة المساحة في منطقة سهل الغاب الوسطى، يرجح أن مركزها كان في قلعة المضيق، ولكن وجود القلعة يمنع التنقيب في الطبقات السفلية الأقدم للتحقق. اشتُهرت بكثرة الفيلة فيها، ولذلك سار إليها ملوك مصر خلال حملاتهم؛ ولا سيما تحتمس الثالث، لصيد الفيلة قرب بحيرة هناك.[35]

إن المصادر التاريخية المتعلقة بها قليلة، يُستفاد منها أنها كانت موالية لمصر،[36] وامتلكت أفضل العلاقات مع الممالك المجاورة لها؛ فقد عُدّت أحيانًا جزءًا من مملكة نُخَشّي المجاورة شرقًا،[37] وبدت متحدة مع مملكة تونيب في الجنوب، إذ يبدو أن ملكها أكي تِشّوب (Aki-Teššub) الذي انضم إلى التحالف الذي قادته نُخَشّي ضد الحثيين وأوجاريت، بدعم ميتاني، حكم تونيب أيضًا؛ كما يتضح من رسالة مرسلة إلى أمنحتب الرابع.[38] وقد تميزت

(29) فاروق إسماعيل، "معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول"، 12.

(30) A. Goetze, Die Annalen des Mursilis, 82.

(PRU IV 54. (RS 17-334 (31)

(32) KBo III 3

(33) Horst Klengel, Syria 3000 to 300 B. C., 155.

(34) KUB XVI 41

(35) Donald B. Redford, The Wars in Syria and Palestine of Thutmosis III. (Leiden and Boston: 2003) 225; Peter Pfälzner, "The Elephants of the Orontes"; Syria, Supplement IV, (Paris, Presses de l'Ifpo, 2016) 159.

(36) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 53.

(37) Horst Klengel, Syria 3000 to 300 B. C., 152 (370).

(38) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 59.

بعلاقاتها المتينة مع مملكة قطنا في الجنوب أيضًا.[39]

ج. تونيب (Tunip)

نشأت هذه المملكة في الجزء الجنوبي من سهل الغاب، ويرجح أن عاصمتها تونيب Tunip كانت في العشارنة (ناحية سلحب، شمال غربي حماة)، وقد سبق أن عرضنا لمحات عن وضعها، ومن اللافت للانتباه رسالة مرسلة على لسان سكان مدينة تونيب إلى أمنحتب الرابع، يؤكدون فيها ولاء المدينة لمصر منذ القديم، ثم يطلبون العون، وإرسال ابن أكي تِشّوب (ملك نيا) الموجود في مصر ليتولى قيادة البلاد في مواجهة خطر الحثيين وحلفائهم؛ ولا سيما عزيرو ملك أمورّو الذي تحول إلى الجانب الحثي، وراح يتمادى في احتلال المناطق الواقعة شرقي مملكته.[40] ويبدو أن عزيرو احتلها، ربما لمدة قصيرة.[41]

د. قطنا (Qaṭna)

كانت تتمتع بموقع جغرافي مهم للتجارة بين بلاد الرافدين والبحر الأبيض المتوسط، وبلاد الأناضول وفلسطين، ولذلك كانت مركز مملكة مهمة منذ العصر البابلي القديم. وقد اكتشفت في تل المشرفة، الواقع على بعد حوالى 17 كم شمال شرقي حمص.

شهد القصر الملكي الضخم المكتشف فيها حركة سياسية وتجارية نشطة منذ القرن الثامن عشر ق.م، وكشفت التنقيبات الأثرية عن قصور أخرى صغيرة ومنازل خاصة وكثير من القطع الفنية والوثائق الكتابية التي تدل على أنها كانت حاضرة مزدهرة خلال العصر البرونزي المتأخر.[42]

خضعت في القرنين 16-15 ق.م للنفوذ الميتاني، ثم ارتبطت في أواسط القرن الرابع عشر ق.م بمملكة نُخَشّي المجاورة، وكان ملكها أكيزّي (Akizzi) حليفًا لمصر. وعندما تحول موقف عزيرو ملك أمورو إلى جانب الحثيين لم يبق هناك حليف قوي لمصر في سوريا غيره، وكان يتابع الوضع الجديد، ولا يستطيع فعل شيء، فقد سيطر عزيرو على منطقة واسعة (بين وادي العاصي الأوسط والبحر المتوسط)، بينما سيطر الحليف الحثي الآخر ملك قادش – ومعه حلفاء صغار – على مناطق جنوبي قطنا، حتى دمشق وسهل البقاع. وبذلك أضحى أكيزي محاصرًا، وواجهت قطنا أول حملة حثية مشتركة مع قوات عزيرو.

أرسل أكيزّي خمس رسائل إلى أمنحتب الرابع/أخناتون في السنوات الثلاث الأخيرات من عهده،[43] يؤكد له الولاء، ويخبره بأن إيتكمّا (Itakamma) ملك قادش حاول كسبه ليتحالف مع الحثيين مثله، ولكنه رفض، ولذلك شنّ الحرب عليه، ويدعو الملك المصري إلى أن يرسل بسرعة قوات لاحتلال مناطق نُخَشّي جميعها، وتأديب عزيرو ملك أمورّو الذي تحول إلى الجانب الحثي. ويعلمه بأن مدينته قَطْنا تعرضت لغزو حثي وهجوم قوات

(39) Thomas Richter, „Das Archiv des Idanda“, 179.

(40) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 59.

(41) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 161.

(42) Peter Pfälzner, Levantine Kingdoms of the Late Bronze Age, 778.

(43) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسائل 52-56.

عزيرو، وأحرقت، ونهبت، واعتقل رجال منها وأبعدوا، ويطلب الدعم. ولكنه لم يلق تجاوبًا مصريًا، ولم يستطع الصمود طويلًا في مواجهة القوات الحثية وحليفها (أمورو، قادش)، فانهار حكمه، وخضعت بلاده للاحتلال الحثي التام في نحو 1340 ق.م. وتراجع النفوذ المصري إلى جنوبي قادش.[44]

د. كنزا/قادش (Kinza/Qadiš)

ذُكرت في المصادر الكتابية بالاسمين، ويعتقد أن الأول كان اسم البلاد، والثاني اسم عاصمتها، وهي حاليًا تل النبي مَنْد، قرب القصير، جنوب غربي حمص.

كانت بلاد كنزا (قادش) حليفة لمملكة ميتاني، استاءت من الحملات المصرية المتجهة عبر أراضيها نحو وادي الفرات خلال القرن الخامس عشر ق.م، فتزعمت تحالف عدد من الكيانات السورية-الفلسطينية لمواجهتها في معركة مِجِدّو(Megiddu) (تل المتسلّم، شمال شرقي أم الفحم في شمالي فلسطين) في 1457 ق.م، بغية التخلص من الحكم المصري، ولكنها أخفقت في ذلك، وصارت بعد ذلك حليفة قوية لمصر.

خلال القرن الرابع عشر ق.م؛ حكمها شوتَتَرّا (Šutatarra) الذي واجه الحملات الحثية في عهد شوبيلوليوما بضراوة، فقام الجيش الحثي بمحاصرة قادش واحتلها، وأجلى الملك وابنه وأخواته وأفراد قواته الخاصة (ماريانو Mariyannu) إلى العاصمة الحثية.[45] ثم سمح لهم، بعد زمن، بالعودة، واستلم إيتكمّا العرش من أبيه،[46] وظل حليفًا مخلصًا لمصر.[47] ولكنه عدل عن ذلك، إذ لم يلق التجاوب المأمول من الملك المصري أمنحب الرابع/ أخناتون، بل راح يقود تحالفًا ضد مصر والموالين لها في سوريا، ويوثق علاقاته مع الحثيين، ويوسع مناطق نفوذه.

مع ذلك؛ احتلها مورشيلي الثاني خلال سنة حكمه التاسعة (1310 ق.م)، وقتل أميرها نقمادو أباه إيتكّما، واستلم الحكم، وأعلن الخضوع التام للسيادة الحثية.[48]

وتجدر الإشارة إلى أن قادش شهدت في 1275 ق.م إحدى أهم المعارك في تاريخ الشرق القديم، وأنهكت طرفي القتال؛ المملكتين المصرية والحثية، وأعقبها نوع من الهدوء في المنطقة.

4. الكيانات الساحلية

تشمل ثلاث ممالك، اعتمدت على الحركة التجارية البحرية، وحركة العبور التجارية (ترانزيت) بين شرقي المتوسط ومصر وألاشيا (جزيرة قبرص)، وكانت غنية بمواردها الذاتية بحكم مناخها وطبيعتها الجبلية، واشتهرت بمصنوعاتها النسيجية والمعدنية، وهي:

(44) Horst Klengel, Syria 3000 to 300 B. C., 156.

(45) KBo I, 1.

(46) تريفور برايس، رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم، رفعت السيد علي (مترجمًا)، (القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006) 233.

(47) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 189.

(48) Horst Klengel, Geschichte des hethitischen Reiches, (Leiden.Boston.Köln: Brill, 1999) 197.

أ. أوجاريت (Ugarit)

كانت مملكة أوجاريت (رأس شمرا، قرب اللاذقية) أبرز الممالك السورية الغنية بثرواتها وحركة التجارة البحرية في مينائها في مخادو (Miḫadu)، خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، امتدت أراضيها في المنطقة الجبلية الواقعة بين جبل الأقرع (خازّي (Ḫazzi)/ صافون (aponṢ)) في الشمال حتى شمالي مدينة جبلة في الجنوب، وفي الشرق حتى وادي نهر العاصي (سهل الغاب وسهل بداما).

برزت أهميتها خلال عهد ملكها نِقْمادو الثاني (حوالى 1318-1353 ق.م) الذي أشار في نصوص له إلى أن أجداده كانوا حلفاء الحثيين، وعانى في مطلع عهده توسّع عزيرو ملك أمورو في الجزء الجنوبي من مملكته،[49] فأرضاه بكمية ضخمة من الفضة لقاء انسحابه منها، للمحافظة على مصالحه التجارية البحرية، وعدم إثارة حرب في بلاده.

أشرنا من قبل إلى التحالف الذي قاده ملك نُخَشّي ضد أوجاريت، فاستنجد نقمادو الثاني بالحثيين، فكتب شوبيلوليوما إليه يقترح عقد معاهدة تحالف، ويطلب منه ألا يخاف، وأن يكون واثقًا من نفسه، وقال له: ((... وبعد ذلك سترى ما سيفعل الملك العظيم بهم؛ (أعني) ملوك بلاد نُخَشّي، وملك بلاد موكيش)).[50]

لقد حدث الهجوم، واحتلوا مدنًا في قلب بلاد أوجاريت، وأسروا، وخرّبوا، فاستجاب شوبيلوليوما لطلبه، وأرسل جيشًا لطرد أعدائه من وسط بلاده. وتقديرًا لذلك منح نقمادو الملك هدايا ثمينة، وسار إلى مدينة ألالاخ للقائه، وقبل بعقد معاهدة ولاء وتبعية في 1337/1338 ق.م.[51]

في عهد الملك الحثي مورشيلي الثاني حصلت تمردات في نخشّي وقادش ضد الحثيين (1314 ق.م)، فطلب حاكم كركميش من نقمادو التعاون في مواجهتها، ولكنه لم يستجب، واتخذ موقفًا محايدًا،[52] ولذلك عقد مورشيلي معاهدة ولاء وتبعية معه من جديد.[53]

خلّفه على العرش ابنه أَرِخَلْبا (Ari-Ḫalpa) لمدة بضع سنوات، ثم ابنه الآخر نِقْميبا الذي حكم مدة طويلة (1312-1250 ق.م). ألزمه مورشيلي بعقد معاهدة في مطلع عهده، وفرض عليه إعلان الولاء والظهور المنتظم في البلاط الملكي الحثي، ومشاركة الحثيين في قمع التمردات والحروب.[54] ثم تقلصت حدود أوجاريت الجنوبية في إثر إعلان عبدي عناتي (Abdi-Anati) حاكم سيانو استقلاله عنها، وتبعيته المباشرة لنائب الملك الحثي في كركميش، وحصل نزاع حول الحدود بين أوجاريت وموكيش، فتدخل الملك الحثي، وثبّت الحدود لمصلحة أوجاريت.[55] وظلت أوجاريت مرتبطة بالحثيين حتى معركة قادش؛ حيث شاركت قوات منها إلى جانب الحثيين.

(49) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 98.

(50) PRU IV 36

(51) فاروق إسماعيل، معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول، 5.

(52) Horst Klengel, Geschichte des hethitischen Reiches, 134, 196.

(53) جهان عزت محمد، النصوص الأكّدية للمعاهدات الحثية-السورية، 139.

(54) Horst Klengel, Syria 3000 to 300 B. C., 135.

(55) Horst Klengel, Syria 3000 to 300 B. C., 136.

ب. سيّانو (Siyanu)

كانت سيّانو إمارة صغيرة قائمة في مناطق جبلة الحالية، بين مملكتي أوجاريت وأمورو، ويرجح أن مركزها كان في تل سيّانو قرب جبلة. خضعت لحكم أوجاريت، ثم استقلت عنها في أواخر القرن الرابع عشر ق.م، وخضعت للحثيين؛ كما أشرنا في الفقرة السابقة.

ج. أمورو (Amurru)

كانت مملكة أمورو تمتد في الساحل جنوبي سيّانو حتى مملكة قادش وسهل عكّار (في لبنان)، وشرقًا حتى أواسط مجرى نهر العاصي. شكلت منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م مركزًا أساسًا للإدارة المصرية في الشمال، ويقيم في عاصمتها صُمُر (Ṣumur) (ربما تل الكزل، على نهر الأبرش، قرب صافيتا) مندوب ملكي مصري، وتتمركز فيها حامية عسكرية مصرية.[56] ولكن علاقاتها مع مصر ساءت في آخر عهد ملكها عبدي أشرتا (Abdi-Aširta)، فقضى المصريون عليه (حوالى 1345 ق.م)، وعينوا ابنه عزيرو الذي انقلب على مصر أيضًا، بعد مدة قصيرة، وغدا حليفًا أساسًا للحثيين. وقد أشرنا من قبل إلى دوره في تغيير أوضاع عدد من الممالك السورية الأخرى.

انهمكت في صراع طويل الأمد مع مملكة جُبْلا (Gubla) (جبيل، 40 كم شمالي بيروت)، وقد وصفت مراسلات العمارنة مجريات ذلك في رسائل كثيرة مرسلة إلى الملك المصري أمنحتب الرابع من ملكيها عبدي أشرتا وعزيرو (1345-1314 ق.م)، ومن رِب هدّا (Rib-Hadda) ملك جبلا، ويركز الأخير على تبيان النفاق والازدواجية في موقف عزيرو من البلاطين المصري والحثي، ومحاصرته بلادَه، من خلال تحالفه مع عدد من المدن الساحلية المهمة جنوبي جبلا، مثل: بيروتا (Beruta)، صيدونا(Ṣiduna)، صورّي (Ṣurri)،[57] وتوسعه عسكريًا حتى مناطق قريبة من مدينته في الشمال، مثل بطرونا (Biṭruna) (البترون، 17 كم شمالي جبيل).[58] ولكنه لم يلق تجاوبًا، ولا دعمًا مصريًا في صراعه معه. وقد اتضح صواب موقفه بعد ذلك؛ إذ أعلن عزيرو ولاءه للحثيين، وعقد معاهدة تبعية مع ملكهم شوبيلوليوما الأول في 1336 ق.م.[59]

حكم بعده لمدة قصيرة ابنه أري تِشّوب (Ari-Teššub)، وكانت علاقاته حسنة مع أوجاريت، وتزوجت ابنته أخت ملكي (Aḫat-Milki) أميرًا أوجاريتيًا (نِقميبا). ثم حكم ابنه دوبّي تِشّوب (Duppi-Teššub) خلال سنة حكم مورشيلي الثاني التاسعة (1310 ق.م)، وفرض عليه معاهدة تبعية في مطلع عهده.[60]

يتضح من المصادر الحثية أن ابنه بنتِشينا (Bintešina) خلّفه على الحكم، وكانت قواته مشاركة في معركة قادش (1275 ق.م) إلى جانب الحثيين.

---

(56) Peter Pfälzner, Levantine Kingdoms of the Late Bronze Age, 777.

(57) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 114.

(58) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسالة 88.

(59) فاروق إسماعيل، "معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول، 8.

(60) جهان عزت محمد، النصوص الأكّدية للمعاهدات الحثية-السورية، 172.

5. دمشق (Dimašqi) في الجنوب

لم تُذكر دمشق في المصادر الكتابية القديمة قبل القرن الرابع عشر ق.م، وكانت المنطقة المحيطة بها تُعرف بتسمية بلاد أب (Upu, Apu) وتمتد بين الأطراف الشمالية لجبال لبنان الشرقية وجنوبي جبل العرب، وأطراف سهل البقاع (عمقي) وأطراف بادية الشام.

برز اسم ملكها بيرياوازا (Biriwazza) في مراسلات العمارنة، حيث أرسل أربع رسائل إلى الملك المصري أمنحتب الرابع/أخناتون، يتضح فيها أنه كان ذا منزلة متميزة لدى البلاط المصري.[61] أدار شؤون بلاده بجدارة في مطلع عهده، ثم مرّ بأزمنة حرجة تعكس ضعفه، وتدل على افتقاره إلى جيش منظم وحامية مصرية مرابطة لديه، ولذلك عانى تدخلات حلفاء الحثيين (أمورو، قادش) وحملاتهم، وعاداه حكام مدن في الجنوب وفي سهل البقاع.

وثمة شخص آخر يوصف في نص مكتشف في كومد (Kumidi) (كامد اللوز، شرقي بلدة جب جنين في منطقة البقاع اللبنانية) بـ(زعيم مدينة دمشق) هو زَلايا (Zalaya) الذي ربما سبق بيرياوازا في الحكم، أو تلاه، أو إنه كان يحكم المناطق الغربية من البلاد، ويستقر في كومد التي كانت مركز ولاية خلال الحكم المصري، إلى جانب ولايتي أمورو (في الشمال) وخزّة (Ḫazzatu) (غزّة في الجنوب).[62]

عانت دمشق وواحتها حملات الحثيين وأعوانهم، فقد بلغتها جيوش شوبيلوليوما الأول، وسار إليها إيتكما ملك قادش، ودفع سكانها إلى التمرد على المصريين، ونهب قصرها الملكي، واستولى على كثير من أراضي زعيمها بيرياوازا، وعاونه في ذلك حاكما مدينتي لابان (Labani) ورخيزي (Ruḫizzi) (في محيط بعلبك)، ووصلها عزيرو ملك أمورو. وتأثرت بمعاداة مدينة اشترت (Aštarti) في حوران، وأطماع بعض حكم مدن بلاد عمقي (سهل البقاع).[63]

خامسًا: خاتمة واستنتاجات

يتضح مما سبق أن تفتت جغرافية سوريا إلى كيانات سياسية وربما قبلية عدة كان يعود إلى عاملين؛ خارجي وداخلي، هما:

1. أطماع القوى الخارجية الكبرى في احتلال سوريا، ولذلك كانت تعمل على دعم الممالك القائمة فيها، وإثارة الصراعات بينها؛ تبعًا لغاياتها ومصالحها. فالحثيون في بلاد الأناضول كان يهمهم أول الأمر القضاء على مملكة ميتاني في الجزيرة السورية، والسيطرة على مناطق الشمال؛ ولا سيما حلب. ومع انتقال حكمهم إلى شوبيلوليوما الأول؛ الملك ذي النزعة العسكرية الطامعة في مزيد من السيطرة، ازدادت لديهم نزعة التوسع في مناطق سوريا الداخلية، والوصول حتى سهل البقاع، بغية إنهاء النفوذ المصري، وفرض وجودهم.

(61) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، الرسائل 194-197.

(62) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة، 56.

(63) فاروق إسماعيل، "أخبار دمشق وبلاد أُب في مراسلات العمارنة"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مج: 46/45 (2002-2003) 67-81.

أما المصريون فقد تفاهموا مع ملوك مملكة ميتاني الحورية في الجزيرة السورية، وتقاسموا مناطق النفوذ، وكان همّ الطرفين صدّ محاولات الحثيين، ومنعهم من التغلغل في سوريا، وقد وُفّقوا في ذلك حتى أواسط القرن الرابع عشر ق.م، ولكن موقف مصر تغير كليًا في النصف الثاني من القرن، في عهد الملك أمنحتب الرابع/أخناتون الذي انصرف إلى العقيدة الدينية الجديدة (الآتونية)، وأهمل الشؤون السورية، ولم يهتم بالمحافظة على النفوذ المصري هناك. وقد استغل الملك الحثي شوبيلوليوما الأول ذلك، واستفاد منه، وفرض نفسه قوة عظمى في المنطقة.

وكانت بلاد بابل خاضعة آنذاك لحكم الكاشيين القادمين من مناطق جبال سلسلة زغروس الوسطى، في غربي إيران، وكان حكامها منهمكين بتنظيم شؤون البلاد الداخلية، وغير راغبين في التوسع والتحالف العسكري، ومع ذلك كانت لبابل، وكذلك آشور، علاقات طيبة مع مصر؛ مثل ما يتضح في رسائل من تل العمارنة، ولم يتدخل حكام المنطقتين كلتيهما في الشؤون السورية.

2. إن وجود ثلاثة عشر كيانًا سياسيًا ضمن جغرافية سوريا الحالية آنذاك يعكس بوضوح مدى الانقسام الداخلي، وتعدد الزعامات، والاستقواء بالقوى الخارجية للمحافظة على السلطة ضمن أطر جغرافية صغيرة المساحة. ولم تتجاوز النزعات الوحدوية نطاق تشكيل تحالف ثلاث ممالك؛ كما هي الحال في تحالف نُخَشّي وتونيب ونيا، ولم يكن ذلك لصد الأطماع الخارجية؛ بل بهدف محاربة مملكة أوجاريت السورية التي كانت مزدهرة اقتصاديًا، وترضي الحثيين بالوسائل المتاحة لها للمحافظة على ثرائها؛ كما ينعكس في المعاهدة التي فرضها الحثيون على أوجاريت.[64]

ولم يتغير الوضع بعد ذلك؛ على الرغم من توافر فرص لتحقيق شكل من الاتحاد ضمن إطار سياسي واسع قوي يحدّ من أطماع القوى الخارجية، وظل كذلك حتى اصطدام القوتين الحثية والمصرية في معركة قادش 1275 ق.م التي أنهكت الطرفين وحلفائهما السوريين جميعًا.

لقد كانت الممالك السورية في النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م موزعة الولاء بين مصر وميتاني، ولكنها باتت في النصف الثاني منه وحيدة إزاء الجيش الحثي الضخم. ومرت زمن صارعت خلاله من أجل عدم الاستسلام له، ولكنها اضطرت، واحدةً تلو الأخرى، إلى الإذعان للسيادة الحثية، والقبول بمعاهدات جائرة يفرضها الملوك الحثيون. وكانت تتخلل ذلك تمردات وثورات لا تحقق نتائج مهمة، إذ تُقمع، ويختفي أثرها.

3. كان الميتانيون يتميزون بالعنف والخبرات العسكرية، ولذلك نجحوا في استمرار فرض سيطرة مملكتهم على منطقة الجزيرة السورية مدى زمنيًا طويلًا، بل اتسعت مناطق نفوذهم غربًا حتى مناطق شمالي حمص، ونحو البحر الأبيض المتوسط أحيانًا.

لقد كان وضع مملكتهم مختلفًا تمامًا عن الممالك الأخرى، وكان صراعها الأساس مع الحثيين، وقد صمدت في وجه الأطماع التوسعية الحثية زمنًا طويلًا، ولكنها ضعفت؛ عندما تمكّن الحثيون من تشكيل تيار موال لهم ضمن القصر الملكي الميتاني، ما أدى إلى انقسامهم، وانهيار مملكتهم، وخضوع أراضيها للسيطرة الحثية في الغرب،

(64) فاروق إسماعيل، "معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول"، 12.

والآشورية في الشرق.

4. كانت مناطق النفوذ المصري شبه الثابتة تمتد حتى شمالي قادش (حوالي حمص)، وكانت المنطقة الساحلية الجنوبية (أمورو) متقلبة في مواقفها، بينما ترضي الشمالية (أوجاريت) مصر والحثيين معًا. ولم تكن الممالك الأخرى في شمالي البلاد وشرقيه ووسطه تريد السيادة الحثية على أراضيها، ولكنها كانت تضطر إلى ذلك بين حين وآخر.

إن هذا الوضع القلق خلال أكثر من قرن، وتنازع المصالح، هو الذي أدى إلى بلوغ ذروة الصراع المصري – الحثي على سوريا في معركة قادش الشهيرة في التاريخ القديم (1275 ق.م). وهو من ناحية أخرى السبب في غياب ملامح نهضة عمرانية وتقدم فني في أرجاء البلاد جميعها، باستثناء أوجاريت وقطنا.

خريطة سوريا السياسية خلال القرن الرابع عشر ق.م

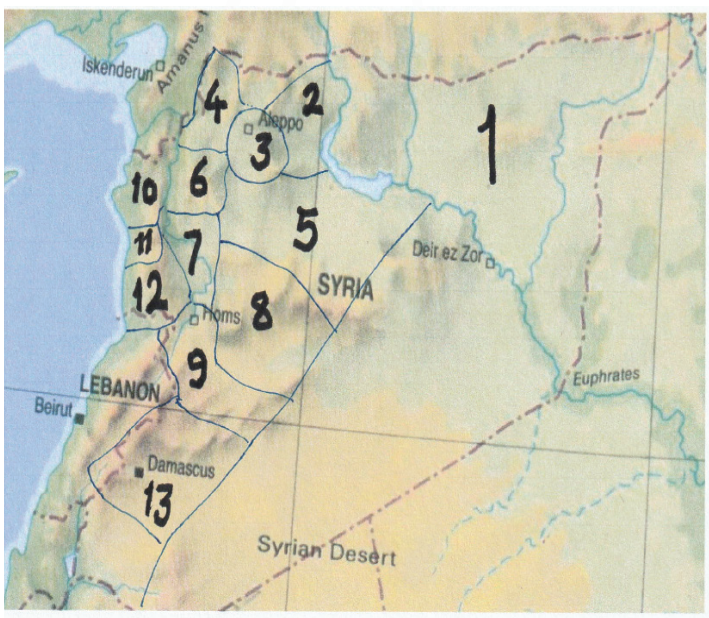

1 - مملكة ميتّاني الحورية 2- أشتاتّا 3- حلب 4- موكيش 5- نُخَشّي 6- نيّا 7- تونيب 8- قَطْنا 9- قادش 10- أوجاريت 11- سيّانو 12- أمورّو 13- دمشق.

المصادروالمراجع

بالعربية

1. إسماعيل، فاروق، „أخبار دمشق وبلاد أُب في مراسلات العمارنة"، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 46/45 (دمشق: 2002-2003) 67-81.

2. إسماعيل، فاروق، „الحثيون وحملاتهم على سورية"، مجلة دراسات تاريخية، 81-82، (دمشق: 2003) 3– 35.

3. إسماعيل، فاروق، „معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (نحو 1380-1340 ق.م) مع الممالك السورية"، مجلة جامعة الملك سعود، مج 21، السياحة والآثار (1)، (الرياض: 2009) 1– 18.

4. إسماعيل، فاروق، مراسلات العمارنة الدولية „وثائق مسمارية من القرن 14 ق. م"، (دمشق: دار إنانا، 2010).

5. إسماعيل، فاروق، „مملكة نُخَشّي في المصادر الأكّدية والمصرية القديمة"، مجلة دراسات تاريخية، 115-116، (دمشق: 2011)، 29-86.

6. برايس، تريفور، رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم. ترجمة رفعت السيد علي، (القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006).

7. محمد، جهان عزت، النصوص الأكّدية للمعاهدات الحثية-السورية „ترجمة ودراسة" (دمشق: دار آرام، 2019).

8. مرعي، عيد، „إدريمي ملك ألالاخ"، مجلة دراسات تاريخية، 29-30 (دمشق: 1988) 103-126.

بلغة أجنبية

1. Altman, Amon, „EA 59: 27-29 and the Efforts of Mukiš, Nuḫašše and Niya to establish a common Front against Šuppiluliuma I", Ugarit Forschungen, 33, (Münster: Ugarit-Verlag, 2002) 1-25.

2. Arnaud, Daniel, Recherches au pays d'Aštata, Emar VI, tomes 14-, (Paris: Editions Recherches sur les Civilisations, 19851987-).

3. Breasted, James Henrey, Ancient Records of Egypt. Historical Documents, Vol. II, (Chicago:

The University Chicago Press, 1906).

4. del Monte, Giuseppe F. -Johann Tischler, Die Orts- und Gewässernamen der hethitischen Texte, RGTC 6, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1978).

5. del Monte, Giuseppe F.-Johann Tischler, Die Orts- und Gewässernamen der hethitischen Texte, Supplement, RGTC 6/2, (Wiesbaden:

6. Goetze, A. Die Annalen des Mursilis. Hethtische Texte, Heft 6, 2. Edition, (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1967).

7. KBo = Keilschrifttexte aus Boghazköi, (Leipzig: J. C. Hinrichs'sche Buchandlung).

8. Klengel, Horst, Syria 3000 to 300 B. C. A Handbook of Political History, (Berlin: Akademie Verlag, 1992).

9. Klengel, Horst, Geschichte des hethitischen Reiches, (Leiden. Boston. Köln: Brill, 1999).

10. Klengel, Horst, "Qatna – ein historischer Überblick", (Berlin: Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft, 132, 2000), 239 – 252.

11. KUB = Keilschrifturkunden aus Boghazköi, (Berlin, Staatlichen Museen).

12. . Marchetti, N, (Ed.) Karkamish. An Ancient Capital on the Euphrates, (Bologna: 2014).

13. Margeron J.-M., "Aux marches de l'empire Hittite: une campaigne de fouille à Tel Faq'ous (Syrie), citadelle du pays d'Aštata. in: M.Yon (Ed.) La Syrie au Bronze Récent, (Paris: 1982) 4766-.

14. Pfälzner, Peter, "The Elephants of the Orontes"; Syria, Supplement IV, (Paris, Presses de l'Ifpo, 2016).

15. Pfälzner, Peter, Levantine Kingdoms of the Late Bronze Age, In: Daniel T. Potts, (Ed.) Companion to the Archaeology of the Ancient Near East, (Oxford: 2012) 770796-.

16. PRU = Le palais royal d'Ugarit, (Paris: Mission de Ras Shamra).

17. Redford, Donald B., The Wars in Syria and Palestine of Thutmosis III. (Leiden and Boston: 2003).

18. Richter, Thomas, „Das Archiv des Idanda“, (Berlin: Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft, 135, 2003) 167188-.

19. Richter, Thomas - Sarah Lange, Das Archiv des Idadda, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2014).

20. . von Dassow, E. M., “Archives of Alalah IV in Archaeological Context”, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 338, 2005, 1–69.

الاقتصاد السياسي لمشروع التطوير العقاري في حي الحيدرية بحلب

مسلم عبد طالاس[1]

أولًا: ملخص

تعتمد هذه الدراسة تحليل الاقتصاد السياسي في فهم ديناميات مشروع التطوير العقاري في حي الحيدرية، من خلال دراسة الثوابت الهيكلية والسياقية التي تؤطر التطورات الاقتصادية والسياسية والتفاعل بين المصالح الاقتصادية والسلطة السياسية متجسدة في مؤسسات رسمية وغير رسمية. حكم الدراسة همّان: علمي وسياسي. في الجانب العلمي حاولت الدراسة إغناء مقاربة الاقتصاد السياسي بتطبيقها على التطوير العقاري في سياق النزاع، وهو ما لم يُفعَل سابقًا. وفي جانب السياسي حاولت الدراسة استطلاع إمكان التوصية بتدخلات معينة في السياسات من طرف الجهات المهتمة. اعتمدت الدراسة المنهجية النوعية، وأجريت عشر مقابلات شبه مهيكلة مع خبراء. تشير نتيجة الدراسة إلى أن المنطق الأساس للاقتصاد السياسي للنظام هو ما يحكم المشروع على الأرض. ويمكن تلخيص الأمر بالتضحية بالكفاءة الاقتصادية والمنطق السليم لإعادة الإعمار خدمة لاستمرار النظام السياسي، وتعزيز مصالح المحسوبين عليه على حساب مصالح أغلبية سكان الحي. وعلى أساس ذلك اقتُرِحت بعض المقترحات التي يمكن أن تساعد في التخفيف من الآثار السلبية للمشروع.

ثانيًا: مقدمة

إن حقوق الملكية وحمايتها من تجاوزات الأفراد والدولة هما في جوهر العلاقة السليمة بين المواطن (المجتمع) والدولة، وهما في جوهر فكرة العقد الاجتماعي. وعلى أساس ذلك، فإن الخلل في حقوق الملكية ينطوي على شرخ كبير في المنطق الأساس للدولة، وأدائها، ومشروعيتها. إن سياق الحرب، وما ينطوي عليه من دمار وانزياحات سكانية وإعادة إعمار، يمكن أن يخلق اختلالات في حقوق الملكية وآليات حمايتها، اختلالات قد تؤثر تأثيرًا خطرًا في علاقة الدولة بالمجتمع، وفي بنية المجتمع نفسه. في هذا السياق تنطوي قضية إعادة الإعمار في سورية على كم هائل من المشكلات والمخاوف والهواجس المتبادلة بين مختلف الأطراف، وبصورة خاصة ما يتعلق منها بإعادة إعمار المدن ومشكلات حقوق الملكية العقارية.

مشروع التطوير العقاري في حي الحيدرية من المشروعات الأولى التي بدأت الحكومة السورية تنفيذها، وهو بذلك يشكل مثالًا تطبيقيًا يمكن دراسته لتلمس ملامح عملية التطوير العقاري وإعادة الإعمار الجارية

(1) باحث في المعهد الألماني للتنمية والاستدامة.

(أو المتوقعة) في سورية. فقد أشار تقرير صدر مؤخرًا[2] عن المشروع إلى أن ثمة تداخل ومساحات غامضة في مستويي القوانين والتنفيذ، وأن مصالح مالكي العقارات انتُهكت، والمشروع يبدو متعثرًا بصورة عامة. السؤال الذي يطرح هنا هو لماذا تسير الأمور على هذه الشاكلة؟ من الجهات المستفيدة والمتضررة؟ وكيف تفاعلت مؤسسات الدولة والسياق الهيكلي العام للظرف السوري - أو عجزت عن التفاعل أو منعت منه- فوصلت الأمور إلى ما وصلت إليه؟، وقد تدفع في المستقبل في اتجاهات أخرى قد لا تكون مرغوبة. الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن أن تشكل مدخلاً لبناء استراتيجيات تدخل واعية تحاول حل المشكلة (المشكلات)، أو على الأقل الحد من أضرارها، من الجهات الراغبة في التدخل كلها.

نظن أن تحليل الاقتصاد السياسي هو المنهجية المناسبة لفهم الوضع الراهن للمشروع، وتصور الحلول الممكنة ضمن إطار آليات التغيير، وكبح التغيير السائد في المجتمع السوري. فالاقتصاد السياسي يهتم بتفاعل العمليات السياسية والاقتصادية في المجتمع، أي توزيع السلطة والثروة بين مختلف المجموعات والأفراد، والعمليات التي تخلق هذه العلاقات، وتحافظ عليها، وتحولها بمرور الوقت[3]. يعتمد البحث المنهجية النوعية في جمع البيانات، وتحليلها على أساس إجراء مقابلة شبه مهيكلة، تمهيدًا للإجابة عن أسئلة البحث التي أثيرَت أعلاه. القسم الثاني من البحث خلفية عامة عن إعادة الإعمار في سورية، وفي القسم الثالث عرضت منهجية البحث، والقسم الرابع النتائج والمناقشة، ويختم البحث بالخاتمة والمقترحات.

ثالثًا: خلفية إعادة الإعمار في سورية

الاقتصاد في بعض معانيه يعني التبادل التعاقدي الحر للممتلكات المقوننة والمحمية بموجب القانون في السوق. وكلما ازداد مقدار الممتلكات التي يحميها القانون بطريقة ما، يزداد إمكان التبادل الحر للممتلكات، ويتوسع مجال النشاط السوقي، ومن ثم النشاط الاقتصادي بعمومه، وهذا يؤدي إلى رفع مستوى الرفاه العام للمجتمع. لذلك تعد مسألة حقوق الملكية حاسمة في المجتمعات كلها من المنظور الاقتصادي، إلى جانب المنظورين الحقوقي والقانوني، بوصفها أساس السيطرة على النشاط الاقتصادي وحدوده. تشكل الملكيات العقارية حصة كبيرة من مجمل ممتلكات المجتمع، وينطبق عليها ما ينطبق على بقية الملكيات في المنظور الاقتصادي عمومًا، ومنظور الاقتصاد السياسي بصورة خاصة، خصوصًا في أوضاع النزعات والحروب. بموجب بعض النظريات الملكية جزء أساس من البنية التحتية (الاقتصادية) التي تحدد البنية الفوقية السياسية، ومن ثم فإن الملكية تلعب دورًا حاسمًا في تحديد من يحكم وسياساته.

كانت استراتيجية النظام السوري في الشأن العقاري قائمة على تطبيق القانون بصورة انتقائية، بما يحقق غايته الأساس في تكريس استمرار الحكم وإنتاج الثروة وإعادة توزيعها لمصلحة فئات بعينها. والآن، نحن بإزاء

(2) د.م، واقع حقوق الملكية والأراضي والسكن في سوريا، اليوم التالي، (2021).

(3) Cristina Corduneanu-Huci, Alexander Hamilton and Issel Masses Ferre, Understanding Policy Change: How to Apply Political Economy Concepts in Practice, (World Bank, 2013).

- Verena Fritz, Kai Kaiser and Brian Levy, Problem – Driven Governance and Political Economy analysis: Good Practice Framework, (World Bank, 2009).

إعادة الإعمار، ولا يبدو أن تغيرًا ملموسًا حدث في سلوك النظام.

نظريًا إعادة الإعمار تحول في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية لخلق بيئة سلمية تمنع الانتكاس إلى العنف[4]. تتضمن العملية إقامة المؤسسات والمعايير والممارسات التي تعالج أسباب العنف، وتوفر الأساس للحكم الفعال والسلام المستدام[5]. ولا بد أن تنطوي إعادة الإعمار على عقد اجتماعي جديد وسياسات اقتصادية تنموية لتوفير حقوق الناس كافة؛ الاجتماعية والاقتصادية والخدمات الأساسية[6]. في هذا الإطار تعد إعادة الإعمار الحضري (المدن) إحدى أهم عناصر بناء السلام وتوطيده، وخصوصًا في الحالة السورية، لسببين؛ لأن إعادة الإعمار الحضري شرط لا غنى عنه لحل الأزمة الإنسانية ولاستعادة النمو الاقتصادي من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الإطار المؤسسي للتنمية الحضرية الذي ولّد ظاهرة السكن العشوائي والتهميش الاجتماعي والاقتصادي كان أحد العوامل الرئيسة التي أدت إلى الحرب الأهلية. لذلك يمكن أن تكون قوانين التخطيط الحضري والتطوير العقاري عاملاً حاسمًا في الجهد اللازم لضمان إعادة الإعمار الفاعلة، وتكريس أنماط جديدة من التشكل الحضري الذي يتجنب بعض المشكلات التي أسهمت في الصراع نفسه،[7] ويمكن أن تفعل النقيض، يمكن أن تشكل استمرارًا للحرب الأهلية بصورة جديدة.

في ظل غياب أي تسوية شاملة تشكل الإطار الطبيعي لإعادة الإعمار، يبدو أن النظام بدأ مرحلة إعادة الإعمار بالفعل، مع استمرار المحافظة على منطقه الأساس في التعامل مع القضايا العقارية، حيث يرى أن إحكام قبضته على السلطة وإعادة توزيع الثروة لمصلحته ومصلحة محاسبيه هما شغله الشاغل. فقد أصدر منذ عام 2011 أكثر من ستين قانونًا ومرسومًا ينظم الإسكان والأراضي وحقوق الملكية والتخطيط الحضري وقضايا الاستثمار. يبدو الجهد موجهًا نحو ترسيخ عمليات نقل السكان التي حدثت في أثناء القتال والتهجير القسري واتفاقات المصالحة، ومعاقبة المجموعات السكانية التي يُنظر إليها على أنها غير موثوقة، ومكافأة ولاء النخب القديمة والجديدة من خلال فرص الاستثمار المربحة، وتعويض أنصار النظام الدوليين بموارد سورية[8]. في هذا السياق، إن السؤال الأساس لهذا البحث هو: ما موقع مشروع التطوير العقاري لحي الحيدرية في سياق إعادة الإعمار التي يجريها النظام في سورية؟.

(4) Helen Kezie-Nwoha and Uchenna Emelonye, The Role of Women in Post-Conflict Reconstruction, International Journal of Gender and Women's Studies, 8(2), (2020), pp. 131-14,2 DOI: 10.15640/ijgws.v8n2p12.

(5) Steven Heydemann, Reconstructing Authoritarianism: The Politics and Political Economy of Postconflict Reconstruction in Syria, (Smith College & The Brookings Institution, 2018), https://scholarworks.smith.edu/mes_facpubs/7.

(6) فيفيان عقيقي، "إعادة إعمار سوريا: سياسات السكن في ظلّ المضاربات العقارية"، (2019).
https://al-akhbar.com/Issues/2745661

(7) Antonio-Martín Porras-Gómez," The legal framework for the Syrian urban reconstruction", Journal of Property, Planning and Environmental Law, (2021), DOI 10.1108/JPPEL-10-2020-0044.

(8) Muriel Asseburg, Reconstruction in Syria: Challenges and Policy Options for the EU and its Member States, SWP Research Paper 11, (Berlin, 2020).

رابعًا: السياق والمنهجية

بلغ عدد الوحدات السكنية في حلب 720 ألف وحدة في عام 2011، كان منها 64 بالمئة على شكل مبان سكنية متعددة الطوابق، مع 10 بالمئة أخرى منازل عربية (المدينة القديمة والأحياء التقليدية). وكان هناك 22 منطقة سكنية عشوائية توفر 45 بالمئة من المساكن. كان 86 بالمئة من الأسر في حلب يمتلكون منزلهم، 61 بالمئة منهم يمتلكون ملكية رسمية، بينما يمتلك الباقون شكلًا من أشكال الوثائق المعتمدة من مكتب كاتب العدل الرسمي. بحسب تقديرات البنك الدولي بلغت نسبة المباني المتضررة جزئيًا أو كليًا بسبب المعارك 31.8 بالمئة، وبلغ مقدار الدمار في أحياء مدينة حلب ما يقدر بـ 6.2 - 7.6 مليار دولار أميركي لغاية شباط/ فبراير 2017 [9]. وحي الحيدرية هو من أكبر الأحياء العشوائية في البلاد، وقد خضع لسيطرة المعارضة خلال مراحل النزاع معظمها، وتعرض لدمار شديد نتيجة العمليات العسكرية.

يقع حي الحيدرية في المنطقة الشمالية الشرقية من مدينة حلب، يمتد على مساحة 118 هكتارًا، وبلغ عدد سكانه قبل الحرب حوالى 45000 نسمة[10]. وبحسب موقع هيئة التطوير العقاري الحكومي، فإن عقارات المنطقة مستملكة بصورة كاملة للدولة (بحسب المشاركين في هذا البحث، فإن هناك عقارات غير مستملكة أيضًا ضمن الحي)، والعقارات جميعها تقع داخل المخطط التنظيمي العام المصدق لعام 2004، وداخل الحدود الإدارية للمدينة. مجموع الاستثمارات التقديرية اللازمة لتنفيذ برنامج التطوير العقاري 10,2 مليار ل.س (بأسعار عام 2011)[11].

نوقش مصير حي الحيدرية قبل الحرب في سورية ضمن قضية السكن العشوائي، وأقر تخصيصه للتطوير العقاري في عام 2010 بموجب القانون 15/ 2008، وأُكِّد الأمر مرة ثانية في خريف 2018 ، حيث أعلن مجلس مدينة حلب عن تطوير مقاسم الحيدرية العشوائية شمالي شرق المدينة. مساحة المرحلة الأولى للمشروع هي 28.8 هكتارًا، وهي جزء من المشروع العام الذي يمتد على مساحة 118 هكتارًا بعد تجزئته لمراحل لتسهيل العمل أمام شركات التطوير العقاري ذات الملاءة العادية والمتوسطة لتنفيذ المشروع. وثمة لجنة تتألف من ممثلين عن المطورين العقاريين وهيئة التطوير العقاري ووزارة الأشغال العامة ومكتب المتابعة في رئاسة مجلس الوزراء، لمتابعة أمور شركات التطوير العقاري، والتغلب على الثغرات ومعوقات التنفيذ، وتذليل الصعوبات[12]. في شباط/ فبراير 2019 بدأ مجلس المدينة بهدم المباني وترميم البنية التحتية والطرق الرئيسة في الحيدرية بعد إجلاء سكانه.

لماذا مشروع التطوير العقاري في حي الحيدرية؟ الجهات الرسمية ترى المقصود من تطوير الحيدرية أن يكون نموذجًا لإعادة الإعمار في أحياء أخرى، لكن المشروع متعثر، ويبدو أنه يعطي نموذجًا للفشل في إعادة الإعمار. لم تجذب الدعوات الرسمية الاهتمام المتوقع من المستثمرين، فالشركات المعتمدة بصفتها شركات تطوير عقاري لم تستجب للعطاءين اللذين طرحهما مجلس مدينة حلب، وثمة ثلاثة عوامل قد تفسر الأمر؛

(9) World Bank, Syria Damage Assessment, (World Bank Group, 2017)

(10) موقع هيئة التطوير العقاري. http://www.gcdri.gov.sy/Development/6/9/Ar

(11) المصدر السابق.

(12) موقع وزارة الإدارة المحلية والبيئة http://www.mola.gov.sy/mola/index.php/2018-04-19-13-25-36/item/6993-2018-10-21-14-17-56

أولاً: يبدو أن الشركات العقارية تتجنب الاستثمار في الجزء الشرقي من المدينة لأن الأرباح أقل مما كانت عليه في الجزء الغربي، ثانيًا: تطلب شركات التطوير العقاري بصورة أساس حوافز مالية أفضل وإعفاء كاملًا من الضرائب والرسوم (خاصة الجمارك) وفصل قانون المطورين العقاريين عن قانون المقاولين[13]، ثالثًا: تعود ملكية هذه الشركات معظمها إلى أفراد محسوبين من الشبكة الزبائنية للنظام، وربما ينتظرون ترتيبات لإقامة شركة قابضة من طرف مجلس مدينة حلب، ومن ثم العمل تحت مظلتها، ومحاولة نهب ممتلكات البلدية من العقارات المستملكة في الحيدرية. وعلى سبيل المثال، فإن زبون النظام القديم المعروف فارس الشهابي يمتلك أحد هذه الشركات، وزبون النظام الجديد (ثري الحرب) آل القاطرجي يمتلك أيضًا شركة تطوير عقاري، وقد تواترت أخبار غير رسمية عن تأسيس شركة قابضة تتبع مجلس مدينة حلب.

لمقاربة حقيقة ما يحدث في المشروع، لا بد من مقاربة ميدانية، لكن القواعد والقوانين الناظمة في ما يتعلق بعملية إعادة الإعمار في سورية بصورة عامة، ومشروع الحيدرية بصورة خاصة، غامضة ومعقدة، وثمة ندرة في المعلومات عن القرارات المتخذة وتنفيذها، ومن الصعب الوصول إلى أصحاب المصلحة، وهم غير متعاونين. وهذا يجعل مسألة الحصول على معلومات دقيقة مسألة عسيرة جدًا.

لذلك ارتأى الباحث إجراء بحث نوعي ينطوي على مقابلات شبه مهيكلة مع 10 من الخبراء في هذا المجال، تتضمن أكاديميين وقانونيين ومهندسين وباحثين مهتمين بالموضوع مقيمين خارج سورية، بغرض الحصول على رؤية لحقيقة المصالح والمؤسسات التي تتجسد في سياق المشروع والتأثير المتبادل لهما. أجريت المقابلات في ربيع عام 2021. تم التركيز على المحاور الثلاثة الأساس المتعارف عليها في تحليل الاقتصاد السياسي؛ العوامل الهيكلية التي تشكل سياق التطورات، وهي غير مرشحة للتغير خلال المدد القصيرة والمتوسطة، والآليات المؤسسية التي تنظم تفاعل المصالح وتنازعها. رُمِّزت المقابلات بالأحرف اللاتينية للمحافظة على هوية من أجريت المقابلة معه.

خامسًا: نتائج ومناقشة

1. العوامل الهيكلية

هي العوامل السياقية غير المرشحة للتغير في المدة القصيرة والمتوسطة. وتشمل الهياكل الاقتصادية والاجتماعية، والموقع الجغرافي الاستراتيجي، وهبات الموارد الطبيعية، والتحولات الديموغرافية، وتغير المناخ، والتقدم التكنولوجي. يساعد إدراك هذه العوامل الهيكلية في فهم كيفية تعامل المجتمعات معها وكيفية وصول الأمور إلى ما هي عليه اليوم.

على الرغم من أن ثمة كثيرًا من القضايا التي يمكن أن تؤخذ بصفتها ثوابت مهمة في تحليل الاقتصاد السياسي في سورية مثل التركيب القومي والطائفي لسورية وموقع سورية الجيوسياسي وطبيعة المناخ والموارد الطبيعية... إلخ، الا أن المشاركين ركزوا على نقطتين يتوقع عدم حدوث تغيير فيهما في المدى المتوسط، وهما تشكلان سياق التطورات في سورية؛ الأولى طبيعة النظام السياسي، والثانية نتائج الحرب بوصفها ثوابت مهمة في مشهد

(13) Myriam Ferrier, "Rebuilding the City of Aleppo: Do the Syrian Authorities Have a Plan?," European University Institute, (2020).

الاقتصاد السياسي السوري.

ظهر شبه اتفاق بين المشاركين أغلبهم على أن النظام السياسي في سورية لن يتغير، حيث أشار أحدهم إلى أن ((الثابت الأساس خلال المدة المتوسطة هو استمرارالنظام السياسي الحاكم)) (المشارك J)، وأكد مشارك آخر أن ((..... النظام السياسي في سورية باق...)) (المشارك F). لم يقتصر الأمر على توقعات استمرار النظام بالمعنى السياسي، بل امتد إلى استمرار الممارسات الاقتصادية مع استمرار النظام على أساس تعاون المصالح الاقتصادية القديمة المرتبطة بالنظام والمصالح الاقتصادية التي برزت خلال الحرب، ((الطبقة الاقتصادية العائدة للنظام والطبقة الاقتصادية التي اغتنت خلال الحرب ستسود، وستمنع التغيير، وتعود لخدمة السياسة نفسها...)) (المشارك C). وعلى الرغم من أن الجميع لا يتفق تمامًا على أن النظام مستمر، لكن ممارسات النظام من فساد ورشوة ومحسوبية ستستمر وتحكم عملية إعادة الإعمار، ((انتشار الفساد والمحسوبية وزيادة الرشوة... ظواهر مستمرة حتى مع حدوث التغيير..... هناك ذهنية سياسية قائمة على العشائرية والمحسوبية بعيدًا عن قيم المواطنة)) (المشارك G). الثابت الآخر الذي أُشيرَ إليه هو مخلفات الحرب. فقد أشار (المشارك A) إلى اقتصاد الحرب وديناميّاته التي ستستمر: ((ما يخيف هو اقتصاد الحرب، ديناميات اقتصاد الحرب هي التي ستسود خلال المدة القادمة.... أمراء الحرب سيكون لهم دور مهم، وستصدر القوانين لتعزيز مكاسب أمراء الحرب ومواقعهم)) (المشارك E)، وتوقع آخر أن يستمر ((.... منطق تجزئة السوق السورية وتعدد ارتباطاتها خلال المدة القادمة)) (المشارك J)، وأكد (المشارك D) مسألة تجزئة السوق السورية، وأضاف إليها قضايا أخرى مثل ((استحالة عودة اللاجئين بشكل جماعي وآمن، ويحقق قدر من معالجة مشكلة التغيير السكاني.... ولا مناخ لتحقيق ذلك)). خلاصة الآراء هي أن طبيعة النظام السياسي لسورية واقتصاده السياسي ونتائج الحرب هي العامل الثابت الذي حكم التطورات في سورية، وما زال يحكمها. تتفق آراء المشاركين مع نتائج الدراسات السابقة التي أشارت إلى أن منظور النظام السوري لعملية إعادة الإعمار هو خوض الصراع بطريقة جديدة، وبذل الجهد من أجل تثبيت الاستمرار في الحكم، وتوزيع مكاسب إعادة الإعمار على الفئات الاقتصادية المحسوبة عليه من رجال الأعمال الجدد والقديمين.

2. العوامل المؤسسية

هي تلك المتعلقة (بقواعد اللعبة) أو المؤسسات. وهي رسمية وغير رسمية؛ الرسمية هي القوانين واللوائح والمنظمات والدوائر الحكومية، وغير الرسمية هي الالتزامات الاجتماعية والقيم والعادات. تعطي دراسة المؤسسات صورة أوضح عن البيئة التي يعمل فيها أصحاب المصلحة، وكيف يشكل ذلك مصالحهم وحوافزهم، ومن ثم تحديد أدوات التغيير المحتملة. في الأماكن التي تكون فيها المؤسسات الرسمية (مثل سيادة القانون، والانتخابات، وفصل السلطات) ضعيفة، يبرز دور المؤسسات غير الرسمية[14].

الآلية الأساس في تنفيذ مشروع التطوير العقاري لحي الحيدرية هي القانون رقم 15، وهنا تأتي مخاوف تتعلق بالقانون نفسه، وأخرى تتعلق بطريقة تطبيقه.

(14) Verena Fritz et al.,2009.op. cit.
Cristina Corduneanu-Huci et al, 2013.op. cit.

صدر قانون التطوير والاستثمار العقاري رقم (15) بتاريخ 9 من تموز/ يوليو 2008، ورُوِّج له بأنه سيكون العصا السحرية للقضاء على أزمة السكن وإزالة مناطق المخالفات. وأحدث القانون (الهيئة العامة للتطوير والاستثمار العقاري)، التي تهدف إلى تنظيم أعمال التطوير العقاري في سورية، وجذب الاستثمارات العربية والأجنبية للمشاركة فيه، وإقامة مدن وضواحٍ سكنية متكاملة، ومجمّعات عمرانية جديدة، إضافة إلى معالجة مناطق السكن العشوائي. وجاءت التعليمات التنفيذية الناظمة للقانون لتوضح الشروط العامة والخاصة والمالية الواجب توافرها في المطور العقاري، وأسس تأسيس وترخيص شركات تطوير عقاري محدودة المسؤولية أو مساهمة سورية أو شركات مشتركة تسهم في الجهات الإدارية أو غيرها من الجهات العامة المختصة، وإحداث فروع لشركات عربية أو أجنبية متخصصة في مجال التطوير العقاري. ونصت التعليمات التنفيذية على الأسس المطلوبة لمناطق التطوير العقاري أن تكون خارج مناطق المنع والحرمات وخارج المناطق ذات الصفة السياحية، وحددت المساحات المطلوبة لإقامة مجتمعات عمرانية متكاملة مع مرافقها وخدماتها. ومن أهم الشروط التزام المطور العقاري بتأمين السكن البديل لشاغلي المساكن في المنطقة المطلوب تطويرها، بمساكن بديلة داخل منطقة التطوير العقاري أو خارجها، بحسب نتائج عملية المسح الاجتماعي للشاغلين التي يجريها المطور العقاري وفقًا للنماذج التي تعدها الهيئة العامة للتطوير لهذه الغاية، ويصدق من الوحدة الإدارية المعنية، أو التزامه بدفع البدل النقدي لشاغلي هذه المساكن عوضًا عن السكن البديل[15]. وكما هو واضح، بدا القانون مبشرًا، لكن في كثير من الأحيان فإن سياق تطبيق القانون من حيث الظروف العامة، ومن حيث السلوك الاقتصادي السياسي للجهات الحاكمة، هو ما يحدد نتائجه أكثر مما يفعل منطوق القانون نفسه.

أبرز المخاوف في ما يتعلق بالقانون نفسه أنه ينطوي على المسح الاجتماعي ((.... وبناء القانون على المسح الاجتماعي في ظل غياب كل السكان من المالكين... وستذهب الحقوق للسكان الحاليين من الشبيحة) (المشارك A)، نظرًا لأن الحي حاليًا خال من سكانه الأصليين، وأُسكِنت عائلات موالية للنظام فيه، فإن إجراء المسح الاجتماعي يعني تثبيت حق التعويض عن السكن المهدم للساكن الحالي، وتجاهل حقوق المالك الأصلي. وقد أكد ذلك أكثر من مشارك ((.... في حي الحيدرية بحسب القانون 15 لعام 2008 يمكن أن يكون هناك مشكلة المسح الاجتماعي.... بما يؤدي إلى تغيير ديموغرافي)). (المشارك C)

المسألة الثانية هي تغيب صوت أصحاب المصلحة في اتخاذ القرارات المتعلقة بالمشروع، وتركيز الصلاحيات في الحكومة المركزية على حساب الوحدات الإدارية المحلية. وبصورة عامة ((هناك صعوبة في توفير مناخ لكي يعبر السوريين عن إرادتهم في ما يتعلق بمستقبل بلادهم.... وقضاياهم المحلية)) (المشارك D)، إضافة إلى ذلك ثمة ((مشكلة في عمليات التنظيم العمراني بسبب سحب الصلاحيات من المجالس المحلية وتحويلها إلى وزير الإدارة المحلية)) (المشارك I)، هذا كله يعني أن القرارات ستتخذ على حساب أصحاب المصلحة من السكان المحليين لمصلحة الحكومة ومحسوبيها.

المسألة الثالثة تتعلق بطبيعة الملكية في الحي، وإمكان إثباتها، والترتيبات التي تطبق بموجب القانون، وتعليمات تطبيقه على مشروع الحيدرية. الأغلبية الساحقة من الملكيات في الحيدرية ملكيات غير مسجلة في السجل العقاري، وفيها مشكلات ملكيات الشيوع، ((الحي هو حي عشوائي والملكيات فيه ضبابية.... الملكيات حكم

(15) انظر الرابط: المطور العقاري.. سورية ثلاث مناطق | الجمل | (aljaml.com)

محكمة أو عقد خارجي أو وضع يد.... في هذه الحالة هناك مشكلة قانونية في اثبات الملكية)) (المشارك B)، وتتطلب إجراءات يصعب على أغلب سكان الحي القيام بها. وقد أكد (المركز السوري للعدالة والمساءلة SJAC) في دراسة سابقة أن: ((العديد من المراسيم الجديدة المتعلقة بالمُلكية منذ عام 2011 تسمح للأفراد بتقديم دعاوى حقوق المُلكية والإشغال من خلال ممثل قانوني إذا كان الفرد غير موجود شخصيًا لتقديم الدعوى بنفسه. ويجب إثبات هذا التمثيل القانوني من خلال وكالة قانونية. ويسمح هذا... نظريًا للسوريين النازحين بتأمين حقوق المُلكية الخاصة بهم، إلا أنه، كما هو الحال في الجوانب الأخرى لقانون المُلكية، يجب أن تتم الموافقة على الوكالة القانونية أولًا من قبل أجهزة الأمن. إذا وُجد أن الموكِّل له صلات بالإرهاب، فلن يتم قبول توكيله. ومن الناحية العملية، فإن هذا يعني أن العديد من الأفراد الذين شاركوا في الاحتجاجات منذ عام 2011 ويعيشون الآن خارج البلاد، لم يتمكنوا من تقديم التماس للمطالبة بسندات مُلكية عقاراتهم أثناء إقامتهم في الخارج)).[16]

بمنظور المشاركين لا يبدو أن ثمة فرصة في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية يمكن أن يستفيد منها المتضررون من المشروع لحماية حقوقهم. بالنسبة إلى المؤسسات الرسمية فهي خاضعة للأجهزة الأمنية، وتعد وسيلة النظام في تنفيذ مخططاته، ولا تتمتع بأي دور مستقل يمكنها أن تحمي حقوق المواطنين. يقول أحدهم إن ((.... الحزب والبرلمان منظومات شكلية ليس لها دور..)) (المشارك A). ويضيف آخر ((سورية ليست دولة بالأساس بل هي شكل مافيوي، وقد ظهر وجهها المافيوي حاليًا بشكل أكبر....)) (المشارك B)، ويفصل ثالث: ((..... أما المؤسسات مثل مجلس الشعب أو مجلس المحافظة فهي خاضعة للأجهزة الأمنية، وولاؤها للمركز...)) (المشارك C). ويجمل الأمر مشارك رابع بأن ((..... البنية المؤسساتية شديدة المركزية، وتدار من الظل، كيف تتخذ القرارات المتعلقة بمثل هذه الحالات؟ على الرغم من وجود الشكل الرسمي لتسلسل العلاقات والقرارات لكن في الحقيقة الجميع ليس صاحب قرار بل هناك مركز للقرار في الأجهزة الأمنية والقصر الجمهوري...)) (المشارك E).

ثمة مؤسسة تبدو ذات أهمية خاصة في تحقيق الحقوق وتطبيق القانون، لكن يبدو أنه لا يمكن التعويل عليها في سورية عمومًا، ومن ثم في مشروع الحيدرية، ((.... وهناك منظومات فاعلة مثل القضاء.... لكن هناك مشكلة أمنية في التقاضي ومشكلة مالية في إمكانية توكيل محام لمتابعة حقوقه....)) (المشارك A). إضافة إلى حصر مدة التقاضي ((.... وبالنسبة إلى القضاء فإن الشكليات ستمنع حق التقاضي، باعتبار أن حق التقاضي سيحصر بمدة زمنية محدودة وأحال كثيرًا من القضايا للجان يكون فيها القاضي واحدًا من عدة أشخاص....)) (المشارك G). كذلك يبدو أنه ثمة تكلفة مالية كبيرة ومانعة في عملية التقاضي، ((أصبحت الدعاوي حكرًا على عدد محدد من المحامين ذوي الارتباط والعلاقات مع الأجهزة الأمنية والسلطة بصورة عامة. وقد تكون التكلفة المالية للدعوى مانعة)) (المشارك B). إلى جانب ذلك ثمة مشكلات عملية توكيل محام ((.... هناك مشكلة أمنية ومالية في إمكانية توكيل محام لمتابعة حقوقه...)) (المشارك A). إلى جانب ذلك ثمة شكوك في وجود توجيهات مباشرة وغير مباشرة من قبل الحكومة للجهات القضائية تجعلها تنحاز إلى غير صالح أصحاب العقارات المتضررين... الحكومة والأجهزة الأمنية هما من أصدرا القرار، وهما من يوجهان الوحدات الإدارية، وتفسيرات واجتهادات للقضاء بما يمنع من مؤازرة اصحاب الحقوق)) (المشارك H).

(16) د.م، "عودتنا أصبحت حلما: خيارات في استرداد الملكية في سوريا ما بعد النزاع"، المركز السوري للعدالة والمساءلة SJAC، (2018).

يبدو أنه ليس ثمة أي من المؤسسات غير الرسمية أي المنظومات التقليدية الاجتماعية يمكن الاستعانة بها في هذا المجال، أي حماية حقوق مالكي العقارات في حي الحيدرية... لكن هناك منظومة العلاقات غير الرسمية الزبائنية والوساطة يمكن أن تلعب دورًا، ((المنظومات التقليدية مفككة وغير فاعلة.... لكن لدينا منظومة بديلة... هي مرجعية أمراء الحرب والمليشيات. ويمكن اللجوء إلى هؤلاء للحصول على الحقوق....)) (المشارك A)، ((ما يمكن أن يحصل الحقوق هي شبكة العلاقات الزبائنية والوساطة...))(المشارك C). لكن هذه المنظومة البديلة للمنظومة التقليدية ليست متاحة للجميع ((.... المؤسسات غير الرسمية هي العلاقات الزبائنية، وهي غير متاحة لكل الناس بل لفئة قليلة....)) (المشارك D)، ((... والمتضررون هم خارج سورية أو خارج مناطق سيطرة النظام، وهم لا يستطيعون اتباع الإجراءات اللازمة لتحقيق حقوقهم، وهم خارج الشبكات والعلاقات المؤثرة....)) (المشارك E). وهذا يؤكد ما أشار إليه (المركز السوري للعدالة والمساءلة SJAC)، بأنه ((كان الاستملاك وإعادة التنظيم بمنزلة أدوات للمحسوبية السياسية في سورية، ومن دون وجود علاقات مع الأشخاص المناسبين يمكن أن يخسر شاغل العقار حيازة مُلكه في أي وقت وبإشعار قصير أو تعويض لا يُذكر)).[17]

خلاصة الآراء تشير إلى أن المؤسسات الرسمية بصورة عامة وسيلة لتنفيذ أجندات تخدم مصالح النظام والفئات الموالية له، ولا تترك فرصة للجهات غير الموالية لكي تدافع عن حقوقها. وبالنسبة إلى المؤسسات غير الرسمية فهي غائبة، وحين تحضر، فإنها أيضًا متاحة فقط للاستخدام لمصلحة الموالين للنظام.

3. أصحاب المصالح

أطراف لهم مصالح محددة في عملية تغيير ما أو في كبحها. يمكن أن يكون هؤلاء أفرادًا (على سبيل المثال أعضاء مؤثرون في المعارضة، الرئيس، رئيس الوزراء، قادة المجتمع المدني) أو منظمات (نقابات عمالية، وحدات إدارية، فصائل مختلفة داخل الأحزاب السياسية أو داخل الهيئة التشريعية الوطنية، أو مانح وكالات وما شابه من الجهات الدولية)، وشركات خاصة.... إلخ. يخلق السياق الذي يعمل فيه أصحاب المصلحة فرصًا وتحديات لهم، وهم يسعون إلى تعزيز مصالحهم[18].

المصالح التي يمكن تلمسها في سياق مشروع الحيدرية هي بشكل أساس مصالح الحكومة بجهاتها المختلفة (البلديات وهيئة التطوير العقاري وغيرها من الجهات الحكومية)، ومصالح المطورين العقاريين بوصفهم ممثلين للطبقة الاقتصادية الموالية للنظام والسكان من أصحاب العقارات الموجودة في الحي وشاغليها.

البلديات هن صاحبات المصلحة الرئيسة في التطوير العقاري، والمسؤولات مباشرة عنها، ولديهن ممتلكات عقارية ضخمة، لكن ليس ثمة استقلالية تذكر في علاقة البلديات بالحكومة المركزية. وقد سمح المرسوم التشريعي رقم 19 الصادر في 30 نيسان/ أبريل 2015 للبلديات بتكوين شركات قابضة، والدخول في شراكات بين القطاعين العام والخاص. على سبيل المثال: الشام القابضة تهدف إلى إدارة أملاك محافظة دمشق. الممتلكات ذات الصلة أصول عقارية وممتلكات عينية، فضلًا عن الخدمات أو الأصول غير الملموسة التي تمتلكها المحافظة

(17) المرجع السابق.

(18) Verena Fritz et al.,2009..op. cit.
Cristina Corduneanu-Huci et al, 2013..op. cit.

أو لها الحق فيها في الاستثمار أو الإيجار.[19].

بعد صدور القانون 2008/15 بدأ المطورون التسجيل لدى الهيئة العامة للتنمية والاستثمار العقاري. واللافت هنا هيمنة أسماء شركات عامة أو خاصة عائدة إلى أشخاص ومصالح محسوبة على النظام، وكذلك تردد المستثمرين الأجانب في استكمال عملية الترخيص. في القطاع العام يمكن أن نلاحظ أن كبريات شركات التطوير العقاري مؤسسة الإسكان العسكرية ومؤسسة تنفيذ الإنشاءات العسكرية، وهما شركتان تتبعان مباشرة لوزارة الدفاع. وقد أشرنا سابقًا إلى بعض أسماء الشركات الخاصة في حلب ذات الارتباط الوثيق بالنظام مثل الشركة العائدة إلى الشهابي والشركة العائدة إلى القاطرجي. واللافت على سبيل المثال أن مشروع وادي الجوز في حماة مُنح لشركتي تطوير (برازي وآرام) لبناء 2400 مسكن. في البداية أُعلِن عن منح الترخيص في مناقصة تنافسية، ولكن لم تقدم أي شركة عرضًا. بعد ذلك حوِّل المشروع أخيرًا إلى مشروع شراكة بين القطاعين العام والخاص[20]، وقد تكون صفقة مماثلة هي ما تنتظره شركات التطوير العقاري في حلب من أجل الدخول في مشروع الحيدرية.

بالنسبة إلى النظام سلط المشاركون الضوء على نيات التطهير العرقي والتغيير الديموغرافي لدى النظام من خلال تنفيذ مشروع الحيدرية، وترحيل سكانه، وعرقلة عودتهم. بيّن مشارك أنه ((بسبب خصائص الحي من حيث تركيبته العرقية وطبيعة الملكية هو المكان المناسب للدولة لتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية، من مثل التغيير الديموغرافي، ومعاقبة المعارضين سياسيًا واقتصاديًا، ومكافأة الموالين، وتخفيف الأعباء عن الدولة)) (المشارك H)، وركز ثانٍ على التركيب السكاني للحيدرية، حيث إن أغلبية السكان من التركمان. ومن ثم هناك الدافع للتغيير الديموغرافي.... في القانون نفترض حسن نية المشرع، لكن في الحالة السورية لا بد من افتراض سوء النية.... وهؤلاء شاركوا في الأعمال المعادية للنظام، وهم يهمون تركيا بطريقة أو بأخرى)) (المشارك A). وأكد المخاوف نفسها مشارك آخر: ((هناك مخاوف من إعادة هندسة ديموغرافية بسبب كون أغلبية السكان من التركمان ذوي المواقف المعارضة للنظام)) (المشارك B). يتفق هذا مع ما أورده Yazigi حول ((المخاوف من التطهير الديني والعرقي، والاستيلاء على الأصول العامة من قبل المقربين من النظام، واستخدامها مكافآت لحلفاء النظام، وفرض الحقائق على الأرض لمنع عودة اللاجئين والتلاعب في حملة إعادة الإعمار))[21]. وكذلك Unruh من حيث سعي ((الحكومة السورية للحصول على ميزة عسكرية وديموغرافية أساسية في تعاملها مع قضايا الملكيات العقارية))[22]. وأشار (المركز السوري للعدالة والمساءلة SJAC) أيضًا إلى أنه ((تسمح القوانين والفوضى للحكومة بتحويل الممتلكات والعقارات إلى سلاح واستخدامها أداة لإعادة تأكيد الهيمنة السياسية))[23].

أثيرت المخاوف من أنه ثمة تراكم واضح للثروات في المجال العقاري يغري الحكومة بالاستيلاء عليها، ومشروع

(19) - Samir Aita, The Political Economy of Syria's Physical Fragmentation and Dependence, Discussion Paper 35, The Geneva Centre for Security Policy (GCSP), (2021).

(20) Samir Aita , 2021.op. cit.

(21) Jihad Yazigi, Destruct to Reconstruct: How the Syrian Regime Capitalises on Property Destruction and Land Legislation, Friedrich-Ebert-Stiftung, (2017).

(22) Jon D. Unruh, Weaponization of the Land and Property Rights system in the Syrian civil war: facilitating restitution?, Journal of Intervention and Statebuilding, 10(4), (2016), pp. 453-471, DOI: 10.1080/17502977.2016.1158527.

(23) د.م، "عودتنا أصبحت حلما: خيارات في استرداد الملكية في سوريا ما بعد النزاع"، المركز السوري للعدالة والمساءلة.

الحيدرية يمكن أن يشكل فرصة مغرية لذلك. يوضح مشارك أنه ((بسبب تركيز الثروة السورية في العقارات.... يتم الاستيلاء على العقارات كمصدر أساس لثروات السوريين.)) (مشارك A)، إضافة إلى الاستملاك السابق لنسبة كبيرة من العقارات في حي الحيدرية من قبل البلدية، ((... جزء كبير من منطقة الحيدرية مستملك، والحالي ممتلكات عقارية بتنازل عن بدل استملاك، إضافة إلى جهات وضعت اليد على الأرض)) (مشارك H)، وهذا ما يخفف تكاليف التعويضات، ويسهل على الحكومة الحصول على قيمة العقارات التي لا يستطيع أصحابها إثبات ملكيتها. وقد أشار Ferrier إلى أنه ((يمكن أن يفيد تطوير الحيدرية مجلس المدينة لأنه يمتلك 100 بالمئة من الأراضي، وينص القانون 2008/15 على أن التعويض مستحق فقط لشاغلي الأراضي الخاصة في شكل علاوة أو سكن بديل))[24].

ثمة مخاوف كبيرة من انتشار الفساد والمحسوبية وسوء التنفيذ، يقول مشارك: ((إن تمت عملية إعادة الإعمار بأيدي مجموعة من الفاسدين، فستكون نتائج إعادة الإعمار كارثية)) (المشارك B)، ويؤكد آخر ((.... الكارثة الكبيرة هي استلام أجهزة النظام الفاسدة هذه الأموال كلها، والطريقة التي سيتولى بها توزيعها واستخدامها للانتقام من غير الموالين... واستخدام كل الأدوات لتكريس الاستمرار السياسية للنظام)) (المشارك E)، ويضاف إلى ذلك أن ((الشركات التي ستقوم بإعادة الإعمار هي جزء من بنية النظام مثل مخلوف والفوز، ومن ثم يعاد إنتاج النظام اقتصاديًا)) (المشارك C)، ويتم التأكيد أن ((إعادة الإعمار لمصلحة النظام وتجار الحرب، وسيسودها الفساد.... والعراق مثال على ذلك... حيث إعادة الإعمار ملف فساد كبير.... بسبب فساد النظام، وغياب الحكومة والشفافية.... ستُنهب الأموال لجيوب فئة محددة)) (المشارك J)، وقد أكد Jihad Yazigi قضايا مماثلة، فأشار إلى أنه ((تظل الأرض الموجودة في مراكز المدن الرئيسة أو حولها هي الأصول الأكثر قيمة. تعود ملكية كثير من الأراضي والممتلكات في البلاد إلى الدولة، بما في ذلك المجالس المحلية، وبالنتيجة أطرت اللوائح لضمان إمكان نقلها بطريقة أو بأخرى إلى مستثمرين من القطاع الخاص))[25].

سيتضرر أصحاب الممتلكات أغلبهم بسبب صعوبات إثبات الملكية المتعلقة بطبيعة الملكية نفسها، فهي غير رسمية وضعيفة، ((.... الملكيات حكم محكمة أو عقد خارجي أو وضع يد)) (المشاركB)، إضافة إلى ذلك، فإن إجراءات إثبات الملكية تنطوي على إجراءات يصعب على المالكين القيام بها، نظرًا إلى أن أغلبهم من النازحين او اللاجئين والمشبوهين بمنظور النظام، ((... عدد كبير من السكان مهجر من المناطق العشوائية، ومن الصعب عليهم إثبات الملكية)) (المشارك C). لتقديم ملف تثبيت الملكية أو توكيل محام يتطلب الأمر حضور المالك أو أقربائه، وفي الحالتين ينطوي الأمر على المرور على الأجهزة الامنية التي لن تتردد في إلقاء القبض على المالك المشبوه أو عرقلة سيرة معاملته لتثبيت الملكية. وهي الحقيقة نفسها التي أشار إليها Jihad Yazigi: ((عادة ما يكون لدى سكان هذه المناطق وثائق قانونية ضعيفة لدعم مطالباتهم بالملكية، ما يسهل نزع الملكية. إضافة إلى ذلك ، توجد بالفعل قوانين تحظر أو تكبح المناطق العشوائية، ما يسهل من الناحية القانونية والسياسية استهدافها.))[26].كذلك بين Emily Stubblefield and Sandra Joireman أنه ثمة: ((عنصر مخيف بالقدر نفسه في هذا القانون هو شرط الحصول على تصريح أمني، إما للتسجيل في الملكية أو لتعيين وكيل في مكان المالك. كثيرون ممن فروا فعلوا ذلك

(24) Myriam Ferrier, 2020. op cit.

(25) Jihad Yazigi, 2017. op cit.

(26) Jihad Yazigi, 2017.op cit.

هربًا من الاضطهاد أو الاحتجاز بسبب مشاركتهم في المعارضة، مشاركة يمكن أن تكون بسيطة مثل حضور تظاهرة. الخوف من أن يحدد موقعهم من قبل الحكومة، ومن المحتمل أن يسبب ذلك التداعيات على أفراد الأسرة الذين ما زالوا يعيشون في سورية، ما سيمنع كثيرين من محاولة المطالبة بالممتلكات)).[27]

من الواضح أنه ثمة جهتان لهما مصالح واضحة في مشروع الحيدرية هما الحكومة التي لها مصلحة سياسية في استخدام المشروع لغرض زيادة فرص استمراره، ومصلحة اقتصادية في الحصول على الأموال، وهي تعاني نقصًا شديدًا فيها، في المقابل فإن الأغلبية الساحقة من أصحاب الملكيات العقارية في الحي معرضة لفقدان حقوقها، لكن هناك مصالح احتمالية لم تظهر بصورة مباشرة بعد في سياق المشروع. هذه المصالح هي مصالح المطورين العقاريين والمصالح الدولية. على الرغم من أنها قد تقوم بالسعي وراء مصالحها من خلال الضغط على الجهات الحكومية لتوجيه المشروع باتجاه محدد.

في النهاية لم يشر أي من المشاركين إلى وجود جهة من بين أصحاب المصالح المباشرة في المشروع أو المؤسسات المعنية به يمكن أن تحدث تغييرًا في مصيره. بل كان ثمة شبه اتفاق بين المشاركين على أن الفرصة الوحيدة المتاحة للتغيير هي رهن بالمصالح الدولية والمساومات التي تتم بينها، يجزم مشارك بأنه ((ليس هناك جهة تمتلك كامل أوراق التغيير، لكن التغيير معول فيه على المخططات الدولية....)) (المشارك E). يدعمه آخر ((يبدو أن من يمكن أن تقود التغيير هي القوى الدولية)) (المشارك D)، لكن هناك احتمال ((قد يقود النظام التغيير من خلال تأمين مصالح حلفائه الداخليين والخارجيين في إعادة الإعمار، وهذا ما قد يدفع الأوروبيين وغيرهم إلى البحث عن سبل للتعاون مع النظام. النظام يقود التغيير مع بقائه)) (المشارك A).

سادسًا: خاتمة وتوصيات

توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى أن الثابت الأساس الحاكم للتطورات في سورية هو النظام السياسي الحاكم فيها ومعطيات الحرب، ويجب أن يُدرس الاقتصاد السياسي لمشروع الحيدرية مع أخذ ذلك الثابت بالحسبان. وهذا يعني تغليب المصلحة السياسية للنظام في الاستمرار (ومصلحة المحاسيب الاقتصادية) على كل فرص الكفاءة الاقتصادية. هذا يعني في سياق الأزمة السورية أن تكون إعادة الإعمار شكلًا من أشكال استمرار الحرب الأهلية بدلًا من التوافق مع أساسيات إعادة الإعمار المتعارف عليها عالميًا. بالنسبة إلى الإطار المؤسسي الحاكم للمشروع هو القانون 15 لعام 2008، لكن تطبيقه ينطوي على كثير من المشكلات بحيث يعمل باتجاه واحد داعمًا مصالح النظام والفئات الموالية على حساب الفئات المعارضة. المؤسسات الحكومية بطبيعتها تعمل بأوامر الحكومة المركزية، وخصوصًا الأجهزة الأمنية، أو إنها عاجزة عن القيام بدورها، مثل القضاء. بالنسبة إلى المؤسسات غير الرسمية لا يبدو أنه ثمة أي مؤسسة فاعلة يمكن أن يستعين بها أصحاب المصالح المتضررون. وعلى الرغم من ظهور مؤسسات شبه رسمية نتيجة الحرب يمكن الاستعانة بها، لكنها أيضًا تعمل لمصلحة النظام والفئات الموالية. من حيث المصالح في مشروع الحيدرية، فإن أبرز المصالح هي المصالح السياسية للنظام في المشروع بوصفها أداة تساعد في الهندسة الديموغرافية وتكريس النظام، والمصالح الاقتصادية في الحصول

(27) Emily Stubblefield and Sandra Joireman, Law, Violence, and Property Expropriation in Syria: Impediments to Restitution and Return, Land, 82019) ,(173)), doi:10.3390/land8110173.

على الأموال وإغناء الموالين. إلى جانب ذلك هناك مصالح مالكي العقارات، وهم متضررون من المشروع، إذ إنهم من حيث أماكن وجودهم وعلاقتهم مع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية غير قادرين على التحرك الفاعل لحماية مصالحهم. وبناء على ذلك، وبحسب آراء المشاركين، فإن التغيير الوحيد الذي يمكن إحداثه رهن بالقوى الدولية.

إن نتائج هذه الدراسة ذات قابلية تعميم محدودة، نظرًا إلى اعتمادها على عينة صغيرة من الخبراء ممن ينتمون إلى المعارضة، لذلك ينصح أن توسع الدراسات المستقبلية العينة لتشمل الأطراف السورية كافة، والفئات كافة، فتشمل فئات من المعارضة والنظام وأصحاب شركات التطوير العقاري وملاك عقارات ومسؤولين حكوميين.

بناء على هذه النتائج يمكن للجهات المهتمة بمعالجة مشكلة مشروع حي الحيدرية (والمشروعات الشبيهة) التحرك على محاور عدة لضمان مصالح الجهات المتضررة، والدفع باتجاه جعل المشروع في خدمة أهداف إعادة الإعمار الحقيقية التي هي تحقيق السلام المستدام والتنمية.

في المحور الأول، تنظيم حملات تشارك فيها منظمات المجتمع المدني المهتمة ووسائل الإعلام والجهات القانونية، تهدف هذه الحملات إلى العمل على توثيق عمليات التهجير ونزعات الملكيات العقارية التي يقوم بها النظام، ونشر الوعي بين المتضررين بطرائق التوثيق وتثبيت الملكية والتقاضي وغير ذلك من الإجراءات القانونية، وتعبئة المتضررين وتنظيمهم من أجل الدفع إلى عدم السكوت على الانتهاكات الحاصلة بحقهم والمطالبة بحقوقهم، وتقديم الاستشارات للمتضررين من المشروع الراغبين في التحرك من أجل حقوقهم.

في المحور الثاني، استثارة الأطراف الدولية الأكثر اهتمامًا بمشروع الحيدرية (والمشروعات الشبيه)، ومحاولة إيجاد أرضيات مشتركة لمصالحها وطرح صيغ تحرك مناسبة نحوها. يمكن على سبيل المثال أن تتفق روسيا والاتحاد الأوروبي على صيغ معينة من القوة الروسية والأموال الأوروبية (على الرغم من أن هذا الاحتمال ضعف كثيرًا بعد الحرب الأوكرانية) من أجل تغيير مصير المشروع. وذلك نظرًا إلى أن روسيا تمتلك النفوذ السياسي والعسكري والمصلحة في الاستقرار، وتمتلك دول الاتحاد الأوروبي الأموال ومصلحتها في معالجة مشكلة اللاجئين. على أن تتضمن الاتفاقيات والتسويات كلها التي تتم مع النظام الدفع باتجاه تكريس الطابع المحلي والإدارة المحلية لمشروعات إعادة الإعمار، ومن بينها مشروع التطوير العقاري لحي الحيدرية.

في المحور الثالث، لا بد من الاستعانة بخبرة البنك الدولي في مجال حل المشكلات العقارية، وطلب مساعدته بصورة وثقى في الشأن العقاري السوري. على أن يتم الانتباه إلى أن قضية إعادة الإعمار، ومن ضمنها قضايا الملكيات العقارية، لن تسير في مسار سوي إن لم تكن في سياق تسوية سياسية عامة في سورية تضمن عودة المهجرين.

في المحور الرابع، يجب الاستفادة من خبرات البلدان التي سبق أن عانت الحروب الأهلية ونزاعات الملكيات والعقارات، من مثل البوسنة والهرسك.

المصادروالمراجع

1. Aita, S.,The Political Economy of Syria's Physical Fragmentation and Dependence, Discussion Paper 35, The Geneva Centre for Security Policy (GCSP), (2021).

2. Asseburg, M. (2020), Reconstruction in Syria: Challenges and Policy Options for the EU and its Member States, SWP Research Paper 11, Berlin, (2020).

3. Corduneanu-Huci, C., Hamilton, A. and Ferrer, I. M., Understanding Policy Change: How to Apply Political Economy Concepts in Practice, World Bank, (2013).

4. Ferrier, M., Rebuilding the City of Aleppo: Do the Syrian Authorities Have a Plan? European University Institute, (2020).

5. Fritz, V., Kaiser, K. and Levy, B., Problem – Driven Governance and Political Economy analysis: Good Practice Framework, World Bank, (2009).

6. Heydemann, S., Reconstructing Authoritarianism: The Politics and Political Economy of Postconflict Reconstruction in Syria, Smith College & The Brookings Institution, (2018).

7. Kezie-Nwoha, H. and Emelonye, U.,The Role of Women in Post-Conflict Reconstruction, International Journal of Gender and Women's Studies, 8(2), (2020).

8. Stubblefield, E. and Joireman, S., Law, Violence, and Property Expropriation in Syria: Impediments to Restitution and Return, Land, 8(173), (2019).

9. Porras-Gomez, A. M., The legal framework for the Syrian urban reconstruction, Journal of Property, Planning and Environmental Law, (2021).

10. World Bank, Syria Damage Assessment, World Bank Group, (2017)

11. Unruh, J. D., Weaponization of the Land and Property Rights system in the Syrian civil war: facilitating restitution?, Journal of Intervention and Statebuilding, 10(4), (2016).

12. Yazigi, J., Destruct to Reconstruct: How the Syrian Regime Capitalises on Property Destruction and Land Legislation, Friedrich-Ebert-Stiftung, (2017).

رابعًا: مراجعات الكتب

أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية

نحو تجاوز ثنائية الروح والجسد

فدوى العبود[1]

كتب دانتي مرةً: ((يقوم القصد الأول للفاعل في كل فعل على كشف صورته الخاصة به، على أنه اللوحة الذاتية للفاعل، لكن ديدرو بعد أربعة قرون وفي مؤلفه (جاك القدري) كان أكثر شكًا، إذ إن بطل روايته لم يستطع أبدًا أن يتعرف ذاته في فعله))[2].

يطرح هذا المقطع الذي استعاده كونديرا في أغلب أعماله الأدبية سؤالًا حول أهمية الفعل الإنساني في الأدب والفلسفة، والمسألة التي تثار في هذا الخصوص تتعلق بالفعل كجانب مرئي من السلوك (الأنطولوجيا)، وأن يكون تعبيرًا عما في الذهن (الأبستمولوجيا) وارتباط ذلك بالعلاقة بين الذوات (العلوم الاجتماعية).

وفي هذا الخصوص تُطرح مسألتان: تتعلق الأولى بالمشكلة التي يتركها الفهم الذي يتبناه كل من التوجه السلوكي ونقيضه التأويلي للفعل الإنساني؛ وفي الهوة التي تنشأ بين الجسد والذهن وبين الفعل المادي والجانب المعنوي، والتي تنجم عن هذا الفهم.

إن ما يترتب على تفسير الفعل سيمتد للمجال الاجتماعي فيصبح من المستحيل إقامة علاقة أو أي نوع من التواصل بين الذوات (البينذاتية)؛ ويرى كثيرون أن هذه الهوة التي عجزت الفلسفة الحديثة عن تجاوزها تضرب بجذورها في ثنائية ديكارت التي لم تستطع المحاولات اللاحقة في الفلسفة الحديثة تجاوزها، وبالخصوص ((عندما فصل وتحت تأثير علم الطبيعة (الغاليلي) طبيعته الجسمية عن الوعي، حيث قال بجوهرين أحدهما ممتد والآخر مفكر)).[3]

لهذا وغيره يأتي كتاب ((أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية)) للمفكر العربي رجا بهلول لجسر هذه الهوة والفكاك من (الأنا وحدية) ولأمِ العلاقة بين ما هو جسدي -طبيعي وقابل للملاحظة والدراسة العلمية في أفعال الإنسان، وما هو معنوي –ذهني.

وهو يخوض مناقشة واسعة مع النظريات والتوجهات السلوكية والتأويلية في رؤيتها للفعل الإنساني تتمة لمشروعه الفلسفي، وتصوره لمسائل الهوية والتماثل حول الذهن والانفعالات وقضايا البين ذاتية التي بدأها في

(1) فدوى، العبّود، كاتبة وباحثة سورية، ماجستير في الفلسفة والأدب، تكتب النقد الثقافي في الدوريات العربية، من أعمالها القصصية (تلة يسكنها الأعداء) 2022.

(2) ميلان كونديرا، فن الرواية، بدر الدين عردوكي (مترجمًا)، ط1، (الأهالي للطباعة، سوريا، 1999)، ص29.

(3) رينيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقية، تيسير شيخ الأرض (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار بيروت للطباعة، 1958)، ص27.

أعمال سابقة. انطلاقًا من طموح مخلص لتجاوز الريبية التي تسببت بها ثنائية ديكارت عبر مناقشة مضاعفاتها السلبية في التوجهات اللاحقة.

وعلى مدار سبعة فصول يتطرق الكاتب للمشكلات المعرفية التي تسببت بها القسمة الجائرة وأثرها في التواصل الإنساني والاجتماعي. لذلك يتعلق السؤال الأساسي الذي يُطرح في الفصول الثلاثة الأولى (أحداث الطبيعة وأفعال الإنسان-القصدية والأفعال-نظرية التفهم ومشكلة البينذاتية).

حول مدى مقدرة التوجه السلوكي والتأويلي على تجاوز الثنائية الحادة في نظرتها للإنسان وللفعل الإنساني، وهو يتفحص الإشكاليات التي يثيرها كل من التوجه السببي الذي يختزل الأفعال والرغبات لمجرد علاقات سببية لا تختلف عن العلاقة التي تحكم مجرى الكون. "هذا التفسير للظواهر الطبيعية الذي نقله الفلاسفة التحليليون بحرفيته إلى العلاقة بين الفعل والقصدية)).[4]

ويناقش المشكلات التي يثيرها هذا التفسير السببي الذي تتناه المدرسة السلوكية والوظائفية وما تترتب عليها من معوقات أبستمولوجية وأنطولوجية، أدت في النهاية إلى الموقف الريبي الذي برز بوضوح عند فتغنشتاين.

ويرى المؤلف أنه على الرغم من رفض فتغنشتاين ربط رودلف كارناب بين السلوك والحالة الداخلية لقناعته أنه هناك حالات يتوقف عندها وهي حالات ((عدم اليقين التي تواجهنا أحيانا عندما نكون بصدد الحكم على وجود حالة داخلية محددة في الآخر وعدم وجودها-فإن فتغنشتاين فد انتهى إلى الريبية النابعة من التوترات في فكره، وهذا الموقف الريبي يقوم في جوهره على أن الإنسان يمكنه أن يمثل شعورًا ما دون أن يعني ذلك أنه يعيشه في أعماقه))[5].

سيتسبب هذا برأي رجا بهلول أن بارتفاع الجدار بين الأنا والآخر لأن فرضية الريبين حول إمكانية الإنسان على أن يخدعنا أو يتظاهر فلا نعرف نواياه؛ انتهت إلى جعل الداخل صندوقًا مغلقًا، وانتهت بفتغنشتاين إلى رفض الاستبطان، ما استتبع عجز اللغة والنظر لها بكونها لعبة اجتماعية. بموجب ذلك لا يبقى سوى السلوك الخارجي. وهنا بالذات يتمثل عجز السلوكية عن إيجاد تفسير خارج الغائية التقليدية وبقائها عالقة في مصيدة الفكر الثنوي. ويرى المؤلف أن اللغة حاسمة في هذا المجال بحيث تكشف عن الوعي الإنساني وهي برأيه تتجاوز الألعاب اللغوية التي يتحدث عنها فتغنشتاين نحو شكل أصيل من الوعي يتم فيه التعبير عن الرغبات والأهداف؛ ليس من خلال السعي الدؤوب لتحقيقها ((الأمر الذي نجده عند أقل الحيوانات تطورًا-فحسب وإنما من خلال اللغة)).[6]

إن الاقتراح الأساس في هذا الكتاب هو فهم الفعل الإنساني من خارج بوابات الرؤية الكلاسيكية، وانطلاقًا من فكرة الكتاب الرافضة تجزئة الفعل الإنساني، يتطرق الكاتب إلى المشكلات التي يثيرها مبدأ التفهم عند التأويلية ممثلة بدلتاي وقصور هذا المبدأ الذي يجعل وجود الآخر افتراضًا، وبرأيه فإن التفهم الذي تدعو له

(4) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات، 2019)، ص 42.

(5) رجا بهلول، "أحداث الطبيعة وأفعال الإنسان: كيف ندرك العلاقة بين الطبيعي والاجتماعي"، مجلة تبين، ع: 8/30، (2019).

(6) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص 42.

التأويلية سيثير كثيرًا من العقبات الأبستمولوجية، وسينتهي إلى المعرفة غير المباشرة التي تجعل الآخر مجرد فرضية.

يكتب رجا بهلول: إن قياس شعور الآخر بناء على تجربتنا يعني الاعتراف بوجود ذوات مقابلة يصبح كما لو كان فرضية/نظرية، نتوصل إليها عن طريق قياس الغائب (ذات الآخر) على الشاهد ((ذات الإنسان نفسه))[7].

هذا الفهم سيوقع التأويلية في أنا واحدية من طراز جديد، وهذا يعني أن تواصلًا بين الذوات لن تقوم له قائمة، فمنهج التفهم كما طرحه دلتاي جعل وجود الآخر استنتاجًا محضًا، يكتب رجا بهلول: ((لو كان وجود الآخر استنتاجًا محضًا، أو صورة أرسمها وأنا أنظر إلى ذاتي من الداخل، لما كان في إمكان الآخر أن يكون سوى نسخة عني))[8].

إن السؤال الأساس: هل من إمكان لمعرفة أحوال الآخر الداخلية؟

لذلك سيحاول أن يجد حلًا يقوم على تأسيس الفعل أنطولوجيا من خلال التخلي عن تحليله لعنصرين، ورافضًا الفصل بين ما هو جسدي وفيزيقي وما هو ذهني. (وهذا ما كرسه ديكارت) وتفسير السلوك تفسيرًا سببا، (وهذ ما كرسه أرسطو). ورؤية في هذا الكتاب تتوخى تضيق المسافة بين البراني والجواني عبر نحتِ تصورٍ خاص للفعل الإنساني. يجعل منه جنسًا من نوع وهو يطلب إلى قارئه التوقف عن النظر إلى سلوك الإنسان، كما لو أنه حركات مادية بحته فحسب لا روح فيها. بل النظر إلى القصدية وكأنها روح الفعل ((أي الشروع في روحنة الجسد)).[9]

لذا سيتمحور نقاشه في الفصول الأربعة الآتية (أنطولوجيا الفعل، أبستمولوجيا الفعل، حدود المعرفة والقابلية للخطأ، تجاوز الإرث الديكارتي) حول ردم الثنوية وتجاوز الإرث الديكارتي، والقسمة الجائرة بين النفس والجسد، وبين الفعل والقصد. ويظهر تأثره بوجهة نظر كل من إليزابيت آنسكوم[10]، وأنطوان فورد الذي ينظر إلى العلاقة بين الحدث والفعل من خلال مفهوم الجنس والنوع أو العام والخاص، هذه الوحدة تعني أن المعرفة تحدث من دون واسطة، وتصبح القصدية والحركات المادية شيئًا واحدًا يمثُلُ أمام التجربة الحسية المباشرة.

يعرض الكتاب النظريات المتصلة بهذا الخصوص، والحلول المقترحة، وأحدها رؤية دريتسكي[11] الذي يقدم محاولة مخلصة لحل هذا المشكل، بإقناعنا بإمكان معرفتنا أحوال الآخر الداخلية، فالحزن حالة نفسية لا ترى، ولكنه كالهواء نعرف هبوبه من أثره، وبإمكاني أن أعرف أنك حزين من مشاهدتي دموعك. وهنا، فإن هذه المعرفة غير مباشرة. لكن هذه النظرية لا تلقى قبولًا من الكاتب، فاستنتاج وجود الآخر -برأيه-لا يقل فداحةً عن

(7) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البيننذاتية، ص67.

(8) المرجع نفسه، ص73.

(9) المرجع نفسه، ص154.

(10) إليزابيت آنسكوم: فيلسوفة ومترجمة بريطانية، اشتهرت بعملها في الأخلاق وفلسفة العمل أو السلوك، من أهم أعمالها (الفلسفة الأخلاقية الحديثة).

(11) فريد دريتسكي: فيلسوف أميركي، كان يرى أنه عن طريق الاستبطان فقط يتعلم المرء في الواقع عن عقله أقل مما يمكن توقعه. تركز عمله على الخبرة الواعية ومعرفة الذات. ومن أهم أعماله: الرؤية والمعرفة (1969)، المعرفة وتدفق المعلومات (1981)، شرح السلوك: الأسباب في عالم الأسباب (1988).

نظرية التفهم، وفي الحالين كلتيهما نحن أمام معطيات سلوكية، بينما تصبح الرغبات والأهداف مماثلة لتجربتنا الشخصية، وتتحول إلى فرض يتجزأ بموجبه الفعل إلى جانبين مستقلي؛ جواني (هو افتراض) والبراني. لذلك يقرر العمل أنطولوجيا من خلال التخلي عن تحليل الفعل لعنصرين، واستبداله بفكرة وحدة داخلية للفعل، ويخطو خطوة جديدة باتجاه وضع رؤية متجددة لفكرة القصدية في تأثر واضح برؤية آنسكوم مع تقديم رؤيته الخاصة التي تبتغي أن تحافظ على السلوكية بشكل مضعف، وتترك مجالًا للذاتية لتتنفس من دون أن نقع في أنا واحدية ديكارت من جديد.

فيصبح الفعل متضمنًا النية، والتأكيد على هوية الفعل أو بتعبير الكاتب: ((بوسعنا أن نقسم الأحداث إلى أفعال إنسانية وأحداث طبيعية، ثم نقسم أفعال الإنسان إلى قصدية وغير قصدية، مثلما نقسم المعادن إلى ذهب وغير ذهب))[12].

إن أبرز ما قدمه الكتاب في محاولته ونقاشه لمشكلة البينذاتية هو تفحص الرؤية للفعل الإنساني في المدراس الفلسفية المختلفة، وسعيه لإيضاح الجانب الثنوي غير الواعي في كل من هذه التوجهات، وبحثه عن هوية للفعل الإنساني يتأسس فيها الأخير أنطولوجيًا عبر التحقق في الوجود، وأبستمولوجيا عبر جعله نشاطًا معرفيا، وردم الهوة بين الطبيعي والاجتماعي، وفي صلب هذا كله إعادة التواصل الإنساني من خلال تبيان حقيقة المشاركة مع الغير، وإمكان وجود قانون يفسر العلاقات التي تربط الأنا بالعالم، والأنا بالغير، يمكننا أن نعثر هنا على مفهومات جديدة تتعلق بالتواصل المباشر والقبول والتفهم الذي لا يرتبط كما في التأويلية بتفهم الذات والقفز منها إلى الآخر بل يقوم في أساسه على هوية الفعل الموحدة وغير القابلة للتجزئة. ومن خلال جعل القصدية فعلًا متحققا وحسيا في وقت واحد لتجاوز ريبية فتغنشتاين التي تمنع المعرفة، وتقيم جدارًا بين الذوات.

وبذا يمكن البدء من السلوك لفهم الروح؛ تكتب آنسكوم: ((ليس في مقدور الروحانية إلقاء الضوء على السلوك بل العكس قد يكون هو الصواب، أي مفهوم السلوك هو ما يلقي الضوء على مفهوم الروح))[13].

يرى الكاتب أن هذه النظرية تعد متقدمة **مقارنة** بدريتسكي الذي جعل معرفتنا بالآخر (معرفة استنتاجية)، والذي حول وجود الآخر إلى وجود محض نظري واستنتاجي، وعلى النقيض، فإن ما تقوم به آنسكوم ((قذف المحتويات الذهنية إلى الخارج، حيث يمكن للجميع مشاهدتها بأم عينهم))[14].

لكن مكدوايل[15] يضع المعرفة في نطاق الحس السليم وهو أي مكدوايل مثل دريتسكي يقر ((أن الرغبات والمقاصد نفسها لا ترى بالعين لكن هذا لا يعني أننا لا ندركها)) عبر المعرفة المباشرة غير الاستنتاجية[16].

(12) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص91.

(13) المرجع نفسه، ص101.

(14) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص102.

(15) جون هنري ما كدوايل هو فيلسوف أفريقي. تُعد نظرياته في فلسفة العقل وفلسفة اللغة أكثر أعماله تأثيرًا، تمحورت أولى أعماله المنشورة حول الفلسفة القديمة، انخرط في سبعينيات القرن الماضي، في مشروع وضع نظرية دلالية حول اللغة الطبيعية. شارك في تحرير بعض المقالات تحت عنوان الحقيقة والمعنى. حرر كتاب أصناف المراجع(1982)، ونشره بعد وفاته.

(16) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص103.

وهنا تنحاز وجهة النظر في هذا الكتاب إلى الإدراك المباشر ردًا على النزعة الريبية، وتلقى رؤية مكدوايل قبولًا لدى الكاتب الذي يرى أن ما يتميز به الأخير من دريتسكي وأصحاب النظرية التفهمية في العلوم الاجتماعية أنه ((ينظر إلى معرفتنا بالآخر والحالات الداخلية للآخر؛ من منطلق أنها معرفة مباشرة))[17].

وهنا يؤكد الباحث أن المعرفة المباشرة وغير المباشرة صنفان من المعرفة، لكن ثمة فرق بينهما، إن الشعور بحجاب بين العارف ومعرفته كمن يستدل على مرور الإعصار من خلال الدمار الذي يخلفه، ((إن هناك فرقًا لا يمكن تجاهله بين رؤية العصافير ورؤية أعشاشها، وإن رؤية العصافير وليس رؤية أعشاشها هي ما يشكل المعرفة الحقيقية بوجود العصافير))[18]. إن القابلية للخطأ ممكنة، لكن هذا الكتاب يريد ألا تتحول إلى ريبية تمنع التواصل بين الذوات، لذا سوف يناقش في الفصل السادس (حدود المعرفة والقابلية للخطأ)، فما دامت المعرفة المباشرة لذات الآخر أمرًا ممكنًا نظريًا ومقبولًا منطقيا، فإن ذات الآخر كتاب مفتوح أمامنا، لأن ((إدراكاتنا الحسية لا تتوقف عند حدود الحركات الجسمانية، بل تتعدى ذلك إلى المقاصد والأفكار))[19].

إن الأسئلة في هذا الكتاب تتجاوز السؤال حول قدرتنا على معرفة ما في ذهن الآخر الذي يستطيع أن يكتم غضبه أو يتظاهر بالسرور، وسؤال رايت الذي وضع الحواس موضع شك؛ إلى التفسير الروحي الذي يجعل الروح مقذوفة في الفعل، ويجعل محتويات الذهن مرئية في الفعل الذي نقوم به. وهو يتمسك بوجهة النظر التي تعيد إلى التجربة الحسية فاعليتها وتوجهها، فالإنسان العادي يوجد في العالم الطبيعي، وبشكل تلقائي إن قولنا ((إن التجربة الحسية مُعدة في الأساس وبالأصل وبطبيعتها، ليس للكشف عن نفسها، بل عما هو خارج عنها))[20].

ونجاحنا في معرفة مقاصد الآخرين ((مسألة حظ إلى درجة معينة، لأنه لا يعتمد على مهاراتنا وطرقنا ومناهجنا في البحث والتقصي بل يعود إلى تعاون العالم معنا، إلى جميل يسديه العالم إلينا))[21].

لابد أن الآخر -بحسب هذه الرؤية- ضروري حتى في حالات معرفتنا أنفسنا، فهو يدخل بيننا وبين أنفسنا، والقول بالحس السليم يساعد على تقليل المسافة مع الآخر؛ وهنا تصبح القصدية والنية ثمرتا تواصل إدراكي، ومن ثم يزول الفارق بين جواني وبراني، وبين القصد والسلوك، ويتحدان في معنى واحد، فجذور الجواني هي في العالم وفي التجربة الحسية، والإدراك بالتجربة الداخلية للذات الأخرى مباشر وتلقائي، أو بتعبير وليامسون[22] الذي يختصر المسألة بتعبير واحد ((إن الاعتقادات والنوايا لا تصنع في البيت الداخلي بل ثمرة تواصل ادراكي مباشر مع العالم المحيط بنا))[23]. هذا الفهم للقصدية يجعل منها متجذرةً في العالم، بل إن الإنسان يعجز أحيانًا عن معرفة ما يدور في داخله، ومن ثم لا شفافية مطلقة بين الإنسان وذاته. كتب وليامسون: ((لا يمكن أن يكون مبدأ الشفافية صادقًا وفي بعض الأحيان لا يعرف الإنسان حالته الداخلية بل يخطئ في تفسير إحساسه

(17) المرجع نفسه، ص113.

(18) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص 113.

(19) المرجع نفسه، ص117.

(20) المرجع نفسه، ص120.

(21) المرجع نفسه، ص121.

(22) تيموثي ويليامسون: فيلسوف بريطاني، ولد في 1955 في أوبسالا في السويد من أهم أعماله (المعرفة وحدودها، 2000).

(23) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص126.

وترجمته؛ فمن كان غير مكترث لنفسه يحسب الألم العظيم ألمًا بسيطًا))[24] إذن وفق هذا فإن معرفة الذات لنفسها موضع شك، ما يعني عدم وجود شفافية بين الإنسان وذاته ما يثير مسألة معرفية يختصرها وليامسون بقوله ((إن معرفة الذات بنفسها قابلة للخطأ، أو هي من النوع الذي يصيب أحيانًا ويخطئ أحيانًا أخرى، وهذا يعني العلاقة المعرفية بين الذات ونفسها لا تفضُلُ العلاقة المعرفية بين الذات والذوات الأخرى))،[25] وهنا نصل إلى تسوية بين الذوات البينذاتية[26] بشكلها الأعمق والدقيق وفي هذه الرؤية فإن الآخر واسطة لنفهم أنفسنا، ونعتمد على حضوره لنكشف ما احتجبَ في أعماقنا.

إن النظر إلى الحركات الجسمانية فقط التي تدرك من قبل الحواس، وجعل الجانب الجواني مجرد فرضية يعني قسمة جائرة بين الداخل والخارج، حيث كل منهما توجد مستقلة عن الأخرى، وبتعبير أدق ((ينُظر إلى الحركات الجسمانية، كما لو كانت في حد ذاتها، معدومة المعنى. وينظر إلى القصد كما لو كان شيئًا روحيا، لا يتجسد في شيء))[27].

وبعد درب طويل ناقش الكتاب فيه الفعل الإنساني أنطولوجيا وأبستمولوجيا، وتطرق فيه إلى المعرفة بين الذات والأخرى بتحليل النظريات الطبيعية نصل إلى الفهم الذي لا يرى القصدية شيئًا مضافا إلى الحدث ليرتقي إلى درجة الفعل فحسب، بل تغدو القصدية من صميمه، وهي مشتقة من العالم بل هي ثمرة من ثمار التجربة الحسية المباشرة.

إن قصور السببية وعجز مناهج التأويلية مرجعه أن كلًا منهما تجعل من الإنسان آلة أو افتراضًا، وتجعل وجود الآخر استنتاجًا ساذجًا مشتقًا من وجوديّ الشخصي، ولم تسلم هذه النظريات من تجزئة الفعل البسيط الذي لا يقبل التحليل إلى عناصر، ولعل تأثير الثنائية الديكارتية التي انتهت إلى ريبية ليس خافيا في هذا المجال.

إن هذا الكتاب ومن خلال المسعيين الأنطولوجي والأبستمولوجي يحاول استعادة الوحدة الداخلية للفعل الإنساني، ولا يتم ذلك إلا بإعادة المنزلة للتجربة الحسية والمعرفة المباشرة.

وبذا، فإن البدء يكون من السلوك، وهذا الأخير هو الأقرب إلى فهم آنسكوم وفيتغنشتاين، فكتبت آنسكوم: ((إن روحانية الإنسان ليست هي ما يفسر السلوك بل السلوك يلقي ضوءًا على أحاديثنا حول الروح والنفس فكما أن السلوك نشاط الجسد فالقصد نشاط الروح))[28].

وعلى غرار مقولة أرسطو ((لو كانت العين جسدًا لكان الإبصار روحها))، يكتب رجا بهلول: ((لو كان فعل الإنسان جسدًا لكانت القصدية روحه))[29].

---

(24) المرجع نفسه، ص127.

(25) المرجع نفسه، ص128.

(26) البينذاتية: مصطلحٌ معاصرٌ يشير للتأسيس إلى طبيعة العلاقة بين الذات والغير، والغير هنا قد يكون موضوعًا خارجيًا أو ذاتًا أخرى مقابلة، وهي محاولة لإيجاد ملامح إمكانية العلاقة بين الأنا والغير.

(27) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص74.

(28) المرجع نفسه، ص132.

(29) رجا بهلول، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، ص 132.

وهو يرفض أن يخضع الفعل للتحليل من خلال مفهومات الجنس اللون والنوع الأحمر كما رفض التعامل مع الحركات الجسمانية للإنسان كما لو أنها تنتمي إلى النوع نفسه من أحداث الطبيعة غير العاقلة. فجسم الإنسان ليس كأي مجموعة من الأجزاء المادية، ((هناك نوع من التكامل والتناسق بين جسم الإنسان وما يمكن أن يأتي به من حركات من جهة المقاصد والرغبات والأفكار)).[30]

والخلاصة تتوخي وحدة الفعل الإنساني للوصول إلى أن العلاقة المعرفية بين الذات والآخر علاقة مباشرة لا تحتاج إلى نظريات أو فرضيات، فالنيات والمقاصد تجد جذرها في الإدراك المباشر والتلقائي للوجود من قبل الإنسان في موقفه الطبيعي. ويصبح البحث عن أي قسمة جهدًا ضائعًا.

إن المواقف الريبية تعيق المعرفة بين الذات والآخر، وتقيم إشكالات بين الذوات، وبذلك يحاول هذا الكتاب أن يخطو باتجاه فهم فينومينولوجي مباشر، محاولة منه إعادة المنزلة للتجربة الحسية عبر هدم الجدار الفاصل بين الداخل والخارج، وبين جسد الإنسان وروحه، بحيث تتمظهر الروح في الجسد، ويصبح الإنسان وحدة لا تتجزأ.

خطوة تتحول فيها قصدية الشعور لوجوده إلى تجربة مشتركة بين الذوات، متجذرة في العالم يزول فيها أي تصور ثنائي يباعد بين الفعل والنية وبين الروح والجسد؛ وتستعيد فيها التجربة الحسية المباشرة ألقها الذي افتقدته، ليس انتصارًا للتجربة وحسب، بل من أجل تواصل إنساني أكثر إنسانية ورحابة، وهذا بدوره يعيد تعريف مفهوم الحقيقة التي نُظر لها طويلًا بصفتها ماهوية أو محتجبة خلف المظهر الخادع، تواصل يتجاوز الألاعيب اللغوية وفكرة الشفافية بين الذات وذاتها بحيث يتأسس فيه الفعل الإنساني والقصدية الشعورية في الوجود باعتبارهما وحدة لا تنفصل عنه؛ ويصبح فهم الذات لذاتها منقوصًا من دون حضور الآخر؛ الذي يثري هذه التجربة. ليكون نقطة بداية لاستعادة التواصل في معناه الأعمق، ((فَهمٌ لا يعود فيه الغير تهديدًا للذات يفقدها خصوصيتها كما عند هايدغر، بل يرى فيه وسيطًا بيني وبين ذاتي بالمعنى الذي قصده سارتر حين جعل الذات تدرك ذاتها من خلال الغير)).[31]

وهي رؤية تتجاوز الفكرة التي ترى أني أدرك الآخر من خلال إسقاط تجربتي عليه، فهو -أي الآخر- شرطٌ أصيلٌ وضروري لفهم الذات، لا تُلقى فيه القصدية في العالم الحسي فحسب، بل تغدو ثمرةً من ثماره.

(30) المرجع نفسه، ص136.

(31) فدوى العبود، التحليل الفينومينولوجي للوعي عند سارتر وانعكاسه في أدبه، رسالة لنيل درجة الماجستير، يوسف سلامة (مشرفًا)، (دمشق: جامعة دمشق، 2012).

المصادروالمراجع

1. بهلول. رجا، أنطولوجيا الفعل ومشكلة البينذاتية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات، 2019).

2. بهلول. رجا، "أحداث الطبيعة وأفعال الإنسان: كيف ندرك العلاقة بين الطبيعي والاجتماعي"، مجلة تبيين، ع: 8/30، (2019).

3. ديكارت. رينيه، تأملات ميتافيزيقية، تيسير شيخ الأرض (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار بيروت للطباعة، 1958).

4. عبود. فدوى، التحليل الفينومينولوجي للوعي عند سارتر وانعكاسه في أدبه، رسالة ماجستير، يوسف سلامة (مشرفًا)، (دمشق: جامعة دمشق، 2012).

5. كونديرا. ميلان، فن الرواية، بدر الدين عردوكي (مترجمًا)، ط1، (سوريا: الأهالي للطباعة، 1999).

المجتمع الصحراوي من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة[1]

محمد المخلوفي[2]

أولًا: مقدمة

نشر الكتاب المعني بالمراجعة بمطبعة إفريقيا الشرق سنة 2021، ويتضمن 256 صفحة من الحجم المتوسط. وقد قسمه الباحث رحال بوبريك إلى مقدمة وأربعة فصول متباينة من حيث الحجم والمضمون، ثم خاتمة. خصص الفصل الأول الذي يتكون من 38 صفحة للحديث عن المسكن الذي كان يعيش به الرحل قبل دخول الاستعمار منطقة (واد نون وتيرس) معنونًا هذا الفصل بـ (زمن الخيمة السكن والتنظيم الاجتماعي)، يليه الفصل الثاني (المدينة التقليدية ما قبل الاستعمار) الذي يضم حوالى 54 صفحة، مرورًا بالفصل الثالث (الترحال على محك التحولات) الذي يتكون من 37 صفحة، ليختتم هذا المؤلف بالفصل الرابع الذي يتشكل من 49 صفحة، ومعنون بـ(نهاية الترحال). وخاتمة تضم حصيلة استنتاجاته، ثم قائمة المصادر والمراجع التي توزعت على شقين؛ أحدهما باللغة العربية والآخر باللغة الفرنسية.

ثانيًا: إشكالية الكتاب وأهميته

يقدم كتاب (المجتمع الصحراوي من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة) مقاربة تاريخية ثقافية مهمة عن التحولات التي طالت المجتمع الصحراوي؛)المجال الممتد من واد نون شمالا إلى تيرس جنوبًا(، وتتحدد الإشكالية المركزية التي يتمحور حولها هذا المؤلف في فهم الآليات والعوامل التي أدت إلى انتقال الرحل في المجال المذكور من عالم البداوة إلى فضاء المدينة، ويكشف الآثار التي ترتبت عن هذا الانتقال، وانعكست سلبًا في فئة الرحل الذين تعرضوا لاجتثاث قيمي أدى بهم مع استقرارهم داخل المدن التي شيدها المستعمر إلى الإحساس بالاغتراب والاستلاب. أول هذه العوامل التي توقف عندها المؤلف لفهم هذا الانتقال، وما أفضى إليه من تحولات بسبب الاستعمارين الفرنسي والإسباني اللذين احتلا الصحراء سنة 1934؛ ((تاريخ الاحتلال العسكري الفعلي للمناطق الممتدة من وادي نون إلى تيرس جنوبًا))[3]، وقد كشف في إطار التأثير الذي أحدثه في بنية المجال المذكور الآليات التي وظفتها الإدارة الاستعمارية لضبط حركية الرحل، و يشكل إجراء المراقبة إحدى هذه الآليات، وقد تكفل به الرحالة والمستكشفون الذين لعبو دور الوساطة بين هذه الإدارة من جهة والرحل المتنقلين من جهة ثانية. ومن النتائج التي تمخضت عن هذه الآلية تراجع مدّ الرحل الذين لم يتمكنوا من التنقل بصورة حرة مع الحدود التي

(1) رحال بوبريك، المجتمع الصحراوي من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة، ط1، (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2021)، (256ص).

(2) طالب باحث يتابع دراسة الماجستير في تخصص علم الاجتماع بجامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير المغرب.

(3) رحال بوبريك، المجتمع الصحراوي من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة، ص 127.

شيدها المستعمر في أثناء تدشينه عددًا من المدن (العيون، طانطان)، من هذا المنطلق فرض المستعمر مخطط تمدين الصحراء بمنطقة)واد نون وتيرس(التي اتخذها المؤلف ميدانًا للبحث في هذه التحولات.

ويضاف إلى عامل التدخل الاستعماري تحولات مردها الأزمات الداخلية التي شهدها المجال خلال الستينيات من القرن الماضي، ويتعلق الأمر بأزمة الجفاف التي أدت إلى هجرة الرحل بعد أن فقد غالبيتهم ماشيتهم، وقد أدت حركة الهجرة التي قامت بها هذه الفئة إلى انتشار أحزمة الفقر والبؤس، وظهور تراتبية اجتماعية تجسدت في حيازة الضباط الإسبان وعائلاتهم الفضاء المديني المجهز بمختلف شروط العيش الأساسية في الوقت الذي أصبح السكان الصحراويون على هامش المدن من دون التوافر على أدنى مقومات الحياة المطلوبة. هذا إلى جانب حرب الصحراء التي دارت بين الإسبان والصحراويين، ما دفع الرحل إلى الهجرة فرارًا إلى هذه المدن التي ظنوا أنها ستكون ملاذا لاحتضان هذه الفئة من الحرب.

يعد الكتاب إسهامًا قيمًا في دراسة موضوع التحولات التي شهدتها منطقة الصحراء، ويسعى مؤلفه إلى إبراز غنى المجال الصحراوي ثقافيًا واجتماعيًا، ((فلم تكن الصحراء بالنسبة له فضاء عقيما وتابتا، بل عرفت ديناميكية ثقافية واجتماعية وسياسية))[4]. يعد (مجال واد نون وتيرس) الذي قارب المؤلف فيه إشكالية انتقال الرحل من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة مجالًا يمثل هذه الدينامية والحركية اللتين شهدتهما هذه المنطقة من الصحراء، وهي دينامية أدت بهذا المجتمع إلى تحولات عدة؛ فعلى صعيد البناء المادي اختفت الخيمة، وظهر المنزل، ما أثر تأثيرًا مباشرًا في الرحل بهذا المجال الجغرافي الذين تعرضوا من جراء الزحف الحضري الذي اجتاح المجال الذي عمروه إلى انهيار قيم البداوة التي كان يمارسونها في زمن الترحال، ومن هذه القيم التي اندثرت في هذا الفضاء: العمل الجماعي في إعداد الخيمة والاجتماع حول كؤوس الشاي. ومن ثم، فإن أهمية هذا المؤلف تفسر في كون كاتبه استطاع أن يقدم لمحة تاريخية عن مسار التحولات التي شهدتها هذه المنطقة من الصحراء مع الانتقال من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة في شكلها المعاصر.

إضافة إلى ذلك، يستمد هذا المؤلف أهميته انطلاقًا من استجابة إشكاليته البحثية لما شهدته منطقة الصحراء، وبالضبط منطقة (واد نون وتيرس) من تحولات. ومن ثم، فإن أهمية الكتاب تنبع من الإشكالية التي أثارها، والتي تعكس واقع هذه المنطقة، وحاول المؤلف أن يدرس ما يجوب به واقعها الذي فرض عليه بحكم التحولات والآثار التي خلفها هذا الأخير تسخيرَ المعرفة العلمية التي أنتجت تخصصات متنوعة من قبيل الأنثربولوجيا والتاريخ لدراسة واقع هذه المجتمعات الذي شهدت موجة تحضر غيرت معالمها، ما دفع بها إلى الانتقال من مجتمع قبلي في سيرورة دائمة من الترحال إلى مجتمع حضري مستقر.

تجسد ذلك بشكل واضح في تأسيس المؤلف مركز (الدراسات الصحراوية والإفريقية) الذي يعبر عن هذا الارتباط الوثيق بين الخطاب العلمي وواقع التحولات التي مست المجال المذكور. يعنى هذا المعهد بالاهتمام بكل ما له صلة بالمجتمعات الصحراوية من ثقافة، وعادات، وعلاقات اجتماعية...، ويعبر هذا الانشغال العلمي بهذا المجتمع عن أهمية هذا الأخير الذي أثار انتباه عدد من الباحثين والدارسين.

ومن أبرز هؤلاء الباحثين محمد دحمان الذي درس التحولات التي شهدتها منطقة الساقية الحمراء في عمل

(4) رحال بوبريك، دراسات صحراوية: السلطة والدين والمجتمع، ط1، (الرباط: أبي رقراق 2008)، ص 6.

يحمل عنوان: (الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب). وقد بين المؤلف من خلاله التأثير الذي أحدثه التدخل الاستعماري في المنطقة، وتوقف الباحث على مسألة الحد من حركية الرحل التي شكلت إحدى الاستراتيجيات التي استند إليها المستعمر ليتغلغل في المجال المذكور، ما أدى إلى القضاء على حياة البداوة في هذا المجال الذي شهد إثر التغلغل الاستعماري فيه ظهور مراكز للاستقرار عملت على إعلان نهاية نمط العيش البدوي الذي حدد المؤلف مظاهره في تراجع تربية الإبل، والصيد البحري، والرعي الترحالي، ما أفضى بهذا إلى ((تهديم البنيات التقليدية الصحراوية وانهيار وتقلص المراد الطبيعية والرعوية واندثار أو قلة المواد الغذائية الشيء الذي انعكس على الترحال وعلى الساكنة المستقرة بالمنطقة))[5].

ثالثًا: مضامين الكتاب

يتكون الكتاب من أربعة فصول، يتتبع مؤلف الكتاب من خلالها المسار التاريخي لاستقرار الرحل داخل المدن التي شيدها المستعمر. وقد راعت هذه الفصول المسار الذي حدده المؤلف لهذه الفئة، فيبدأ الفصل الأول من الكتاب (زمن الخيمة: نمط السكن والتنظيم الاجتماعي) بالكشف عن وضعية الرحل قبل دخول الاستعمار للمنطقة، يليه الفصل الثاني (المدينة التقليدية ما قبل الاستعمار) الذي خصصه المؤلف للحديث عن المدن التي شكلت مراكز تجارية في المنطقة قبل تغلغل الاستعمار فيها. بينما ينشغل الفصل الثالث (الترحال على محك التحولات) بإبراز العوامل التي أدت إلى تفكك الترحال بالمجال السالف ذكره، والفصل الرابع (نهاية الترحال) تناول فيه الباحث أوجه التحولات التي شهدها المجال المذكور وآثارها في الرحل.

يناقش الفصل الأول وضعية الرحل قبل دخول الاستعمار المنطقة، ويربط بين نمط العيش البدوي المميز لحياة هذه الفئة، والخيمة التي شكلت من منظوره السكن المتأقلم للرحل الذين يتنقلون بصورة مستمرة ودائمة للبحث عن الماء والكلأ. وقدم مؤلف الكتاب وصفًا دقيقًا لهذا النمط من المسكن؛ (خيمة الشعر)[6]، والمكونات التي تتشكل منها، وطرق تهيئها وتشكيلها، إضافة إلى إبراز المنزلة التي تحظى بها داخل أوساط الرحل الذين تتجاوز رؤيتهم لها أن تكون مجرد بناء مادي هندسي لتصير تمثلًا ثقافيًا ورمزيًا يعكس مجموعة من القيم التي تحييها هذه الفئة في إطار ترحالها المستمر. لا شك في أن العمل الجماعي (التويزة) أبرزها، فبموجبه تصطف النساء مع الفاعل المركزي في إعداد الخيمة، وهو المرأة التي عدها المؤلف (سيدة الخيمة)، هذا إلى جانب حفلات الشاي التي تقام في أثناء إعداد الخيمة.

يشغل الفصل الثاني بالحديث عن المدن التقليدية التي شهدتها الصحراء قبل الاستعمار، وقد عمل الباحث في تعريفه بهذه المدن على أن يكشف الوظائف التي اضطلعت بها قبل دخول الاستعمار، لتمييزها من المدن التي أنشأها المستعمر، ((الصحراء حضرية ولكن بطريقة أخرى))[7]. متخذًا نموذجي مدينتي كلميم والسمارة من هذه المدن التي شكلت مراكز تجارية، ما جعل الصحراء تعرف استقرارًا نسبيًا، وقد أطلق الباحث عليها

(5) عطوف الكبير: دراسة نقدية وقراءة في كتاب محمد دحمان-الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب "، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 20، 2016 ص 16.

(6) يعني مصطلح خيمة الشعر في مجتمع الصحراء تلك الخيمة المصنوعة من شعر حيوان الماعز.

(7) O. Pleiz, les cites du desert , DES villes sahariennes aux sahara– towns, (pesses universtaires, toulouse,),2011 p 9.

مصطلح (الكصر)[8]، نظرًا لازدهار القوافل التجارية فيها؛ فـ (كلميم) لعبت دورًا اقتصاديًا جعلها محطة رئيسة للقوافل التجارية، بينما أدت (السمارة) دورًا روحيًا ودينيًا جعل منها مكانًا مقدسًا بعد تأسيسها من قبل الشيخ ماء العينين[9] الذي عمل على استقبال المريدين، وهو ما جعل الغرب الصحراوي يشهد استقرار في ظل وجود هذه المراكز.

يتناول الفصل الثالث تشكل المدينة الصحراوية بمواصفاتها المعاصرة مبرزًا السياق التاريخي لنشأتها (مرحلة السبعينيات من القرن الماضي) مع اندلاع حرب الصحراء سنة 1975، ومع التغلغل الاستعماري في المنطقة، وقد ركز الباحث على أثره البالغ في نشأة هذه المدن. وتوقف لتبيان تأثير هذا الأخير في الاستراتيجيات التي اعتمد عليها للقضاء على حياة الترحال.

وشكل هنا إجراء استقطاب زعماء القبائل ومراقبة حركية الرحل بعض هذه الاستراتيجيات التي وظفتها الإدارة الاستعمارية، ما أدى إلى تمدين هذا المجتمع من الصحراء قسرًا، ولا سيما أن المراقبين الذين وضعتهم القوى الاستعمارية عملوا على استمالة الساكنة المحلية في المنطقة (الرحل)، وقدموا الهدايا، وفتحوا المستوصفات، وهيؤوا الموانئ على السواحل التي كانوا ينتشرون بها، ما أجبر الرحل على الخضوع لمخطط تمدين المنطقة، ومن هنا ظهرت المدينة كشيء غريب عن هذا المجتمع، ومن المدن التي توقف المؤلف على ذكرها: العيون.

بينما خصص الفصل الرابع من الكتاب للحديث عن النتائج التي ترتبت على إجراء التمدين القسري الذي شهدته هذه المنطقة من الصحراء، وقد أبرز المؤلف في سياق عرضه هذه النتائج آثار التحولات التي شهدها هذا المجال، وانعكاسات هذه الأخيرة في الرحل الذين تعرضوا لاجتثاث قيمي وثقافي أنهى قيم البداوة التي كانوا يعيشون عليها، مقابل ظهور قيم جديدة بدأت تلوح في السطح مع تغلغل الاستعمار الأجنبي في المنطقة، وهي قيم تشجع على العمل الفردي والملكية الفردية بصورة خاصة، ما أدى إلى نهاية عصر الترحال في هذه المنطقة، ومن ثم إحداث تحولات عميقة في المجال المذكور، ومن تجليات هذه التحولات انهيار الخيمة حيث أصبحت ((الخيمة في المدينة ليست وحدة من وحدات الفريك[10] إنها نشاز داخل المدينة، بل رمزا من رموز البؤس وعلامة دالة

(8) يقصد بمصطلح الكصر تلك المراكز الحضرية التي ازدهرت بها القوافل التجارية بمنطقة واد نون وتيرس، وهي مراكز جعلت هذا المجتمع من الصحراء يشهد استقرار نسبيًا على الرغم من بداوته التي جعلته يعيش على الترحال الدائم.

(9) الشيخ ماء العينين سيدي المصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن الشيخ محمد الأمين الملقب (مامين) القلقمي الإدريسي الحسني، المزداد يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان 1246هـ، الموافق 8 شباط/ فبراير 1831م، والمتوفى يوم 21 شوال 1328هـ، الموافق 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1910م، والدته منينة أو منة بنت المعلوم بن سيدي من قبيلة أجيحب، نشأ الشيخ ماء العينين في كنف والده، وتتلمذ لديه، وأخذ عنه العلوم الشرعية والسلوك، حفظ القرآن برواية ورش، وهو ابن عشرين سنة، أخذت هذه النبذة التعريفية من الموقع الألكتروني الشيخ ماء العينين: cheikh-maelainin.com، وللتفصيل أكثر في حياته يمكن الرجوع إلى الموقع المذكور، إضافة إلى كتاب: خوليو كارو باروخا، دراسات صحراوية، أحمد صابر (مترجمًا)، رحال بوبريك (مقدمًا)، (مدريد: د.ن، 1955)، حيث خصص الجزء الأول منه لـ (الشيخ ماء العينين حياته ونسبه).

أسس الشيخ ماء العينين، طريقة في التصوف أطلق عليها اسم (الطريقة المعينية) التي تستمد جذورها من الطريقة القادرية التي تنتسب إلى الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني، تنطلق هذه الطريقة في التصوف من الوحي الذي شكل المرجعية التي نهل منها، وتمتاز هذه الطريقة من التصوف بطابعها المعتدل الذي تمثل في دعوة مؤسسها الشيخ ماء العينين مريديه إلى لزوم التوسط والاعتدال في الأوراد اليومية والأذكار الصباحية والمسائية على حد ما أشار إليه محمد الظريف في كتابه المعنون بـ (الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية) الذي يمكن العودة إليه للتفصيل أكثر في فهم التصوف المعيني.

(10) مصطلح الفريك مأخوذ من المصطلح العربي الفريق، المقصود به في ثقافة مجتمع الصحراء فريق يتكون من مجموعة الخيام التي تربطهم علاقة انتماء قبلي أو رابطة دموية، يرتحلون بشكل جماعي، ويستقرون كلما وجدوا الماء والكلأ، للتفصيل أكثر في معنى هذا المفهوم يرجى العودة إلى كتاب: رحال بوبريك، زمن القبيلة: السلطة وتدبير العنف بالمجتمع الصحراوي.

على الفقر والهشاشة، وعدم الاندماج الاجتماعي))[11]. وهذا ما انعكس سلبًا في حياة الرحل الذين عاشوا داخل المدينة وضعًا مأسويًا جعلهم يشعرون بالاستلاب الذي تجسد في التصدع النفسي الذي أحسوا به ما بين مطرقة الاندماج داخل المدن التي شيدها المستعمر والتشبث بالقيم البدوية التي كانوا يعيشونها قبل بناء المستعمر هذه المدن.

رابعًا: مرجعيات الكتاب ومداخله

استند مؤلف الكتاب في سياق دراسته هذا الانتقال الذي شهده الرحل داخل المجال الصحراوي المذكور إلى عدد من المرجعيات النظرية، إذ أخذ بإرث السوسيولوجية الحضرية، وحلل العلاقات الاجتماعية انطلاقًا من تصورها للمدينة الذي بني على ((التنوع والاختلاف والاتصال بين أشخاص ينتمون إلى قبائل ومناطق مختلفة))[12]. ليبين أن المدينة الصحراوية التي شيدها المستعمر (العيون، كلميم، طانطان) عرفت نوعًا جديدًا من التضامنات التي تربط الرحل فيما بينهم، مبرزًا أنها تضامنات بنيت على أساس الحي لا صلات القربى التي كانت تربط الرحل زمن البداوة.

إضافة إلى ذلك، انفتح المؤلف على حقول معرفية أخرى، منها علم الجغرافيا، إذ أخذ بدراسات (أوليفييه بليز) حول المدينة، ليبرز خصوصيات المدينة الصحراوية قبل تدخل الاستعمار في المنطقة من دون إغفال الأنثربولوجيا التاريخية التي بني عليها الكتاب في انشغاله بدراسة تطور أشكال التحضر ومظاهرها في المجتمع الصحراوي ما قبل الاستعمار وبعده؛ ويتبين ذلك في التقسيم التاريخي الذي أقامه المؤلف بين مرحلتين تاريخيتين شهدهما المجال السابق ذكره، مرحلة ما قبل الاستعمار التي كان يعيش فيها هذا المجتمع زمن الخيمة، ثم مرحلة الاستعمار التي ظهرت في إطارها المدينة الاستعمارية في الصحراء. وأخذ إلى جانب ذلك بمفهوم (الحقل السوسيولوجي) لبيير بورديو في أثناء دراسته الخيمة بوصفها مجالًا تحكمه مجموعة من القواعد والضوابط.

خامسًا: مناقشة نقدية للكتاب

ناقش المؤلف في هذا الكتاب إشكالية مهمة ترتبط بسيرورة تحضر مجتمع الصحراء، وحاول مقاربتها من زاوية تاريخية وأنثربولوجية. وخلص بموجبها إلى أن هذا التحضر الذي شهده المجتمع الصحراوي ولا سيما مجال (واد نون وتيرس) تحديدًا، كان تحت تأثير حركة الاستعمار. واستنتج أن المدينة في مجتمع الصحراء نتاج لحركة الاستعمار التي بين تأثيرها البالغ في بنية هذا المجتمع الذي شهد تحولًا أدى به إلى الانتقال من عالم البداوة إلى فضاء المدينة، ما انعكس بصورة موازية في نمط عيش الأفراد داخل هذا المجال (الرحل)، الذين تحولوا من العيش على حياة البداوة إلى نمط العيش الحضري الذي فرضته المدينة، وقد بين ذلك من خلال تحليل سلوكيات الرحل وممارساتهم الذين دفع استقرارهم القسري في المدن إلى تبني منظومة من القيم والسلوكيات المغايرة عن نمط العيش البدوي الذي ألفوه. وقد أشار المؤلف في نهاية هذا الكتاب إلى بعض هذه القيم والسلوكيات، ومن

(11) رحال بوبريك، المجتمع الصحراوي، ص 211.

(12) رحال بوبريك، المجتمع الصحراوي، ص 228.

أبرزها حب التملك الفردي الذي تجسد بوضوح في رغبة الرحل في حيازة المنزل في مقابل التخلي عن الخيمة التي شكلت النموذج المرجعي لسكن هذه الفئة زمن الترحال.

بهذا التحديد، يظهر أن الظاهرة الحضرية التي قارب المؤلف تأثيرها في المجال السابق ذكره ظاهرة غريبة عن هذا المجتمع الذي يبقى في تركيبته مجتمعًا بدويًا على الرغم من موجة التحضر التي طالته. غير أن المتأمل في الاستنتاجات التي خلص إليها المؤلف يلامس كما لو كانت المدينة والظاهرة الحضرية ظاهرة قديمة في هذا المجتمع، حيث يسير الكاتب في اتجاه الانتصار لتحضر هذا المجتمع، مستلهمًا هذا المنظور من واقع منطقة (واد نون وتيرس) التي درسها خلال زمن تدخل القوى الاستعمارية فيها، مستندًا في قياسه انتشار نمط العيش الحضري في هذا المجتمع إلى منظور يربط التحضر بالمجال، فقد ((بدأت مظاهر الحياة الحضرية في المدينتين تنمو: قطاع الخدمات، من كهرباء، ومياه صالحة للشرب ومدارس ومستوصفات ووسائل النقل ومرافق أخرى مثل أماكن الترفيه بما فيها علب الليل)) [13].

هذا التصور للتحضر الذي بنى عليه المؤلف تصوره للمدينة يتعارض مع السلوكيات والممارسات البدوية المنتشرة في هذه المدن، ما يوضح حدود الانتقال والتحول اللذين شهدتهما هذه المنطقة من الصحراء. فبناء على ما سبق، يمكن عد الانتقال والتحول اللذين شهدتهما هذه المنطقة من الصحراء انتقالًا جغرافيًا مجاليًا من حالة الترحال إلى حالة الاستقرار الذي احتضنته المدن المشيدة من لدن المستعمر. الملاحظ في هذا الانتقال الذي عني به المؤلف في الكتاب أنه لم يرصد مقومات الثقافة الحضرية داخل هذه الأخيرة، وهذا يرجع بالأساس إلى خصوصيات المدينة الصحراوية التي استطاعت أن تقاوم التمدن والتحضر الذي طالها بنمط العيش البدوي الذي انتشر فيها وفي ممارسات أفرادها، حيث ((تجدر الإشارة إلى أن المراكز الحضرية الجديدة التي تبرز وتتنامى، لا تتوفر عادة على أهم مقومات المدن من حيث ؛ البنيات التحتية أو طبيعة العلاقات الاجتماعية والمعايير والمعتقدات القائمة في كثير أحيائها وفي الكثير من سكانها وهذا ما يدفعنا إلى القول بأننا أمام ظاهرة تمدن بدون تحضر)) [14].

هذا ما حاول بعض الدارسين لمجتمع الصحراء أن يكشفوا عنه، دفاعًا عن أطروحة بداوة مجتمع الصحراء التي شكلت الموضوع الشاغل لأبحاثهم ودراساتهم الناقدة لأطروحة المؤلف. وهي دراسات ميدانية استخلص الباحثون نتائجها من خلال الواقع الموضوعي الحي لهذا المجتمع، ومن أبرز هؤلاء الدارسين نشير إلى الباحث (سالم وكاري) الذي حلل في مقال بعنوان (المكان السكني بالصحراء – من الخيمة إلى الدار بين استمرار التصورات والممارسات وتحولها) تطابق تصميم المنزل مع نمط المسكن السائد زمن البداوة (الخيمة)، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن البداوة ما تزال منتشرة بهذا المجتمع: ((يتماهى المسكن الصحراوي اليوم في الكثير من أوجهه مع خيمة الأمس، فالغرف تغيب فيها معظم الأحيان الأسرة المرتفعة على الأرض إذ يفضل أهل الصحراء النوم على الحصير، وبعض الأفرشة الخفيفة، كما يفضلون الأكل على موائد قصيرة، تمكنهم من الجلوس على الحصير. وقد يحتفظ في المطبخ ببعض أدوات البادية مثل "الطبك "، و " كصعت العود" وغيرها)) [15].

(13) رحال بوبريك، المجتمع الصحراوي، ص 186.

(14) محمد جسوس، طروحات حول المسألة الاجتماعية، ط1، (المغرب: دار النشر المغربية، 2003)، ص 77-78.

(15) مجموعة من الباحثين، ديناميات التحول بالأقاليم الجنوبية، (ألمانيا: المركز الديمقراطي العربي، 2019)، ص 34.

ومن هذا المنطلق، يتبين أن البداوة أسلوب حياتي ما يزال مستمرا بهذا المجتمع، والسبب المفسر لذلك يعود إلى كون البداوة شكلت في الماضي -كما في الحاضر- هوية الأفراد المنتمين لهذا المجتمع الذين ظلوا متشبثين بكل ما يرتبط بهذا النمط من العيش. وتشكل الأدوات التي أشار الباحث (سالم وكاري) في دراسته التي تقارن بين نمط السكن السائد في الصحراء زمن الترحال ونمط المسكن اليوم؛ أحد أبرز الآليات التي تمنح الإنسان الصحراوي الشعور بالانتماء لهذا النمط من العيش. ويتقوى هذا الانتماء ظاهريًا في الاستعمالات التي يحددها الإنسان الصحراوي لهذه الأدوات، وهي استعمالات تبين العلاقة الوطيدة التي تربط الإنسان بالبداوة. وذلك ما سنعمل على توضيحه من خلال التعريف بهذه الأدوات ووظائفها في الصور أدناه:

صور تعريفية ببعض أدوات الطبخ بالمجتمع الصحراوي:

1. الطبك

تشير الصورة أعلاه إلى أحد الأدوات التقليدية التي ما يزال المجتمع الصحراوي يعتمد عليها (الطبك)، وهو من الأواني الضرورية في الخيمة الصحراوية، وتتعدد استعمالاته في هذا المجتمع؛ فهو من جهة أداة توضع بها بعض الأطعمة من مثل التمور والخبز، ويستخدم لتنقية الشعير والقمح، ولتقديم بعض الوجبات الغذائية، إذ يتم الاعتماد إليه كمائدة تتناسب مع طريقة جلوس أفراد هذا المجتمع الذين يجلسون بشكل منبسط على (الحصاري). ويصنع (الطبك) من مواد محلية كسعف النخيل، وبعض الخيوط، ويتخذ شكلًا دائريًا. يعبر (الطبك) عن خصوصيات المجتمع الصحراوي حيث ما يزال حاضرًا اليوم إلى جانب الأواني العصرية.

2. كصعة العود

توضح الصورة، إحدى الأواني التي يستند إليها الإنسان الصحراوي في عملية الطبخ (كصعة العود)؛ وهي آنية مسطحة ودائرية الشكل مصنوعة من الخشب، لذلك سميت بهذا الاسم، وتتعدد استعمالاتها في هذا المجتمع حيث يُستَنَد إليها في تقديم طعام (الكسكس)، وهي أداة يوضع فيها الخبز قبل عملية طهيه (العجين)، ويحتفظ به داخلها لمدة وجيزة من الزمن.

ويضاف إلى دراسة (سالم وكاري) دراسات بحثية أخرى مهتمة بثقافة هذا المجتمع أشارت بدورها إلى انتشار البداوة فيه. ومن ضمن أبرز هذه الدراسات نشير إلى العمل الذي أنجزه (بكار المرتجي) بعنوان (مظاهر البداوة في المجال الحضري بمدن جنوب المغرب: دراسة لحالة مدينة طانطان). وقد حاول أن يحلل في دراسته اكتساح نمط العيش البدوي مدينة (طانطان) التي يغلب على أفرادها طابع حياة البداوة، وقد توقف كاتبها للإشارة إلى مظاهر هذا النمط من العيش، مركزًا على تربية الماشية، وارتياد الخيمة في عدد من المناسبات (حفلات الزفاف نموذجا)، إضافة إلى اعتمادها داخل الأسواق لحماية باعة الخضر من أشعة الشمس.

إن تحليل ما جاءت به هذه الدراسات يبين استمرار البداوة في هذا المجتمع، ويكشف من جهة أخرى حدود تأثير الظاهرة الحضرية التي انبثقت من رحم الاستعمار في الإنسان والمجال. وذلك ما استطاعت هذه الدراسات التي استندنا إليها لنقد أطروحة المؤلف أن تبينه، فقدمت معطيات واقعية وموضوعية قربتنا من فهم ما في هذه المدن الصحراوية من بداوة، والتي لم يبين الكاتب في كتابه تجلياتها، لأن مقاربته احتكمت لخلفية تاريخية بحتة.

سادسًا: خاتمة

بين الكتاب موضوع المراجعة السياق التاريخي الذي انتقل فيه (مجال واد نون وتيرس) من عالم البداوة إلى فضاء المدينة. وقد احتكم مؤلف الكتاب لدراسة هذا الانتقال الذي أفضى إلى تحولات في المجال المذكور إلى مقاربة تاريخية جعلتنا نفهم أن التحول الذي شهده المجال ليس وليد الصدفة. ولكنه تحول كان تحت تأثير عدد من القوى الفاعلة (الدولة، المستعمر الأجنبي) اللذين كان لهما الأثر البالغ في تغيير معالم هذا المجتمع الذي شهد

انبثاق الظاهرة الحضرية بصورة متأخرة.

تتجلى القيمة المضافة لهذا المؤلف في إغنائه الدراسات التي انشغلت بإشكالية الثابت والمتحول في مجتمعات الصحراء. وقدم في قراءته التاريخية والأنثربولوجية لهذه المجتمعات إضاءات غنية عن التحولات التي مست (مجال واد نون وتيرس)، ممهدًا الطريق للباحثين المهتمين بمثل هذه الدراسات لإثارة قضايا أخرى حول هذه المجتمعات من مقاربات ومنظورات مختلفة تساعد في فهم ما يعتمل داخل هذا المجتمعات.

المصادروالمراجع

بالعربية

1. الظريف. محمد، الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية 1800-1956، ط1، (د.م: جامعة الحسن الثاني/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002).
2. بوبريك. رحال، المجتمع الصحراوي من عالم الخيمة إلى فضاء المدينة، ط1، (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2021).
3. ـــ، دراسات صحراوية: السلطة والدين والمجتمع، ط1، (الرباط: دار أبي رقراق، 2008).
4. جسوس. محمد، طروحات حول المسألة الاجتماعية، ط1، (منشورات الأحداث المغربية: دار النشر المغربية، 2003).
5. كارو باروخا. خوليو، دراسات صحراوية، ط8، (د.م: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، 2015).
6. مجموعة من الباحثين، ديناميات التحول بالأقاليم الجنوبية، (ألمانيا: المركز الديمقراطي العربي، 2019).

بلغة أجنبية

1. Pleiz. O, Les cités du désert:des villes sahariennes aux sahara –towns presses universtaires (Miratoulouse 2011).

خامسًا: الأكاديميون السوريون في جامعات العالم

سؤال السرد السوري وعلاقته بالحدث السياسي

بين عامي 2000 و2020[1]

ميسون شقير[2]

أولًا: مدخل

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن علاقة الرواية السورية المعاصرة بتغيرات الحدث السياسي والاجتماعي السوري ما بين عامي 2000 و2020، استنادًا إلى التركيز على علاقة السياسة بالأدب، وعلاقتها بالرواية بصورة خاصة، بوصف الرواية بحسب جورج لوكاتش ملحمة العصر القادرة على هضم الأحداث والتغيرات في المجتمع، وتوثيقهما.

يدرس الفصل الأول المرحلة التي سبقت الثورة السورية بين عامي 2000 و2010، مبينًا، من خلال أربع روايات مختارة، كيفية توثيق الرواية السمات الاجتماعية والاقتصادية لتلك المدة، وتوثيق حجم القمع السياسي الذي كانت تعيشه سورية قبل الثورة السورية، لنرى بعدها كيف تحولت الرواية إلى كاتب التاريخ الحقيقي المسهم في التمهيد لحدوث الثورة السورية. ويتناول الفصل الثاني علاقة الرواية بالحدث السياسي بين عامي 2011 و2020. إذ يتناول من خلال أربع روايات مختارة أيضًا إحياء الثورة للأدب الملتزم، وقدرة السرد الروائي على رصد تفاصيل الحدث الثوري، وانعكاساته، ورصد تحول الانتفاضة السلمية إلى ثورة مسلحة، ومن ثم بدء ظهور المجموعات الإسلامية المسلحة بما فيها داعش، وتداعيات الحرب والتشرد على المجتمع السوري، مبينًا قدرة الرواية على التقاط عمق التغيرات التي حدثت في هذه المدة، وتوثيقها، ومبينًا أيضًا ضعف قدرة الرواية على التأثير الفعّال في مجريات التغيرات السريعة الحادة التي تعرض لها المجتمع السوري بعد الثورة.

شهدت بداية القرن الحادي والعشرين موجة الربيع العربي التي تعرف بأنها من أهم التغييرات الاجتماعية والسياسية التي شهدها العالم العربي منذ خمسين عامًا، وشهدنا كيف أسقطت هذه الثورات نظام بن علي في تونس ومبارك في مصر، وكيف وصلت إلى سورية التي تحولت بسبب عنف نظامها المفرط إلى واحدة من أهم مآسي هذا القرن. ويتناول هذا البحث في الجانب السياسي منه إرهاصات الثورة السورية ونتائجها بوصفها حالة مستمرة غير منتهية ما تزال بحاجة إلى كثير من البحوث الأكاديمية لتوثيقها، وتحليلها، وفهم التحولات

(1) عنوان البحث الأصلي:

La relación entre la novela y la situación política en Siria entre los años 2000 y2020

قُدّم هذا البحث لنيل درجة الماجستير في جامعة مدريد المستقلة، كلية الفلسفة والآداب، قسم الدراسات العربية الإسلامية، والدراسات الشرقية، ونوقش في (2020\09\09)، بإشراف Profesor Ignacio Gutiérrez de Terán

(2) باحثة سورية.

السياسية والاجتماعية العميقة التي مرت بها.

وقد اختير تناول الحالة السورية عن طريق الرواية أولًا لأن الأدب عمومًا على علاقة وثيقة بمجتمعه وبالسياسية التي تؤثر بعمق في هذا المجتمع، وثانيًا لأن الرواية هي الجنس الأدبي القادر على ملامسة نبض الشارع عن قرب، وعلى هضم التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعلى تقديم ما يغفل عنه التوثيق التاريخي. فقد وثقت الرواية تلك الأحداث، وقدمتها ضمن رؤى متعددة للحدث نفسه، خاصة موضوع السجن السياسي، الأمر الذي جعل من سورية البلد العربي الأغزر إنتاجًا في أدب السجون، حيث نُشرت أكثر من مئة رواية تحدثت عن السجون السورية، وأكثر من أربعمئة رواية تناولت الثورة السورية والحرب التي ما تزال مستمرة حتى اليوم، وقد تنوعت هذه الأعمال بين روايات ذات قيمة فنية عالية، وروايات تقريرية تفتقد إلى المهارة في توظيف تقنيات السرد.

وفي هذا البحث اختيرت ثماني روايات، تميزت بجرأتها في تناول المحظورات الاجتماعية أو السياسية، الأمر الذي جعل معظمها ممنوعًا في سورية، وتميزت الروايات المختارة بقيمتها الفنية التي جعلتها مقروءة كثيرًا، وحصل بعضها على جوائز عربية، وترجم عدد منها إلى لغات عدة.

تتمثل إشكالية هذه الدراسة في بحث العلاقة بين الرواية السورية والحدث السياسي في البلاد خلال عشرين سنة الأخيرة من تاريخ سورية، وتطرح الدراسة الأسئلة الآتية:

1. ما مدى تأثر الرواية السورية الصادرة بين 2000 و2010 في الوضع السياسي والاجتماعي الذي كانت تعيشه البلاد، وما تأثير هذه الرواية في المجتمع السوري، وفي توثيق حاله، والتمهيد للوصول إلى الثورة؟

2. هل استطاع الفن الروائي السوري مواكبة التطورات السياسية المتسارعة، وكشف ملابسات التحولات الجذرية في المجتمع السوري بين عامي 2010 و2020؟ أم إن الفن الروائي بقي داخل قوقعته ينتظر انجلاء الغبار، ثم هضم الأحداث ومن ثم كتابتها؟

3. ما العلاقة بين الرواية والسلطة؟ كيف أثرت هذه العلاقة في الرواية السورية الصادرة في السنوات العشرين الأخيرات؟

4. هل تطرقت الرواية إلى قضية نشوء الجماعات الإسلامية وإلى دور النظام واستغلال البيئة الإسلامية من قبل أيديولوجيات خارجية في تشكيل هذه المجموعات؟ وهل تطرقت الرواية إلى مسألة استخدام النظام هذه المجموعات المسلحة بوصفها وسيلة لتفتيت المجتمع ولتشويه صورة الثورة أمام العالم من جهة، وكسب ولاء الأقليات من جهة أخرى؟.

من أجل تحليل العلاقة بين الرواية السورية والوضع السياسي في سورية، اعتمد البحث على النظريات النقدية التي سلطت الضوء على العلاقة بين الأدب والسياسة، فشكلت علاقة النص الأدبي بالسياسة محورًا للتساؤلات النقدية، ورأى بعض الباحثين أن الأدب بمنزلة أيديولوجيا قد تكون بديلة من الأيديولوجيا الدينية،

فعلى سبيل المثال، رأى تيري إيغلتون[3] أن الأدب شكل من أشكال الأيديولوجيا، وتربطه أمتن العلاقات بالسلطة والمجتمع، مشيرًا إلى أن الأدب مناسب تمامًا لإنجاز المهمة الأيديولوجية التي أقلع عنها الدين في العصر الحديث، حيث أصبح الأدب أيديولوجيا بديلة، وقوة مؤثرة.

يمكن القول إن هذا البحث يدور في فلك الرواية السياسية بوصفها قائمة على أطروحة الدعوة إلى أفكار اجتماعية وسياسية معينة، الأمر الذي يفسح المجال أكثر لحوارات تتخذ شكل مجادلات اجتماعية وسياسية عميقة، تتناول نضال الأفراد ضد الظلم الطبقي وظلم الاستعمار والظلم الاجتماعي. رأى بعض الباحثين أن نقد الأنظمة الشمولية القمعية من أهم مزيات الرواية السياسية العربية المعاصرة، أما ظاهرة السجن السياسي في الرواية العربية المعاصرة، فقد انتشرت بعد صعود الأنظمة الشمولية في عقب كتابات نكسة 67، بحسب رأي الروائي عبد الرحمن منيف في كتاب (الكاتب والمتلقي).

يعتمد البحث الحالي المنهج التاريخي والتحليلي، فالمنهج التاريخي ضروري لمعالجة الأحداث، وبشكل خاص إرهاصات الثورة وأسبابها، أما المنهج التحليلي، فهو مبني على تفكيك مضامين الرواية وتحليلها بهدف كشف تمثيلاتها للأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية.

يجري البحث دراسة مقارنة من خلال تحليل نصوص الروايات المدروسة التي تمثل إنتاجًا أدبيًا إبداعيًا، إضافة إلى بعض المقابلات مع مؤلفي الروايات، ومع باحثين آخرين لكشف العلاقة بين الرواية السورية والأحداث السياسية التي مرت بها البلاد، والحصول على استنتاجات منطقية.

ثانيًا: دراسة علاقة الرواية بالحدث السياسي ما بين عامي 2000 و2010 وتمهيدها للثورة

تسعى السلطة، خاصة في ما يتعلّق بأحداث تُدينها أخلاقيّا، لِطمس بعض الأحداث سعيًا لتثبيت ما تريد تأكيده بأنه حقائق، في ما تقدم الرواية، بحسب الباحثة كيت ميشيل[4]، اكتشافًا جديدًا ومعنى جديدًا للأحداث الماضية من خلال جمعها بين ما يُرى أنه حقيقة، وما كان يُمكن أن يحدث، وذلك عن طريق تناولها السجلات المفقودة في التاريخ.

في هذا الفصل ندرس كيفية تناول الرواية السورية حقيقية الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي كانت تعيشه البلاد قبل الثورة، مبينين كيف حاولت الرواية أن تكون شاهدًا فنيًا، وذلك من خلال تناول الرواية الصادرة في السنوات العشر التي سبقت الثورة للمحورين الرئيسين الآتيين:

(3) تيري إيغلتون، نظرية الأدب، ثائر ديب)مترجمًا) ط1،)بيروت: دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، 1995)، ص 58.

(4) كيت ميشيل، التاريخ والذاكرة الثقافية في الرواية الفيكتورية الجديدة، أمينة أبو رحمة)مترجمة)، ط1،)دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر، 2015)، ص 223.

1. الوضع السياسي وأدب السجون في سورية بين عامي 2000 و2010

إن التعتيم الإعلامي المطلق الذي مارسه النظام السوري طيلة مدة حكمه جعل من رواية أدب السجون تزدهر في البلاد، ما جعل الشاعر والمعتقل السوري فرج بيرقدار يقول إن المستقبل سيرشح الكتاب السوريين صانعين لأكبر تراث عالمي في أدب السجون.

وربما تكون رواية (القوقعة) لمصطفى خليفة من أكثر الروايات التي تلقفها السوريون وتناقلوها سرًا، ورقيًا أو ألكترونيًا. خاصة بين عامي 2009 و2012، وذلك لأنه على الرغم من أن الكاتب كان سجينَ رأي لمدة ثلاثة عشر عامًا في سجن تدمر بتهمة الانتماء لحزب العمل الشيوعي المحظور، إلا أنه قد كتب عن حجم الظلم الذي عاناه الآلاف من المدنيين السوريين بتهمة الانتماء للإخوان المسلمين، وقد جعل الراوي وبطل الرواية مسيحيًا يُعتقل بتهمة الانتماء لحزب الإخوان المسلمين، الأمر الذي زاد من ثقة القارئ بصدقية الرواية.

لقد دلت القوقعة على أن التعذيب الذي يمارس في سجون الرأي السورية يمثل سياسة ممنهجة، ففقدان الشعور الإنساني الذي يحمل في طيّاته الخضوع والذلّ، كان بحسب تعبير الفيلسوفة حنا أردنت[5] هدفًا أساسيًا لسياسات التعذيب التي تمارسها الأنظمة الشمولية.

ووثقت رواية (القوقعة) مجزرة سجن تدمر التي لم يعترف بها النظام السوري حتى اليوم، موضحة البنية الهرميّة العسكريّة التي تسيطر على تراتبية أجهزة النظام الأسدي، ومؤكدة أن نظام الأسد أسس لدولة الرعب والخوف، وأباد جيلًا كاملًا، بحجة معاقبة الجناح العسكري من الإخوان المسلمين.

أما رواية (مديح الكراهية) لخالد خليفة، فقد تناولت تفاصيل الصراع بين جماعة الإخوان المسلمين ونظام الأسد في مدينتي حلب وحماة، فقد أشارت إلى توغل عناصر سرايا الدفاع في إذلال الناس وقمعهم، وعرضت الأسباب التي قادت إلى تطور الفكر الإرهابي الديني المتمثل بالجناح العسكري للجماعة، مركزة على رد النظام بمجزرة حماة التي تعد أعنف المجازر التي عرفها تاريخ المنطقة العربية بعد حروب الاستقلال. أراد المؤلف من خلال هذه الرواية تمثيل العمليات التي تؤدي إلى تعصب الأفراد، وبطل هذه الرواية الكورالية الشباب السوري في الثمانينيات، مع عدم وجود احتمال واضح أمامه للاختيار بين الإسلاميين المتطرفين والاستبداد العسكري، إلى جانب أقلية شيوعية تمجّد تشي غيفارا أو لينين.

أما رواية (حراس الهواء) لروزا ياسين حسن، فقد سلطت الضوء على اختلاف أيديولوجيات المعارضين وطوائفهم، وحجم الاعتقالات السياسية التي قام بها نظام الأسد، مشيرة إلى وطأة الرعب الذي يعيشه المجتمع العربي كله في مرحلة ما قبل الربيع العربي من خلال تزايد الاعتقالات السياسية، وتزايد عدد طالبي الهجرة من أصحاب الرأي السياسي.

(5) حنة أرندت، أسس التوتاليتارية، أنطوان أبو زيد (مترجمًا)، ج2، ط1، (بيروت: دار الساقي،1991).

2. تناول الرواية الوضع الاجتماعي والاقتصادي بين عامي 2000 و2010

انشغلت الرواية الصادرة قبل الثورة السورية بالتركيز على مشكلات المجتمع في بنيته الداخلية، وتشابك علاقاته، من خلال تقديم الواقع في محاولة لتفسيره، ومن ثم تغييره.

ومن الروايات التي سلطت الضوء على حجم الفساد الاقتصادي والأخلاقي لضباط سلطة الأسد الطائفيين رواية (التجذيف في الوحل) لجميل سلوم شقير، حيث حاولت هذه الرواية تناول الحدث من رؤى متعددة، مركزة على الفساد الأخلاقي الذي بدأ يغزو المجتمع السوري بعد تسلم نظام الأسد السلطة، وعلى الفساد الاقتصادي الممنهج الذي نشره نظام الأسد بقصد تحويل كل مواطن سوري إلى فاسد صغير، يسكت عن جرائم السارقين الكبار، وأنهى شقير روايته بانتحار (سمير) الشاب المثقف في مياه نهر الراين، الأمر الذي يمثل وصول الشباب السوري إلى اليأس الكامل.

تتميز رواية (حراس الهواء) برؤية الوضع السوري ما قبل الثورة من زاوية مغايرة فقد قدمت الوضع الذي تعيشه زوجات المعتقلين السياسيين في سجون الأسد، حين تتلاشى أنوثتهن من الوحدة في انتظار ذلك الرجل الذي يخرج مأزومًا، ويبحث عن خلاصه الفردي بعدما فقد الأمل بكلِّ شيء. وتميزت رواية (القوقعة) بالإضاءة على التدهور الأخلاقيّ الذي سبّبه النظام الاستبدادي في المجتمع السوريّ، وذلك من خلال شخصيات السجانين اللاتي تحولت إلى شخصيات خالية من أي ملامح إنسانية.

ثالثًا: علاقة الرواية السورية بالحدث السياسي والاجتماعي بين عامي 2011 و2020

بعد اندلاع الثورة السوريّة في العام 2011 أخذت الرواية بعض الملامح الجديدة التي فرضتها التغيّرات السياسيّة والاجتماعية الحادّة التي أطلق عليها الروائي نبيل سليمان وصف الزلزال السوري العنيف الذي شكل صدعا عميقا في أرض المجتمع السوري.

ولأن فن الرواية من أقدر الأجناس الأدبيّة على التعامل مع الواقع بكل تناقضاته وتشابكاته، فقد تلقفت الرواية هذه التغيرات المجتمعية العنيفة، حيث يمكن أن نعد حدث الثورة منعطفًا تاريخيًا في مسار الأدب السوري، كما هو الحال في تاريخ البلد برمته.

تناول البحث في هذا الفصل أهم محاور علاقة الرواية السورية في مرحلة ما بعد الثورة بالوضع السياسي من خلال أربع مصادر هي (تقاطع نيران) لسمر يزبك، و(الخائفون) لديمة ونوس، و(ليل العالم) لنبيل سليمان، و(باص أخضر يغادر حلب) لجان دوست.

1. توثيق الرواية بدايات الحدث الثوري

تميزت الروايات الصادرة طيلة السنوات العشر التي تلت الثورة معظمها بتوثيق بدايات الثورة، وذلك في محاولة منها لتأكيد شرعية الثورة وسلميتها، وجاءت رواية (تقاطع نيران) رواية توثيقية بامتياز من خلال طرح تجربة الكاتبة الشخصية. وثقت هذه الرواية أول تظاهرة خرجت في أمام القصر العدلي، وقتل عناصر الأمن والجيش المتظاهرين السلميين، ومجزرة الصنمين في درعا، ومشاركة طلاب جامعة دمشق خاصة كلية الآداب في الثورة. ولم تكن سمر يزبك وحدها الكاتبة التي سكنها هاجس التوثيق في المرحلة الأولى من الثورة، فقد وثقت رواية (ليل العالم) المرحلة الأولى من الثورة في مدينة الرقة، وأشارت رواية (الخائفون) أيضا إلى هذه المرحلة.

2. استعادة ماضي النظام السوري

تميزت الروايات الصادرة بعد الثورة باستعادة ماضي النظام السوري والبناء عليه للوصول إلى فكرة حتمية الثورة، ففي رواية (الخائفون) تشير الكاتبة إلى حالة الذعر والرعب التي عاشها المجتمع السوري بسبب سياسات الأسد الأب في الثمانينيات، مؤكدة تأثير مجزرة حماة في الحاضر السوري. ونلمح ذلك أيضا في رواية (باص أخضر يغادر حلب) حيث يتذكر بطل الرواية تدخل الأسد في الساحة اللبنانية، ودفع ابنه ليلقى مصرعه في حرب المخيمات في العاصمة اللبنانية.

3. تناول الرواية الانقسامات الطائفيّة والاصطفافات الفكريّة التي أحدثتها الثورة في المجتمع السوري

حاولت الرواية أن تقدم صورة شاملة حقيقية عن تأثير انفجار الحدث الثوري في المجتمع السوري، وتحليل أسباب هذا التأثير، والنتائج التي أدى إليها.

وقد كانت سمر يزبك أولى من أشارت إلى هذا المحور أيضًا في (تقاطع نيران) حين اتهمها كثيرون من أبناء بيئتها بالخيانة، ومن جهة أخرى تطرقت إلى مشاركة الأقليات في الثورة مثل مشاركة المسيحيين في ساحة العباسيين، ومثل قتل المعتقلين المسيحيين تحت التعذيب، وضرب المتظاهرين في مدينة السويداء ذات الغالبية الدرزية. وأكدت رواية (الخائفون) الانقسام الحاد في المجتمع السوري، بعد الثورة.

4. تناول الرواية حضور المجموعات السلفيّة والجهاديّة في سورية وحضور داعش وتحليلها أسباب هذا الحضور وتبعاته

ظهرت في السنوات الخمس الأخيرات روايات تتناول وجود الفصائل الإسلامية المسلحة المتطرفة وتنظيم داعش الذين أثروا تأثيرًا كارثيًا في المجتمع السوري، وأحدثوا فيه شروخًا عميقة. تبدأ رواية (ليل العالم) بمشاهد صادمة عن تنفيذ داعش حكم الموت خنقًا على (هفاف) الفتاة الجامعية العلمانية، والناشطة والمتحمسة الجريئة، وتروي الرواية كيف تحولت الشخصيات الهامشية والخارجة من السجون بتهم جنائية إلى قضاة في

الدولة الإسلامية. أما رواية (باص أخضر يغادر حلب)، فقد تناولت الأذى الذي تسببت به الفصائل المسلحة لسكان مدينة حلب، وخيبة أمل الناس ممن ادعوا تخليصهم من ظلم النظام.

5. تناول الرواية تعقيدات الحرب ومأساة النزوح واللجوء

أشارت رواية (ليل العالم) إلى الكارثة الإنسانية التي عاشتها مدينة الرقة، مؤكدة أن ما حصل في الرقة تحديدًا يمثل مشهدًا بانوراميًا عن مجريات الثورة السورية وتعقيداتها.

وكانت رواية (باص أخضر يغادر حلب) من أولى الروايات التي أكدت حجم الموت والخراب الذي عاشته مدينة حلب، ودور الأطراف كلها في هذه الكارثة، مشيرة إلى أن الجميع في هذه الحرب مدانون، على الرغم من أن المسبب الأساس في هذه الكارثة هو العنف المفرط الذي استخدمه النظام السوري ضد المدنيين.

رابعًا: الاستنتاجات

من خلال هذا التقديم السريع لبعض المنجز الروائي السوري في عشرين سنة الماضية يمكننا أن نستخلص بعض الاستنتاجات:

1. حاولت الرواية السورية الصادرة بين عامي 2000 و2010 رصد تدهور المجتمع السوري من خلال توثيقها فساد السلطة الحاكمة، وحال القمع والرعب التي تعيشها البلاد، مؤكدة ضرورة الثورة في كامل الخطاب الروائي الذي أسهم في التمهيد لحالة الثورة.

2. على الرغم من الدور الكبير للروايات الصادرة بعد الثورة في تسجيل الواقع من خلال نظرة حاولت أن تكون شموليّة، ومن خلال توثيق بدايات الثورة السلميّة، إلا أنها في الحقيقية لم تستطع أن تمتلك دورًا حقيقيًا في مجريات الأحداث السياسيّة القائمة على الأرض.

3. بقيت الأحداث المفصليّة في التاريخ السوري مثل مجزرة حماة ومجزرة سجن تدمر حاضرة في الروايات معظمها، قبل الثورة وبعدها، حيث كان الخوف هو المحرك الأساس للشخصيات الروائيّة المأزومة.

4. أشارت الرواية إلى تطرّف فكر حركة الإخوان المسلمين في سورية في الثمانينيات، محلّلة أسباب الوصول إلى هذا التطرف ونتائجه على المجتمع السوري. ورصدت تشكّل المجموعات الإسلاميّة بعد الثورة، والدور الذي مارسته الدول الإقليميّة والنظام السوري في دعم ميليشيات هذه المجموعات، والتغيّر الكارثي الذي أنتجه وجود داعش في المجتمع السوري.

5. تناولت الروايات السوريّة التغيرات الاجتماعيّة التي فرضتها حالة الثورة، مبينة الانقسام الحاد في كلّ طبقات المجتمع السوري.

6. ظهر في سورية بسبب الثورة والحرب والدمار والتشرد والكارثة الإنسانية والاجتماعية نص روائي هجين، يتضمن مزيجًا من التوثيق والتخييل، وسيطرت الشهادات عن الدمار والخوف والقتل على الروايات معظمها. وطغت السوداويّة المفرطة على الروايات الصادرة بعد عام 2012 معظمها.

7. تشترك الروايات السوريّة معظمها التي تتناول الثورة والحرب بالنهايات المفتوحة، إذ تقدم جميعها مشاهد مبتورة لم تكتمل، وربما تعد هذه النقطة هي الأكثر صدقيّة، لأنّ تفاصيل المشهد السوري ما تزال منقوصة وماضية باتجاه نهاية مفتوحة.

وختامًا، عند البحث عن بعض الروايات وبعض الحوارات مع كتابها، تبين أن الروايات الصادرة في عشرين سنة الماضية معظمها ممنوع من النشر والتداول من قِبل السلطة السوريّة، الأمر الذي يؤكد استمرار العلاقة التضاديّة بين الرواية والسلطة، أمر ما زال يخيف كثيرين من الروائيين الذين يعيشون داخل سورية، ويجعلهم يختارون الصمت، وهذا بدوره يفسر أنّ الروايات الأكثر انتشارًا لكتّاب يعيشون حاليًا خارج سورية، ويجعل الرواية القادمة رواية اللجوء السوري بامتياز.

ويجب الاعتراف بأن محور هذه الدراسة ما يزال بحاجة إلى كثير من الدراسات والبحوث، لأنّ دراسة بهذا الحجم لن تستطيع إعطاءه حقه، ولأنّ الحدث ما زال طازجًا ويحتاج إلى كثير من الوقت كي يستطيع الباحث/ة هضمه، ومن ثمّ تحليله تحليلًا أعمق وأشمل وأكثر حياديّة.

المصادر والمراجع

1. إيغلتون. تيري، نظرية الأدب، ثائر ديب (مترجمًا) ط1، (بيروت: دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، 1995).
2. أردنت. حنة، أسس التوتاليتارية، أنطوان أبو زيد (مترجمًا) ط1،(بيروت: دار الساقي، 1991).
3. خليفة. خالد، مديح الكراهية، (بيروت: دار أميسا للنشر والتوزيع، 2006).
4. خليفة. خالد، مديح الكراهية، كورا ثيبيثا (مترجمة)، (بوينوس أيرس: دار لومين، 2013).
5. خليفة. مصطفى، القوقعة،(بيروت: دار الآداب، 2008).
6. خليفة. مصطفى، القوقعة، إغناثيو دي تيران ونيومي راميريث دياث (مترجمان)، ط1، (مدريد: دار الشرق والمتوسط للنشر، 2014).
7. دوست. جان، باص أخضر يغادر حلب،(إيطاليا: منشورات المتوسط، 2019).
8. دوست. جان، باص أخضر يغادر حلب، نومي راموث دياث (مترجمة)، (مدريد: دار الشرق والمتوسط، 2019).
9. سليمان. نبيل، ليل العالم، (دبي: دار السادة، 2016).
10. شقير. جميل سلوم، التجذيف في الوحل، (دمشق: دار علاء الدين، 2004).
11. ميشيل. كيت، التاريخ والذاكرة الثقافية في الرواية الفيكتورية الجديدة، أمينة أبو رحمة (مترجمة)، (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر، 2015).
12. ونوس. ديما، الخائفون، (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع،2017).
13. ونوس. ديما، الخائفون، محمد مرابط (مترجما)، (مدريد: دار سارتا، 2019).
14. ياسين. روزا، حراس الهواء، (بيروت: دار الريس، 2009).
15. يزبك. سمر، تقاطع نيران، (بيروت: دار الآداب، 2012).

– هذا العدد –

السوريون والتحدّيات المعيشية

بعد 11 عامًا من الحرب والتمزق

عمار السمر

على حافة المجاعة: الغذاء زمن الحصار في سورية وتجربة التأقلم؛ حالة حصار الغوطة الشرقية 2013-2018

بسام سفر

أدوات النظام المتنوعة في حروبه على السوريين في مناطق سيطرته

آرام الحكيم

شح الطاقة وتأثير ذلك في الأحوال المعيشية في سورية بعد ربيع 2011

شوكت غرزالدين

سياسات التقنين وانعكاساتها على السوريين

خالد العكيدي

أثر غياب سيادة القانون في انتشار الفقر في سورية

عبد الناصر الجاسم

الدور الاجتماعي للتحويلات المالية من اللاجئين السوريين إلى النازحين في شمالي غرب سورية

وجيه حداد

مزدوجة تدهور الواقع الصحي مع انهيار المستوى المعيشي في سورية

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
Harmoon Center For Contemporary Studies
Araştırma Merkezi

الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية
Syrian Society for Social Sciences

قرمون
المجلة السورية للعلوم الإنسانية

ISSN 25481339